تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

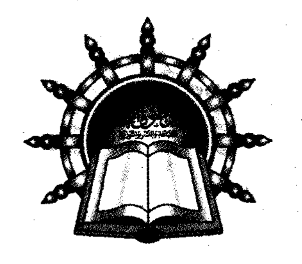
مكة المكرمة

المجلد الثامن

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن



شعرٌ

جَنَىٰ اللّٰهُ خَيْراً تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ السَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ

وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللّٰهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

نَسْأَلُكَ يَا مُسَبِّبَ الأَسْبَابِ   تَيْسِيْرَ ٱلأُمُوْرِ يَا رَبَّ ٱلأَرْبَابِ

فِيْ تَفْسِيْرِنَا أَفْضَلَ ٱلْكِتَابِ   كِتَابَكَ يَا فَاتِحَ ٱلأَبْوَابِ

آخرُ

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيْحَا   لأَجْلِ كَوْنِ فَهْمِهِ قَبِيْحَا

أَيُّهَا الْمُبْتَلَىٰ بِكَشْفِ ٱلْعَوْرَاتِ   فَإِنَّ لَكَ عَوْرَةٌ أَسْوَأُ ٱلْعَوْرَاتِ

لاَ تَنْظُرْ كِتَابَتِيْ بِعَيْنِ ٱلتَّنْقِيْصِ   فَإِنَّهَا غَالِيَةٌ عَنِ ٱلتَّرْخِيْصِ

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ صَافِيْ الْعَسَلْ   وَاخْتَارَ بِنَفْسِهِ شَوْيَ ٱلْبَصَلْ

لأَجْلِ مَرَضِهِ ٱلْعُضَالِ   قَدْ أَعْيَا ٱلأَطِبَّةَ ٱلْفِضَالِ

مِنْ حَسَدٍ وَكِبْرٍ وَعَجْبِ   وَغِلٍّ وحِقْدٍ أَيَّ ذَنْبِ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على الرسول الكريم المرتضى، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه نجوم الهدى، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الفصل والقضا.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء السادس من القرآن.. قصدت أن أشرع في تفسير الجزء السابع منه مستعيناً بعون الملك الجواد، مستمداً منه التوفيق والسداد لأقوم الطريق والرشاد فقلت:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما حاج أهل الكتاب، وذكر من مخازيهم أنهم اتخذوا الدين الإسلامي هزواً ولعباً، وأن اليهود منهم قالوا: يد الله مغلولة، وأنهم قتلوا رسلهم تارة، وكذبوهم أخرى، وأن النصارى منهم اعتقدوا عقائد زائفة، فمنهم من قال: المسيح ابن الله، ومنهم من قال: إن الله ثالث ثلاثة، وقد عابهم على ذلك، وكرَّ عليهم بالحجة إثر الحجة لتنفيذ ما كانوا يعتقدون.. ذكر هنا أحوالهم في عداوتهم للمؤمنين، ومحبتهم لهم، ومقدار تلك المحبة والعداوة، وبين حال المشركين مع المؤمنين بالتبع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] مدح النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، وذكر من أسباب ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً.. ظن المؤمنون أن في هذا ترغيباً في الرهبانية، وظن الميالون للتقشف والزهد أنها منزلة تقربهم إلى الله، ولن تتحقق إلا بترك التمتع بالطيبات من الطعام واللباس والنساء، إما دائماً كامتناع من الزواج، وإما في أوقات معينة، كأنواع الصيام التي ابتدعوها، فأزال الله هذا الظن، وقطع عرق هذا الوهم بذلك النهي الصريح.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها هي[3]: أنه تعالى لما مدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً، وعادتهم الاحتراز عن طيبات الدنيا ومستلذاتها وأوهم ذلك ترغيب المسلمين في مثل ذلك التقشف والتبتل.. بيّن تعالى أن الإسلام لا رهبانية فيه.

وقال رسول الله ﷺ: «أمّا أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآتي النساء، وأنال الطيب، فمَن رغب عن سنتي فليس مني» وأكل ﷺ الدجاج والفالوذج،

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

وكان يعجبه الحلوى والعسل. انتهى.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن تحريم الطيبات، وعن الإعداء فيها، وتجاوز الحدود؛ لأن قوماً من المسلمين تنسكوا وحرموا على أنفسهم اللحم والنساء وغيرها من الطيبات تقرباً إلى الله تعالى.. سألوا عما يصنعون بأيمانهم التي حلفوا عليها، فأنزل الله تعالى هذه الآية جواباً لهم عما سألوا.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب، وأبي بكر بن عبد الرحمٰن، وعروة بن الزبير قالوا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه كتاباً إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين، ثم أمر جعفر بن أبي طالب، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي ثلاثين رجلاً من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا، فنزلت فيهم الآية.

وأخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وروى الطبراني عن ابن عباس نحوه بأبسط منه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا...﴾ الآية، روى الترمذي وغيره عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني إذا أصبت

---

(١) لباب النقول.

اللحم.. انتشرت للنساء، وأخذتني شهوتي، فحرمت عليَّ اللحم، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير[1]، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، وقدامة تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح[2]، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهمُّوا بالاختصاء، وأجمعوا على القيام بالليل، وصيام النهار فنزلت الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. فلما نزلت.. بعث إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، وإن لأهلكم حقاً، فصلوا وناموا، وصوموا وأفطروا، فليس منا من ترك سنتنا»، فقالوا: اللهم صدقنا واتبعنا ما أنزلت مع الرسول.

وروى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أن عبد الله بن رواحة أضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفه انتظاراً، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي؟ هو حرام علي، فقالت امرأته: هو عليَّ حرام، فقال الضيف: هو عليَّ حرام، فلما رأى ذلك.. وضع يده وقال: كلوا بسم الله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ، فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل

---

(١) المراغي.

(٢) **المسوح** ـ جمع مسح بكسر فسكون ـ: هو كساء من شعر يلبسه الرهبان.

الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ...﴾ الآية، سبب[1] نزولها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾ قال القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فنزلت هذه الآية. رواه العوفي عن ابن عباس.

التفسير وأوجه القراءة

وعزتي وجلالي ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ﴾ وأكثرهم وأبلغهم، والناس هنا: الكفار؛ أي: ولتجدن أشد الكفار ﴿عَدَٰوَةً﴾ وبُغضاً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بك واتبعوك وصدقوا بما جئتهم به ﴿ٱلْيَهُودَ﴾ يعني: يهود بني قريظة والنضير وفدك وخيبر وغيرهم من سائر يهود الحجاز؛ لشدة شكيمتهم ـ إبائهم وأنفتهم من الحق ـ وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وقربهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ما خلا يهوديان بمسلم إلا همَّا بقتله». وقد قال بعضهم: مذهب اليهود: أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من خالفهم في الدين بأي طريق كان، فإن قدروا على القتل فذاك، وإلا فبغصب المال، أو بالسرقة، أو بنوع من الحيلة. وأما النصارى: فليس مذهبهم ذلك، بل الإيذاء حرام في دينهم.

وذكر الله تعالى فيما سيأتي آنفاً أن النصارى ألين عريكة ـ أسهل خلقاً ـ من اليهود، وأقرب إلى المسلمين منهم.

﴿و﴾ لتجدن أيضاً أشدهم عداوة للذين آمنوا ﴿الذين أشركوا﴾؛ أي: المشركين من أهل مكة عبدة الأوثان، الذين اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله، وأشد ما لاقى النبي ﷺ من العداوة والإيذاء كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومن مشركي العرب ولا سيما مكة وما قرب منها، وقد كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التي اقتضت عداوتهم الشديدة

---

(١) زاد المسير.

للمؤمنين، كالكبر والعتو، والبغي وغلبة الحياة المادية، والأثرة والقسوة، وضعف عاطفة الحنان والرحمة، والعصبية الجنسية، والحمية القوية، ولكن مشركي العرب ـ على جاهليتهم ـ كانوا أرق من اليهود قلوباً، وأعظم سخاءً وإيثاراً، وأكثر حرية في الفكر واستقلالاً في الرأي. وقدَّم سبحانه ذكر اليهود؛ للإشارة إلى تفوقهم على العرب فيما وصفوا به فضلاً عما امتازوا به من قتل بعض الأنبياء، وإيذاء بعض آخر، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل، ولم يكن ميلهم مع المسلمين في البلاد المقدسة والشام والأندلس قبل هذه الواقعة العصرية إلا ميلاً وراء مصلحتهم الخاصة؛ إذ هم تفيؤوا ظلال عدلهم، واستراحوا به من اضطهاد النصارى في تلك البلاد. و﴿لَتَجِدَنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لتجدن يا محمد ﴿أَقْرَبَهُم﴾؛ أي: أقرب الناس ﴿مَّوَدَّةً﴾؛ أي: محبة وميلاً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بك وصدقوك ﴿الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾؛ أي: أنصار دين الله، وموادون لأهل الحق، فإن النبي ﷺ رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة؛ بحماية المهاجرين الذين أرسلهم النبي ﷺ في أول الإسلام من مكة إلى الحبشة خوفاً عليهم من مشركيها، الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء ليفتنوهم عن دينهم.

ولما أرسل النبي ﷺ كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب.. كان النصارى منهم أحسنهم رداً، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام، فلم يستطع لجمودهم على التقليد، فاكتفى بالرد الحسن. والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه رداً ـ وإن لم يكن أكثر منه ميلاً إلى الإسلام ـ وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فتحت مصر والشام، وعرف أهلهما ما للإسلام من مزايا.. هرعوا إلى الدخول في الدين أفواجاً، وكان القبط أسرع إليه قبولاً.

والخلاصة: أن النبي ﷺ والمؤمنين به رأوا في عصره من مودة النصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين، وأن من توقف من ملوكهم عن الإسلام، فما كان توقفه إلا ضناً بملكه، وأن النجاشي ـ أصحمة ملك الحبشة ـ قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا، ولكن الإسلام لم ينتشر في الحبشة بعد موته، ولم يهتم المسلمون بإقامة دينهم في تلك البلاد كما فعلوا في مصر والشام.

قلتُ: هذا في الزمان الأول، وإلا فالآن المسلمون في الحبشة ثمانون في المئة، حتى تداول فيها سبعون أميراً من أمراء المسلمين قبل أن يأخذها استئمار الأمحار بمساعدة الأوروبيين لهم على محاربة المسلمين.

وإنما أسند[١] تسميتهم نصارى إليهم دون تسمية اليهود؛ للإشعار بقرب مودتهم، حيث يدَّعون أنهم أنصار الله، وأَوِدَّاءُ أهل الحق، وإن لم يظهروا اعتقاد حقية الإسلام، فتسميتهم نصارى ليست حقيقة، بخلاف تسمية اليهود يهوداً فإنها حقيقة، سواء سموا بذلك لكونهم أولاد ابن يعقوب: يهودا، أو لكونهم تابوا عن عبادة العجل، أو لترجيعهم في دراستهم إن قلنا: من تهود بمعنى: رجع ومطّط في الدراسة، ولكن ما رأينا في كتب اللغة: تهود بمعنى: تحرك في الدراسة، كما قاله أبو العلاء المعري.

فإن قلت: كفر[٢] النصارى أشد من كفر اليهود؛ لأن النصارى ينازعون في الألوهية، فيدعون لله ولداً، واليهود إنما ينازعون في النبوة، فينكرون نبوة بعض الأنبياء، فلِمَ ذم اليهود ومدح النصارى؟

قلتُ: هذا مدح في مقابلة ذم، وليس مدحاً على الإطلاق، وأيضاً الكلام في عداوة المسلمين وقرب مودتهم، لا في شدة الكفر وضعفه، وقد قال بعضهم: مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر والأذى إلى من خالفهم في الدين، ومذهب النصارى أن الأذى حرام، فحصل الفرق بين اليهود والنصارى كما مر آنفاً.

وقيل: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد، وطلب الرياسة، ومن كان كذلك.. كان شديد العداوة لغيره، وأما النصارى: فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها، وترك طلب الرياسة، ومن كان كذلك.. فإنه لا يحسد أحداً، ولا يعاديه، بل يكون ألين عريكة ـ أخلاقا ـ في طلب الحق، فلهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾؛ أي: بسبب أن منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾؛ أي: علماء ﴿وَرُهْبَانًا﴾؛ أي: عباداً، أصحاب صوامع ﴿وَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) المراح.

(٢) الفتوحات.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: لا يتكبرون عن قَبول الحق إذا فهموه، كما استكبر اليهود والمشركون من أهل مكة؛ يعني: لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق.

والمعنى: أن السبب[1] في هذه المودة أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم التعليم الديني، ويهذبون أخلاقهم، ويربون فيهم الآداب والفضائل، ورهباناً يعودونهم الزهد والتقشف والإعراض عن زخرف الدنيا ونعيمها، ويكبرون في نفوسهم الخوف من الله تعالى، والانقطاع لعبادته، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر أنه الحق؛ إذ من فضائل دينهم التواضع والتذلل والخضوع لكل حاكم، بل إنهم أمروا بمحبة الأعداء، وإدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، فكل أولئك يؤثّر في جمهور الأمة وسوادها الأعظم، وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعاً واختياراً، بخلاف اليهود فإنهم إذا أظهروا الرضا اضطراراً.. أسروا الكيد، وأضمروا المكر؛ لأن الشريعة اليهودية تولد في نفوسهم العصبية الجنسية، والحمية القومية؛ لأنها خاصة بشعب إسرائيل، وأحكامها ونصوصها مبنية على ذلك.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾؛ أي: وإذا سمع أولئك الذين قالوا: إنا نصارى ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وهو القرآن ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ﴾؛ أي: تبصر أيها المخاطب الحاضر عندهم أعين أولئك السامعين ﴿تَفِيضُ﴾ وتسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ وهو ماء العين؛ أي: تمتلىء من الدمع حتى يسيل ويتدفق من جوانبها لكثرته.

وقرىء: ﴿تُرَى أعينهم﴾ بالبناء للمجهول. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لأجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن، ولم يمنعهم من قبوله ما يمنع غيرهم من عتو واستكبار، أو مما عرفوا في كتابهم من نعت محمد ﷺ. ثم ذكر سبحانه ما يكون منهم من القول إثر بيان ما كان من حالهم فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ أي: ترى أعينهم تفيض من الدمع حالة كونهم يقولون: ربنا ويا مالك

---

(١) المراغي.

أمرنا آمنا، وصدقنا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد ﷺ، وبمن أنزلته عليه، وشهدنا أنه حق ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: من الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة؛ أي: فاكتبنا مع الذين يشهدون بحقية نبيك محمد ﷺ وكتابك.

والمعنى[1]: يقولون هذه المقالة قاصدين بها إنشاء الإيمان والتضرع إلى الله تعالى، والخضوع له بأن يتقبله منهم، ويكتبهم مع أمة محمد ﷺ الذين جعلهم الله تعالى شهداء على الناس؛ لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم ومما يتناقلونه عن أسلافهم أن النبي الكريم الذي يكمل به الدين، ويتم به التشريع العام، يكون متبعوه شهداء على الناس، ويكونون حجة على المشركين والمبطلين، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾. ثم زادوا كلامهم توكيداً فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ والاستفهام فيه استفهام استبعاد وإنكار؛ أي: وأيُّ مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو، ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان هذا النبي الكريم بعد أن ظهر لنا أنه هو روح الحق الذي بشر به المسيح ﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: وإننا لنطمع ونرجو بذلك الإيمان أن يدخلنا ربنا ويكتبنا مَعَ القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة، والفضائل والآداب الكاملة، وهم أتباع هذا النبي الكريم الذين استبان لنا أثر صلاحهم، وشاهدناه بأعيننا بعد ما كان منهم من فساد في الأرض، وعتو كبير في جاهليتهم.

والخلاصة: أنه لا مانع لنا من هذا الإيمان بعد أن تظاهرت أسبابه، وتحققت موجباته، فوجب علينا الجري على سننه واتباع نهجه وطريقه.

ثم بين سبحانه ما جازاهم به على ذلك فقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فجزاهم الله وأعطاهم من الثواب ﴿بِمَا قَالُواْ﴾؛ أي: بسبب ما قالوا ونطقت به ألسنتهم من

---

(١) المراغي.

قولهم: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، معبراً عما في قلوبهم من خالص الإيمان وصحيح الاعتقاد.

وقرأ الحسن[1]: ﴿فآتاهم﴾ من الإيتاء بمعنى: الإعطاء، لا من الإثابة، والإثابة أبلغ من الإعطاء؛ لأنه يلزم أن يكون عن عمل، بخلاف الإعطاء فإنه لا يلزم أن يكون عن عمل، ولذلك جاء أخيراً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نبَّه على أن تلك الإثابة هي جزاء، والجزاء لا يكون إلا عن عمل. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وحدائق في دار النعيم ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها الوارفة الظلال، وفي قصورها الرفيعة ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة: الماء واللبن والخمر والعسل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ أي: مقدرين الخلود فيها أبداً، فلا يسلبها منهم أحد، ولاهم يرغبون عنها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور من الجنات الموصوفة ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: جزاء الذين أخلصوا عقائدهم، وأحسنوا أعمالهم، وعلينا أن نقف في وصف نعيم الآخرة على ما جاء به القرآن الكريم وصحت به السنة النبوية، ولا نعدوا ذلك إلى ما وراءه، فإن النعيم الروحاني والرضوان الإلهي لا يمكن أن يعبِّر عنه الكلام، ولا يحيط به الوصف، فنحن في عالم يخالف ذلك العالم في أوصافه وخواصه، مهما أكثرنا من الوصف فلا نصل إلى شيء مما أعده الله لهم هناك: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما أعد لعباده المحسنين من عظيم الثواب جزاء صادق إيمانهم.. ذكر جزاء المسيئين إلى أنفسهم بالكفران والتكذيب؛ جرياً على سنة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا توحيد الله، وأنكروا نبوة محمد ﷺ ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ القرآنية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: أصحاب النار الشديدة الحرارة وسكانها المقيمون فيها، لا يبرحون عنها أبد الآبدين، والجحيم والجاحم ما أشتد حره من النار.

---

(١) البحر المحيط.

فصل في ذكر قصة الهجرة الأولى، وسبب نزول هذه الآية

قال ابن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ وغيره من المفسرين في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم، فآذوهم وعذبوهم، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، ومنع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ ما نزل بأصحابه، ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين، ولم يؤمر بعد بالجهاد.. أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «إن بها ملكاً صالحاً لا يظلم، ولا يظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً»، فخرج إليها أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة سراً، وهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو حذيفة بن عقبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة بنت أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن بيضاء، فخرجوا إلى البحر، وأخذوا سفينة بنصف دينار إلى أرض الحبشة، وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ، وهذه الهجرة الأولى.

ثم خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون، فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك.. وجهوا عمرو بن العاص وجماعة بهدايا إلى النجاشي وبطارقته؛ ليردوهم إليهم، فدخل إليه عمرو وقال له: أيها الملك، إنه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها، وزعم أنه نبي، وإنه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك، فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم، وأن قومهم يسألونك أن تردوهم إليهم، فقال: حتى نسألهم، فأمر بهم، فأحضروا، فلما أتوا

---

(١) الخازن.

باب النجاشي قالوا: يستأذن أولياء الله، فقال: ائذنوا لهم فمرحباً بأولياء الله، فلما دخلوا عليه.. سلَّموا، فقال الرهط من المشركين: أيها الملك، ألا ترى أنا قد صدَقناك، إنهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها، فقال لهم الملك: ما منعكم أن تحيوني بتحيتي؟ فقالوا له: إنا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة، فقال لهم النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ فقال جعفر بن أبي طالب: يقول: هو عبد الله ورسوله، وكلمة الله وروح منه، ألقاها إلى مريم العذراء، ويقول في مريم: إنها العذراء البتول، قال: فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: واللَّهِ ما زاد صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود، فكره المشركون قوله، وتغيرت وجوههم، فقال: هل تعرفون شيئاً مما أنزل على صاحبكم؟ قالوا: نعم، قال: اقرؤوا، فقرأ جعفر سورة مريم، وهنالك قسيسون ورهبان وسائر النصارى، فعرفوا ما قرأ، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فأنزل الله فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ...﴾ إلى آخر الآيتين، فقال النجاشي لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ـ يعني: إنكم آمنون ـ فرجع عمرو وأصحابه خائبين، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وعلا أمره، وقهر أعداءه، وذلك في سنة ست من الهجرة.

وكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضميري أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها، فأرسل النجاشي جارية ـ يقال لها: أبرهة ـ إلى أم حبيبة يخبرها أن رسول الله قد خطبها، فسُرَّت بذلك، وأعطت الجارية أوضاحاً[1] كانت لها، وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها، فأنكحها رسولَ الله ﷺ على صداق مبلغه أربع مئة دينار، وكان الخاطب لرسول الله ﷺ النجاشي، فأرسل إليها بجميع الصداق على يد جاريته أبرهة، فلما جاءَتها بالدنانير.. وهبتها منه خمسين ديناراً، فلم تأخذها، وقالت: إن الملك أمرني أن لا آخذ منك شيئاً، وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدقت بمحمد ﷺ، وآمنت به، وحاجتي إليك أن تقرئيه مني

(١) **أوضاحاً**: حُلِيّاً من الذهب.

السلام، قالت: نعم، فقالت: قد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من دهن وعود، وكان رسول الله ﷺ يراه عندها فلا ينكره.

قالت أم حبيبة: فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ يحاصر خيبر، فخرج من خرج إليه ممن قدم من الحبشة، وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ، فدخلت عليه، فكان يسألني عن النجاشي، وقرأت عليه السلام من أبرهة جارية الملك، فرد رسول الله ﷺ عليها السلام، وأنزل الله عز وجل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ يعني: أبا سفيان، وذلك بتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، ولما بلغ أبا سفيان أن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة.. قال: ذلك الفحل لا يجدع أنفه.

وبعث النجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه إلى النبي ﷺ ابنه أزهى في ستين رجلاً من أصحابه، وكتب إليه: (يا رسول الله، إني أشهد أنك رسول الله صدقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفراً، وأسلمت لله رب العالمين، وقد بعثت إليك ابني أزهى، وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت، والسلام عليك يا رسول الله). فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتى إذا كانوا في وسط البحر.. غرقوا، ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ وهو بخيبر، ووافى مع جعفر سبعون رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون رجلاً من الحبشة، وثمانية من الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس إلى آخرها، فبكى القوم حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام، فأنزل الله هذه الآية فيهم، وهي قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ يعني: وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر، وهم السبعون، وكانوا من أصحاب الصوامع.

وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً: أربعين من نصارى نجران من بني الحارث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية روميين من أهل الشام.

وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام، فلما بعث محمد ﷺ.. آمنوا به، وصدقوه، فأثنى الله

عليهم بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني: لا يستعظمون عن الإيمان والإذعان للحق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ على أنفسكم ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: مستلذات ما أحل الله لكم من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، ولا تمنعوا أنفسكم من التمتع بالمستلذات كمنعها من الحرام، أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا﴾؛ أي: ولا تجاوزوا الحد في الانتفاع بالطيبات بالإسراف فيها، أو لا تجاوزا الطيبات إلى الخبائث المحرمة، والطيبات: الأشياء التي تستلذها النفوس، وتميل إليها القلوب؛ أي[1]: لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات، بأن تتركوا التمتع بها عمداً تنسكاً وتقرباً إلى الله تعالى، ولا تعتدوا فيها وتتجاوزوا حد الاعتدال إلى الإسراف الضار بالجسد؛ بأن تزيدوا على الشبع والري، أو تجعلوا التمتع بها أكبر همكم في الحياة، أو تشغلكم عن الأمور النافعة من العلوم والأعمال المفيدة لكم، ولبني وطنكم، وهذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾.

والخلاصة: أن الاعتداء يشمل أمرين: الاعتداء في الشيء نفسه بالإسراف فيه، والاعتداء بتجاوزه إلى غيره مما ليس من جنسه، وهو الخبائث.

وقيل المعنى[2]: لا تعتقدوا تحريم الطيبات المباحات، فإن من اعتقد تحريم شيء أحله الله.. فقد كفر، أما ترك لذات الدنيا وشهواتها، والانقطاع إلى الله، والتفرغ لعبادته من غير إضرار بالنفس ولا تفويت حق الغير.. ففضيلة لا منع منها، بل مأمور بها.

قال ابن جرير[3] الطبري: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) الشوكاني.

أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح؛ ولذلك ردَّ النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله عباده إليه، وعمل به رسول الله ﷺ، وسنه لأمته، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون؛ إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ، فإذا كان ذلك كذلك.. تبين خطأ من آثَر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء.

قال: فإن ظن ظانٌّ أن الفضل في غير الذي قلنا؛ لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس، وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة، فقد ظن خطأً، وذلك أنَّ الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الردية؛ لأنها مفسدة لعقله، ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته.

قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾؛ أي: لا تعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم، أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله عليكم؛ أي: لا تترخصوا فتحللوا حراماً، كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنَّ من حرم على نفسه شيئاً مما أحله الله له.. فلا يحرم عليه ولا يلزمه كفارة.

ثم علل النهي عن الاعتداء بما ينفر منه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: لا يحب الله من يتجاوز حدود شرائعه بتحريم طيباته التي أحلها، سواء أكان التحريم من غير التزام بيمين أو نذر، أو بالتزام، وكل منهما غير جائز.

والالتزام[1] قد يكون لرياضة النفس وتهذيبها بالحرمان من الطيبات، وقد

---

(١) المراغي.

يكون ناشئاً عن بادرة غضب من زوجة أو ولد، كمن يحلف بالله أو بالطلاق أن لا يأكل من هذا الطعام أو نحوه من المباحات، أو يقول: إن فعل كذا.. فهو بريء من الإسلام أو من الله ورسوله أو نحو ذلك، وكل هذا منهي عنه شرعاً، ولا يحرم على أحد شيء منها يحرمه على نفسه بهذه الأقوال، ولا كفارة في يمين يحلفه الحالف في نحو ذلك عند الشافعي.

وتحريم الطيبات والزينة وتعذيب النفس هو من العبادات المأثورة عند قدماء اليهود واليونان، قلَّدهم فيها أهل الكتاب خصوصاً النصارى، فإنهم قد شددوا على أنفسهم، وحرَّموا عليها ما لم تحرمه الكتب المقدسة على ما فيها من الشدة والصرامة والمبالغة في الزهد، ولما جاء الإسلام وأرسل الله نبيه محمداً ﷺ خاتم النبيين بما فيه السعادة التامة للبشر في دنياهم وآخرتهم.. أباح للبشر على لسانه الزينة والطيبات، وأرشدهم إلى إعطاء البدن حقه، والروح حقها، فالإنسان ما هو إلا روح وجسد، فيجب العدل بينهما، وبذا كانت الأمة الإسلامية أمة وسطاً تشهد على جميع الأمم، وتكون حجة عليها يوم القيامة.

والحكمة في ذلك النهي: أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يستعمل عباده نعمه فيما خلقت لأجله، ويشكروه على ذلك، ويكره لهم أن يجنوا على الشريعة التي شرعها لهم، فيغلوا فيها بتحريم ما لم يحرمه، كما يكره لهم أن يفرطوا فيها بإباحة ما حرمه، أو ترك ما فرضه، وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ وورد في الأثر: «إن اللّه طيب لا يقبل إلا طيباً».

﴿وَكُلُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى وأعطاكم حالة كونه ﴿حَلَٰلًا﴾ في نفسه لا من المحرمات، كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ونحو ذلك، وحالة كونه ﴿طَيِّبًاۚ﴾ في كسبه وتناوله؛ بأن لا يكون رِباً ولا سحتاً ولا سرقة ولا غصباً مثلاً، مع كونه مستلذاً غير مستقذرٍ لذاته أو لطارىء يطرأ عليه من فساد أو تغير لطول مكث ونحوه. والأكل في الآية يراد به التمتع الشامل للشرب ونحوه، وإنما خص الأكل بالذكر؛ لأنه أغلب الانتفاع بالرزق من حلال غير

مسكر ولا ضار، ومن كل طيب غير مستقذر في ذاته أو لطارىء عليه.

والخلاصة:[1] أنه ينبغي للمؤمن أن يتمتع بما تيسر له من الطيبات بلا تأثم ولا تحرج، ويحضر قلبه أنه عامل بشرع الله مقيم لسنة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، شاكراً له بالاعتراف والحمد والثناء عليه، كما أن امتناعه عن الطيبات التي رزقه إياها مع الداعية الفطرية إلى الاستمتاع بها إثمٌ يجنيه على نفسه في الدنيا، ويستحق به عقاب الآخرة؛ لزيادته في دين الله قربات لم يأذن بها، ولإضاعة حقوق الله وحقوق عباده، كإضاعة حقوق امرأته وعياله.

والتحريم والتحليل تشريع، وهو من حقوق الله، فمن انتحله لنفسه كان مدعياً الربوبية أو كالمدعي لها، وعن الحسن البصري: إن الله أدب عباده فأحسن أدبهم فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا، فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر قوماً زواها عنهم فعصوه. وعنه أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذج ـ حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل ـ ويقول: لا أؤدي شكره، قال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنه جاهل، إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثرُ من نعمته عليه في الفالوذج.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وخافوا عقاب الله الذي آمنتم به في الأكل واللباس والنساء وغيرها، فلا تفتئتوا عليه في تحليل ولا تحريم، ولا تعتدوا حدوده فيما أحل وما حرم؛ إذ من جعل شهوة بطنه أكبر همه.. كان من المسرفين، ومن بالغ في الشبع وعرَّض معدته وأمعائه للتخمة.. كان من المسرفين، ومن أنفق في ذلك أكثر من طاقته، وعرض نفسه لذل الدَّين أو أكل أموال الناس بالباطل.. فهو من المسرفين، والله يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وقيل: المعنى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: امتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، فتقوى الله لا تتوقف على الرهبانية كما كان في الأمم السابقة.

والخلاصة: أن هدي القرآن في الطيبات هو ما تقتضيه الفطرة السليمة

---

(١) المراغي.

المعتدلة من التمتع بها مع الاعتدال والتزام الحلال، والاعتدال: هو الصراط المستقيم الذي يقل سالكه، فكثير من الناس يحيدون عنه، ويميلون في التمتع إلى جانب الإفراط والإسراف، ويكونون كالأنعام بل أضل؛ لأنهم يجنون على أنفسهم حتى قال بعض الحكماء: إن أكثر الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم، وقليلون منهم ينحرفون إلى جانب التفريط والتقتير، إما اضطراراً لبؤسهم وعدمهم، وإما اختياراً كالزهاد والمتقشفين. وسبيل الاعتدال لسبيل شاقة على النفوس، عسرة على سالكها، كلها تدل على فضيلة العقل ورجحانه. والمعروف من سيرة الرسول ﷺ (أنه كان يأكل ما وجده، فتارة يأكل أطيب الطعام؛ كلحوم الأنعام والطير والدجاج، وتارة يأكل أخشنه؛ كخبز الشعير بالملح أو الزيت أو الخل، وحيناً يجوع، وأخرى يشبع)، فكان في كل ذلك قدوةً للموسر والمعسر، وما كان يهمه أمر الطعام، لكنه كان يعنى بأمر الشراب، ففي حديث عائشة: (كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد) أخرجه الترمذي. قال المحدثون: ويدخل في ذلك: الماء القراح، والماء المحلى بالعسل، أو نقيع التمر أو الزبيب.

واعلم: أن في قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ تأكيداً[1] للوصية بما أمر الله تعالى به وزاد التأكيد بقوله: ﴿الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى ما أمر الله به وعما نهى عنه، وفي الآية: دليل على أن الله عز وجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده، فإنه تعالى لو لم يتكفل بذلك.. لما قال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾، وإذا تكفل برزق العبد.. وجب أن لا يبالغ في الطلب والحرص على الدنيا، وأن يعول على ما وعده الله تعالى وتكفل به، فإنه تعالى أكرم من أن يخلف الوعد.

قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ﴾ هذا كلام[2] مرتب على قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأن بعض الصحابة حلف على الترهب لظنٍّ أنه قربة، فلما نزلت هذه الآية ـ أعني: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ـ شكوا

---

(١) الخازن.   (٢) الصاوي.

الرسول ﷺ من اليمين، فنزلت هذه الآية ـ أعني آية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾ ـ أي: لا يطالبكم الله بكفارة ولا عقوبة في الملغى الكائن من أيمانكم؛ أي: الذي لم يقصد، بل سبق إليه اللسان، فـ﴿في﴾ بمعنى: من، أو متعلقة بـ﴿يؤاخذ﴾؛ أي: لا يؤاخذكم الله في أيمانكم باللغو الذي لم يقصد.

واللغو[١]: اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو أن يحلف على شيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن، وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة، فلما نزلت تلك الآية.. قالوا: فكيف أيماننا؟ فنزلت هذه الآية، وقال الشافعي: هي ما يجري على اللسان بلا قصد، وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة. وقد ذهب[٢] الجمهور من الصحابة ومن بعدهم إلى أنها قول الرجل: لا واللّهِ، وبلى واللّهِ في كلامه غير معتقد لليمين، وبه فسَّر الصحابة الآية، وهم أعرف بمعاني القرآن.

وفي الآية: دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ الله الحالف بها، ولا تجب فيها كفارة.

والخلاصة[٣]: لا يؤاخذكم الله تعالى ولا يطالبكم في الدنيا ولا في الآخرة بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، كما يقول الرجل في كلامه بدون قصد: لا واللّهِ، وبلى واللّهِ، فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة في الدنيا، ولا عقوبة في الآخرة ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ويطالبكم؛ إما بالكفارة في الدنيا، أو بالعقوبة في الآخرة ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ أي: بحنث ما تعمدتم وقصدتم به اليمين. وفي الآية حذف؛ إما من الأول كما قدرناه، أو من الآخر؛ تقديره: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذة؛ لأنه كان معلوماً عندهم.

فاليمين المعقدّة[٤]: من عقد القلب وصممه، ليفعلن أو لا يفعلن في

---

(١) النسفي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

المستقبل؛ أي: ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المعقدّة الموثقة بالقصد والنية إذا حنثتم فيها، وأما اليمين الغموس: فهي يمين مكر وخديعة وكذب، قد باء الحالف بإثمها، وليست بمعقودة، ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور. وقال الشافعي: هي يمين معقودة؛ لأنها مكتسبة بالقلب، معقودة بخبر، مقرونة باسم الله. والراجح: الأول، وجميع الأحاديث الواردة في تكفير اليمين متوجهة إلى المعقودة، ولا يدل شيء منها على الغموس، بل ما ورد في الغموس إلا الوعيد والترهيب، وأنها من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ الآية، واليمين المنعقدة؛ إما بالله أو بأسمائه أو بصفاته.

وقرأ[1] نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم بتشديد القاف، قال أبو عمرو: معناها: وكدتم. وقرأ الكسائي وحمزة وأبو بكر عن عاصم بتخفيفها، قال ابن جرير: معناها: أوجبتموها على أنفسكم. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بألف بين العين والقاف. وقرأ الأعمش: ﴿بما عقدت الأيمان﴾ جعل الفعل للأيمان، فالتشديد؛ إما للتكثير بالنسبة إلى الجمع، وإما لكونه بمعنى المجرد نحو: قدَر وقدَّر، والتخفيف هو الأصل، وبالألف بمعنى المجرد نحو: جاوزت الشيء وجزته وقاطعته وقطعته؛ أي: هجرته. وعبارة أبو البقاء هنا: قوله: ﴿عقدتم﴾ يقرأ بتخفيف القاف، وهو الأصل، وعقد اليمين هو قصد الالتزام بها. ويقرأ بتشديدها، وذلك لتوكيد اليمين كقوله: واللَّهِ الذي لا إله إلا هو، ونحوه. وقيل: التشديد يدل على تأكيد العزم بالالتزام بها. وقيل: إنما شدد لكثرة الحالفين وكثرة الأيمان. وقيل: التشديد عوض من الألف في عاقد، ولا يجوز أن يكون التشديد لتكرير اليمين؛ لأن الكفارة تجب وإن لم تكرر. ويقرأ: ﴿عاقد﴾ بالألف وهي بمعنى: عقدتم، كقولك: قاطعته وقطعته من الهجران، انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي ولكن يؤاخذكم بما صممتم وعزمتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه، وهذه المؤاخذة بينها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ الخ، والكفارة الفعلية التي من شأنها أن تكفر الخطيئة؛ أي: تسترها؛ أي: فكفارة حنث الأيمان المعقودة ونقضها، أو فكفارة معقود الأيمان إذا حنثتم؛ أي: فالذي يكفر عقد اليمين إذا نقض، أو إذا أريد نقضه بالحنث به.. هو إحدى الخصال الثلاث الآتية على سبيل التخيير:

١ ـ إما ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾، أو فقراء، لكل مسكين مدّ عند الشافعية، ونصف صاع عند الحنفية؛ أي: تمليك عشرة مساكين، ولا[1] يتعين كونهم من فقراء بلد الحالف، والمساكين أعم من أن يكونوا ذكوراً أو إناثاً أو من الصنفين. والظاهر اشتراط تعدد الأشخاص، فلو أطعم مسكيناً واحداً كفارة عشرة أيام.. لم يجزه، وبه قال مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة يجزىء. ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ أيها الناس ﴿أَهْلِيكُمْ﴾؛ أي: من أقصد ما تطعمونهم وأغلبه من غالب قوت بلد الحالف؛ أي: محل الحنث، لا من أعلاه ولا أدناه؛ أي: إطعام وجبة واحدة ـ الوجبة: الأكلة الواحدة في اليوم ـ لكل منهم من الطعام الغالب الذي يأكله أهلوكم في بيوتكم، لا من أردئه وأخسه الذي يتقشفون به تارة، ولا من أعلاه الذي يتوسعون به تارة أخرى؛ كطعام العيد ونحوه مما تكرم به الأضياف، فمن كان طعام أهله خبز البر، وأكثر إدامه اللحم بالخضر أو بدونها.. فلا يجزىء ما دون ذلك مما يأكلونه إذا قرفت أنفسهم من كثرة أكل الدسم؛ ليعود إليها نشاطها، والأعلى مجزىء على كل حال؛ لأنه من الوسط وزيادة، والثريد بالمرق، وقليل من اللحم أو الخبز مع الملوخية أو الرز أو العدس، من أوسط الطعام في مصر وكثير من الأقطار الشرقية الآن، وكان التمر أوسط طعام أهل المدينة في العصر الأول، وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام كما مر آنفاً.

٢ ـ ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾؛ أي: كسوة عشرة مساكين، قرأ الجمهور[2]: ﴿أو

---

(١) الجمل.
(٢) البحر المحيط وزاد المسير.

كسوتهم﴾ بكسر الكاف وسكون السين. وقرأ النخعي وابن المسيب وأبو عبد الرحمٰن السلمي وأبو الجوزاء ويحيى بن يعمر: ﴿أو كسوتهم﴾ بضم الكاف وسكون السين، وهما لغتان مثل: أسوة وإسوة، وقُدوة وقِدوة. وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية ومعاذ بن الحارث القارىء وأبو نهيك: ﴿أو كإسوتهم﴾ بكاف الجر الداخلة على إسوة؛ أي: قرؤوا بفتح الكاف وكسر الهمزة وكسر التاء والهاء. وقرأ محمد ابن السميقع اليماني، وأبو عمران الجوزي مثلهم إلا أنهما فتحا الهمزة. قال ابن الجوزي: ولا أرى هذه القراءة جائزة؛ لأنها تسقط أصلاً من أصول الكفارة.

والكسوة تختلف باختلاف البلاد والأزمنة كالطعام، فيجزىء في مصر القميص الطويل الذي يسمى بـ«الجلابية» مع السراويل أو بدونه، وهذا يساوي الإزار والرداء، أو العباءة في العصر الأول، ولا يجزىء ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة، ولا ما يلبس في الرجلين من الأحذية والجوارب، ولا نحو منديل أو منشفة.

٣ - ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: أو إعتاق رقيق، وغلب استعمال الرقبة في المملوك والأسير، وقد يعبر عن ذلك بفك الرقبة كقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾، ولا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة، فيجزىء عتق الكافرة عند أبي حنيفة، واشترط الشافعي ومالك وأحمد إيمانها؛ حملاً للمطلق هنا على المقيد في كفارة القتل.

قال أبو حيان[1]: وقد أجمع العلماء على أن الحانث مخيَّر بين الإطعام والكسوة والعتق، وهي مخالفة لسواد المصحف، وقدم[2] الإطعام على غيره؛ لأنه أسهل؛ لكون الطعام أعم وجوداً، ولأن الإطعام أفضل من الإعتاق على ما قيل؛ لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام، أما العبد: فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحداً من هذه الخصال الثلاثة المتقدمة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات، فإن عجز عن ذلك لمرض

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

مثلاً.. صام عند القدرة، فإن لم يقدر لكونه دنفاً ـ أي ملازم المرض ـ يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته.

والاستطاعة أن يجد ذلك القدر الذي يكفر به فاضلاً عن قوته وقوت عياله يومه وليلته، وعن كسوته بقدر ما يطعم أو يكسو. وقد روى ابن مردوديه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت آية الكفارة.. قال حذيفة: يا رسول الله، نحن بالخيار؟ فقال ﷺ: «أنت بالخيار، إن شئت أعتقت، وإن شئت كسوت، وإن شئت أطعمت، فمن لم يجد... فصيام ثلاثة أيام متتابعات». فلو كان ماله في غير بلده، ووجد من يسلفه.. لم ينتقل إلى الصوم، أو لم يجد من يسلفه فقيل: لا يلزمه انتظار ماله من بلده ويصوم، وهو الظاهر؛ لأنه غير واجد الآن. وقيل: ينتظر، والظاهر أنه إذا كان عنده فضل عن قوته وقوت من تلزمه نفقتهم يومه وليلته، وعن كسوتهم بقدر ما يطعم أو يكسو، فهو واجد، وبه قال أحمد وإسحاق والشافعي ومالك. وقال مالك: إلا أن يخاف الجوع، أو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه، وقال أبو حنيفة: إذا لم يكن عنده نصاب.. فهو غير واجد. وقرأ[1] أُبي وعبد الله والنخعي: ﴿أيام متتابعات﴾، واتفقوا على أن العتق أفضل، ثم الكسوة، ثم الإطعام. وبدأ الله بالأيسر فالأيسر على الحال، وهذه الكفارة التي نص الله عليها لازمة للحر المسلم.

وإذا حنث العبد.. فقال سفيان وأبو حنيفة والشافعي: ليس عليه إلا الصوم، لا يجزئه غيره. وحكى ابن نافع عن مالك: لا يكفر بالعتق؛ لأنه لا يكون له ولاء، ولكن يكفر بالصدقة إن أذن له سيده، والصوم أصوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخصال الأربعة من الإطعام أو الكسوة أو العتق أو الصوم عند العجز عن غيره ﴿كَفَّٰرَةُ﴾ إثم حنث ﴿أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ بالله أو بأحد أسمائه أو صفاته، وحنثتم أو أردتم الحنث باليمين؛ لأن الكفارة لا تجب بمجرد اليمين، إنما تجب بالحنث بعد اليمين. وفيه إشارة إلى أن تقديم الكفارة

(١) البحر المحيط.

على اليمين لا يجوز، بل بعد اليمين، وقبل الحنث إذا أراد الحنث كما تقدم.

﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: قللوا أيمانكم ولا تبذلوها في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلاً عن الأيمان الكاذبة قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾، أو إذا حلفتم.. فلا تنسوا ما حلفتم عليه، أو لا تحنثوا فيها ما استطعتم إلا لضرورة تعرض أو مصلحة تجعل الحنث راجحاً أو بأن تكفروها إذا حنثتم ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين لكم كفارة أيمانكم إذا حنثتم.. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: أعلام شريعته، وأحكام دينه، وجميع ما تحتاجون إليه في أمر دينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه التي أنعم بها عليكم التي من أجلها: بيان آياته وأحكام شريعته. وهنا فصلان مهمان:

الفصل الأول في بيان حكم الآية، وفيه مسائل

المسألة الأولى: في بيان الكفارة، وهي أربعة أنواع:

النوع الأول من الكفارة: الإطعام، فيجب إطعام عشرة مساكين، واختلفوا في قدر ما يطعم لكل مسكين. فذهب قوم إلى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبي ﷺ، وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد، وكذلك سائر الكفارات، وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه قال سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وسليمان بن يسار، وعطاء، والحسن، وإليه ذهب مالك والشافعي.

ويروى عن عمر وعلي وعائشة: أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر، وهو نصف صاع، وبه قال أهل العراق. وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع، وإن أطعم من غيرها فصاع، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال أحمد بن حنبل: يطعم لكل مسكين مد من البر، أو نصف صاع من غيرها؛ مثل التمر والشعير. ومن شرط الإطعام تمليك الطعام للمساكين، فلو عشاهم وغداهم.. لم يجزه. وقال أبو حنيفة: يجزيه ذلك، ولا يجوز إخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير. وقال أبو حنيفة: يجوز ذلك. ولا إخراج

الدقيق والخبز في الكفارة، بل يجب إخراج الحب، وجوزه أبو حنيفة. ولا يجوز صرف الكل إلى مسكين واحد في عشرة أيام.

النوع الثاني من الكفارات: الكسوة، واختلف العلماء في قدرها، فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوباً واحداً مما يقع عليه اسم الكسوة، إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء أو نحو ذلك، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن ومجاهد وعطاء وطاووس، وإليه ذهب الشافعي. وقال مالك: يجب أن يكسو كل مسكين ما تجوز به الصلاة، فيكسو الرجل ثوباً، والمرأة ثوبين: درعاً وخماراً. وقال أحمد: للرجل ثوبٌ، وللمرأة ثوبان: درع وخمارٌ، وهو أدنى ما يجزىء في الصلاة. وقال ابن عمر: يجب قميص وإزار ورداء. وقال أبو موسى الأشعري: يجب ثوبان، وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين. وقال إبراهيم النخعي: يجب ثوب جامع كالملحفة.

النوع الثالث من الكفارات: العتق، فيجب إعتاق رقبة مؤمنة، وكذلك يجب في جميع الكفارات. وأجاز أبو حنيفة والثوري إعتاق الرقبة الكافرة في جميع الكفارات إلا كفارة القتل، فإن الله قيد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل. ومذهب الشافعي أن المطلق يحمل على المقيد، ولا يجوز إعتاق المرتد بالإجماع، ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق في الكفارة مكاتباً، أو أم ولد، أو عبداً اشتراه بشرط العتق، أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه، فكل هؤلاء لا يجزىء في إعتاق الكفارة، وجوز أصحاب الرأي عتق المكاتَب في الكفارة إذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيئاً. وجوزوا عتق القريب في الكفارة، ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل، فلا يجزىء مقطوع اليد والرجل، ولا الأعمى، ولا الزَّمِن، ولا المجنون المطبق. ويجوز عتق الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف؛ لأن هذه العيوب كلها لا تضر بالعمل. وعند أبي حنيفة: كل عيب يفوت جنساً من المنفعة يمنع الجواز، فيجوز عتق مقطوع إحدى اليدين، ولا يجوز عتق مقطوع الأذنين في الكفارة.

النوع الرابع من الكفارات: الصوم، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعني

الكفارة السابقة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني: فإذا عجز من لزمته كفارة اليمين عن الإطعام أو الكسوة أو العتق.. وجب عليه صيام ثلاثة أيام. قال الشافعي: إذا كان عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته، وفضل ما يطعم عشرة مساكين.. لزمته الكفارة بالإطعام، وإن لم يكن عنده هذا القدر.. جاز له الصيام. وقال أبو حنيفة: يجوز له الصيام إذا لم يكن عنده من المال ما تجب فيه الزكاة، فجعل من لا زكاة عليه عادماً. وقال الحسن: إذا لم يجد درهمين صام. وقال سعيد بن جبير: ثلاثة دراهم.

واختلفوا في وجوب التتابع في الصيام عن كفارة اليمين على قولين:

أحدهما: أنه يجب التتابع فيه قياساً على كفارة الظهار والقتل، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وطاووس وعطاء وقتادة، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، وأحد قولي الشافعي.

والقول الثاني: لا يجب التتابع في كفارة اليمين، فإن شاء تابع، وإن شاء فرَّق، والتتابع أفضل، وبه قال الحسن ومالك، وهذا القول الثاني للشافعي.

المسألة الثانية: كلمة: ﴿أو﴾ في الآية للتخيير بين الإطعام والكسوة والعتق، فإن شاء أطعم، وإن شاء كسا، وإن شاء أعتق، فبأيها أخذ المكفر.. فقد أصاب وخرج عن العهدة.

المسألة الثالثة: لا يجوز صرف شيء من الكفارات إلا إلى مسلم حر محتاج، فلو صرف إلى ذمي أو عبد أو غني.. لا يجزيه، وجوز أبو حنيفة صرفها إلى أهل الذمة، واتفقوا على أن صرف الزكاة إلى أهل الذمة لا يجوز.

المسألة الرابعة: اختلفوا في تقديم الكفارة على الحنث، فذهب قوم إلى جوازه؛ لما روي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين، فرأى خيراً منها.. فليكفِّر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير» أخرجه الترمذي.

وعن عبد الرحمٰن بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا

عبد الرحمٰن، لا تسأل الإمارة، فإنها إن أتتك عن مسألة.. وكَلت إليها، وإن أتتك من غير مسألة.. أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها.. فأتِ الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك» متفق عليه.

وهذا قول عمر وابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ **وعامة الفقهاء**، وبه قال الحسن وابن سيرين، وإليه ذهب مالك والأوزاعي والشافعي إلا أن الشافعي قال: إن كَفَّر بالصوم قبل الحنث لا يجوز؛ لأنه بدني، إنما يجوز بالطعام أو الكسوة أو العتق. وقال أبو حنيفة: لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث، والله أعلم.

الفصل الثاني: في مسائل يجملك معرفتها تكملة لدينك

المسألة الأولى: لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته. قال ﷺ: «من كان حالفاً لا يحلف إلا بالله» رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر. ورويا أيضاً عنه أن النبي ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه، فقال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً.. فليحلف بالله، أو ليصمت». وروى البخاري وأحمد عن ابن عمر قال: «كان أكثر ما يحلف به النبي ﷺ لا ومقلب القلوب». والمحرم أن يحلف بغير الله حلفاً يلتزم به ما حلف عليه، والبر به فعلاً أو تركاً؛ لأن الشارع جعل هذا خاصاً بالحلف بالله وأسمائه وصفاته، أما ما يجيء لتأكيد الكلام، ويجري على ألسنة الناس دون قصد لليمين.. فلا يدخل في باب النهي؛ نحو قوله ﷺ للأعرابي: «أفلح وأبيه إن صدق»، ويدخل في النهي: الحلف بالنبي والكعبة وسائر ما هو معظم شرعاً.

المسألة الثانية: يجوز الحنث لمصلحة راجحة مع التكفير قبله؛ لما رواه أحمد والشيخان في «الصحيحين»: عن عبد الرحمٰن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها.. فأت الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك»، وفي لفظ عن أبي داود والنسائي: «فكفر عن يمينك، ثم ائتِ الذي هو خير»، ودلَّ اختلاف الرواية في تقديم الأمر بالكفارة، أو تأخيره

على جواز الأمرين.

والحلف باعتبار المحلوف عليه ثلاثة أقسام:

١ ـ حلف على فعل واجب، أو ترك حرام، وهذا تأكيد لما كلف الله به، فيحرم الحنث، ويكون الإثم مضاعفاً.

٢ ـ حلف على ترك واجب أو فعل حرام، ويجب في هذا الحنث؛ لأن اليمين معصية، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما، أو منع ذي حق حقه الواجب له، والحلف على ترك المباح؛ كالطيب من الطعام، فإن في ذلك تشريعاً بتحريم ما أحل الله، كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات.

٣ ـ حلف على فعل مندوب أو ترك مكروه، وهذا طاعة يندب له الوفاء به، ويكره الحنث، ومن ذلك الحلف على ترك طعام معين كالطعام الذي في هذه الصحفة[١] مثلاً، كما فعل عبد الله بن رواحة في تحريمه الطعام على نفسه، ثم أكله منه لأجل الضيف. فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي، هو عليَّ حرام، فقالت امرأته: هو عليَّ حرام، وقال الضيف: هو عليَّ حرام، فلما رأى ذلك.. وضع يده وقال: كلوا بسم اللّه، ثم ذهب إلى النبي ﷺ، فأخبره، فقال النبي ﷺ: «قد أصبت»، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

المسألة الثالثة: الأيمان ثلاثة:

١ ـ ما ليس من أيمان المسلمين، كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وتربتهم، وهذه يمين غير منعقدة، ولا كفارة فيها، بل هي منهي عنها نهي تحريم لما تقدم من الأحاديث.

---

(١) الصحفة: قصعة الطعام.

٢ ـ يمين بالله تعالى، كقوله: والله لأفعلن كذا، وهذه منعقدة فيها الكفارة عند الحنث.

٣ ـ أيمان في معنى الحلف بالله؛ يريد بها الحالف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق، كقوله: إن فعلت كذا.. فعليَّ صيام شهر، أو الحج إلى بيت الله، أو الحل علي حرام لا أفعل كذا، أو الطلاق يلزمني لا أفعل كذا، أو إن فعلته.. فنسائي طوالق، أو عبيدي أحرار، أو كل ما أملكه صدقة، أو نحو ذلك، والصحيح الموافق للأقوال الثابتة عن الصحابة ـ وعليه يدل الكتاب والسنة ـ أنه يجزئه كفارة اليمين في جميع ذلك كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، وقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، وثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً.. فليأتِ الذي هو خير، وليكفِّر عن يمينه».

المسألة الرابعة: الأيمان مبنية على العرف والنية، لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع، فمن حلف لا يأكل لحماً، فأكل سمكاً.. لا يحنث ـ وإن سماه الله لحماً طرياً ـ إلا إن نواه، أو كان يدخل في عموم اللحم في عرف قومه، كما أن من يحلف غيره يميناً على شيء، فالعبرة بنية المحلِّف لا الحالف، فقد روى مسلم وابن ماجه: «اليمين على نية المستحلف». واليمين الغموس التي يهضم بها الحق، أو يقصد بها الخيانة والغش، لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام، بل لا بد من التوبة وأداء الحق والاستقامة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾، وقال ﷺ: «من حلف على يمين صبرٍ، وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرىء مسلم.. لقي الله وهو عليه غضبان» رواه البخاري ومسلم.

الإعراب

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾.

﴿لَتَجِدَنَّ﴾ اللام موطئة للقسم، ﴿تجدن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛

لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على المخاطب، والجملة جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول أول لتجد. ﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿عَدَٰوَةً﴾: تمييز منصوب بـ﴿أَشَدَّ﴾. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَدَٰوَةً﴾، ولما كان فرعاً في العمل عن الفعل.. قرن معموله باللام، ولا يضر في عملها كونها مؤنثة بالتاء؛ لأنها مبنية عليها، ويجوز أن يكون ﴿لِّلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿عَدَٰوَةً﴾ فيتعلق بمحذوف. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلْيَهُودَ﴾: مفعول ثانٍ لوجد. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب معطوف على ﴿ٱلْيَهُودَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لوجد. ﴿أَشْرَكُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، اللام موطئة للقسم. ﴿تجدن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة القسم الأول. ﴿أَقْرَبَهُم﴾: مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿مَّوَدَّةً﴾: تمييز، والعامل فيه اسم التفضيل. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿مَّوَدَّةً﴾، أو صفة لها، أو متعلق بـ﴿أقرب﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿تجدن﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: إنّ: حرف نصب وتوكيد، نا: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿نَصَٰرَىٰ﴾: خبرها، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ﴾ الباء حرف جر وسبب، ﴿أنَّ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿مِنْهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿أنَّ﴾ ﴿قِسِّيسِينَ﴾: اسمها مؤخر. ﴿وَرُهْبَانًا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب كونهم قسيسين ورهباناً، الجار والمجرور متعلق

بواجب الحذف لوقوعه خبراً تقديره: ذلك كائن بسبب كونهم قسيسين ورهباناً، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها، وجملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من جملة ﴿أن﴾ الأولى تقديره: ذلك كائن بسبب كونهم قسيسين ورهباناً، وعدم استكبارهم.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية أو عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿سَمِعُوا﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿سَمِعُوا﴾، وسمع هنا لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد باتفاق النحاة؛ لأنه دخل على ما يسمع. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

﴿تَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على: محمد، أو على المخاطب. ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾: مفعول به لـ﴿تَرَىٰ﴾، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿تَرَىٰ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة لفظاً، وإن تعلق بما قبله في المعنى، ولذلك جعله[1] بعضهم أول الربع، أو في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿أن﴾ الثانية تقديره: ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون، وأن أعينهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن. ﴿تَفِيضُ﴾: فعل مضارع وفاعل ضمير يعود على ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾. ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَفِيضُ﴾، أو حال من فاعل ﴿تَفِيضُ﴾، والتقدير: حالة كونها مملوءة من الدمع.

---

(١) الجمل.

﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَفِيضُ﴾. ﴿عَرَفُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما عرفوه. ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من العائد المحذوف.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير الفاعل في ﴿عَرَفُوا﴾. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ إلى قوله: ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿آمَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿فَاكْتُبْنَا﴾: الفاء حرف عطف وتفريع. ﴿اكتبنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿آمَنَّا﴾ على كونها مقول القول. ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿اكتبنا﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤)﴾.

﴿وَمَا لَنَا﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف وجوباً لوقوعه خبراً تقديره: وأي شيء مستقر لنا، والجملة مستأنفة على كونها مقول القول. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين. ﴿بِاللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُؤْمِنُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في ﴿لَنَا﴾، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور في ﴿لَنَا﴾، والتقدير: أي شيء استقر لنا حالة كوننا غير مؤمنين. ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوفة على الجلالة. ﴿جَاءَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل. ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿جَاءَنَا﴾. ﴿وَنَطْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلمين، والجملة في محل النصب معطوفة على ﴿نُؤْمِنُ﴾ على أنها منفية كنفي ﴿نُؤْمِنُ﴾، والتقدير: وما لنا لا نؤمن ولا نطمع،

فيكون في ذلك الإنكار؛ لانتفاء إيمانهم وانتفاء طمعهم مع قدرتهم على تحصيل الشيئين: الإيمان، والطمع في الدخول مع الصالحين. ويجوز[1] أن يكون التقدير: ونحن نطمع، فتكون الجملة حالاً من ضمير الفاعل في ﴿نُؤْمِنُ﴾. ﴿أَن يُدْخِلَنَا﴾: ناصب وفعل ومفعول. ﴿رَبُّنَا﴾: فاعل. ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُدْخِلَنَا﴾. ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف متعلق بـ﴿نطمع﴾، والتقدير: ونطمع في إدخال ربنا إيانا مع القوم الصالحين.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت قولهم المذكور، وأردت بيان جزاء قولهم المذكور.. فأقول لك: أثابهم الله. ﴿أثابهم الله﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ الباء حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أثاب﴾، والتقدير: فأثابهم الله بقولهم ذلك. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول ثان لـ﴿أثاب﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾: ولكنها صفة سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير ﴿أثابهم﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق به. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿جَزَآءُ﴾ خبر ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٨٦)﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول.

---

(١) أبو البقاء.

﴿وَكَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كذبوا﴾. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ. ﴿أَصْحَابُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني. ﴿الْجَحِيمِ﴾: مضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. أيُّ: منادى نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات أي من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لأي. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُحَرِّمُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿طَيِّبَاتِ﴾: مفعول به وهو مضاف. ﴿مَا﴾: مضاف إليه. ﴿أَحَلَّ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف والتقدير: طيبات ما أحله الله لكم. ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَكُلُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كلوا﴾. ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مما رزقكم الله إياه، وهو العائد على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿حَلَالًا﴾: مفعول ﴿كلوا﴾، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: كلوا أكلاً حلالاً. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة لـ﴿حَلَالًا﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة

﴿كلوا﴾. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة للجلالة. ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿مُؤْمِنُونَ﴾. ﴿مُؤْمِنُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱللَّغْوِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يؤاخذ﴾. ﴿فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿اللغو﴾ تقديره: حالة كونه واقعاً في أيمانكم، أو متعلق[1] ﴿بِٱللَّغْوِ﴾؛ لأنك تقول: لغا في يمينه، وهذا مصدر بالألف يعمل، ولكن معدى بحرف الجر، أو متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾. ﴿وَلَـٰكِن﴾: الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾. ﴿بِمَا﴾: الباء حرف جر ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية تقديره: بتعقيدكم الأيمان أو بعقدكم الأيمان، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾، أو ﴿ما﴾ موصول اسمي، والعائد محذوف تقديره: ولكن يؤاخذكم بالذي عقدتم عليه الأيمان إذا حنثتم.

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الله يؤاخذ بالأيمان المعقودة، وأردت بيان كفارتها.. فأقول لك ﴿كفارته﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ﴾: خبر ومضاف إليه وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ لأنه في تأويل حرف مصدري، وفعل مبني للفاعل؛ أي: فكفارته أن يطعم الحانث عشرة مساكين، ﴿عَشَرَةِ﴾: مضاف. ﴿مَسَـٰكِينَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف؛ لأنه على صيغة منتهى

---

(١) العكبري.

الجموع. ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿إِطْعَامُ﴾، أو صفة[1] لمفعول محذوف تقديره: أن يطعم الحانث عشرة مساكين طعاماً، أو قوتاً من أوسط؛ أي: متوسطاً كما ذكره أبو البقاء. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ في[2] محل نصب مفعول ثانٍ لـ﴿إِطْعَامُ﴾، والأول ﴿عَشَرَةِ﴾؛ أي: أن تطعموا عشرة مساكين إطعاماً من أوسط ما تطعمون. ﴿أَوْسَطِ﴾: مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تُطْعِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول الثاني له محذوف تقديره: من أوسط ما تطعمونه، وهو العائد على ﴿مَا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿أَهْلِيكُمْ﴾: مفعول أول لـ﴿تُطْعِمُونَ﴾، ومضاف إليه منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنه جمع سلامة لأهل لم يستوف الشروط؛ لأنه اسم جنس، فليس بعلم ولا صفة، والذي حسَّن[3] إلحاقه بجمع المذكر السالم: أنه كثيراً ما يستعمل استعمال مستحق لكذا في قولهم: هو أهل لكذا؛ أي: مستحق له، فأشبه الصفات، فجمع جمعها، قال تعالى: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وقال: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتخيير. ﴿كِسْوَتُهُمْ﴾ معطوف على إطعام ومضاف إليه. وقرىء شاذاً: ﴿أو كإسوتهم﴾ فالكاف اسم بمعنى: مثل في محل الرفع معطوف على ﴿إِطْعَامُ﴾؛ أي: أو مثل إسوة أهليكم في الكسوة. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: معطوف أيضاً على ﴿إِطْعَامُ﴾، وهو مصدر مضاف إلى المفعول أيضاً؛ لأنه في تقدير: أو أن يحرر الحانث رقبة؛ أي: نسمة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الواجب في كفارته واحد من هذه الثلاثة المذكورة إذا وجدها كلاً أو بعضاً، وأردت بيان حكم ما إذا لم يجد واحداً منها.. فأقول لك: ﴿من لم يجد﴾. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو

---

(١) العكبري.
(٢) الجمل.
(٣) الفتوحات.

الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَجِدْ﴾: مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها، وهو من وجدان الضالة يتعدى إلى مفعول واحد محذوف تقديره: فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة. ﴿فَصِيَامُ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿صيام﴾: مبتدأ وهو مضاف. ﴿ثَلَٰثَةِ﴾: مضاف إليه وهو مضاف. ﴿أَيَّامٍۚ﴾: مضاف إليه، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: فصيام ثلاثة أيام واجب عليه في كفارته، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية الزمانية. ﴿حَلَفْتُمْۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها تقديره: وقت حلفكم وحنثكم، والظرف متعلق بـ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾. ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره بياناً كائناً كذلك؛ أي: مثل بيان كفارة الأيمان، وذلك المصدر المحذوف مفعول مطلق لـ﴿يُبَيِّنُ﴾ منصوب به. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: لعل حرف نصب وترج بمعنى كي التعليلية، والكاف اسمها. وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في محل الرفع خبرها، وجملة لعل مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، والتقدير: يبين الله لكم آياته لكي تشكروا نعمه التي من أجلِّها بيان هذه الأحكام، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَتَجِدَنَّ﴾: من وجد بمعنى: علم يتعدى إلى مفعولين، وهو من المثال

الواوي، وهو ما كانت فاؤه واواً.

﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ﴾: وهو اسم تفضيل من شدَّ الثلاثي أصله: أشدد نظير أفضل، وكذلك ﴿أَقْرَبَهُم﴾: اسم تفضيل من قرب ﴿عَدَٰوَةً﴾: العداوة: البغضاء يظهر أثرها في القول والفعل ﴿مَّوَدَّةً﴾: والمودة محبةٌ يظهر أثرها في القول والعمل ﴿ٱلنَّاسِ﴾: هم يهود الحجاز، ومشركو العرب، ونصارى الحبشة في عصر التنزيل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾: والقسيسين[1]: جمع قسيس على وزن: فعّيل، مثال مبالغة كصدّيق، وهو هنا رئيس النصارى وعالمهم، وأصله من: تقسس الشيء إذا تتبعه وتطلبه بالليل، يقال: تقسست أصواتهم؛ أي: تتبعتها بالليل، ويقال لرئيس النصارى: قس وقسيس، وللدليل بالليل: قسقاس وقسقس، قاله الراغب. وقال غيره: القس ـ بفتح القاف ـ تتبع الشيء، قال رؤبة:

أَصْبَحْنَ عَنْ قِسِّ ٱلأَذَىٰ غَوَافِلاَ   يَمْشِيْنَ هَوْنَاً خُرَّدَاً بَهَالِلاَ

ومنه سمي عالم النصارى قسيساً لتتبعه العلم، ويقال: قس الأثر وقصه بالصاد أيضاً، ويقال: قس وقس ـ بفتح القاف وكسرها ـ وقسيس، وزعم ابن عطية أنه أعجمي معرب. وفي «المراغي»: والقسيسون: واحدهم قسيس، وقسّوس: واحدهم قس، وهو الرئيس الديني فوق الشماس، ودون الأسقف، والأصل في القسيسين أن يكونوا من أهل العلم بدينهم وكتبهم؛ لأنهم رعاة ومفتون، انتهى.

وقال أبو حيان: القس: رئيس النصارى في الدين والعلم، وجمعه: قسوس، سمي بالمصدر لتتبعه العلم والدين، وكذلك القسيس فعّيل، كالشرّيب، وجمع القسيس بالواو والنون، وجمع أيضاً على قساوسة، قال أمية بن أبي الصلت:

لَوْ كَانَ مُنْقَلَبٌ كَانَتْ قَسَاوِسَةٌ   يُحْيِيْهِمُ ٱللَّهُ فِيْ أَيْدِيْهِمُ ٱلزُّبُرُ

قال الفراء: هو مثل مهالبة، كثرت السينات فيه، فأبدلوا إحداهن واواً،

---

(١) الفتوحات.

يعني: أن قياسه قساسة. انتهى. وقال عروة ابن الزبير[1]: ضيعت النصارى الإنجيل وما فيه، وبقي منهم رجل يقال له: قسيس، يعني بقي على دينه، لم يبدله، فمن بقي على دينه وهديه.. قيل له: قسيس، فعلى هذا القس والقسيس مما اتفق فيه اللغتان.

قلتُ: وهذا يقوي قول ابن عطية، ولم ينقل أهل اللغة في هذا اللفظ القُس بضم القاف لا مصدراً ولا وصفاً؛ فأما قس بن ساعدة الإيادي: فهو علم، فيجوز أن يكون مما غير عن طريق العلمية، ويكون أصله قس أو قس بالفتح أو بالكسر كما نقله ابن عطية. وقُس بن ساعدة كان أعلم أهل زمانه، وهو الذي قال فيه عليه السلام: «يُبعث أمةً واحدةً». اهـ «سمين».

﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ واحدهم[2]: راهب، وهو المتبتل المنقطع في دير أو صومعة للعبادة، وحرمان النفس من التنعم بالزوج والولد، ولذات الطعام والزينة، وذكر القسيسين والرهبان للجمع بين العبَّاد والعلماء. وقال[3] الشوكاني: والرهبان: جمع راهب، كركبان وراكب، والفعل: رَهِبَ الله يرهبه إذا خافه، والرهبانية والترهب: التعبد في الصوامع. قال أبو عبيد: وقد يكون رهبان للواحد والجمع. قال الفراء: ويجمع رهبان إذا كان للمفرد على رهابين كقربان وقرابين. وقد قال جرير في الجمع:

رُهْبَانُ مَدْيَنَ لَوْ رَأَوْكَ تَرَهَّبُوْا

وقال الشاعر في استعمال رهبان مفرداً:

لَوْ أَبْصَرَتْ رُهْبَانُ دَيْرٍ فِيْ ٱلْجَبَلْ ... لَٱنْحَدَرَ ٱلرُّهْبَانُ يَسْعَىٰ وَنَزَلْ

﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ أي: تمتلىء دمعاً فتفيض بتدفق من جوانبها لكثرته؛ لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، وجعل الأعين تفيض، والفائض إنما هو الدمع؛ قصداً للمبالغة، كقولهم: دمعت عينه، قال امرىء القيس:

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

فَفَاضَتْ دُمُوْعُ ٱلْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً عَلَىٰ ٱلنَّحْرِ حَتَّىٰ بَلَّ دَمْعِيَ مَحْمَلِي

﴿وَنَطْمَعُ﴾: الطمع قريب من الرجاء، يقال منه: طمع ـ من باب سمع ـ يطمع طمعاً وطماعةً وطماعيةً. ﴿فَأَثَبَهُمُ﴾ يقال: أثابه على كذا إثابةً إذا جازاه وكافأه عليه، والإثابة المجازاة ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: الجحيم مأخوذ من قولهم: جحم فلان النار، إذا شدد إيقادها يجحَم جحماً من باب فتح، ويقال لعين الأسد: جحمة لشدة اتقادها، قال الشاعر:

وَٱلْحَرْبُ لاَ تُبْقِي لِجَا حِمِهَا ٱلتَّخَيُّلَ وَٱلْمِزَاحْ

﴿بِٱللَّغْوِ﴾: اللغو: مصدر لغا يلغو لغواً، يقال: لغا بكذا إذا تكلم باللغو، واللغو: ما لا يعتد به من كلام أو غيره، يقال: تكلم باللغو واشتغل باللغو؛ أي: بما لا يعتد به، واللغو في اليمين: قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا واللّهِ وبلى واللّهِ. ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾؛ أي: بما صممتم وعزمتم عليه منها وقصدتموه، ومنه قول الفرزدق:

وَلَسْتَ بِمَأْخُوْذٍ بِلَغْوٍ تَقُوْلُهُ إِذَا لَمْ تُعَمِّدْ عَاقِدَاتِ ٱلْعَزَائِمِ

وأصل العقد نقيض الحل، والعقد على ضربين: حِسيّ كعقد الحبل، وحُكْميّ كعقد البيع واليمين والعهد، قال الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوْا عَقْداً لِجَارِهِمُ شَدُّوْا ٱلْعِنَاجَ وَشَدُّوْا فَوْقَهُ ٱلْكَرَبَا

فعقد اليمين: توكيدها بالقصد والغرض الصحيح، وتعقيدها: المبالغة في توكيدها ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾: وأصل الكفارة من الكفر، وهو الستر والتغطية، ثم صارت في اصطلاح الشرع اسماً لأعمال كفَّرتْ بعض الذنوب والمؤاخذات؛ أي: تغطيها وتخفيها حتى لا يكون لها أثر يؤاخذ به المرء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾: والأوسط: الأغلب من الطعام في البيوت، لا الدون الذي يتقشف به أحياناً، ولا الأعلى الذي يتوسع به أحياناً أخرى ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: إعتاق نسمة مملوكة، والتحرير: الإخراج من الرق، ويستعمل التحرير في فك الأسير وإعفاء المجهود بعمل عن عمله، وترك إنزال الضرر به، ومنه قول الفرزدق:

أَبَـنِـيْ غُـدَانَـةَ إِنَّـنِـيْ حَـرَّرْتُـكُـمْ   فَـوَهَـبْـتُـكُـمْ لِـعَـطِـيَّـةِ بْـنِ جَـعَـالِ

أي: حررتكم من الهجاء الذي كان سيضع منكم، ويضر بأحسابكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بالقسم ونون التوكيد في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ﴾.

ومنها: الطباق بين لفظي: ﴿عَدَاوَةً﴾ و﴿مَّوَدَّةً﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ أي: تمتلىء من الدمع، فاستعير الفيض الذي هو الانصباب للامتلاء مبالغة، ثم اشتق من الفيض بمعنى الامتلاء، تفيض بمعنى تمتلىء على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: عتق إنسان. وخص الرقبة بالذكر من بين أجزاء الإنسان؛ لأن الرقبة غالباً محل للتوثق والاستمساك.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾؛ لأن العقد نقيض الحل، حقيقة في الأجسام كالحبل، مجاز في المعاني.

ومنها: إطلاق الخاص وإرادة العام في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾؛ لأن المراد مطلق الانتفاع بالرزق أكلاً أو شرباً أو لبساً أو غير ذلك، وإنما خص الأكل بالذكر من بين أنواع الانتفاعات؛ لأنه أغلب الانتفاع بالرزق.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٩٢) لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٩٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٩٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٩٦) ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٩٨) مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ (٩٩) قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (١٠٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى فيما سلف عن تحريم ما أحل الله من الطيبات، وأمر بأكل ما رزق الله من الحلال الطيب، وكان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر.. بيّن هنا أنهما غير داخلين فيما يحل، بل هما مما يحرم.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ الآية، قال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما أمر الله تعالى بأكل ما رزقهم حلالاً طيباً، ونهاهم عن تحريم ما أحله لهم مما لا إثم فيه، وكان المستطاب المستلذ عندهم الخمر والميسر، وكانوا يقولون: الخمر تطرد الهموم، وتنشط النفس، وتشجع الجبان، وتبعث على المكارم، والميسر يحصل به تنمية المال، ولذة الغلبة.. بيّن تعالى تحريم الخمر والميسر؛ لأن هذه اللذة يقارنها مفاسد عظيمة، ففي الخمر إذهاب العقل، وإتلاف المال، ولذلك ذمَّ بعض حكماء الجاهلية إتلاف المال بها، وجعل ترك ذلك مدحاً فقال:

أَخِي ثِقَةٍ لاَ تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ   وَلَٰكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

وتنشأ عنها مفاسد أُخر من قتل النفس، وشدة البغضاء، وارتكاب المعاصي، والميسر فيه أخذ المال بالباطل، انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن تحريم ما أحل من الطيبات، ثم استثنى الخمر والميسر.. استثنى هنا مما يحل الصيد في حال الإحرام، وأوجب جزاء على من قتله، وبيَّن أن صيد البحر وطعامه حلال، وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية حين ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم، فيتمكنون من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالى لما أمرهم أن لا يحرموا الطيبات، وأخرج من ذلك الخمر والميسر، وهما حرامان دائماً.. أخرج بعده من الطيبات ما حرم في حال دون حال، وهو: الصيد، وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه، ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة، انتهى.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة[1]

---

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى في الآية السالفة المُحْرِمَ عن الاصطياد.. بيّن هنا أن البيت الحرام كما أنه سبب لأمن الوحش والطير، هو سبب لأمن الناس من الآفات والمخاوف، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة.

قال أبو حيان[1]: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة: وذلك أنه تعالى ذكر تعظيم الإحرام بالنهي عن قتل الوحش فيه بحيث شرع بقتله ما شرع، وذكر تعظيم الكعبة بقوله: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ فذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس؛ أي: ركز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى أحد، وصارت وازعة لهم من الأذى، وهم في الجاهلية الجهلاء لا يرجون جنة، ولا يخافون ناراً؛ إذ لم يكن لهم ما يمنعهم من أذى بعضهم، فقامت لهم حرمة الكعبة مقام حرمة الملك، هذا مع تنافسهم وتحاسدهم ومعاداتهم وأخذهم بالثأر، ولذلك جعل الثلاثة المذكورة بعد الكعبة قياماً للناس، فكانوا لا يهيجون أحداً في الشهر الحرام، ولا من ساق الهدي؛ لأنه يعلم أنه لم يجيء لحرب، ولا من خرج يريد البيت بحج أو عمرة، فتقلد من لحى الشجر، ولا من قضى نسكه، فتقلد من شجر الحرم، ولما بعثت قريش زمن الحديبية إلى المؤمنين الحلس.. قال رسول الله ﷺ: «هذا رجل يعظم الحرمة فالقوه بالبدن مشعرة» فلما رآها الحلس عظم عليه ذلك، وقال: ما ينبغي أن يصد هؤلاء، ورجع عن رسالة قريش. انتهى.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أرشدنا إلى بعض آيات علمه في خلقه التي جعل بها البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد.. نبهنا في هذه الآية إلى أن العليم بكل شيء لا يمكن أن يترك الناس سدى، فهو لم يخلقهم عبثاً، ومن ثم لا يليق بحكمته وعدله أن يجعل الذين اجترحوا

---

(١) البحر المحيط.

السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا أن يسوّي بين الطيّب والخبيث، فيجعل البر كالفاجر، والمصلح كالمفسد، بل لا بد من الجزاء بالحق، لذلك جاءت هذه الآيات ترغيباً لعباده وترهيباً لهم ووعداً ووعيداً.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ. . .﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما حذر عن المعصية، ورغب في التوبة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الآية وأتبعه في التكليف بقوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، ثم بالترغيب في الطاعة، والتنفير عن المعصية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. . أتبعه بنوع آخر من الترغيب في الطاعة، والتنفير عن المعصية فقال: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ. . .﴾ الآية، أو يقال: لما بين أن عقابه شديد لمن عصى، وأنه غفور رحيم لمن أطاع. . بين أنه لا يستوي المطيع والعاصي، وإن كان من العصاة والكفار كثرة، فلا يمنعه كثرتهم من عقابهم، ذكره أبو حيان في «البحر».

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[١]: ما رواه أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما: فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ. . .﴾ الآية، فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: إثمٌ كبير، وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمَّ أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أشد منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، ثم نزلت آية أشد من ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قالوا: انتهينا ربنا، فقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وماتوا على سرفهم، وكانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) لباب النقول.

﴿جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . . .﴾ إلى آخر الآية.

وروى النسائي والبيهقي عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا، فلما أن ثمل القوم.. عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه ورأسه ولحيته فيقول: صنع بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فيقول: واللّهِ لو كان بي رؤوفاً رحيماً.. ما صنع بي هذا، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ . . .﴾ الآية. فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان قُتل يوم بدر، وفي بطن فلان قتُل يوم أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . . .﴾ الآية.

قوله تعالى[1]: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمت قال: فقال لي أبو طلحة: أخرج فأهرقها، فجَرَت في سكك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ . . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الواحدي والأصبهاني في «الترغيب» عن جابر: أن النبي ﷺ ذكر تحريم الخمر، فقام أعرابي فقال: إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي فاعتبقت منها مالاً، فهل ينفع ذلك المال إن عملت بطاعة الله تعالى؟ فقال النبي ﷺ: إن الله لا يقبل إلا الطيب، فأنزل الله تعالى تصديقاً لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ . . .﴾ الآية.

وفي «مسند» أحمد، و«مسند» أبي داود والترمذي: أن عمر كان يدعو الله تعالى: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فلما نزلت آية البقرة.. قرأها عليه

---

(١) لباب النقول.

النبي ﷺ، فظل على دعائه، وكذلك لمَّا نزلت آية النساء، فلما نزلت آية المائدة.. دُعي فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال: انتهينا، انتهينا.

وروي في سبب هذه الآيات: أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: فيَّ نزل تحريم الخمر، صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا، فأتاه ناس، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر ـ وذلك قبل تحريمها ـ فتفاخروا، فقالت الأنصار: الأنصار خير، وقالت قريش: قريش خير، فأهوى رجل بلحى جزور ـ فك رأس جزور ـ فضرب على أنفي ففزره، قال: فأتيت النبي ﷺ، فذكرت له ذلك فنزلت.

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج: أن الناس كانوا مغرمين بحبها، كلفين بها، فلو حرمت في أول الإسلام.. لكان تحريمها صارفاً لكثير من المدمنين لها عن الإسلام، ومن ثم جاء تحريمها أولاً في سورة البقرة على وجه فيه مجال للاجتهاد، فيتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه، ثم ذكرها في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة؛ إذ نهى عن القرب من الصلاة في حال السكر، فلم يبقَ لمن يصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء، وضرره قليل، والصبوح من بعد صلاة الصبح لمن لا عمل له، فلا يخشى أن يمتد سكره إلى وقت الظهر، ثم تركهم الله على هذه الحال زمناً قويَ فيه الدين، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثمها وضررها، فحرمها تحريماً باتاً لا هوادة فيه.

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت في البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ شربها قوم لقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وتركها قوم لقوله: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، منهم عثمان بن مظعون حتى نزلت الآية التي في النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فتركها قوم، وشربها قوم يتركونها بالنهار حين الصلاة ويشربونها بالليل حتى نزلت الآية التي في المائدة ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ الآية. قال عمر: أَقُرِنْتِ بالميسر والأنصاب

والأزلام؟ بعداً لكِ وسحقاً، فتركها الناس، ووقع في صدور أناس منها، وقالوا: ما حرم علينا شيء أشد من الخمر حتى جعل الرجل يلقى صاحبه فيقول: إن في نفسي شيئاً، فيقول صاحبه: لعلك تذكر الخمر، فيقول: نعم، فيقول: إنَّ في نفسي مثل ما في نفسك، حتى ذكر ذلك قوم واجتمعوا فيه، فقالوا: كيف نتكلم ورسول الله شاهد ـ حاضر ـ وخافوا أن ينزل فيهم ـ أي قرآن ـ فأتوا رسول الله ﷺ وقد أعدوا له حجة، فقالوا: أرأيت حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، أليسوا في الجنة؟ قال: بلى، قالوا: أليسوا قد مضوا وهم يشربون الخمر، فحرم علينا شيء دخلوا الجنة وهم يشربونه، فقال: «قد سمع الله ما قلتم، فإن شاء أجابكم»، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، فقالوا: انتهينا. ونزل في الذين ذكروا حمزة وأصحابه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . . . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ورسوله وما أنزل إليه ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾؛ أي: إن الخمر التي تشربونها ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ الذي تتياسرونه وتلعبون به ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ التي تذبحون عندها ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾؛ أي: القداح التي تستقسمون بها ﴿رِجْسٌ﴾؛ أي: قذر تعاف منه العقول السليمة، وإثم سخطه الله وكرهه لكم، وهو ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وتحسينه وتزيينه لكم، وقيل: هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه، فاقتدى به بنو آدم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾؛ أي: فاتركوا هذا الرجس ولا تعملوه، وكونوا في جانب غير الجانب الذي هو فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وسلامة أبدانكم والتواد فيما بينكم، فجملة الترجي علة لما قبلها؛ أي: فاجتنبوا هذا المذكور لكي تنجوا من العذاب، وتدركوا الفلاح إذا اجتنبتم هذه المحرمات التي هي رجس.

والخمر: عصير العنب إذا اختمر؛ أي: صار خمراً. والمراد هنا: كل

شراب مسكر؛ لأن الخمر هنا كل ما خامر العقل وغطاه، وقد صح من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «كل شراب أسكر فهو حرام» أخرجاه في «الصحيحين». وزاد الترمذي وأبو داود: «ما أسكر الفَرَقُ منه فملءُ الكف منه حرام». الفَرَق بالتحريك: إناء يسع ستة عشر رطلاً.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر.. لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. تاب الله عليه، فإن عاد.. لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. تاب الله عليه، فإن عاد.. لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة.. لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب.. لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخبال»، قالوا: يا أبا عبد الرحمٰن، وما نهر الخبال؟ قال: صديد أهل النار. أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. وأخرجه النسائي.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه». أخرجه أبو داود.

والميسر: القمار، والقمار كل لعب يشترط فيه أن يأخذ الغالب من المغلوب شيئاً سواء كان بالورق، أو بغيره كالقداح. وسُمي القمار ـ أي: اللعب ـ ميسراً؛ لأن فيه أخذ المال بيسر، ويطلق الميسر أيضاً على الجزور التي كانوا يتقامرون عليها، وذلك أنهم كانوا ينحرون الجزور ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً أو عشرة أقسام، ثم يضربون بالقداح، وفيها الرابح والغفل، فمن خرج له قدح رابح.. فاز وأخذ نصيبه من الجزور، ومن خرج له الغفل.. غرم ثمنها.

والأنصاب: الحجارة التي كانوا يذبحون قرابينهم عندها ويعبدونها ويتقربون إليها، سُميت الأصنام بذلك؛ لأنها تنصب وترفع للعبادة. والأزلام: قداح؛ أي: قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام، كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم.

وبعد أن أمر الله تعالى باجتناب الخمر والميسر.. ذكر أن فيهما مفسدتين:

إحداهما: دنيوية، **وثانيتهما**: دينية، وقد أشار إليهما بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ويقصد ﴿أَن يُوقِعَ﴾ ويوجد ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾ والإيذاء ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾؛ أي: الشحناء ﴿فِى ٱلْخَمْرِ﴾؛ أي: بسبب تزيين شرب الخمر لكم إذا صرتم نشاوى، كما فعل الأنصاري الذي شج رأس سعد بن أبي وقاص بلحى الجمل؛ لأنها تزيل عقل شاربها، فيتكلم بالفحش، وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة، وذلك سبب إيقاع العداوة والبغضاء بين شاربيها ﴿و﴾ بسبب تزيين ﴿الميسر﴾ واللعب بالقمار لكم إذا ذهب ما لكم. وقال[1] قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فيُقمَر ـ يغلب ـ فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره، فيورثه ذلك العداوة والبغضاء، فنهى عن ذلك، فظهر بذلك أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وهذا فيما يتعلق بأمر الدنيا، وفيهما مفاسد تتعلق بأمر الدين، وهي ما ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿و﴾ يريد أن ﴿يصدكم﴾ ويمنعكم ويصرفكم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أفردها بالذكر مع دخولها في ذكر الله تعظيماً لها، وإظهاراً لشرفها؛ لأن شرب الخمر يورث اللذة الجسمانية، والنفس إذا استغرقت فيها.. غفلت عن ذكر الله وعن الصلاة، ولأن الشخص إذا كان غالباً في القمار.. صار استغراقه في لذة الغلبة مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه.

فإن قلتَ[2]: لِمَ جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام في الآية الأولى، ثم أفرد الخمر والميسر في هذه الآية؟

قلتُ: لأن الخطاب مع المؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، والمقصود نهيهم عن شرب الخمر واللعب بالقمار، وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر في الآية الأولى؛ لتأكيد تحريم الخمر والميسر، فلما كان المقصود من الآية النهي عن شرب الخمر والميسر لا جرم.. أفردهما بالذكر في الآية الثانية، والله أعلم.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

والمعنى: أن[1] الشيطان يريد لكم شرب الخمر ومياسرتكم بالقداح ليعادي بعضكم بعضاً، ويبغض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمياسرة، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام، ويصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم تزكية لنفوسكم وتطهيراً لقلوبكم.

أما كون الخمر سبباً لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس حتى الأصدقاء منهم: فلأن شارب الخمر يسكر، فيفقد العقل الذي يمنع من الأقوال والأعمال القبيحة التي تسوء الناس، كما يستولي عليه حب الفخر الكاذب، ويسرع إليه الغضب بالباطل، فكثيراً ما يجتمع الشَرَبَة على مائدة الشراب، فيثير السكر كثيراً من ألوان البغضاء بينهم، وقد ينشأ القتل والضرب، والسلب والفسق والفجور، وإفشاء الأسرار، وهتك الأستار، وخيانة الحكومات والأوطان.

وأما الميسر: فهو مثار العداوة والبغضاء بين المتقامرين، فإن تعداهم فإلى الشامتين والعائبين، ومن تضيع عليهم حقوقهم من الدائنين وغير الدائنين، وكثيراً ما يفرط المقامر في حقوق الوالدين والزوج والأولاد حتى يوشك أن يمقته كل أحد، والميسر مع ما فيه من التوسعة على المحتاجين فيه إجحاف بأرباب الأموال؛ لأن من صار مغلوباً في القمار مرة.. دعاه ذلك إلى اللجاج والتمادي فيه رجاء أن يغلب فيه مرة أخرى، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال، ولا شك أنه بعد ذلك سيصير فقيراً مسكيناً، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا له غالبين.

وأما صدُّ الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة، وهو مفسدتهما الدينية: فذلك أظهر من كونهما مثاراً للعداوة والبغضاء، وهما مفسدتهما الاجتماعية؛ لأن كل سكرة من سكرات الخمر، وكل مرة من لعب القمار، تصد السكران واللاعب وتصرفه عن ذكر الله تعالى الذي هو روح الدين، وعن الصلاة التي هي عماد

---

(١) المراغي.

د الدين؛ إذ السكران لا عقل له يذكر به آلاء الله وآياته، ويثني عليه بأسمائه وصفاته، أو يقيم الصلاة التي هي ذكر الله، ولو ذكر السكران ربه وحاول الصلاة.. لم تصح له، وكذلك المقامر تتوجه جميع قواه العقلية إلى اللعب الذي يرجو منه الربح، ويخشى الخسارة، فلا يتوجه همُّه إلى ذكر الله، ولا يتذكر أوقات الصلاة وما يجب عليه من المحافظة عليها.

وقد دلت المشاهدة على أن القمار أكثر الأعمال التي تشغل القلب وتصرفه عن كل ما سواه، بل يحدث الحريق في دار المقامر، أو تحل المصائب بالأهل والولد، ويستغاث به فلا يغيث، بل يمضي في لعبه، والنوادر في ذلك كثيرة على أن المقامر إذا تذكر الصلاة وترك اللعب لأجلها، فإنه لا يؤدي منها إلا الحركات بدون أدنى تدبر أو خشوع، لكنه على كل حال يفضل السكران، إذ إنه لا يكاد يضبط أفعال الصلاة.

ولما بين الله سبحانه وتعالى علة تحريم الخمر والميسر وحكمته.. أكد ذلك التحريم فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ومنزجرون عن إتيانهما، والاستفهام فيه استفهام تهديدي بمعنى الأمر، وهو أبلغ من الأمر صريحاً، فكأنه قيل: قد بينت لكم ما في هذه الأمور من أنواع الصوارف والموانع والقبائح، فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف، أم أنتم على ما كنتم عليه كأنكم لم توعظوا ولم تزجروا؟

والخلاصة: قد بينتُ لكم مفاسد الخمر والميسر، فهل تنتهون عنهما، أم أنتم مقيمون عليهما كأنكم لم توعظوا بهذه المواعظ؟ وقد أكد[١] الله سبحانه وتعالى تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد:

منها: أنه سماهما رجساً، والرجس كلمة تدل على منتهى ما يكون من القبح والخبث، ومن ثم قال ﷺ: «الخمر أمُّ الخبائث».

ومنها: أنه قرنهما بالأنصاب والأزلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات

---

(١) المراغي.

الشرك، وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة قوله ﷺ: «مدمن الخمر كعابد وثن».

ومنها: أنه جعلهما من عمل الشيطان؛ لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان وسخط الرحمٰن.

ومنها: جعل اجتنابهما سبيلاً للفلاح والفوز بالنجاة.

ومنها: أنه جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء، وهما من أقبح المفاسد الدنيوية التي تولد كثيراً من المعاصي في الأموال والأعراض والأنفس.

ومنها: أنه جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة، وهما روح الدين وعماده وزاده وعتاده.

وفي هذه الآية[1]: دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب، ولما تقرر في الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلاً عن جعله شراباً يشرب.

وقد أجمع المسلمون على ذلك إجماعاً لا شك فيه ولا شبهة، وأجمعوا أيضاً على تحريم بيعها والانتفاع بها ما دامت خمراً. وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر.. دلت أيضاً على تحريم الميسر والأنصاب والأزلام، ثم أكد الله سبحانه وتعالى هذا التحريم بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرهما من سائر المحرمات؛ كالأنصاب والأزلام ونحوهما. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ فيما بيَّنه لكم مما نزل عليكم من نحو قوله: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام». ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾، عن مخالفتهما في التكاليف؛ أي: واحترزوا واجتنبوا مخالفة الله، ومخالفة رسوله ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه، أو المعنى: واحذروا ما يصيبكم إذا أنتم خالفتم أمرهما من فتنة في الدينا، وعذاب في الآخرة، فإنه سبحانه لم يحرم عليكم إلا ما فيه ضرر لكم في دنياكم وآخرتكم، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ

---

(١) الشوكاني.

أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن اتباع أمرهما ونهيهما ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أن الحجة قد قامت عليكم، وانقطعت بكم الأعذار، واستوجبتم السخط، واستحققتم العقاب؛ لأنه ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: التبليغ من الله إليكم البلاغ المبين؛ أي: الواضح بلغة تعلمونها، والرسول قد خرج من عهدة التبليغ كمال الخروج، وما بقي بعد ذلك إلا العقاب؛ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ، وقد أدى ما عليه، وإنما ضررتم به أنفسكم، وفي هذا تهديد أكيد، ووعيد شديد لمن خالف أوامر الله وفعل نواهيه.

ولما قال ناس من الصحابة لرسول الله ﷺ حين حرمت الخمر والميسر: كيف حال إخواننا الذين ماتوا، وهم يشربون الخمر، ويلعبون بالميسر.. أنزل الله فيهم قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وبالقرآن ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وعملوا الأعمال الصالحة فيما بينهم وبين ربهم؛ سواء كانوا من الأحياء أو الأموات ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: إثم ومؤاخذة ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾؛ أي: فيما أكلوا من مال الميسر، أو شربوا من الخمر فيما مضى قبل تحريمهما وتحريم غيرهما مما لم يكن محرماً أولاً ثم حُرِّم. ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾؛ أي: إذا امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بما كان قد نزل من الأحكام ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي كانت قد شرعت كالصلاة والصيام وغيرهما ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ ما حرم عليهم بعد ذلك عند العلم به ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بما نزل فيه وفي غيره ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾؛ أي: استمروا على التقوى بامتثال جميع المأمورات واجتناب جميع المنهيات ﴿وَّأَحْسَنُوا۟﴾؛ صالح أعمالهم، فأتوا بها على وجه الكمال، وتمموا نقص فرائضها بنوافل الطاعات، وأخلصوها لله تعالى ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأعمالهم، والمخلصين لها لوجهه؛ أي: يثيبهم على إخلاصهم، فلا يبقى في قلوبهم أثر من الآثار السيئة التي وصف بها الخمر والميسر من الإيقاع في العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

والخلاصة: أن مَن صحَّ إيمانه، وصلح عمله، وعمل في كل حين نصوص

الدين، وما أداه إليه اجتهاده، واستمر على ذلك حتى ارتقى إلى مقام الإحسان. . فلا يحول ما كان قد أكل أو شرب مما لم يكن محرماً عليه بحسب اعتقاده، دون تزكية نفسه وتطهير قلبه.

وقال الصاوي: والحاصل[1] أنه كرر سبحانه وتعالى قوله: ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ ثلاثاً، فقيل: **الأول**: محمول على مبدأ العمر، **والثاني**: على وسطه، **والثالث**: على آخره. وقيل: **الأول**: اتقوا المحرمات خوف الوقوع في الكفر، **والثاني**: الشبهات خوف الوقوع في المحرمات، **والثالث**: بعض المباحات خوف الوقوع في الشبهات. وقيل: **الأول**: تقوى العبد بينه وبين ربه، **والثاني**: تقوى العبد بينه وبين نفسه، **والثالث**: تقوى العبد بينه وبين الناس؛ لأن العبد لا يكمل إلا إذا كان طائعاً فيما بينه وبين ربه، مجاهداً فيما بينه وبين نفسه، محافظاً على حقوق العباد. انتهى.

تتمة: اختلف[2] العلماء في شرب الخمر والنجاسات عند الضرورة. وأصح الآراء في ذلك: أنه يجوز بشرط الاضطرار الذي يبيح المحرمات من طعام وشراب بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ كمن غُص بلقمة فكاد يختنق، فلم يجد ما يسيغها به سوى الخمر، وكمن أصابته نوبة ألم في القلب كادت تقضي عليه، وقد أخبره الطبيب بأن لا سبيل لدفع الخطر سوى شرب مقدار من الخمر من النوع المعروف باسم: كونياك، فقد يرى الطبيب أنه يتعين في بعض الأحيان لعلاج ما يعرض من آلام القلب لدرء الخطر كما ثبت بالتجربة.

أما التداوي بالخمر لمن يظن نفعها ولو بإخبار الطبيب، كتقوية المعدة أو الدم أو نحو ذلك مما تسمعه من كثير من الناس: فذلك منهي عنه للحديث: «إنه ليس بدواء، ولكنه داء» رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وكان سببه أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر ـ وكان

---

(١) الصاوي.
(٢) المراغي بتصرف في بعض المواضع.

يصنعها ـ فنهاه عنها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال له النبي ﷺ ذلك.

وقوله: «ولكنه داء» هذا هو رأي الأطباء؛ إذ أن المادة المسكرة من الخمر سمٌّ تتوالد منها أمراض كثيرة يموت بها في كل عام عدد لا يحصى من الناس في البلاد التي ابتليت بها، والذين يشربون الخمر ولو بقصد التداوي يؤثِّر سمها في أعصابهم بكثرة التعاطي، فتصير مطلوبة عندهم لذاتها، فيضرهم سُمُّها، فعلى المسلم الصادق الإيمان أن لا يغترَّ برأي بعض الأطباء الذين يصفونها للتداوي لمثل الأمراض التي يصفونها لها عادة. وقد دلت التجارب على أن الذين يبتلون بشربها لا يقدمون على ذلك إلا بإغراء المعاشرين من الأهل والأصحاب على استبشاعهم لها، واعتقادهم ضررها، ومخالفتهم أوامر دينهم، لكن الذي يسهل عليهم ذلك: ظنهم أن الضرر المتيقن إنما يكون بالإسراف والانهماك في الشراب، وأن القليل منها إن لم ينفع فلا يضر، فلا ينبغي تركه مع ما فيه من لذة النشوة، والذهول عن هموم الدنيا وآلامها، إلى ما في ذلك من مجاملة الإخوان، لكنهم مخدوعون؛ إذ هم لو سألوا من سبقهم إلى هذه البلوى وأسرف في السكر حتى فسدت صحته ومروءته، وضاعت ثروته، هل كنت حين بدأت تنوي الإسراف والإدمان؟ لأجابك بأنه ما كان يقصد إلا النزر القليل في فترات متطاولة من الزمن، وما كان يعلم أن القليل يجر إلى الكثير الذي يصيبه بالداء الدوي، ولا يجد إلى الخلاص منه سبيلاً. وقد يعرض لبعض من يؤمن بحرمة الخمر شبهاتٌ فيقول: إن الخمر المتخذة من العنب هي المحرمة لذاتها، وأن ما عداها لا يحرم منه إلا المقدار المسكر فعلاً، لكنهم واهمون فيما فهموا؛ إذ جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام» رواه مسلم من حديث ابن عمر.

وآخر تَعِلَّة[1] لهم: الغرور بكرم الله وعفوه، أو اعتمادهم على بعض الأعمال الصالحة، ولا سيما ما يسمونه بالمكفرات، أو على الشفاعات. وهذا

---

(١) التَعِلَّة ـ بفتح أوله وكسر ثانيه وتشديد اللام ـ: ما يتعلل به ا هـ.

الجهل والغرور يصبح عقيدة في نفوسهم بما يسمعونه من كلام فساق الشعراء المدمنين كأبي نواس في قوله:

تَكَثَّرْ مَا ٱسْتَطَعْتَ مِنَ ٱلْمَعَاصِيْ   فَإِنَّكَ وَاجِدٌ رَبَّاً غَفُوْرَاً

وقوله:

وَرَجَوْتُ عَفْوَ ٱللَّهِ مُعْتَمِدَاً عَلَىٰ   خَيْرِ ٱلأَنَامِ مُحَمَّدِ ٱلْمَبْعُوْثِ

ولو صح أمثال هذا الهذيان.. لكان الدين لغواً وعبثاً، ولكان المسلم يضرب بأوامر دينه عرض الحائط انتظاراً لشفاعة ترجى، أو عفو ربما أتيح له من فضل ربه، وكان التقي والفاجر سواء. وقد ثبت في صحيح الأحاديث: أنه كان يؤتى بالشارب في عهد النبي ﷺ، فيضرب بالأيدي والجريد وبالثيات والنعال. وفي حديث أنس: (أن النبي ﷺ أتىٰ برجل قد شرب الخمر، فجلده بجريدتين نحو أربعين) قال: وفعله أبو بكر، فلما كان عمر.. استشار الناس، فقال عبد الرحمٰن بن عوف: أخف الحدود ثمانون، فأمر به عمر.

وفي «الصحيحين» عن علي رضي الله عنه: ما كنت لأقيم على أحد حداً فيموت وأجد في نفس شيئاً إلا صاحب الخمر، فإنه لو مات وَدَيته ـ أي: دفعت ديته ـ وذلك أن رسول الله ﷺ لم يسنّه. وفي «صحيح مسلم»: أن عثمان أتى بالوليد، وقد صلى الصبح ركعتين، وقال: أزيدكم، وشهد عليه الشهود أنه شرب الخمر، فأمر بجلده، وعلي رضي الله عنه يعد حتى بلغ الأربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي ﷺ وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلٌّ سنة، وهذا أحب إلي ـ يريد الأربعين ـ. وقوله: وكلٌّ سنة؛ أي: أنه جرى العمل به فعلاً، ولا يعارض ذلك قوله: أن النبي ﷺ لم يسن حد الخمر؛ لأن ضربه أربعين مرة واحدة لا يعد سنة محدودة له؛ لأنه قد خالف ذلك في بعض الأحيان، لكنه صار سنة بجري أبي بكر عليه.

والخلاصة: أن العقاب المشروع على شرب الخمر هو الضرب الذي يراد منه إهانة الشارب وزجره وتنفير الناس منه، وأن الضرب أربعين أو ثمانين كان اجتهاداً من الخلفاء، فاختار أبو بكر الأربعين، وعمر الثمانين بموافقته لاجتهاد

عبد الرحمٰن بن عوف بتشبيهه بحد قذف المحصنات. وقد روى الدارقطني عن علي رضي الله عنه قال: إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: وعزتي وجلالي لأختبرنكم في حال إحرامكم بالحج أو العمرة ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾؛ أي: بإرسال شيء من الصيد البري المأكول عليكم ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ أي: يسهل عليكم أخذ صغاره بأيديكم؛ كالطيور، وطعن كباره برماحكم كالوحوش.

قال ابن عطية: والظاهر أن الله خص الأيدي بالذكر؛ لأنها أعظم تصرفاً في الاصطياد، وفيها تدخل الجوارح والحبالات وما عمل باليد من فخاخ وشباك، وخص الرماح بالذكر؛ لأنها أعظم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه. واحتج بعض الناس بهذه الآية على أن الصيد للآخذ لا للمثير؛ لأن المثير لم تنل يده ولا رمحه بعد شيئاً. انتهى.

وقال الصاوي: وهذا الابتلاء نظير ابتلاء الله قوم موسى بتحريم صيد السمك يوم السبت، ولكن الله حفظ هذه الأمة المحمدية من الوقوع فيما يخالف أمر ربهم، فتم لها السعد والعزُّ في الدنيا والآخرة، وأما أُمة موسى، فتعدوا واصطادوا: فمسخوا قردة وخنازير. انتهى.

ووجه الابتلاء في ذلك[١]: أن الصيد طعام لذيذ تشتد الحاجة إليه في الأسفار الطويلة؛ كالسفر إلى الجهات النائية، وأن سهولة تناوله تغري به؛ إذ ترك ما لا ينال إلا بمشقة لا يدل على التقوى والخوف من الله، كما يدل عليه ترك ما ينال بسهولة.

قال البيضاوي[٢]: نزلت في عام الحديبية، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل والتحقير في ﴿بِشَىْءٍ﴾ للتنبيه على

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.

أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام، كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده.. كيف يثبت عند ما هو أشد منه.

وقرأ النخعي وابن وثاب: ﴿يناله﴾ بالياء التحتانية. والجملة من قوله: ﴿تَنَالُهُۥٓ﴾ في موضع الصفة لقوله: ﴿بِشَىْءٍ﴾، أو في موضع الحال منه؛ لأنه قد وصف.

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يختبركم الله سبحانه وتعالى بالصيد في حال إحرامكم ليعلم الله تعالى علم ظهور للعباد ﴿مَن يَخَافُهُۥ﴾؛ أي: من يخاف الله تعالى، ولم يره ويمتثل أمره ونهيه؛ لقوة إيمانه حالة كونه ملتبساً ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ عن الله تعالى؛ أي: غير راء له تعالى، أو المعنى: من يخاف الله تعالى حالة كونه ملابساً بالغيب عن الناس غير مرئي لهم، ولا خائف من إنكارهم.. فيترك أخذ شيء من الصيد، ويختار خشن العيش على لذة اللحم خوفاً من الله تعالى، وطاعة له في خفيته، وعلى هذين المعنيين يكون الجار والمجرور في قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿يخاف﴾، ويحتمل أن يكون حالاً من ضمير المفعول العائد على الله تعالى. والمعنى: ليعلم الله من يخافه حالة كون الله ملتبساً بالغيب عنه؛ أي: غير مرئي له. وقال[1] أبو حيان: ومعنى ﴿لِيَعْلَمَ﴾؛ ليتميز من يخاف عقاب الله تعالى، وهو غائب منتظر في الآخرة، فيترك الصيد، ممن لا يخافه فيقدم عليه، قاله الزمخشري.

وقيل المعنى: ليعلموا أن الله يعلم من يخافه بالغيب؛ أي: في السر حيث لا يراه أحد من الناس، فالخائف لا يصيد، وغير الخائف يصيد. وقال ابن عطية: والظاهر أن المعنى: بالغيب من الناس؛ أي: في الخلوة، مَنْ خاف الله.. انتهى عن الصيد من ذات نفسه. وقال الطبري: معناه في الدنيا، حيث لا يرى العبد ربه، فهو غائب. والمعنى: يختبركم الله تعالى بالصيد ليظهر من يخافه لقوة إيمانه، ويميزه عمن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه.

والخلاصة[2]: أنه تعالى يريد أن يعاملكم معاملة المختبر الذي يريد أن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

يعلم الشيء وإن كان هو عالماً به تربيةً لكم، وتزكية لنفوسكم، وتطهيراً لها. وقرأ الزهري: ﴿لِيُعْلِمَ اللَّهُ﴾ من أعلم الرباعي، وقال ابن عطية: أي ليعلم عباده. انتهى. فيكون من: أعلم المنقولة من عَلِم المتعدية إلى واحد تعدي عرف، فحذف المفعول الأول، وهو: عباده؛ لدلالة المعنى عليه، وبقي المفعول الثاني، وهو: من يخافه.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ بأخذ شيء من ذلك الصيد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان الذي أخبركم الله تعالى به قبل حصوله ﴿فَلَهُۥ﴾؛ أي: فلذلك المعتدي بالاصطياد ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم شديد في الآخرة؛ إذ هو لم يبال باختبار الله له، بل انتهك حرمة نواهيه، وأبان أنه لا يخافه بالغيب، بل يخاف لوم المؤمنين وتعزيرهم له إذا هو أخذ شيئاً من الصيد بمرأى منهم ومسمع، كما هو دأب المنافقين الذين يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾؛ أي: لا تقتلوه ولا تتعرضوا له بإتلاف ولا اصطياد، والحال أنكم محرمون بالحج أو العمرة، أو داخلون في الحرم المكي. نهاهم عن قتل الصيد في حال الإحرام. وفي معناه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وهذا النهي شامل لكل أحد من ذكور المسلمين وإناثهم؛ لأنه يقال: رجل حرام، وامرأة حرام، والجمع: حُرُم، ويقال: أحرم الرجل إذا دخل في الحرم، وأحرم أيضاً إذا عقد الإحرام، فلا يجوز قتل الصيد للمحرم، ولا في الحرم. نزلت[1] هذه الآية في أبي اليسر، شد على حمار وحش فقتله وهو محرم، ثم صار هذا الحكم عاماً، فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له ما دام محرماً، ولا في الحرم، ومقتول المحرم من الصيد ميتة، وإن ذبحه بقطع حلقومه ومريئه، وذلك لأن المحرم ممنوع من ذبحه لمعنى فيه؛ كذبح المجوسي. والمراد بالصيد: كل حيوان متوحش مأكول اللحم، وهذا قول الشافعي. وقال[2] أبو حنيفة: هو كل حيوان

---

(١) الخازن.　(٢) الخازن.

متوحش، سواء كان مأكولاً، أم لم يكن مأكولاً، فيجب عنده الضمان على من قتل سبعاً أو نمراً أو نحو ذلك، واستثنى الشارع خمس فواسق، فأجاز قتلهن مطلقاً. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» متفق عليه. وفي رواية: «خمس لا جناح على مَنْ قتلهن في الحرم والإحرام».

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب كلهن فواسق، يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» متفق عليه. ولمسلم «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم» وذكر نحوه. وفي رواية النسائي قال: «خمس يقتلهن المحرم: الحية، والعقرب، والفأرة، والغراب الأبقع، والكلب العقور» قال ابن عيينة: الكلب العقور: كل سبع ضارٍ يعقر، وقاس الشافعي عليها جميع ما لا يؤكل لحمه، قال: لأن الحديث يشتمل على أشياء بعضها سباع ضارية، وبعضها هوام قاتلة، وبعضها طير لا يدخل في معنى السباع ولا في معنى الهوام، وإنما هو حيوان مستخبث اللحم، وتحريم الأكل يجمع الكل، فاعتبره ورتب عليه الحكم. وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في كل ما لا يؤكل لحمه إلا الأعيان المذكورة في الحديث، وقاسوا عليها الذئب، فلم يوجبوا فيه كفارة. وألحق[1] مالك بالكلب العقور: الذئب، والسبع، والنمر، والفهد؛ لأنها أشد منه ضرراً.

والظاهر أن المراد بالصيد الذي نهت عنه الآية: هو كل حيوان وحشي يؤكل لحمه، فلا جزاء في قتل الأهلي ولا ما لا يؤكل لحمه من السباع والحشرات، ومنها الفواسق المذكورة في الحديث.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾؛ أي: ومن قتل الصيد أو أتلف جزءاً منه ﴿مِنكُم﴾ أيها المؤمنون حالة كونه ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾؛ أي: قاصداً[2] لقتله، ذاكراً لإحرامه، عالماً أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه، فإن قتله ناسياً لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

ليس بصيد.. فهو مخطىء، وإنما شرط التعمد في الآية مع أن محظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ في جزاء الإتلافات؛ لأن مورد الآية فيمن تعمد. فقد روي: أنه عنَّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحشي، فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم، فنزلت الآية؛ ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ ملحق به للتغليظ. وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ.

﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾؛ أي: فعليه[1] ضمان شبه ما قتله من الصيد حالة كون ذلك المثل ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾؛ أي: من الإبل والبقر والغنم؛ أي: ومن قتل شيئاً من الصيد وهو محرم قاصداً قتله.. فعليه جزاءٌ من الأنعام مماثل لما قتله في هيئته وصورته وخلقته إن وجد ذلك المثل. فقد روى الدارقطني عن جابر عن النبي ﷺ قال: «في الضبع إذا أصابه المحرم كبشٌ، وفي الظبي شاةٌ، وفي الأرنب عناقٌ ـ الأنثى من ولد المعز قبل أن تبلغ سنة ـ وفي اليربوع جفرة ـ الأنثى من ولد الضأن التي بلغت أربعة أشهر ـ». وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «الضبع صيد، فإذا أصابه المحرم.. ففيه جزاءٌ كبش مسن، وتؤكل».

وإن لم يوجد المماثل من النعم، فقيمته حيث صيد، أو في أقرب الأماكن إليه. قال القاضي أبو يعلى[2]: والصيد الذي يجب الجزاء بقتله ما كان مأكول اللحم؛ كالغزال وحمار الوحش والنعامة ونحو ذلك، أو كان متولداً من حيوان يؤكل لحمه؛ كالسبع فإنه متولد من الضبع والذئب، وما عدا ذلك من السباع كلها فلا جزاء على قاتلها، سواء ابتدأ قتلها، أو عَدَت عليه فقتلها دفعاً عن نفسه؛ لأن السبع لا مثل له صورة ولا قيمة، فلم يدخل تحت الآية، ولأن النبي ﷺ أجاز للمحرم قتل الحية والعقرب والفويسقة والغراب والحدأة والكلب العقور والسبع العادي. قال: والواجب بقتل الصيد فيما له مثل من الأنعام.. مثله، وفيما لا مثل له.. قيمته، وهو قول مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: الواجب فيه القيمة

---

(١) المراغي. (٢) زاد المسير.

وحمل المثل على القيمة. وظاهر الآية يرد ما قال، ولأن[1] الصحابة حملوا الآية على المثل في الصورة والخلقة والصغر والعظم، فحكموا في بلدان شتى وأزمان مختلفة بالمثل من النعم، فحكموا في النعامة ببدنة، وهي لا تساوي بدنة، وحكموا في حمار الوحش ببقرة، وهو لا يساوي بقرة وكذا في الضبع بكبش، فدل ذلك على أنهم إنما نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، فحكموا به، ولم يعتبروا القيمة، فيجب في الظبي شاة، وفي الأرنب سخل، وفي الضب سخلة، وفي اليربوع جفرة، ويجب في الحمامة وكل ما عب وهدر كالفواخت والقمري وذوات الأطواق شاة، وما سواه من الطير ففيه القيمة في المكان الذي أصيب فيه، وقتل المحرم بحج أو عمرة للصيد حرامٌ بالإجماع لنفس الآية، وأكل المحرم مما صاده الحلال جائز؛ لما روي: (أن النبي ﷺ والصحابة أكلوا مما أهدي إليهم من لحم الحمار الوحشي).

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي[2]: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ بالتنوين ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع، فارتفاع جزاء على أنه مبتدأ خبر محذوف تقديره: فعليه جزاء، ومثل صفة له؛ أي: فعليه جزاء مماثل ما قتل. وقرأ باقي السبعة: ﴿فجزاءُ مثلِ﴾ برفع جزاء وإضافته إلى مثل، فيكون ﴿مثل﴾ مقحماً، والتقدير: فجزاء ما قتل. وقيل: من إضافة المصدر إلى المفعول، ويدل على هذا التقدير قراءة السلمي: ﴿فجزاءٌ﴾ بالرفع والتنوين ﴿مثلَ ما قتل﴾ بالنصب.

وقرأ محمد بن مقاتل ﴿فجزاءَ مثلَ ما قتل﴾ بنصب جزاء ومثل، والتقدير: فليُخرج جزاءً مثلَ ما قتل، و﴿مثل﴾ صفة لـ﴿جزاء﴾. وقرأ الحسن: ﴿من النعْم﴾ بسكون العين تخفيفاً.

فائدة: والظاهر من تقييد المنهيين عن القتل بقوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أنه لو صاد الحلال بالحل، ثم ذبحه في الحرم، فلا ضمان، وهو حلال، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: عليه الجزاء، ذكره أبو حيان في «البحر».

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ﴾؛ أي: حالة كون ذلك الجزاء المماثل يحكم به؛ أي: يحكم بمماثلته ﴿ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: صاحبا عدالة منكم أيها المؤمنون؛ أي: رجلان صالحان من أهل دينكم، فقيهان فطنان في باب الشبه عدلان، فينظران إلى أشبه الأشياء بالمقتول من النعم، فيحكمان به، ووجه الحاجة إلى حكم العدلين: أن المماثلة بين النعم والصيد مما يخفى على أكثر الناس، وما لا مثل له بوجه من الوجوه يحكمان فيه بالقيمة.

قال ميمون بن مهران[1]: جاء أعرابي إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إني أصبت من الصيد كذا وكذا، فسأل أبو بكر رضي الله عنه أُبي بن كعب، فقال الأعرابي: أتيتك أسألك، وأنت تسأل غيرك، فقال أبو بكر رضي الله عنه: وما أنكرت من ذلك، قال تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾، فشاورت صاحبي فإذا اتفقنا على شيء.. أمرناك به.

وعن قبيصة بن جابر: أنه حين كان محرماً ضرب ظبياً فمات، فسأل عمر بن الخطاب ـ وكان بجنبه عبد الرحمٰن بن عوف ـ فقال عمر لعبد الرحمٰن: ما ترى؟ قال: عليه شاة، قال: وأنا أرى ذلك، قال: فاذهب فأهدِ شاة، قال قبيصة: فخرجت إلى صاحبي، وقلت له: إن أمير المؤمنين لم يدر ما يقول حتى سأل غيره، قال: ففاجأني عمر، وعلاني بالدرة، وقال: أتقتل في الحرم، وتسفِّه الحَكَم؟! قال الله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾ فأنا عمر، وهذا عبد الرحمٰن بن عوف.

وقرأ جعفر بن محمد[2]: ﴿يحكم به ذو عدل﴾ بالإفراد، والمراد به: الجنس كما تكون من محمولة على المعنى فتقديره على هذا: فريق ذو عدل، أو حاكم ذو عدل؛ لأن عدلاً هنا مصدر غير وصف، ذكره أبو البقاء. وقوله: ﴿هَدۡيَۢا﴾ حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ صفة لـ﴿هَدۡيَۢا﴾؛ أي: يحكم به؛ أي: بذلك المثل ذوا عدل منكم حالة كون ذلك المثل هدياً بالغ الكعبة؛ أي:

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط والعكبري.

مساقاً إلى أرض الحرم ليذبح فيه ويتصدق به على مساكين الحرم.

وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها، والعرب تسمي كل بيت مرتفع كعبة، والمراد بالكعبة هنا: كل الحرم؛ لأن الذبح لا يقع في الكعبة وعندها ملاقياً لها، وإنما يقع في الحرم، وهو المراد بالبلوغ، فيذبح المثل في الحرم كدم الهدي، ويتصدق به على مساكين الحرم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: يتعين الذبح في الحرم، وأما التصدق به: فحيث شئتَ إذا وصل الهدي إلى الكعبة. والمعنى: إن ذلك الجزاء يكون هدياً يصل إلى الكعبة، ويذبح في جوارها، حيث تؤدى المناسك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم. قال أبو حيان[1]: والحرم كله منحر لهذا الهدي، فما وقف به بعرفة من هدي الجزاء ينحر بمنى، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أن يدخل به من الحل، ولا بد أن يجمع فيه بين حل وحرم حتى يكون بالغاً الكعبة. وقرأ الأعرج: ﴿هِديّاً﴾ بكسر الدال وتشديد الياء. انتهى.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ معطوف على ﴿جزاء﴾، وقوله: ﴿طَعَامُ﴾ - بالرفع - بدل من ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾، أو عطف بيان لها، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي طعام. وقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قدر أمداد ذلك الطعام. ﴿عَدْلُ﴾: معطوف على ﴿طَعَامُ﴾، وقوله: ﴿صِيَامًا﴾ تمييز لـ﴿عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾، والمعنى: فمن قتل الصيد منكم متعمداً، وهو محرم.. فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم، أو كفارة هي إطعام مساكين بقيمة ذلك المثل، لكل مسكين مدٌّ عند الشافعي، ونصف صاع عند أبي حنيفة من غالب قوت البلد، أو كفارة هي صيام أيام تعادل وتساوي عدد أمداد ذلك الطعام الذي هو قيمة المثل عند الشافعي، أو يصوم يوماً بدل نصف صاع عند أبي حنيفة، فيختار الجاني بين هذه الخصال الثلاثة.

---

(١) البحر المحيط.

فصل

ذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن كلمة[1]: ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية للتخيير. وقال أحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة: إنها للترتيب، وهما روايتان عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الشافعي: إذا قتل صيداً له مِثْل.. فهو مخير بين ثلاثة أشياء: إن شاء ذبح المثل من النعم وتصدق به على مساكين الحرم، وإن شاء قَوَّم المثل دراهم، والدراهم طعاماً، ثم يتصدق به على مساكين الحرم، وإن شاء صام عن كل مد من الطعام يوماً، فأي ذلك فعل.. أجزأه موسراً كان أو معسراً، وهو قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: يصوم عن كل نصف صاع يوماً. وعن أحمد روايتان كالقولين، وأصل هذه المسألة: أن الصوم مقدَّر بطعام اليوم، فعند الشافعي مقدر بالمد، وعند أبي حنيفة مقدر بنصف صاع، وله أن يصوم حيث شاء؛ لأنه لا نفع فيه للمساكين.

وذهب جمهور الفقهاء[2]: إلى أن الخيار في تعيين أحد هذه الثلاثة الأشياء إلى قاتل الصيد الذي وجب عليه الكفارة؛ لأن الله تعالى أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير، فوجب أن يكون هو المخير بين أيها شاء. وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة: التخيير إلى الحكمين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ومن قال: إن كلمة ﴿أَوْ﴾ للترتيب قال: إن لم يجد الهدي اشترى طعاماً وتصدق به، فإن كان معسراً صام. وقال مالك: إن لم يخرج المثل من النعم.. يقوِّم الصيد، ثم يجعل القيمة طعاماً، فيتصدق به أو يصوم. وقال أبو حنيفة: لا يجب المثل من النعم، بل يقوَّم الصيد، فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النعم، وإن شاء إلى الطعام، فيتصدق به، وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوماً. واختلفوا في موضع التقويم، فقال جمهور الفقهاء: يقوَّم في المكان الذي قتل فيه الصيد. وقال الشعبي: يقوَّم بمكة بثمن مكة؛ لأنه يصرف بها.

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد.. فعليه فيه الجزاء، فإن قتل ظبياً أو نحوه.. فعليه ذبح شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد.. فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد.. فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أيلاً - من بقر الوحش - فعليه بقرة، فإن لم يجدها.. صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحو ذلك.. فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد.. أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد.. صام ثلاثين يوماً، والطعام مد مد يشبعهم. وقال مالك: بوجوب الشاة في خصوص حمام مكة ويمامها تعبداً، فإن لم يكن.. فصيام عشرة أيام من غير تقويم ولا حكم، وحمام غيرها وسائر الطيور ليس فيه إلا قيمته طعاماً، أو عدله صياماً، ذكره الصاوي.

وقرأ نافع وابن عامر[1]: ﴿كفارة طعام مساكين﴾ بالإضافة، والإضافة تكون بأدنى ملابسة؛ إذ الكفارة تكون كفارة هدي، وكفارة طعام، وكفارة صيام. وقرأ باقي السبعة بالتنوين ورفع ﴿طعام﴾.

وقرأ كذلك الأعرج وعيسى بن عمر إلا أنهما أفردا ﴿مسكين﴾ على أنه اسم جنس. وقرأ الجمهور ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ﴾ بفتح العين، وقرأ ابن عباس وطلحة بن مصرف والجحدري بكسرها.

وقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: أوجبنا عليه ذلك الجزاء بأقسامه الثلاثة ليذوق وبال أمره؛ أي: جزاء ذنبه الصادر منه، وعقوبة هتكه لحرمة الإحرام؛ إما بدفع الغرم، وإما بالعمل ببدنه بما يتعبه ويشق عليه، والوبال في الأصل: الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره، وإنما سمَّى الله ذلك الجزاء وبالاً؛ لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس؛ لأن فيه تنقيصاً للمال، وهو ثقيل على النفس، وكذا الصوم أيضاً ثقيل على النفس؛ لأن فيه إنهاك البدن.

والمعنى[2]: أن الله سبحانه وتعالى أوجب على قاتل الصيد في الإحرام أو في الحرم أحد هذه الأشياء الثلاثة التي كل واحد منها ثقيل على النفس، حتى

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

يحترز عن قتل الصيد في الحرم، أو في حال الإحرام. ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وسامح لكم ﴿عَمَّا سَلَفَۚ﴾ وسبق منكم قبل هذا النهي والتحريم من قتل الصيد في الإحرام أو في الحرم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ ورجع إلى قتل الصيد بعد هذا النهي والتحريم، أو المعنى: ومن قتل الصيد وهو محرم بعد ورود هذا النهي وهو عالم بهذا النهي ﴿فـ﴾ـإنه ﴿ينتقم الله منه﴾؛ أي: يعاقبه في الآخرة عقوبة شديدة مع لزوم الكفارة له في الدنيا.

وقال ابن كثير[1]: ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد.. وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد. وحكىٰ علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: مَن قتل شيئاً من الصيد خطأً وهو محرم.. يحكم عليه فيه كلما قتله، وإن قتله عمداً.. يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك كما قال الله عز وجل. انتهى.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره فلا يغلبه العاصي ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ أي: صاحب عقوبة شديدة لمن عصاه. وقال ابن جرير[2]: في قوله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يقول الله جلَّ ذكره: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

والآية صريحة[3]: في أنَّ الجزاء الدنيوي إنما يمنع عقاب الآخرة إذا لم يتكرر الذنب، فإن تكرر.. استحق صاحبه الجزاء في الدنيا، والعقاب في الآخرة.

---

(١) ابن كثير.

(٢) الطبري.

(٣) المراغي.

مسألة: فإن قلتَ[1]: إن العفو فرع المعصية، وهي تحصل باشتغال المحرم بقتل الصيد بعد نزول آية التحريم، فما معنى العفو عن قتل الصيد قبل تحريمه المفهوم من قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾؟

قلتُ: إن المراد بالعفو هنا مجرد عدم المؤاخذة على ما سلف، فلا يرد السؤال المذكور، أفاده الكرخي، والخطاب في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ إما لكل مسلم أو للمحرمين خاصة؛ أي: أحل لكم أيها الناس صيد جميع المياه العذبة والملحة بحراً كان أو نهراً أو غديراً؛ أي: اصطياد صيد الماء والانتفاع به بأكله، واصطياده لأجل عظامه وأسنانه، وأحل لكم طعام البحر؛ أي: أكله، فالصيد هو ما صيد بالحيلة حال حياته ثم مات. والطعام ما يوجد مما لفظه البحر، أو نضب عنه الماء، ويحصل من غير معالجة في أخذه. والمعنى: وأحل لكم ما صيد من البحر ثم مات، وما قذفه البحر ميتاً، وروي هذا المعنى عن ابن عباس و ابن عمر وقتادة.

والخلاصة: أن المراد بطعامه عندهم: ما لا عمل للإنسان فيه ولا كلفة في اصطياده؛ كالذي يطفو على وجهه، والذي يقذف به إلى الساحل، والذي ينحسر عنه الماء وقت الجزر، ولا فرق بين حيه وميته.

فصل في حيوان الماء

واعلم: أن[2] جملة حيوان الماء على قسمين: سمك وغير سمك.

فأمَّا السمك: فجميعه حلال على اختلاف أجناسه وأنواعه. قال رسول الله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه، والحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي. ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب، فيحل أكله. وقال أبو حنيفة: لا يحل إلا أن يموت بسبب.

وما عدا السمك فقسمان: قسم يعيش في البر والبحر؛ كالضفدع والسرطان والتمساح والسلحفاة، فلا يحل أكلها. وقال سفيان: أرجو أن لا يكون بالسرطان

---

(١) الفتوحات بتصرف. (٢) الخازن والمراح.

بأس. وقال الشافعي: السمكة الطافية في البحر حلال، والسمكة عنده كل ما لا يعيش إلا في الماء، ولو كان على صورة غير المأكول من حيوان البر؛ كالآدمي والكلب والخنزير، فهذا كله حلال عنده، وحجته الخبر السابق وهذه الآية؛ لأنها نزلت في قوم من بني مدلج كانوا أهل صيد البحر، سألوا النبي ﷺ عن طعام البحر، وعما حسر البحر عنه. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾؛ أي: ما حسر عنه البحر وألقاه. وقال أحمد: يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح؛ لأن التمساح يفترس ويأكل الناس. وقال ابن أبي ليلى ومالك: يباح كل ما في البحر.

وذهب جماعة إلى أن ما له نظير يؤكل من حيوان البر يؤكل مثل: بقر الماء ونحوه، ولا يؤكل ما لا يؤكل نظيره في البر مثل: كلب الماء وخنزيره. واختلفوا[1] في الجراد فقيل: هو من صيد البحر، فيحل أكله للمحرم. وذهب جمهور العلماء إلى أنه من صيد البر، وأنه لا يحل للمحرم أكله في حال الإحرام، فإن أصاب جرادة فعليه صدقة. قال عمر: في الجرادة تمرة، وعنه وعن ابن عباس رضي الله عنهم: قبضة من طعام. وكذلك طير الماء، فهو من صيد البر أيضاً.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ أيها المقيمون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾؛ أي: وللمسافرين منكم؛ أي: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر وأكله متاعاً لكم؛ أي: تمتيعاً ومنفعة لمن كان منكم مقيماً في بلده، يستمتع بأكله طرياً، وينتفع به، ومنفعة ومتعة للسائرين والمسافرين منكم من أرض إلى أرض، يجعلونه قديداً، ويتزودونه في سفرهم مليحاً للأكل، أو للبيع كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾؛ أي: أكل ما يصاد في البر، وهو كل ما لا يعيش إلا في البر ﴿مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾؛ أي: مدة كونكم محرمين بحج أو عمرة. وظاهره تحريم صيده على المحرم، ولو كان الصائد حلالاً، وإليه ذهب الجمهور إذا كان الصائد صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله، وهو القول الراجح، وبه يجمع بين الأحاديث الآتية. وقيل: إنه يحل له مطلقاً، وإليه ذهب

---

(١) الخازن.

جماعة. وقيل: يحرم عليه مطلقاً، وإليه ذهب آخرون. وقد بسطنا الكلام على هذا الاختلاف في الفصل الآتي مع ذكر حجة كل واحد منهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة[1]:

أحدها: في أول السورة، وهو قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والثاني: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والثالث: هذه الآية: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ كل ذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم.

وقرأ ابن عباس: ﴿وَحَرَّمَ﴾ مبنياً للفاعل و﴿صَيْدُ﴾ بالنصب ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ بفتح الحاء والراء. وقرأ يحيى: ﴿ما دِمتُم﴾ بكسر الدال، وهو لغة يقال: دام يدام كخاف يخاف.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا اللّه ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون وترجعون إليه للمجازاة، لا إلى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالتجاء إلى ذلك الغير، فلا غير يلتجأ إليه، بل الأمر محصور فيه تعالى.

والمعنى[2]: واخشوا الله تعالى، واحذروا عقابه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه من جميع ما تقدم من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وإصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم، وفي نحو ذلك، فإن إليه مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم، ويثيبكم على طاعتكم، ولا يخفى ما فيه من التشديد والمبالغة في التحذير من عقابه.

فصل

وقد اختلف العلماء: هل يجوز للمحرم أن يأكل من لحم صيد صاده غيره؟

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

فذهب قوم: إلى أنه لا يحل ذلك بحال، يروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول طاووس، وإليه ذهب الثوري، واحتجوا على ذلك: بما روي عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً ـ وهو بالأبواء أو بودان ـ فرده عليه ﷺ، فلما رأى ما في وجهه من الكراهة. قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنَّا حُرُم». أخرجاه في «الصحيحين».

وذهب جمهور العلماء: إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه، ولا صيد له، ولا دلَّ عليه بإشارته، ولا أعان عليه، وهذا قول عمر وعثمان وأبي هريرة رضي الله عنهم، وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وأصحاب الرأي، ويدل عليه: ما روي عن أبي قتادة الأنصاري قال: كنت جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ في منزل في طريق مكة، ورسول الله ﷺ أمامنا، والقوم محرمون، وأنا غير محرم عام الحديبية، فأبصروا حماراً وحشياً، وأنا مشغول أخصف نعلاً، فلم يؤذنوا لي، وأحبوا لو أني أبصرته، فالتفت فأبصرته، فقمت إلى الفرس فأسرجته، ثم ركبت ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح، قالوا: لا والله، لا نعينك عليه، فغضبت ونزلت، فأخذتهما، ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته، ثم جئت به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلون، ثم إنهم شكُّوا في أكلهم إياه وهم حرم، فَرُحْنَا وخبأت العضد، فأدركنا رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك فقال: «هل معكم منه شيء»؟ فقلت: نعم، فناولته العضد، فأكل منها، وهو محرم. وزاد في رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: «إنما هي طعمة أطعمكموها الله»، وفي رواية: «هو حلال فكلوه»، وفي رواية: قال لهم رسول الله ﷺ: «هل منكم أحدٌ أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها، قالوا: لا، قال: كلوا ما بقي من لحمها» أخرجاه في «الصحيحين». وأجاب أصحاب هذا المذهب من حديث الصعب بن جثامة: بأنه إنما ردَّه النبي ﷺ؛ لأنه ظن أنه إنما صيد لأجله، والمحرم لا يأكل ما صيد لأجله، والله أعلم.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ وسميت الكعبة كعبة لتربيعها؛ أي: لكونها مربعة من التكعيب بمعنى: التربيع، وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة.

وقيل: سميت كعبة لارتفاعها وبروزها، وكل بارز كعبٌ مستديراً كان أو غير مستدير، ومنه: كَعْب القدم، وكعوب القنا، وكعب ثدي المرأة، وسمي بيتاً؛ لأن له سقوفاً وجداراً، وهي حقيقة البيت وإن لم يكن به ساكن، وسمي حراماً؛ لتحريم الله تعالى إياه وتعظيمه وتشريفه بأداء المناسك فيه، وبعدم تنفير صيده، وعدم قطع شجره وخلاه. والمراد بالبيت الحرام: جميع الحرم؛ لما صح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال: «إن هذا البلد حرَّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه» متفق عليه.

و﴿البيت الحرام﴾ بدل من ﴿الكعبة﴾ أو عطف بيان منه؛ أي: أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الكعبة التي هي بيت الله الحرام ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: أمناً وسبباً لحصول مصالح الناس ومنافعهم في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم. أمَّا في أمر الدين: فإنه بها يقوم الحج وتتم المناسك، وضوعفت الحسنات فيها، وأما في أمر الدنيا: فإن مكة بلدة لا ضرع فيها، ولا زرع، وقلما يوجد فيها ما يحتاج إليه أهلها، فجعل الله الكعبة معظمة في قلوب الناس يرغب الناس جميعاً في زيارتها والسفر إليها من كل فج عميقٍ لأداء المناسك، وللتجارة، فصار ذلك سبباً في إسباغ النعم على أهل مكة إجابةً لدعوة إبراهيم عليه السلام، وكان العرب يتقاتلون ويغيرون إلا في الحرم حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم. . لم يتعرض له، ولو جنى أعظم الجنايات كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ فصار أهل مكة آمنين على أنفسهم وأموالهم، كما أنهم صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته، والسادة المعظمين إلى يوم القيامة. وأما في أمر آخرتهم: فإن البيت جُعل لقيام المناسك عنده، وجعلت تلك المناسك التي تقام عنده أسباباً لعلو الدرجات، وتكفير الخطيئات، وزيادة الكرامات والمثوبات، فلما كانت الكعبة الشريفة سبباً لحصول هذه الأشياء. . كانت سبباً لقيام الناس.

وقرأ ابن عامر[1]: ﴿قِيَما﴾ بغير ألف بوزن عِنَب، فإن كان أصله ﴿قياما﴾ بالألف، وحذفت فقيل: حكم هذا أن يجيء في الشعر، وإن كان مصدراً على فِعَل.. كان قياسه أن تصح فيه الواو كعوض.

وقرأ الجحدري: ﴿قيما﴾ - بفتح القاف وتشديد الياء المكسورة - وهو كسيد: اسم يدل على ثبوت الوصف من غير تقييد بزمان.

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾؛ أي: وكذلك جعل الله سبحانه وتعالى الأشهر الحرم قياماً للناس، والمراد بالشهر الحرام: الجنس، فيشمل الأشهر الأربعة: ذا القعدة وذا الحجة والمحرم ورجب؛ أي: سبباً لحصول مصالحهم وأمناً في معاشهم وحياتهم؛ لأن العرب كان يقتل بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض في سائر الأشهر حتى إذا استهل الشهر الحرام.. زال الخوف، وقدروا على الأسفار والتجارات، وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم، وكانوا يحصلون فيه من الأقوات ما يكفيهم طول العام، ولولاه لتفانوا من الجوع والشدة ﴿و﴾ كذلك جعل الله سبحانه وتعالى ﴿الهدي﴾ سبباً لقيام الناس ومصالحهم، وهو ما يهدى إلى الحرم ويذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكينه، فيكون ذلك نسكاً للمُهدي وقواماً لمعيشة الفقراء ﴿و﴾ كذلك جعل الله سبحانه وتعالى ﴿القلائد﴾ قياماً للناس، وسبباً لمصالحهم، وهي ما يتخذ من لحاء شجر الحرم، فيعلق في عنق الإبل مثلاً؛ ليعلم أنه هدي للحرم، أو يعلّقه الشخص في عنقه؛ ليأمن من العدو؛ إذ أن من قصد البيت في الشهر الحرام.. لم يتعرض له أحد، ومن قصده في غير الشهر الحرام، ومعه هدي، وقلده، وقلد نفسه من لحاء شجر الحرم.. لم يتعرض له أحد؛ لأن الله تعالى أوقع في قلوبهم تعظيم البيت، فكل من قصده أو تقرب إليه.. صار آمناً من جميع الآفات والمخاوف.

ولما[2] كانت الكعبة موضعاً مخصوصاً لا يصل إليه كل خائف.. جعل الله الأشهر الحرم والهدي والقلائد قياماً للناس كالكعبة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجعل المذكور

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

والتدبير اللطيف ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾؛ أي: لأجل أن تتفكروا فيه أيها المؤمنون وتعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يعلم مصالح ما في السموات وما في الأرض الدينية والدنيوية، يعني: أنه تعالى علم في الأزل بمصالح العباد وما يحتاجون إليه، فجعل الكعبة البيت الحرام، والشهر الحرام، والهدي، والقلائد يأمنون بها؛ لأنه يعلم مصالح العباد كما يعلم تفاصيل ما في السموات وما في الأرض. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميم بعد تخصيص؛ أي: وكيف لا يعلم ذلك، وأن علمه محيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية.

والخلاصة(١): أن ذلك لم يكن إلا لحكمة بالغة صادرة عن علم بخفايا الأمور وغاياتها، فكان دليلاً على أنه سبحانه يعلم ما في السموات وما في الأرض من أسباب الرزق ونظام الخلق وغير ذلك، وأنه عليم بكل شيء فلا تخفى عليه خافية، وقد عجزت جميع الأمم في القديم والحديث عن تأمين الناس في قطر من الأقطار في زمنٍ معين من كل سنة بحيث لا يقع فيه قتل ولا قتال ولا عدوان.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ أي: اعلموا أن ربكم الله الذي لا يخفى عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلانيتها، وهو محصيها عليكم شديد العقاب والعذاب لمن دنس نفسه بالشرك والفسوق والعصيان. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: غفار لمن أناب إليه وتاب عن معاصيه ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن أطاعه وحافظ على طاعته، فلا يؤاخذه بما فرط منه قبل الإيمان، ولا بما يعمله من السوء بجهالة إذا بادر إلى التوبة وأصلح عمله، بل يستر ذنبه ويمحوه، فلا يبقى له أثر مع إيمانه وعمله الصالح، كما يستر الماء القليل القذر بما يغمره من الماء النقي الكثير، وفي تقديم العقاب على المغفرة والرحمة إيماءٌ إلى أن العقاب قد ينتهي بالمغفرة والرحمة؛ لأن رحمته تعالى سبقت غضبه، كما ورد في صحيح الحديث، ومن ثم

---

(١) المراغي.

يغفر كثيراً لمن ظلم نفسه. قال تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾. وبعد أن أبان الله سبحانه وتعالى أن الجزاء بيد الله العليم بكل شيء.. ذكر وظيفة الرسول، وهو توصيل الأحكام إلى أمته فقال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، وكذا سائر رسل الله تعالى صلوات الله عليهم أجمعين؛ أي: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم بالإنذار بالعقاب بين يدي عذاب شديد، والإعذار إليكم بما يقطع حججكم. ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: إلا أن يؤدي الرسالة إليكم ثم إلينا الثواب على الطاعة، وعلينا العقاب على المعصية، ولا يخفى علينا المطيع لأوامرنا، والعاصي التارك للعمل بها، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ وتظهرون من الأعمال الحسنة والسيئة ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: وما تخفون في قلوبكم من الإيمان والنفاق والشرك، فيجازيكم عليها؛ إذ لا يغيب عنه شيء من ضمائر الصدور، وظواهر أعمال النفوس، فخليق بكم أن تتقوني ولا تعصوا أمري، وفي هذه الجملة وعد ووعيد. وفي هذا وعيد شديد وتهديد لمن يخالف أوامر الله ويعصيه، كما أن فيه إبطالاً لما عليه أهل الشرك والضلال من الخوف من معبوداتهم الباطلة، والتماس الخلاص والنجاة من العذاب بشفاعتها.

والخلاصة[1]: أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ لدين الله وشرعه، وبعدئذ يكون المبلغون هم المسؤولون عند الله تعالى، والله الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون من العقائد والأقوال والأفعال، وهو الذي يجازيهم بحسب علمه المحيط بكل ذرة في الأرض والسموات، ويكون جزاؤه حقاً وعدلاً، ويزيد بعد ذلك من إحسانه عليهم وفضله، فاطلبوا سعادتكم من أنفسكم، وخافوا منها عليها.

وما ورد من الشفاعة في الآخرة فهو دعاء من النبي ﷺ يستجيبه الله، فيظهر عقبه ما سبق به علمه واقتضته حكمته بحسب ما جاء في كتابه دون أن يكون مؤثراً في علم الله ولا في إرادته، فالحادث لا يؤثر في القديم.

وبعد أن بين الله تعالى أن الجزاء منوط بالأعمال.. أراد أن يبين ما يتعلق

---

(١) المراغي.

به الجزاء من صفات الأعمال، والعاملين لها، وأرشد إلى أن هناك حقيقتين مختلفتين يترتب على كل منهما ما يليق بها من الجزاء، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد مخاطباً أمتك ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾؛ أي: لا يستوي الرديء والجيد من الأشياء والأعمال والأموال، فلا يتساوى الضار والنافع، ولا الفاسد ولا الصالح، ولا الحرام والحلال، ولا الظالم والعادل، ولا المسلم والكافر، فلكل منها حكم يليق به عند الله الذي يضع كل شيء في موضعه بحسب علمه؛ أي: لا يستويان في أنفسهما ولا عند الله وعند الناس: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ وأحبك وسرك أيها المخاطب ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ من الناس، أو من الأموال المحرمة؛ لسهولة تناولها والتوسع في التمتع بها؛ كأكل الربا والرشوة والخيانة.

والمراد[1]: نفي الاستواء في كل الأحوال ولو في حال كون الخبيث معجباً للرائي للكثرة التي فيه، فإن هذه الكثرة مع الخبيث في حكم العدم؛ لأن خبث الشيء يبطل فائدته، ويمحق بركته، ويذهب بمنفعته. والواو إما للحال، أو للعطف على مقدَّر؛ أي: لا يستوي الخبيث والطيب لو لم تعجبك كثرة الخيث، ولو أعجبك كثرة الخبيث كقولك: أحسن إلى فلان، وإن أساء إليك؛ أي: أحسن إليه إن لم يسىء إليك، وإن أساء إليك. وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ أي: ولو أعجبك كثرة فلا يستويان.

الخلاصة: أنهما لا يستويان لا في أنفسهما، ولا عند الله، ولو فرض أن كثرة الخبيث أعجبتك وغرتك، فصرت بعيداً عن إدراك تلك الحقيقة؛ وهي: أن القليل من الحلال خير من كثير من الحرام حسن عاقبة في الدنيا والآخرة، ألا ترى أن القليل الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الرديء الذي لا يغني غناءه، ولا يفيد فائدته، بل ربما يضر ويؤذي صاحبه، فكذلك الحال بالنسبة إلى الناس، فالقليل الطيب منهم خير من الكثير الخبيث، فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثيرة من الجبناء المتخاذلين، وجماعة قليلة من ذوي

---

(١) الشوكاني.

البصيرة والرأي تأتي من الأعمال ما يعجز عنه الكثير من أهل الحمق والبلاهة، فالعبرة بالصفة لا بالعدد، والكثرة لا تكون خيراً إلا بعد التساوي في الصفات الفاضلة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله تعالى فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تعدلوا من الطيب إلى الخبيث من الأعمال والأموال ظاهراً وباطناً ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يا أصحاب العقول الكاملة السليمة الخالصة من الأمراض التي تدنسها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تظفروا بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة.

والمعنى: فاتقوا الله يا أرباب العقول الراجحة، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان، فتغتروا بكثرة المال الخبيث، وكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين، فتقوى الله هي التي تجعلكم من الطيبين، وبها يرجى أن تكونوا من المفلحين الفائزين بخيري الدنيا والآخرة.

وخصَّ أولي الألباب بالاعتبار؛ لأنهم هم أهل الروية والبصر بعواقب الأمور التي ترشد إليها مقدماتها بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها. أمَّا الأغرار الغافلون: فلا يفيدهم وعظ واعظ، ولا تذكير مذكر، فلا يعتبرون بما يرون بأعينهم، ولا بما يسمعون بآذانهم، كما يُشاهد ويرى من حال كثير من الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة التي جمعت من الحرام، وحال الدول التي ذهب ريحها بخلوها من فضيلتي العلم والخلق، وورثها من كانوا أقل منهم رجالاً ومالاً؛ إذ كانوا أفضل منهم أخلاقاً وأعمالاً.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأيُّ. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر بمعنى ما النافية

وإلا المثبتة. ﴿ٱلْخَمْرُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾: معطوفة عليه، وكذلك ﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْخَمْرُ﴾. ﴿رِجْسٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رِجْسٌ﴾. ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، وأردتم ما هو الواجب عليكم.. فأقول لكم: اجتنبوه. ﴿اجتنبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: لعل: حرف ترج ونصب، والكاف ضمير المخاطبين في محل النصب اسمها. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُوقِعَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿بَيْنَكُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُوقِعَ﴾. ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: معطوف عليه. ﴿فِى﴾: حرف جر وسبب. ﴿ٱلْخَمْرِ﴾: مجرور به. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾: معطوف عليه، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يُوقِعَ﴾، وجملة يوقع صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يريد﴾ تقديره: إنما يريد الشيطان إيقاعه العداوة والبغضاء بينكم بسبب الخمر والميسر. ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يُوقِعَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يصدكم﴾. ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿فَهَلْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن الشيطان يريد أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء

بسبب الخمر والميسر، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: هل أنتم منتهون؛ أي: انتهوا عن الخمر والميسر. ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الاستخباري الذي هو بمعنى الأمر مبني على السكون. ﴿أَنتُم﴾: مبتدأ. ﴿مُّنتَهُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة الاستفهام من حيث ما تضمنته من الأمر، والتقدير: انتهوا عن الخمر والميسر، وأطيعوا الله بالانتهاء عنهما ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾. ﴿وَٱحْذَرُواْۚ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، ومفعوله محذوف تقديره: واحذروا المعاصي كلها. ﴿فَإِن﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إذا عرفتم وجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسول الله ﷺ، وأردتم بيان حكم ما إذا خالفتم الله والرسول.. فأقول لكم: ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. وفي «الفتوحات»: جواب الشرط محذوف تقديره: فجزائكم علينا، والمذكور دال على الجواب لا جواب. ﴿أَنَّمَا﴾: أن حرف نصب ومصدر. ما: كافة. ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة له، والجملة من المبتدأ والخبر صلة ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: فاعلموا كون البلاغ المبين على رسولنا لا غير.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: في حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر بـ﴿في﴾، الجار والمجرور صفة لـ﴿جُنَاحٌ﴾، أو متعلق بـ﴿جُنَاحٌ﴾ أو بـ﴿لَيْسَ﴾، أو متعلق بما تعلق به الخبر. ﴿طَعِمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: فيما طعموه من الخمر والميسر. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مَا﴾: زائدة. ﴿ٱتَّقَوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أيضاً، والظرف متعلق بالجواب المحذوف المعلوم من السياق تقديره: لا يأثمون ولا يؤاخذون وقت اتقائهم، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة، ويجوز أن تكون ﴿إِذَا﴾ ظرفاً مجرداً عن الشرط، وأن تكون شرطية وجوابها محذوف كما قدرنا آنفاً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿ٱتَّقَوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾. ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ الذي قبله. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾: معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾. ﴿وَّأَحْسَنُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ قبله. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة

لـ﴿أيُّ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿يبلونكم﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بِشَيْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبلون﴾. ﴿مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿شيء﴾ تقديره: بشيء كائن من الصيد. ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَيْدِيكُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿شيء﴾، أو في محل النصب حال من ﴿شيء﴾ لتخصصه بالصفة. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾: اللام: حرف جر وتعليل. ﴿يعلم الله﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يعلم﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿يَخَافُهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور حال من ضمير الفاعل في ﴿يخاف﴾؛ أي: يخاف الله حالة كونه غائباً عن الله، ومعنى كون العبد غائباً عن الله: أنه لم يرَ الله تعالى، أو حال من ضمير المفعول؛ أي: من يخاف الله حالة كونه تعالى ملتبساً بالغيب عن العبد؛ أي: غير مرئي له، وجملة ﴿يخاف﴾ من الفعل والفاعل صلة ﴿مَن﴾ الموصول، وجملة ﴿يعلم﴾ من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: لعلم الله علم ظهور للخلق من يخافه بالغيب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يبلون﴾.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَمَنِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ابتلاء الله لكم بالصيد ليعلم الله من يخافه بالغيب، وأردتم بيان حكم من اعتدى على الصيد بعد النهي المفهوم من هذا الابتلاء.. فأقول لكم: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما ﴿ٱعْتَدَىٰ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله

ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱعْتَدَىٰ﴾. ﴿فَلَهُۥ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿له﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأي ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿حُرُمٌ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَقْتُلُوا۟﴾.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿قَتَلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿قَتَلَهُۥ﴾؛ أي: كائناً منكم، وقوله متعمداً حال أيضاً من فاعل ﴿قَتَلَ﴾ فعلى رأي مَنْ يجوّز تعدد الحال، يجوز ذلك هنا، ومن منع يقول: إن ﴿مِنكُم﴾ للبيان متعلق بـ﴿قَتَلَ﴾ حتى لا تتعدد الحال. ﴿فَجَزَآءٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿جزاء﴾: مبتدأ وخبره محذوف تقديره: فعليه جزاء، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع صفة لـ﴿جزاء﴾؛ لأنه بمعنى: مماثل، أو بدل منه. ويقرأ على المشهور بإضافة ﴿جزاء﴾ إلى المثل، وإعراب الجزاء يكون على ما تقدم، ﴿مِّثْلِ﴾ في هذه القراءة

مقحم كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ﴿مِّثْلُ﴾ مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الجر مضاف إليه. ﴿قَتَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مِنَ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: قتله. ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مِّثْلُ﴾، أو صفة له.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾.

﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿ذَوَا﴾: فاعل مرفوع بالألف؛ لأنه من المثنى. ﴿عَدْلٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ذَوَا﴾؛ أي: كائنان منكم، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿جزاء﴾ إذا نونته، وأما على الإضافة فهو في موضع الحال، والعامل فيه معنى الاستقرار المقدَّر في الخبر المحذوف ﴿هَدْيًۢا﴾: حال من ﴿جزاء﴾ على كل من القراءتين، أو من ضمير به، أو منصوب على المصدرية؛ أي: يهديه هدياً، أو منصوب على التمييز. ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: صفة لـ﴿هَدْيًۢا﴾، وإن أضيف إلى ما بعده؛ لأن إضافته لفظية لا تفيد تعريفاً. ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾: معطوف على ﴿جزاء﴾؛ أي: أو عليه كفارة إذا لم يجد المثل. ﴿طَعَامُ﴾: بدل من ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي طعام، ويقرأ بالإضافة، والإضافة فيه لتبيين المضاف ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾: معطوف على ﴿جزاء﴾؛ أي: أو عليه عدل ذلك ﴿صِيَامًا﴾: تمييز لـ﴿عَدْلٍ﴾ كقولهم على التمرة مثلها زبداً؛ لأن المعنى: أو قدر ذلك صياماً. ﴿لِّيَذُوقَ﴾ اللام لام كي. ﴿يذوق﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على قاتل الصيد عمداً. ﴿وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لذوقه وبال أمره؛ أي: جزاء ذنبه، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أوجبنا عليه ذلك الجزاء لذوقه وبال أمره.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عفا﴾. ﴿سَلَفَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿وَمَنْ﴾: الواو: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿عَادَ﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية جوازاً. ﴿ينتقم الله﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، ولم يجزم لفظه مشاكلة لفعل الشرط، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾. ﴿مِنْهُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ينتقم﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر. ﴿ذُو﴾: صفة لـ﴿عَزِيزٌ﴾ مرفوع بالواو. ﴿ٱنتِقَامٍ﴾: مضاف إليه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

﴿أُحِلَّ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾: نائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: معطوف على ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾. ﴿مَتَٰعًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: أحل لكم صيد البحر وطعامه تمتيعاً لكم؛ أي: لأجل تمتعكم وانتفاعكم، وقيل: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف تقديره: متعكم الله بذلك تمتيعاً. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مَتَٰعًا﴾؛ لأنه اسم مصدر لمتَّعَ المضعف. ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَحُرِّمَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية ظرفية. ﴿دُمْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿حُرُمًا﴾: خبره وجملة دام من اسمها وخبرها صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: مدة دوامكم محرمين، والظرف المقدر متعلق بـ﴿حرم﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة للجلالة. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير إليه. ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿الْكَعْبَةَ﴾: مفعول أول. ﴿الْبَيْتَ﴾: بدل من ﴿الْكَعْبَةَ﴾، أو عطف بيان منه. ﴿الْحَرَامَ﴾: صفة لـ﴿الْبَيْتَ﴾. ﴿قِيَامًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان جعل بمعنى: صيّر، وإن كان جعل بمعنى: خلق.. فقياماً حال من ﴿الْكَعْبَةَ﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قِيَامًا﴾. ﴿وَالشَّهْرَ﴾: معطوف على ﴿الْكَعْبَةَ﴾. ﴿الْحَرَامَ﴾: صفة لـ﴿الشهر﴾. ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾: معطوفان أيضاً على ﴿الْكَعْبَةَ﴾، فالمعفول الثاني، أو الحال محذوف لفهم المعنى؛ أي: جعل الله أيضاً الشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً. اهـ «سمين».

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِتَعْلَمُوا﴾: اللام: حرف جر وتعليل. ﴿تعلموا﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك كائن لعلمكم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

وفي «السمين»: ﴿ذَلِكَ﴾ فيه ثلاثة أوجه من الإعراب:

أحدها: أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الحكم الذي حكمناه ذلك لا غير.

والثاني: أنه مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: ذلك الحكم هو الحق لا غيره.

والثالث: أنه منصوب بفعل مقدَّر يدل عليه السياق؛ أي: شرع الله ذلك، وهذا أقواها؛ لتعلق لام العلة به. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ خبرها، وجملة ﴿أَنَّ﴾ وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لتعلموا؛ لأن علم هنا بمعنى: عرف يتعدى لمفعول واحد تقديره: لتعلموا علم الله ما في السموات وما في الأرض. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أن مرفوع، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من أنَّ الأولى تقديره: ذلك لتعلموا علم الله ما في السموات، وما في الأرض، وعلمه بكل شيء.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، ومضاف إليه وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ تقديره: اعلموا كون الله شديد العقاب، وجملة قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من جملة ﴿أَنَّ﴾ الأولى تقديره: اعلموا كون الله شديد العقاب، وكونه غفوراً رحيماً.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. وفي «الفتوحات»: وفي رفعه وجهان:

أحدهما: أنه فاعل بالجار قبله لاعتماده على النفي؛ أي: ما استقر على الرسول إلا البلاغ.

الثاني: أنه مبتدأ: وخبره الجار قبله، وعلى كل من التقديرين فالاستثناء مفرغ. اهـ «سمين». ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿تُبْدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تبدونه. ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُبْدُونَ﴾، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قُل﴾، وإنْ شئت قلتَ: ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَسْتَوِي الْخَبِيثُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَالطَّيِّبُ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَعْجَبَكَ﴾: فعل ومفعول. ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجواب ﴿لو﴾ محذوف معلوم مما قبلها تقديره: ولو أعجبك كثرة الخبيث لا يستوي الخبيث والطيب، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على جملة محذوفة تقديرها: لو لم يعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبك، وكلتا الجملتين في موضع الحال من فاعل ﴿لَّا يَسْتَوِي﴾ تقديره: قل لا يستوي الخبيث والطيب حالة كون كثرة الخبيث غير معجبة لك ومعجبة لك. ﴿فَاتَّقُوا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم عدم استواء الخبيث والطيب - ولو كثر الخبيث - وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: اتقوا الله يا أولي الألباب. ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها في محل الجر بلام التعليل

المقدرة، والتقدير: فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه لرجاء فَلاحِكُمْ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾: الخمر لغة: ما اتخذ من عصير العنب، وشرعاً: كل شراب مسكر وإن اتخذ من غير العنب، وسمي خمراً؛ لأنه يخامر العقل؛ أي: يستره ويغطيه. والميسر لغة: القمار؛ أي: اللعب بالقداح؛ أي: بالملاهي؛ كالطاب والمنقلة والطاولة والعود، وشرعاً: كل لعب تردد بين غُنْم وغُرْم، سواء كان بالملاهي أو بغيرها. ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾: جمع نَصَب بفتحتين؛ كجمل وأجمال، أو جمع نُصُب بضمتين؛ كعنق وأعناق، سميت الأصنام بذلك؛ لأنها تنصب للعبادة ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾: جمع زلَم بضم الزاي وفتحها مع فتح اللام فيهما، وهي القداح؛ أي: قِطَع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم كما مرَّ.

﴿رِجْسٌ﴾: قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل قبيح، ويقال للعذرة والأقذار: رجس؛ لأنها قذارة ونجاسة. وفي «القاموس»: رجس كفرح، ورَجُس ككرم إذا عمل عملاً قبيحاً، والرجس المستقذر حساً أو معنى، يقال: رجل رجس، ورجال أرجاس. والرجس على أوجه: إما من جهة الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع؛ كالخمر والميسر، وإما من كل ذلك كالميتة؛ لأنها تعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً، وأصله من الرجس - بفتح الراء - وهو شدة صوت الرعد. وفرّق ابن دريد بين الرجس والرجز والركس، فجعل الرجس: الشر، والرجز: العذاب، والركس: العورة والنتن. اهـ.

﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: تجاوز الحق إلى الإيذاء ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾: يقال: طعم الشيء يطعمه - من باب علم - إذا أكله، ثم استعمل في ذوق طعم الشيء من طعام وشراب، ومن الأول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾؛ أي: أكلتم، ومن الثاني قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾، أي: لم يذق طعم مائه. ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾: من بَلاَ يبلو من باب غزا يغزوا فهو

ناقص واوي، اتصل به نون التوكيد الثقيلة؛ أي: ليعاملنكم معاملة المختبر الذي يريد أن يعلم الشيء، وإن كان علام الغيوب، والمراد بالصيد هنا: المأكول البري الوحشي، وإلا فالصيد يطلق على المأكول وعلى غير المأكول، قال الشاعر:

صَـيْـدُ ٱلْـمُـلُـوْكِ أَرَانِـبٌ وَثَـعَـالِـبُ   وَإِذَا رَكِـبْـتُ فَـصَـيْـدِيَ ٱلأَبْـطَـالُ

والصيد في الأصل: مصدر صاد يصيد صيداً من باب باع، وهو ههنا بمعنى اسم المفعول؛ أي: المصيد، وسمي صيداً ومصيداً لمآله إلى ذلك، وتوافر الدواعي إلى صيده، فكأنه لما أعد للصيد.. صار كأنه مصيد ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: وهو مصدر في موضع فاعل، ذكره أبو البقاء.

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: جمع حرام، يطلق على الذكر والأنثى، يقال: هو رجل حرام وامرأة حرام؛ أي: محرمة بحج أو عمرة، ويقع أيضاً على المحرم وإن كان في الحل، وعلى من في الحرم وإن كان حلالاً، وهما سيان في النهي عن قتل الصيد. ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: والنعم: اسم جنس يجمع على أنعام، وهي في العرف الإبل والبقر والغنم ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾: العدل بالفتح[1]: المعادل للشيء والمساوي له مما يدرك بالعقل، وبالكسر: المساوي له مما يدرك بالحس ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾: والوبال في اللغة[2]: الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره، يقال: مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة، وإنما سمى الله ذلك وبالاً؛ لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس لما فيه من تنقيص المال وثقل الصوم على النفس كما مر. وفي «السمين»: وقال الراغب: الوابل المطر الثقيل القطر، ولمراعاة الثقل قيل للأمر الذي يخاف ضرره وبال، قال تعالى: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، ويقال: طعام وبيل، وكلأ وبيل يخاف وباله قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾. وقال غيره: والوبال في اللغة: ثقل الشيء في المكروه، يقال: مرعى وبيل إذا كان يستوخم، وماء وبيل إذا كان لا يستمرأ، واستوبلتُ الأرضَ؛ كرهتها خوفاً من وبالها.

---

(١) المراغي.   (٢) الفتوحات.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمراد بالبحر هنا: الماء الكثير الذي يوجد فيه السمك كالأنهار والآبار والبرك ونحوها، لا خصوص البحر المعروف. وصيد البحر: ما يصاد منه مما يعيش فيه عادة، وطعامه ما قذف به إلى ساحله.

﴿مَتَٰعًا﴾ اسم مصدر لمتع المضعف، يقال: متَّع يمتع تمتيعاً ومتاعاً فهو بمعنى: التمتيع. والسيارة: جماعة المسافرين يتزودون منه، وهي مؤنث سيَّار، وهي القافلة، وأصلها: القوم يسيرون، تجمع على سيارات.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: والكعبة لغة: كل بيت مربع، وسميت الكعبة كعبةً لذلك، وأصل اشتقاق ذلك من الكعب الذي هو أحد أعضاء الآدمي. قال الراغب: كعب الرجل الذي هو عند ملتقى الساق والقدم، والكعبة: كل بيت على هيئتها في التربيع، وبها سميت الكعبة، وذو الكعاب بيت كان في الجاهلية لبني ربيعة، وامرأة كاعب إذا تكعب ثدياها. ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾: والقيام مصدر كالصيام، ويقال: هذا قيام له وقوام له، وكأنهم ذهبوا في قيام إلى أنه ليس بمصدر، بل هو اسم كالسواك، فلذلك صحت الواو: قال الشاعر:

قِــوَامُ دُنْــيَــا وَقِــيَــامُ دِيْــنِ

وإذا لحقته تاء التأنيث.. لزمت الياء، قالوا: القيامة، ذكره أبو حيان في «البحر». وأصل قياماً: قواماً، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار: قياماً، ثم كسرت القاف لمناسبة الياء.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾: البلاغ اسم مصدر لبلغ تبليغاً قائم مقام المصدر. ويحتمل[1] أن يكون مصدر البلغ المشدد على حذف الزوائد، فمعنى البلاغ: التبليغ، وقيل: البلاغ والبلوغ مصدران لبلغ الثلاثي، وإذا كان مصدراً لبلغ بمعنى: وصل فبلاغ الشرائع إلى المرسل إليهم؛ أي: وصولها إليها مستلزم لتبليغ من أرسل إليهم بها، فعبَّر باللازم عن الملزوم.

(١) البحر المحيط.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، وفي قوله: ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، وفي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، وفي قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ و﴿ٱتَّقَوا۟﴾.

ومنها: جمع[1] مؤكدات كثيرة في تحريم الخمر: منها: تصدير الجملة بـ﴿إنما﴾، ومنها: أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنها: أنه جعلهما رجساً كما قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾. ومنها: أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت. ومنها: أنه أمر بالاجتناب. ومنها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً.. كان الارتكاب خيبة ومحقةً. ومنها: أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والميسر، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلوات.

ومنها: الاستفهام الذي أريد به الأمر في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ لأن الاستفهام عقب ذكر هذه المعايب أبلغ من الأمر بتركها، كأنه قيل: قد بينت لكم المعايب، فهل تنتهون عنها مع هذا، أم أنتم مقيمون عليها كأنكم لم توعظوا؟

ومنها: عطف الخاص على العام في عطف ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ على ﴿ٱلْهَدْىَ﴾ لإفادة أن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْخَبِيثُ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبُ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وهما من المحسنات البديعية.

ومنها: التعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

(١) الشوكاني.

﴿ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾؛ لأن الذوق حقيقة في المذوقات، واستعير هنا لما يؤثر من غرامة وإتعاب النفس بالصوم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ من إسناد ما للفاعل إلى المفعول كعيشة راضية.

ومنها: بيان الواقع في قوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾؛ لأنه قيد به لبيان الواقع وقت نزول الآية؛ لأنها نزلت في أبي اليسر؛ حيث قتل حمار وحش وهو محرم عمداً، فالقيد فيه ليس لإخراج الخطأ؛ لأن الخطأ حكمه كحكم العمد في وجوب الجزاء.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنه مجاز عن التبليغ، فعبر باللازم الذي هو البلاغ والوصول عن الملزوم الذي هو التبليغ والتوصيل.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ (١٠١) قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ (١٠٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٠٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (١٠٦) فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (١٠٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾.. صار كأنه قيل: ما بلغه الرسول فخذوه، وكونوا منقادين له، وما لم يبلغه فلا تسألوا عنه، و لا تخوضوا فيه، فربما جاءكم بسبب الخوض الفاسد تكاليف تشق عليكم، قاله أبو عبد الله الرازي.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[٢] وظيفة الرسول وأنها تبليغ الرسالة، وبيان شرع الله ودينه فحسب، وبذا تبرأ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ذِمَّته.. ناسب أن يصرح بأن الرسول قد أدى وظيفة البلاغ الذي كمل به الإسلام، وأنه لا ينبغي للمؤمنين أن يكثروا عليه من السؤال؛ لئلا يكون ذلك سبباً لكثرة التكاليف التي يشق على الأمة احتمالها، فيسرع إليها الفسوق عن أمر ربها.

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه تعالى لما نهى عن سؤال ما لم يأذن فيه ولا كلفهم إياه.. منع من التزام أمور ليست مشروعة من الله تعالى، ولما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية، هل تلحق بأحكام الكعبة.. بين تعالى أنه لم يشرع شيئاً منها، أو لما ذكر المحللات والمحرمات في الشرع.. عاد إلى الكلام في المحللات والمحرمات من غير شرع.

وقال المراغي: مناسبتها لما قبلها: لما[2] نهى الله في الآية السابقة عن تحريم ما أحل الله بالنذر أو بالحلف باسم الله تنسكاً وتعبداً مع اعتقاد إباحته في نفسه، وعن الاعتداء فيه، ونهى أن يكون المؤمن سبباً لتحريم شيء لم يكن الله قد حرمه، أو شرع حكم لم يكن الله قد شرعه؛ بأن يسأل الرسول ﷺ عن شيء مما سكت الله عنه عفواً وفضلاً.. ناسب بعد هذا أن يبين ضلال أهل الجاهلية فيما حرموه على أنفسهم، وما شرعوه لها بغير إذن من ربهم، وما قلد فيه بعضهم بعضاً على جهلهم، كما بين بطلان التقليد ومنافاته للعلم والدين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ...﴾ الآية، قال أبو حيان: ذكروا في مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنه لما بين أنواع التكاليف، ثم قيل: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ...﴾ الآية، كان المعنى: إنَّ هؤلاء الجهال ـ مع ما تقدم من المبالغة في الإعذار والإنذار، والترغيب والترهيب ـ لم ينتفعوا بشيء منه، بل بقوا مصرين على جهلهم، فلا

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالتهم، فإن ذلك لا يضركم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[1]: أنه تعالى لما ذكر في الآية السالفة أن المرجع إليه بعد الموت، وأنه لا بد من الحساب والجزاء يوم القيامة.. أرشدنا إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت، وأنه تجب العناية بالإشهاد عليها حتى لا تضيع على مستحقيها.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه لما ذكر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كان في ذلك تنفير عن أهل الضلال، واستبعاد عن أن ينتفع بهم في شيء من أمور المؤمنين من شهادة أو غيرها، فأخبر تعالى بمشروعية شهادتهم، أو الإيصاء إليهم في السفر على ما سيأتي بيانه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية، سبب نزولها: ما روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، لهم حنين، فقال رجل ـ عبد الله بن حذافة ـ: مَنْ أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. أخرجه البخاري /ج ٩ ص ٣٤٩/ الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأحمد وابن جرير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: مَن أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية. أخرجه البخاري /ج ٩ ص ٣٥٢/ وابن أبي حاتم وابن جرير.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج» فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أما إني لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عما سكت عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ...﴾ الآية. أخرجه الطبري بسند رجاله رجال الصحيح. فهذه ثلاثة أسباب قال الحافظ في «الفتح» /ج ٩ ص ٣٥١/: لا مانع أن يكون الجميع سبب نزولها، والله أعلم.

وقال في /ج ٩ ص ٣٥٢/: والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل؛ إما على سبيل الاستهزاء والامتحان، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان على الإباحة، لكن الأول ـ عبد الله بن حذافة ـ لم يسأل استهزاءً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ سبب نزولها: ما أخرجه البخاري /ج ٦ ص ٣٣٩/ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته.. فقدوا جاماً ـ الإناء ـ من فضة، مخوصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجدوا الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الحديث أخرجه الترمذي /ج ٤ ص ١٠١/ وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه أبو داود /ج ٣ ص ٣٣٧/، وابن جرير /ج ٧ ص ١١٥/، والبيهقي /ج ١٠ ص ١٦٥/.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ﴾ ولا تبحثوا ﴿عَنْ﴾ أحكام ﴿أَشْيَآءَ﴾ من أمور الدين ودقائق تكاليفها، أو عن حقائق أشياء من

الأمور الغيبية والأسرار الخفية ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: إن يظهر لكم حكمها أو يبين لكم حقيقتها ﴿تَسُؤْكُمْ﴾؛ أي: تحزنكم وتغمكم بشدة تكاليفها وكثرتها، كسؤالهم عن الحج هل هو واجب في العمر مرة أو كل عام مرة؟ أو تسؤكم بظهور حقائق تفضح أهلها؛ كسؤال رجل عن أبيه بعد موته أين هو؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إنه في النار». ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا﴾؛ أي: وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء التي من شأنها أن يكون إبداؤها مما يسوءكم ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ أي: حين يمكن تنزيل القرآن في شأنها، أو في حكمها، وهو زمان حياة الرسول ﷺ ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: فإن الله يبديها ويظهرها لكم على لسان رسوله ﷺ.

وعبارة الشوكاني هنا قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾؛ أي[1]: لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها، ولا هي مما يعنيكم في أمر دينكم فقوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ في محل جر صفة لأشياء؛ أي: لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بدت لكم؛ أي: ظهرت وكلفتم بها.. ساءتكم؛ نهاهم الله عن كثرة مساءلتهم لرسول الله ﷺ، فإن السؤال عما لا يعني ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سبباً لإيجابه على السائل وعلى غيره. وقوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ هذه الجملة من جملة صفة أشياء، والمعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، وذلك مع وجود الرسول ﷺ بين أظهركم، ونزول الوحي عليه ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: تظهر لكم بما يجيب به لكم النبي ﷺ، أو ينزل به الوحي، فيكون ذلك سبباً للتكاليف الشاقة، وإيجاب ما لم يكن واجباً، وتحريم ما لم يكن محرماً، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموت الرسول ﷺ، فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال. انتهت.

قال الحافظ ابن كثير[2]: أي لا تستأنفوا السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جرماً من سأل

---

(١) فتح القدير.
(٢) ابن كثير.

عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»، لكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها.. بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها.

وخلاصة ذلك[١]: تحريم السؤال عن الأشياء التي من شأن إبدائها أن يسوء السائلين إلا في حال واحدة، وهي: أن يكون قد نزل في شأنها شيء من القرآن فيه إجمال، وأردتم السؤال عن بيانه ليظهرلكم ظهوراً لامراء فيه، كما في مسألة تحريم الخمر بعد نزول آية البقرة.

وقال الزمخشري[٢]: أي لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها.. تغمكم وتشق عليكم، وتندموا على السؤال عنها. انتهى.

وقال ابن عباس في تفسير الآية[٣]: لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم؛ إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما لخبر يسوءكم، مثل الذي قال: أين أبي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء، وابتدأكم ربكم بأمر، فحينئذ إن سألتم عن بيانه بُيّن لكم وأُبدي. انتهى.

وعبارة «المراح» هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾؛ أي[٤]: إن تظهر لكم تلك الأشياء.. تحزنكم، والمعنى: اتركوا الأمور على ظواهرها، ولا تسألوا عن أحوال مخفية إن تبد لكم تسؤكم، وما بلغه الرسول إليكم فكونوا منقادين له، وما لم يبلغه إليكم فلا تسألوا عنه، فإن خضتم فيما لا يكلف عليكم، فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض ما يشق عليكم.

﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾؛ أي: وإن تسألوا عن أشياء مست حاجتكم إلى التفسير في زمن النبي ﷺ.. ينزل جبريل بالقرآن ويظهرها حينئذ، فالسؤال على قسمين: سؤال عن شيء لم يجر ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه، فهذا السؤال منهي عنه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ

---

(١) المراغي.
(٢) الكشاف.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراح.

﴿لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وسؤال عن شيء نزل به القرآن، لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي، فهاهنا السؤال واجب، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فالضمير في ﴿عَنْهَا﴾ يرجع إلى أشياء أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾. فالمراد بالإنسان آدم عليه السلام، والمراد بالضمير ابن آدم؛ لأن آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين. انتهت.

فائدة: قال الإمام الشاطبي[1]: الإكثار من الأسئلة مذموم، ولها مواضع نذكر منها عشرة:

أولها: السؤال عما لا ينفع في الدين؛ كسؤال بعضهم: مَنْ أبي؟

ثانيها: أن يسأل ما يزيد عن الحاجة؛ كسؤال الرجل عن الحج كل عام.

ثالثها: السؤال من غير احتياج إليه في وقت، ويدل عليه قوله ﷺ: «ذروني ما تركتكم».

رابعها: أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها، كما جاء في النهي عن الأغلوطات.

خامسها: أن يسأل عن علة الحكم في التعبدات؛ كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة.

سادسها: أن يبلغ بالسؤال حد التكلف والتعمق؛ كسؤال بني إسرائيل عن البقرة، وما هي، وما لونها؟

سابعها: أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي، ولذلك قال سعيد: أعراقيٌّ أنت؟

ثامنها: السؤال عن المتشابهات، ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم... إلخ.

---

(١) محاسن التنزيل للقاسمي.

تاسعها: السؤال عما حصل بين السلف، وقد قال عمر بن عبد العزيز: تلك دماء كف الله عنها يدي، فلا ألطخ بها لساني.

عاشرها: سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام، ففي الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾ بالتاء مبنياً للمفعول. وقرأ ابن عباس ومجاهد مبنياً للفاعل. وقرأ الشعبي بالياء مفتوحة من أسفل، وضم الدال ﴿يسؤكم﴾ بالياء فيهما مضمومة في الأول، ومفتوحة في الثاني. وقال ابن عطية: إن يبدها الله تعالى.

وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ﴾؛ إما جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المسألة، بل لأنها معصية في نفسها، مستتبعة للمؤاخذة؛ لأنها تغضب الرسول ﷺ، والضمير في قوله: ﴿عَنْهَاۗ﴾ راجع للمسائل، والمعنى: عفا الله عن مسائلكم التي كانت قبل النهي التي لا ضرورة إليها، وتجاوز عن عقوبتكم عليها في الآخرة لسعة رحمته ومغفرته وعظيم حلمه، فلا تعودوا إليها، فتكون هذه الجملة كقوله في الآية الأخرى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾، أو تكون في محل الجر صفة ثالثة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾، والضمير في ﴿عَنْهَاۗ﴾ على هذا يعود على ﴿أَشْيَآءَ﴾، والمعنى: لا تسألوا عن أشياء قد عفا الله عنها؛ أي: تركها ولم يذكرها في كتابه بشيء من التكليف؛ فاسكتوا عنها كما سكت الله عنها، ولا تبحثوا عنها، ومما[2] يؤيد هذا المعنى حديث أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تقربوها، وترك أشياء من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»، وحديث سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله ﷺ عن أشياء فقال: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه، فلا تتكلفوا». هذان

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الحديثان أخرجهما في «جامع الأصول» ولم يعزهما إلى الكتب الستة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب منكم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن جهالتكم، فلا يعاقبكم إلا بعد الإنذار.

﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾؛ أي: قد سأل هذه المسائل؛ أي: عن أمثال هذه المسائل ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: قوم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ثم صاروا بعد إبدائها وإعطائها كافرين وساترين لها، ومكذبين بها، وتاركين العمل بها، فأُهلكوا بسببها، فإن[1] من أكثر الأسئلة عن الأحكام الشرعية من الأمم السالفة.. لم يعملوا بما بين لهم منها، بل فسقوا عن أمر ربهم، وألقوا شرعهم ورائهم ظهرياً استثقالاً للعمل به، وأدى ذلك؛ إما إلى استنكاره، وإما إلى جحود كونه من عند الله، وسواء أكان هذا أم ذاك، فهو كفران به. انظر إلى قوم صالح عليه السلام، سألوا الناقة ثم عقروها، فأصبحوا بها كافرين، فاستحقوا الهلاك في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وإلى قوم موسى قالوا: أرنا الله جهرة، فكان هذا السؤال وبالاً عليهم، وإلى قوم عيسى عليه السلام سألوا نزول المائدة عليهم، ثم كذبوا بها، وقال مقاتل[2]: كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أخبروهم بها.. تركوا قولهم، ولم يصدقوهم، فأصبحوا بتلك الأشياء كافرين، كأنه تعالى يقول[3]: إن أولئك سألوا فلما أعطوا سؤلهم.. كفروا به، فلا تسألوا أنتم شيئاً فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك.

ولا بد[4] من تقييد النهي في هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قدمنا؛ لأن الأمر الذي تدعو إليه الحاجة في أمور الدين والدنيا.. قد أذن الله بالسؤال عنه فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال ﷺ: «قاتلهم الله، ألا فاسألوا، فإنما شفاء العيّ السؤال».

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) زاد المسير.
(٤) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَأَلَهَا﴾ بفتح السين والهمزة، وقرأ النخعي: بكسر السين من غير همز يعني: بالكسر والإمالة، وجعل الفعل من مادة: سين، وواو ولام، لا من مادة: سين وهمزة ولام، وهما لغتان ذكرهما سيبويه، ومن كلام العرب: هما يتساولان بالواو، وإمالة النخعي: سأل، مثل إمالة حمزة: خاف.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الرد على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه، و﴿من﴾: زائدة في المفعول؛ أي: ما بحر الله بحيرة، ولا شق أذنها ﴿وَلَا﴾ سيب الله ﴿سَآئِبَةٍ﴾ ولا أعتقها لآلهتهم ﴿وَلَا﴾ وصل الله ﴿وَصِيلَةٍ﴾ ولا جعلها متروكة بلا ذبح ﴿وَلَا﴾ حمى الله من ﴿حَامٍ﴾، ولا حفظ ظهره من الركوب، ولا من الحمل عليه؛ أي: ما شرع الله ذلك لهم، ولا أمر به، وما جعله ديناً لهم.

فالبحيرة: هي الناقة التي يبحرون أذنها؛ أي: يشقونها شقاً واسعاً، وكانوا يفعلون بها ذلك إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الخامس أنثى، كما روي عن ابن عباس، وقيل: هي الناقة التي تنتج خمسة أبطن في آخرها ذكَر، فتشق أذنها ولا تذبح ولا تركب ولا تحلب، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، ولا يجز لها وبر، ولا يحمل على ظهرها، بل تترك لآلهتهم.

والسائبة: هي الناقة تسيب وتنذر لآلهتهم، وكان الرجل إذا شفي من مرض، أو قدم من سفر.. سيَّب ناقة أو بعيراً بنذرها لآلهتهم، فترعى حيث شاءت، ولا يحمل عليها شيء، ولا يجز وبرها، ولا يحلب لبنها إلا لضيف، وتكون كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.

والوصيلة: الشاة التي تصل أخاها، فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً.. كان لآلهتهم، وإذا ولدت أنثى.. كانت لهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى.. قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، فيترك مع أخته، فلا يذبحان حتى يموتا، فإذا ماتا.. اشترك في أكلهما الرجال والنساء.

---

(١) البحر المحيط.

والحامي: هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن إذا ركب ولد ولده يقولون: حَمى ظهره، فلا يحمل عليه، ولا يركب، ولا يمنع من ماء ومرعى إلى أن يموت، فحينئذ تأكله الرجال والنساء.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: إن رؤساءهم كعمرو بن لحي وأصحابه ﴿يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ وينسبونه إليه، ويقولون: أمرنا الله بهذا.

وأول من سن لأهل الشرك تلك السنن الرديئة، وغيَّر دين الله ـ دين الحق دين إبراهيم وإسماعيل، وأضاف إلى الله أنه هو الذي حرم ما حرموا، وأحل ما أحلوا افتراءً على الله الكذب واختلاقاً عليه ـ هو عمرو بن لحي الخزاعي، فهو الذي غير دين إبراهيم، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحمى الحامي، ونصب الأوثان لأهل مكة.

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكتم بن الجون: «يا أكتم، عرضت عليَّ النار، فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق يجرُّ قصبه في النار ـ القصب: المِعَى وجمعه الأقصاب ـ فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به، ولا به منك، فقال أكتم: أخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غير دين الله دين إبراهيم وإسماعيل». ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ وهم الأتباع ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء باطل افتراه رؤساءهم على الله كذباً، وأن ذلك من أعمال الكفر، بل يظنون أنهم يتقربون به إلى الله ولو بالوساطة؛ لأن آلهتهم التي يسيبون باسمها السوائب، ويتركون لها ما حرموه على أنفسهم ليست إلا وسطاء بينهم وبين الله بزعمهم، تشفع لهم عنده، وتقربهم إليه زلفى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: للذين كفروا أو لأكثرهم الذين هم الأتباع ﴿تَعَالَوْا۟﴾؛ أي: هلموا وأقبلوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في القرآن من الأحكام المؤيدة بالحجج والبراهين ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ المبلِّغ لها، والمبيِّن لمجملها فاتبعوهما فيها ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ أي: أجابوا من يدعوهم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول بقولهم: حسبنا وكافينا عن ذلك ما وجدنا عليه آبائنا

ورأيناهم يعملون به، ونحن لهم تبع، وهم لنا أئمة وقادة. فردَّ الله عليهم قولهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة فيه للإنكار والتوبيخ، داخلة على محذوف؛ أي: أيكفيهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الشرائع ولا يهتدون سبيلاً إلى المصالح، سواء أكانت دينية أو دنيوية، ولا يعرف ما يكفي الأفراد والأمم إلا بالعلم الصحيح الذي يميِّز به بين الحق والباطل، فأولئك قوم أميون يتخبطون في ظلمات من الوثنية، وخرافات من معتقدات الجاهلية، فمن وأدِ البنات إلى سلب ونهب وإغارات من بعضهم على بعض، ومن قتال تشتجر فيه الرماح إلى عداوة وبغضاء تملأ السهول والبطاح، ومن ظلم لليتامى والنساء إلى تفنن في الشَّعوذة وضروب السحر والكهانة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: الزموا أنفسكم واحفظوها من ملابسة الضلال والمعاصي والإصرار على الذنوب، وانظروا فيما يقربها من ربها ويخلعها من عقابه ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾؛ أي: لا يضركم ضلال من ضل من أهل الكتاب والمشركين وسائر الكفار والفساق ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ للحق أنتم في أنفسكم، وفي حق غيركم؛ بأن يعظ بعضكم بعضاً، ويرغب بعضكم بعضاً في الخيرات، وينفره من القبائح والسيئات.

وهذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال الشوكاني[1]: وليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية.. فليس بمهتدٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً مضيقاً متحتماً، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) فتح القدير.

المنكر، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضره ضرراً يسوغ له معه الترك؛ أي: فيحرم عليه ذلك حينئذ إذا أدَّى إلى الوقوع في التهلكة.

فصل في ذكر نبذة مما يتعلق بالآية

فإن قلت[1]: هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

قلتُ: لا يدل على ذلك، والذي عليه أكثر الناس أن المطيع لربه عز وجل لا يكون مؤاخذاً بذنوب أصحاب المعاصي، فأمَّا وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فثابت بدليل الكتاب والسنة.

عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾. ولا تضعونها موضعها، ولا تدرون ما هي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا ظالماً، فلم يأخذوا على يديه.. أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود، وزاد فيه: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيِّروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب». وقال قوم في معنى الآية: عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم. وقال ابن مسعود: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم، فإن رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم.

وعن أبي أمية الشيباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى

---

(١) الخازن.

مُتَّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجابُ كل ذي رأي رأيَه. . فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم»، وفي رواية: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «لا، بل أجر خمسين منكم» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وقيل في معنى الآية: إن العبد إذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه. . لا يضره من ضل، وقيل في معنى الآية: لا يضركم من كفر بالله وحاد عن قصد السبيل من أهل الكتاب إذا اهتديتم أنتم، وقال الحسن: لم يكن مؤمن فيما مضى، ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله.

وقال الطبري: وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق، وهو العمل بطاعة الله، وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ ومن التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه.

واعلم: أن كلاً من الآمر والمأمور يجب عليه اتباع الحق المأمور به، وقد دلت السنة الصحيحة على أن من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، أنه حمار من حمر جهنم يجر أمعاءه فيها.

ولقد أجاد من قال:

يَا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ   هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا ٱلتَّعْلِيْمُ

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

وقال آخر أيضاً:

أَتَنْهَىٰ ٱلنَّاسَ وَلاَ تَنْتَهِيْ   مَتَىٰ تَلْحَقُ ٱلْقَوْمَ يَا أَكْوَعُ

فَيَا حَجَرَ ٱلشَّحْذِ حَتَّىٰ مَتَىٰ   تَسُنُّ ٱلْحَدِيْدَ وَلاَ تَقْطَعُ

وقال الآخر:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ ٱلنَّاسَ بِٱلتُّقَىٰ طَبِيْبٌ يُدَاوِيْ ٱلنَّاسَ وَهْوَ مَرِيْضُ

وقال الآخر:

فَإِنَّكَ إِذْ مَا تَأْتِ مَا أَنْتَ آمِرُ بِهِ تُلْفِ مَنْ إِيَّاهُ تَأْمُرُ آتِيَا

فائدة: واعلم أنه يشترط في الآمر بالمعروف أن يكون له علم يعلم به أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر؛ لأنه إذا كان جاهلاً بذلك، فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهى عما ليس بمنكر، ولا سيما في هذا الزمن الذي عم فيه الجهل، وصار فيه الحق منكراً، والمنكر معروفاً، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾. ويشترط في وجوبه مظنة النفع به، فإن جزم بعدم الفائدة فيه.. لم يجب عليه، كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

والخلاصة: أن العلماء من السلف متفقون على أن المؤمن لا يكون مهتدياً إذا أصلح نفسه ولم يهتم بإصلاح غيره؛ بأن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، وأن ذلك فرض لا هوادة فيه، ولكن هذه الفريضة تسقط إذا فسد الزمان فساداً لا يرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد، أو فساداً يؤدي إلى إيذاء الواعظ المرشد؛ بأن يعلم أو يظن ظناً قوياً بأن لا فائدة من نصحه، أو بأنه سيؤذى إذا هو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، ويحرم عليه ذلك إذا أدَّى إلى الوقوع في التهلكة.

وحكى الزمخشري عن نافع أنه قرأ[1]: ﴿عليكم أنفسُكم﴾ بالرفع، وهي قراءة شاذة تخرَّج على وجهين:

أحدهما: يرتفع على أنه مبتدأ، و﴿عليكم﴾ في موضع الخبر، والمعنى: على الإغراء.

والوجه الثاني: أن يكون توكيداً للضمير المستكن في ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ولم يؤكد بمضمر متصل؛ إذ قد جاء ذلك قليلاً، ويكون مفعول عليكم محذوفاً لدلالة

---

(١) البحر المحيط.

المعنى عليه والتقدير: عليكم أنفسكم هدايتكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ بضم الضاد والراء وتشديدها، قال الزمخشري: وفيه وجهان: أن يكون خبراً مرفوعاً، وأن يكون جواباً للأمر الذي دلَّ عليه اسم الفعل مجزوماً، وإنما ضُمت الراء؛ إتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة، والأصل: لا يضرركم، ويجوز أن يكون نهياً. انتهى.

وقرأ الحسن: بضم الضاد وسكون الراء من ضار يضور، وقرأ النخعي بكسر الضاد وسكون الراء من ضار يضير، وهي لغات.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: رجوعكم ورجوع من ضلَّ عما اهتديتم إليه يوم القيامة، وغلب الخطاب على الغيبة كما تقول: أنت وزيد تقومان. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يخبركم عند الحساب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الخير والشر، فيجازيكم عليه، وفي هذه الجملة تذكير بالحشر وتهديد بالمجازاة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله وما أنزل عليه ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ لما بين الله سبحانه وتعالى ما يتعلق بمصالح الدين.. شرع يبين ما يتعلق بمصالح الدنيا إشارةً إلى أن الإنسان ينبغي له أن يضبط مصالح دينه ودنياه؛ لأنه مكلف بحفظهما؛ أي: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، شهادة بينكم؛ أي: الشهادة المشروعة لكم إذا حضر أحدكم الموت؛ أي: قارب أحدكم على الموت بأن ظهرت عليه أمارات وقوع الموت، وأراد أن يوصي، وأراد أن يُشهد ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ على وصيته ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: هي شهادة اثنين من رجالكم أيها المؤمنون من ذوي العدل والاستقامة يشهدهما الموصي على وصيته، سواء كان في حضر أو سفر، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ أي: من المؤمنين ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: فنزلت بكم مقدمات الموت وعلاماته، وأردتم الإيصاء، علم الله سبحانه وتعالى أن من الناس من يسافر، فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، ويحضره

الموت، فلا يجد من يشهده على وصيته من المسلمين، فقال: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فالذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما؛ أي: فالعدلان المسلمان صالحان للشهادة في الحضر والسفر، وشهادة غير المسلمين لا تجوز إلا في السفر عند فقد المسلمين.

وعبارة «الخطيب»: المعنى: إن المحتضر إذا أراد الوصية.. ينبغي له أن يشهد على وصيته عدلين من أهل دينه إن وجدا، فإن لم يجدهما.. فليشهد آخرين من غيرهم.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا الشهادة المشروعة بينكم إذا حضر أحدكم أمارات الموت، وأراد الوصية والإشهاد عليها، هي شهادة عدلين منكم مطلقاً؛ أي: سواء كان في حضر أو سفر، وجد غير المسلمين أم لا، أو شهادة اثنين من غير أهل دينكم إن كنتم مسافرين فأصابتكم أمارات الموت، ولم يكن عند المحتضر واحد من المسلمين.

وعبارة «القرطبي» هنا: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في الكلام حذف تقديره: إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم ودفعتم إليهما ما معكم من المال، ثم متُّم، وذهب الاثنان إلى ورثتكم بالتركة، فارتابوا في أمرهما، وادعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة؛ أي: تستوثقوا منهما. انتهت.

وقرأ الجمهور: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ بالرفع وإضافة شهادة إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾، وقرأ الشعبي والحسن والأعرج: ﴿شهادة بينكم﴾ برفع شهادة وتنوينه، وقرأ السلمي والحسن أيضاً: ﴿شهادةً﴾ بالنصب والتنوين، وروي هذا عن الأعرج وأبي حيوة و﴿بَيْنِكُمْ﴾ على هاتين القراءتين منصوب على الظرف.

وقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَوٰةِ﴾ صفة لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، وجملة قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ معترضة بين الصفة والموصوف؛ أي: أو شهادة آخرين من غير المسلمين توقفونهما من بعد صلاة العصر في المسجد الجامع عند المنبر؛ أي: توقفون أيها الحكام الشاهدين من غير المسلمين من بعد

صلاة العصر؛ لأن النبي ﷺ حلّف عدياً وتميماً بعدها، ولأن العمل قد جرى عليه، فكان التحليف في ذلك الوقت هو المعروف، ولأنه هو الوقت الذي يقعد فيه الحكام للفصل بين الناس في المظالم والدعاوي؛ إذ يكون الناس قد فرغوا من معظم أعمال النهار، فيجتمعوا وقتئذ، ولأنه وقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار، ولأن جميع الملل يعظمون هذا الوقت ويجتنبون فيه من الحلف الكاذب، وقيل: أي صلاة كانت، وقيل: من بعد صلاتهما على أنهما كافران كما في «القرطبي».

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيحلف الشاهدان من غير المسلمين باسم الله؛ أي: فتستحلفونهما أيها الحكام على أنهما ما كذبا في شهادتهما ولا خانا في الوصية. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم أيها الورثة أعني: ورثة الموصي الميت في السفر في صدقهما، واتهمتموهما بالخيانة في الوصية، ورفعتموهما إلى الحكام، أما الأمين: فيصدق بلا يمين. ويقولان في حلفهما والله: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ﴾؛ أي: بالقسم بالله ﴿ثَمَنًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ أي: ولو كان المقسم له أو المشهود له صاحب قرابة لنا، فإنا نؤثر الحق والصدق، ولا نؤثر العَرَض الدنيوي، ولا القرابة، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

والخلاصة: أنه يقول الحالف: إنه يشهد لله بالقسط، ولا يصده عن ذلك ثمن يبتغيه لنفسه، ولا مراعاة قريب له إن فرض أنَّ في إقراره وقسمه نفعاً له؛ أي: ولو اجتمعت هاتان الفائدتان.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ويقولان في يمينهما أيضاً: ولا نكتم الشهادة التي أوجبها الله، وأمر أن تقام له كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

وقرأ علي ونعيم بن ميسرة والشعبي بخلاف عنه: ﴿شهادةً اللَّهَ﴾ بنصبهما وتنوين شهادة، وانتصبا بـ﴿نَكْتُمُ﴾ والتقدير: ولا نكتم الله شهادة. وعبارة «زاد المسير»: وقرأ سعيد بن جبير: ﴿ولا نكتم شهادةً﴾ بالتنوين. ﴿اللَّه﴾ بقطع الهمزة وقصرها وكسر الهاء ساكنة النون في الوصل. وقرأ سعيد بن المسيب وعكرمة:

﴿شهادة﴾ بالتنوين والوصل منصوبة الهاء. وقرأ أبو عمران الجوني: ﴿شهادة﴾ بالتنوين، وإسكانِها في الوصل، ﴿اللَّه﴾ بقطع الهمزة، وقصرها مفتوحة الهاء. وقرأ الشعبي وابن السميقع: ﴿شهادة﴾ بالتنوين وإسكانها في الوصل ﴿اللَّه﴾ بقطع الهمزة ومدها وكسر الهاء. وقرأ أبو العالية وعمرو بن دينار مثله إلا أنهما نصبا الهاء. انتهت.

﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إنا إذا فعلنا ذلك الكذب، واشترينا بالقسم ثمناً من الدنيا، أو راعينا به قريباً؛ بأن كذبنا فيه لمنفعة لأنفسنا، أو لذوي قرابتنا، أو كتمنا شهادة الله كلاً أو بعضاً. ﴿لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ﴾؛ أي: لَكُنَّا من المتحملين للإثم المستحقين للجزاء عليه.

وقرأ الأعمش وابن محيصن: ﴿لملاثمين﴾ بإدغام نون ﴿من﴾ في لام ﴿الآثمين﴾ بعد حذف الهمزة، ونقل حركتها إلى اللام.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾؛ أي: فإن اطلع بعد التحليف؛ أي: عثر أهل الميت أو من يلي أمره على أن الشاهدين من غير المسلمين الحالفين استحقا إثماً؛ أي: استوجبا إثماً؛ إما بكذب في الشهادة، أو اليمين، أو بكتمان شيء من التركة في حال ائتمانهما عليها، أو كتمانٍ في الشهادة ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾؛ أي: فالواجب أن ترد اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾؛ أي: مقام الشاهدين الكاذبين في حلفهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: حالة كونهما من الورثة الذين استحق لهم المال، فعليهم بمعنى: لهم اللذان هما ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾؛ أي: الأقربان إلى الميت الأحقان بإرثه؛ أي: فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين، وليكونا من أولى من يستحق الميراث؛ أي: هذان الرجلان الوارثان القائمان مقام الخائنين ينبغي أن يكونا هما الأَولَيَيْنِ بالميت؛ أي: الأقربين الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع، وهذا المعنى على قراءة ﴿استُحق﴾ بالبناء للمفعول، فعلى هذه القراءة يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هما الأوليان كأنه قيل: من هما؟ فقيل: هما الأوليان. وقيل: هو بدل من الضمير في يقومان أو من ﴿آخران﴾، ويحتمل كون على في ﴿عَلَيْهِمُ﴾ على بابها، فتكون نائب فاعل لـ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾؛ أي: من الورثة الذين استحق

عليهم الإثم؛ أي: جني عليهم بالخيانة في مالهم، وهم أهل الميت وعشيرته، والمعنى[1] على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما ويختاروهما للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين؛ لكونهما الأقربين إلى الميت. فـ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: فاعل ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، ومفعوله أن يجردوهما للقيام بالشهادة. وقيل: المفعول محذوف، والتقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بالبناء للفاعل ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: فاعل مرفوع تثنية الأوْلى.

وقرأ حمزة وأبو بكر: ﴿استُحق﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن: ﴿استحق﴾ مبنياً للفاعل، ﴿الأولان﴾: مرفوع تثنية أوّل. وقرأ ابن سيرين: ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ تثنية الأُولى.

قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ عطف على ﴿يَقُومَانِ﴾؛ أي: فيحلفان بالله ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾؛ أي: ليميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيحلفان بالله بقولهما: واللَّهِ لأيماننا على أنهما كاذبان خائنان في وصية ميتنا ﴿أَحَقُّ﴾ وأصدق ﴿مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾؛ أي: أيمانهما على أنهما صادقان فيما ادعيا. ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ عليهما بتهمة باطلة؛ أي: وما تجاوزنا الحق في أيماننا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: ويقولان في يمينهما: إنا إذا اعتدينا الحق فحلفنا مبطلين كاذبين.. لنكونن من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه. وعبارة[2] «المراح»: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾؛ أي: هذان الآخران ﴿بِٱللَّهِ﴾ بقولهما ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾؛ أي: والله ليمين المسلمين أصدق وأحق بالقبول من يمين النصرانيين ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾؛ أي: ما تجاوزنا الحق فيما ادعينا، وفي طلب المال، وفي نسبتهما إلى الخيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: إنا إن اعتدينا في ذلك.. كنا من الظالمين أنفسهم بإقبالها لسخط الله تعالى وعذابه.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

واتفق المفسرون[1] على أن سبب نزول هذه الآيات: أن تميم بن أوس الداري، وعدي بن بداء ـ وكانا نصرانيين ـ ومعهما بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص ـ وكان مسلماً مهاجراً ـ خرجوا إلى الشام للتجارة، فلما قدموا الشام. . مرض بديل، فكتب كتاباً فيه نسخة جميع ما معه، وألقاه فيما بين الأقمشة، ولم يخبر صاحبيه بذلك، ثم أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات بُديل، فأخذا من متاعه إناءً من فضة فيه ثلاث مئة مثقال منقوشاً بالذهب، ولما رجعا دفعا باقي المتاع إلى أهله، ففتشوا، فوجدوا الصحيفة وفيها ذكر الإناء، فقالوا لتميم وعدي: أين الإناء؟ فقالا: لا ندري، والذي دفع إلينا دفعناه إليكم، فرفعوا الواقعة إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟. . .﴾ الآية، ولما نزلت هذه الآية صلَّى رسول الله ﷺ العصر، ودعا تميماً وعديّاً، فاستحلفهما عند المنبر، ولما حلفا خلَّى رسول الله ﷺ سبيلهما، ولما طالت المدة أُظهر الإناء، فبلغ ذلك بني سهم، فطالبوهما، فقالا: كنا قد اشتريناه منه، فقالوا: ألم نقل لكم هل باع صاحبنا شيئاً، فقلتما: لا؟ فقالا: لم يكن عندنا بيّنة فكرهنا أن نقر لكم، فكتمنا لذلك، فرفعوا القصة إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ. . .﴾ الآية، فقام عمرو بن العاص والمطلب ابن أبي وداعة السهميان، فحلفا بالله بعد العصر، فدفع الرسول ﷺ الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، وكان تميم الداري يقول بعد إسلامه: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي بيناه وشرعناه في هذه القصة من تكليف المؤتمن على الوصية أن يقوم على مرأى من الناس، ويشهد بعد الصلاة، ويقسم الأيمان المغلظة ﴿أَدْنَىٰٓ﴾؛ أي: أدنى الطرق وأقربها إلى ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾؛ أي: إلى أن يؤدي الشهود المتحملون للشهادة على الوصية ﴿بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾؛ أي: على الوجه الذي تحملوها عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا خيانة فيها خوفاً من العذاب الأخروي، والأنسب بالمقام في قوله: ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾ وبقوله الآتي: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾ تثنية

---

(١) المراح.

الضمير، وإنما جمع؛ لأن المراد ما يعم الشاهدين المذكورين وغيرهما من سائر الناس.

وفي «الخازن»: أن يأتي الوصيان وسائر الناس. وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾ معطوف في المعنى على محذوف تقديره: ذلك أدنى وأقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها لأجل أن يخافوا من عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة فيها ﴿أَوْ﴾ لأجل أن ﴿يَخَافُوٓا۟﴾ الافتضاح على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة، فينزجروا عن الخيانة المؤدية إلى ذلك إن لم يخافوا من عذاب الآخرة، وذلك بـ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾ على الورثة ﴿بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: بعد أيمان الشهود الخائنين في الوصية، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم، فيفتضحوا، فأي الخوفين وقع حصل المقصود الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها.

والغرض من هذا الكلام[1]: بيان المنفعة والفائدة في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع من كتابه. والمعنى: ذلك[2] الذي شرعناه من تكليف المؤتمن على الوصية أن يقوم على مرأى من الناس، ويشهد بعد الصلاة، ويقسم الأيمان المغلظة أدنى الطرق وأقربها إلى أن يؤدي الشهداء الشهادة على وجهها بلا تبديل ولا تغيير تعظيماً للّه، ورهبة من عذابه، ورغبة في ثوابه، أو خوفاً من الفضيحة التي تعقب استحقاقهما الإثم في الشهادة برد أيمان الورثة بعد أيمانهم، فتكون مبطلة لها؛ إذ من لم يمنعه خوف الله وتعظيمه أن يكذب لضعف دينه.. يمنعه خوف الخزي والفضيحة بين الناس.

والحاصل[3]: أن الشاهدين أو الوصيين، إذا علما أنهما إن لم يصدقا.. يتوجه اليمين على الورثة، فيحلفون، فينتزعون من الشاهدين ما أخذاه، ويفتضحان بظهور كذبهما.. حملهما ذلك على أحد أمرين: إما الصدق في الشهادة، والحلف من أول الأمر، وإما ترك الحلف الكاذب، فيظهر كذبهم ونكولهم، فبأحد الأمرين يحصل المقصود؛ لأنهم إذا صدقوا ولم يخونوا..

---

(١) الشوكاني بتصرف. (٢) المراغي. (٣) الفتوحات.

فالأمر ظاهر، وإن خانوا وامتنعوا من الحلف خوفاً من الفضيحة.. حلف الورثة وانتزعوا ما خان به الشهود، فتأمل.

وعبارة ابن الجوزي[1] هنا: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾؛ أي: ذلك الذي حكمنا به من ردّ اليمين أقرب إلى إتيان أهل الذمة بالشهادة على وجهها؛ أي: على ما كانت، وأقرب أن يخافوا أن ترد أيمان أولياء الميت وتكرر بعد أيمانهم، فيحلفون على خيانتهم فيفتضحوا ويغرموا، فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا ذلك. انتهت.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وراقبوه في أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة وأن تخونوا مَنْ ائتمنكم ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما يقال لكم وما توعظون به سمعَ إجابة وقبول لهذه الأحكام وغيرها. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: فإن لم تتقوا ولم تسمعوا.. كنتم قوماً فاسقين خارجين عن أمر الله وطاعته، مطرودين من هدايته، مستحقين لعقابه؛ لأن الله تعالى لا يرشد القوم العاصين الكافرين الكاذبين إلى دينه وحجته، أو إلى طريق الجنة.

فائدة: وقد استنبط[2] العلماء من هاتين الآيتين فوائد وأحكاماً نذكر أهمها فيما يلي:

١ ـ الحث على الوصية وعدم التهاون في أمرها في سفر أو حضر.

٢ ـ الإشهاد عليها لتثبيت أمرها والرجاء في تنفيذها.

٣ ـ بيان أن الأصل في الشاهدين عليها أن يكونا مسلمين موثوقاً بعدالتهما.

٤ ـ بيان أن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع؛ لأن مقصد الشارع منه إذا لم يمكن أداؤه على وجه الكمال أن لا يترك ألبتة.

٥ ـ شرعية اختيار الأوقات التي تؤثّر في قلوب الشهود ومقسمي الأيمان رجاء أن يصدقوا ويبروا فيها.

٦ ـ التغليظ على الحالف بصيغة اليمين، بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون

---

(١) زاد المسير.
(٢) المراغي.

رادعاً للحالف عن الكذب.

٧ ـ أن الأصل في أخبار الناس وشهاداتهم أن تكون مصدَّقة مقبولة، ومن ثَمَّ شرط في تحليف الشاهدين الارتياب في خبرهما.

٨ ـ شرعية تحليف الشهود إذا ارتاب الحكَّام والخصوم في شهادتهم، وهو الذي عليه العمل الآن في أكثر الأمم، وقد حتمته القوانين الوضعية الآن؛ لكثرة ما يقع من شهادة الزور.

٩ ـ شرعية ردِّ اليمين إلى من قام الدليل على ضياع حق له بيمين صار حالفها خصماً له.

١٠ ـ إذا احتيج إلى قيام بعض الورثة في أمر يتعلق بالتركة.. فأولاهم بذلك أقربُهم إليه.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأيُّ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَسۡـَٔلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾: جار ومجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف علة واحدة تقوم مقام علتين ترجع إحداهما إلى اللفظ، والأخرى إلى المعنى، وهي ألف التأنيث الممدودة، فلزومها لبناء ما هي فيه بمنزلة علة ترجع إلى اللفظ، ودلالتها على التأنيث بمنزلة علة ترجع إلى المعنى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَسۡـَٔلُواْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُبۡدَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بحذف حرف العلة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَشۡيَآءَ﴾. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُبۡدَ﴾. ﴿تَسُؤۡكُمۡ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله

ضمير يعود على ﴿أَشْيَآءَ﴾، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل الجر صفة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِن تَسْـَٔلُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، وعلامة جزمه حذف النون. ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿حِينَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿تَسْـَٔلُوا۟﴾. ﴿يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حِينَ﴾. ﴿تُبْدَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَشْيَآءَ﴾. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل الجر معطوفة على جملة ﴿إِن﴾ الأولى على كونها صفة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾. ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق به. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿حَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَأَلَهَا﴾: فعل ومفعول. ﴿قَوْمٌ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سأل﴾. قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ولا حالاً منه؛ لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثة ولا حالاً منها، ولا خبراً عنها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿أَصْبَحُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾: الباء حرف جر وسبب، الهاء ضمير المؤنثة في محل الجر بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَصْبَحُوا۟﴾، أو بـ﴿كَـٰفِرِينَ﴾. ﴿كَـٰفِرِينَ﴾: خبر ﴿أَصْبَحُوا۟﴾، وجملة ﴿أَصْبَحُوا۟﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة وجعل هنا

بمعنى: سمَّى يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول محذوف تقديره: ما جعل الله الحيوان ﴿مِنۢ بَحِيرَةٖ...﴾ إلخ. ﴿مِنۢ﴾: زائدة. ﴿بَحِيرَةٖ﴾: مفعول ثانٍ منصوب بفتحة مقدرة؛ أي: ما سمى الله الحيوان بحيرة ﴿وَلَا سَآئِبَةٖ﴾: معطوف على ﴿بَحِيرَةٖ﴾، منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد، وكذا تقول في: ﴿وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾، ولكن تقول في ﴿حَامٖ﴾ منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه اسم منقوص كقاضٍ؛ لأن أصله: ولا من حامي، استثقلت الكسرة على الياء، ثم حذفت فالتقى ساكنان، وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها، فصار: ولا حامٍ؛ كقاضٍ. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿يَفۡتَرُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَفۡتَرُونَ﴾. ﴿ٱلۡكَذِبَۖ﴾: مفعوله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾. ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَفۡتَرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: وما بعده إلى قوله: ﴿قَالُواْ﴾ نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، وإن شئت قلتَ: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿إِلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَعَالَوۡاْ﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: إلى ما أنزله الله. ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿قَالُواْ﴾:

فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿حَسْبُنَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿مَآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل، ووجد[1] هنا: إما بمعنى علم، فيتعدى إلى مفعولين، فيكون ﴿عَلَيْهِ﴾ في محل المفعول الثاني. ﴿ءَابَآءَنَآ﴾: مفعول أول له، ويجوز أن يكون وجدنا بمعنى: صادفنا، فيتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وفي ﴿عَلَيْهِ﴾ على هذا الاحتمال وجهان:

أحدهما: هي متعلقة بالفعل، معدية له؛ كما تتعدى ضربت زيداً بالسوط،

والثاني: أن تكون حالاً من الآباء، ذكره أبو البقاء، وجملة ﴿وَجَدْنَا﴾ صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿أَوَلَوْ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري والتعجبي، داخلة على محذوف تقديره: أَحَسْبُهُم ذلك؛ أي: كافيهم ذلك. حسبهم مبتدأ، ذلك خبره، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿ولو﴾ الواو: حالية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ محذوف دل عليه ما قبلها تقديره: ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون، يقولون: حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿ءَابَآؤُهُمْ﴾ المقدر، والتقدير: أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا حالة كون آبائهم جهلةً ضالين، لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون؟ وعبارة أبي السعود[2] قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ قيل: الواو للحال دخلت عليها الهمزة للإنكار والتعجيب؛ أي: أحسبهم ذلك ولو كان

---

(١) العكبري. (٢) أبو السعود.

آباؤهم جهلة ضالين. وقيل: للعطف على شرطية أخرى مقدرة قبلها، وهو الأظهر، والتقدير: أحسبهم ذلك، أو أيقولون هذا القول ولو لم يكن آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدين، ولا يهتدون للصواب، ولو كانوا لا يعلمون. . إلخ؟ وكلتاهما في موضع الحال؛ أي: حسبهم ما وجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروضة، وقد حذفت الأولى حذفاً مطَّرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة. انتهت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: اسم فعل أمر بمعنى: الزموا مبني على السكون وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنتم. ﴿أَنفُسَكُمْۖ﴾: مفعول به لاسم الفعل، ومضاف إليه، وجملة اسم الفعل جواب النداء لا محل لها من الإعراب. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل أمر منقول من الجار والمجرور دال على الإغراء، كما قال ابن مالك:

وَٱلْفِعْلُ مِنْ أَسْمَائِهِ عَلَيْكَا وَهَكَذَا دُونَكَ مَعْ إِلَيْكَا

يعني: أن من أسماء فعل الأمر ما هو منقول من حرف جر، أو ظرف نحو: عليك زيداً؛ أي: الزمه، وإليك؛ أي: تنح، ودونك زيداً؛ أي: خذه، ومكانك؛ أي: اثبت، وأمامك؛ أي: تقدَّم. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَضُرُّكُم﴾: فعل ومفعول. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، والجملة صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾، والظرف متعلق بـ﴿يَضُرُّكُم﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير

المخاطبين، وصح مجيء الحال من المضاف إليه؛ لصحة عمل المضاف فيها وفي صاحبها؛ لكونه مما يشبه الفعل، كما قال ابن مالك:

وَلاَ تُجِزْ حَالاً مِنَ ٱلْمُضَافِ لَهْ   إلاَّ إذَا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضَافُ عَمَلَهْ
أَوْ كَانَ جُزْءَ مَا لَهُ أُضِيفَا   أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلا تَحِيفَا

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبئكم﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كنتم تعملونه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: سبق إعرابه غير ما مرةٍ. ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿شَهَٰدَةُ﴾. ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف بدل من ﴿إِذَا﴾ بدل كل من كل ﴿ٱثْنَانِ﴾: خبر المبتدأ، ولكنه على حذف مضاف تقديره: شهادة بينكم حين الوصية شهادة اثنين منكم؛ لتحصل المطابقة بين المبتدأ والخبر، وذلك لأن الشهادة لا تكون هي الاثنان؛ إذ الجثة لا تكون خبراً عن المصادر، فأضمر مصدر يكون خبراً عن مصدر. ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾: صفة أولى لـ﴿ٱثْنَانِ﴾، ومضاف إليه مرفوع بالألف. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة ثانية لـ﴿ٱثْنَانِ﴾. ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾: معطوف على ﴿ٱثْنَانِ﴾. ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، والجملة من المبتدأ والخبر جواب النداء لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾.

﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَنتُمْ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً يفسره ما بعده تقديره: إن ضربتم، فلما حذف الفعل.. انفصل الضمير. فقوله: ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ جملة مفسرة للمحذوف لا محل لها من الإعراب. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل الشرط المحذوف. ﴿فَأَصَٰبَتْكُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿أصابتكم﴾: فعل ومفعول في محل الجزم معطوف على ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ المحذوف على كونه فعل شرط، لـ﴿إِنْ﴾ الشرطية. ﴿مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجواب الشرط محذوف جوازاً لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: إن سافرتم في الأرض فقاربكم الأجل حينئذ، وما معكم أحد من أهل الإسلام.. فليشهد آخران من غيركم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الموصوف وهو ﴿ءَاخَرَانِ﴾ وبين صفته وهي قوله ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، ولكنها صفة سببية. ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يقسمان﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يقسمان﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ على كونها صفة ثانية لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: إن ارتابهما الوارث منكم بخيانة أو أخذ شيء من التركة.. فاحبسوهما، وحلفوهما من بعد الصلاة، وهذا الشرط وجوابه المحذوف جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وهو قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾؛ لأنه قائم مقام القسم، وبين جوابه وهو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نَشْتَرِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ءَاخَرَانِ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق

به. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب ﴿يقسمان﴾ لا محل لها من الإعراب؛ لأنه يقوم مقام اليمين كما مر آنفاً. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: اعتراضية. ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على المشهود له. ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ومضاف إليه منصوب بالألف، وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ لدلالة ما قبلها عليه تقديره: ولو كان المشهود له ذا قربى.. لا نشتري به ثمناً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف عليه؛ وهو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾، وبين المعطوف، وهو قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نَكْتُمُ﴾. فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ءَاخَرَانِ﴾. ﴿شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ على كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّآ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد، ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب زائد لتأكيد معنى الكلام لا عمل لها؛ لعدم دخولها على الفعل. ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿مِنَ الآثمين﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾ تقديره: إنا لكائنون من الآثمين إن كتمنا شهادة الله تعالى، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿عُثِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَنَّهُمَا﴾: ﴿أنَّ﴾: حرف نصب ومصدر، والهاء: ضمير المثنى الغائب في محل النصب اسمها. ﴿ٱسْتَحَقَّآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِثْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ تقديره: على أنهما مستحقان إثماً، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بعلى تقديره: فإن عثر على استحقاقهما إثماً، الجار والمجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿عُثِرَ﴾. ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة

اسمية. ﴿ءَاخَرَانِ﴾: مبتدأ مرفوع بالألف، وسوغ الابتداء دخول فاء الجزاء عليه، وأيضاً وصفه بالجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾، ولا يضر الفصل بين الصفة وموصوفها بالخبر؛ لأنه ليس أجنبياً. ﴿يَقُومَانِ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَقَامَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَقُومَانِ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والتقدير: فشاهدان آخران قائمان مقام الخائنين، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾ الواقع مبتدأ، ويصح كونه حالاً من ضمير ﴿يَقُومَانِ﴾ كما مرَّ في مبحث التفسير. ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، الجار والمجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، والتقدير: فآخران كائنان من الورثة الذين استُحِقَّ، وجُنِيَ عليهم بالخيانة في مالهم يقومان مقام الخائنين. ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: بدل من ﴿ءَاخَرَانِ﴾ الواقع مبتدأ، أو عطف بيان منه مرفوع بالألف؛ لأنه مثنى الأولى بمعنى: الأقربان من الميت الموصي، وعلى قراءة: ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بالبناء للفاعل، فـ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ فاعل ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، والتقدير: فآخران كائنان من الورثة الذين استحق التقدم عليهم الأوليان منهم بالميت في إظهار كذب الخائنين يقومان مقام الخائنين في الشهادة واليمين لإظهار كذبهما.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿فَيُقْسِمَانِ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يقسمان﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَقُومَانِ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿شهادتنا﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَحَقُّ﴾، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿ٱعْتَدَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية على كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّآ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها.

﴿إِذًا﴾: حرف جواب زائد لتأكيد معنى الكلام، ولذلك لم تدخل على الفعل. ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿من الظالمين﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يَأْتُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: ذلك أدنى وأقرب إلى إتيانهم بالشهادة على وجهها. ﴿بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَأْتُوا۟﴾. ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الشهادة. ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَأْتُوا۟﴾. ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾: ناصب وفعل مغيَّر ونائب فاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أو يخافوا ردَّ أيمان. ﴿بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متلعق بـ﴿تُرَدَّ﴾، أو صفة لـ﴿أَيْمَٰنٌۢ﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ صفة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

وقال بعضهم: هذه الآيات الثلاث في قراءتها وإعرابها وتفسيرها ومعانيها وأحكامها، من أصعب آي القرآن وأشكلها. وقال السخاوي: ولم أرَ أحداً من العلماء تخلَّص كلامه فيها من أولها إلى آخرها، ونحن نريد إن شاء الله تعالى أن نضع عليها رسالة صغيرة في بيان معانيها وإعرابها وقراءتها بأوضح ما يمكن في بيانها، بعد ما فرغنا من هذا الشرح إن شاء الله سبحانه وتعالى، ولذلك اختصرنا الكلام هنا في بيان ما يتعلق بها، وبالله التوفيق والهداية إلى أقوم الطريق.

﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾: الأصل[1] في أشياء على مذهب الخليل وسيبويه: شيئاء بوزن: لفعاء بهمزتين بينهما ألف، وهي فعلاء من لفظ شَيء، وهمزتها الثانية للتأنيث، وهي اسم جمع، كطرفاء وحلفاء، ولأجل همزة التأنيث لم تنصرف، ثم إن الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة قدمت، فجعلت قبل الشين كراهية الهمزتين بينهما ألف، خصوصاً بعد الياء، فصار وزنها لفعاء، وهذا قول صحيح لا يرد عليه إشكال. ومذهب غيرهما: أنها جمع، واختلفوا فقال الكسائي وأبو حاتم: هو جمع شيء من غير تغيير؛ كبيت وأبيات، وهو غلط؛ لأن مثل هذا الجمع الذي كان على وزن أفعال ينصرف، وأشياء لا تنصرف لأجل ألف التأنيث، ولو كان وزنه أفعالاً لانصرفَ، ولم يسمع أشياء منصرفة ألبتة. وقال الكسائي: لم تنصرف أشياء لشبه آخرها بآخر حمراء، ولكثرة استعمالها، والعرب تقول: أشياوان كما تقول: حمراوان. وذهب الفراء والأخفش إلى أنها جمع على وزن أفعلاء، قال الفراء: شيء مخفف من شيّء كما قالوا: أهوناء في جمع هين مخفف من هين. وقال الأخفش: ليس مخففاً من شيء، بل هو فعل جمع على أفعلاء، فاجتمع في هذين القولين همزتان: لام الكلمة وهمزة التأنيث، فقلبت الهمزة التي هي لام الكلمة ياء؛ لانكسار ما قبلها، ثم حذفت الياء التي هي عين الكلمة استخفافاً. وذهب قوم إلى أنَّ وزن شيء في الأصل شييء، كصديق وأصدقاء، ثم حذفت الهمزة الأولى، وفتحت ياء المد؛ لكون ما بعدها ألفاً. قال: ووزنها في هذا القول: أفياء، وفي القول الذي قبله: أفلاء، وتقرير هذه المذاهب صحة وإبطالاً مذكور في علم التصريف.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾: البحيرة فعلية بمعنى: مفعولة، فدخول تاء التأنيث عليها لا يقاس، ولكن لما جرت مجرى الأسماء الجوامد. أنثت، واشتقاقها من البحر، والبحر: السعة، ومنه: بحر الماء لسعته.

---

(١) البحر المحيط والعكبري.

﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾: والسائبة هنا فيها قولان:

أحدهما: أنها اسم فاعل على بابه من ساب الماء يسيب ـ كباع يبيع ـ إذا جرى على وجه الأرض، يقال: ساب الماء، وسابت الحية، وهو مطاوع سيبته، يقال: سيبته فساب وانساب.

والثاني: أنها اسم فاعل بمعنى مفعول نحو قولهم: عيشة راضية؛ أي: مرضية، ومجيء فاعل بمعنى مفعول قليل جداً، نحو: ماء دافق اهـ «سمين».

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾: الوصيلة فعلية بمعنى: فاعلة؛ لأنها إذا كانت من الإبل.. هي الناقة تبكر فتلد أنثى، ثم تثنّي بولادة أنثى أخرى ليس بينهما ذَكَر، فيتركونها لآلهتهم، ويقولون: قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر.

﴿وَلَا حَامٍ﴾: والحامي اسم فاعل من حمى يحمي، كرمى يرمي، فهو حام؛ لأنه حمى ظهره من الركوب والحمل. وقال بعضهم: هو الفحل يولد من صلبه عشرة أبطن فيقولون: قد حمى ظهره فيتركونه كالسائبة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ﴿تَعَالَوْاْ﴾: فعل أمر بمعنى أقبلوا، مبني على حذف النون، وأصله: تعالوون، تحركت الواو الأولى، وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار: تعالاون، فالتقى ساكنان: الألف والواو، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، وحذفت النون للبناء؛ لأن فعل الأمر مبني على ما يجزم به مضارعه، وهو بفتح اللام لكل مخاطب، ولو كان أنثى قال تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾.

﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾: الشهادة مصدر: شهد يشهد شهادة من باب علم، والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ يقال: ضرب في الأرض إذا سافر فيها ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾؛ أي: تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق والهرب، والحبس مصدر حبس يحبس حبساً من باب ضرب، والحبس: المنع من التصرف، يقال: حبست أحبس وأحبست فرساً في سبيل الله، فهو محبس وحبيس إذا وقفته للغزو. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في صدقهما فيما يقران به ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾؛ أي: اطلع، يقال: عثر على الرجل يعثر عثوراً من باب دخل ونصر، والعثور على الشيء: الاطلاع عليه من

غير سبق طالب له، يقال[1]: عثر على الرجل: اطلع عليه، مشتق من العثرة التي هي الوقوع، وذلك أن العاثر إنما يعثر بشيء كان لا يراه، فلما عثر به.. اطلع عليه ونظر ما هو، فلذلك قيل: لكل من اطلع على أمر كان خفياً عليه قد عثر عليه، ويقال: قد عثر عليه، وقد أعثر عليه إذا أطلعه عليه، ومنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أطلعنا، وأعثره عليه وقفه عليه وأعلمه به من حيث لم يكن يتوقع ذلك. وقال الليث: عثر يعثر عثوراً إذا هجم على أمر لم يهجم عليه غيره، وعثر عثرة إذا وقع وسقط على شيء. قال أبو البقاء: العثور: مصدر عثر على الشيء إذا اطلع عليه، وأما مصدر عثر في مشيه ومنطقه ورأيه، فالعثار. انتهى.

﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾: تثنية أولى بمعنى: أقرب، فقلبت الألف ياءً على حد قول ابن مالك:

آخِرَ مَقْصُورٍ تُثَنِّيْ اجْعَلْهُ يَا ... إِنْ كَانَ عَنْ ثَلَاثَةٍ مُرْتَقِيَا

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾ ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟﴾، وفي: ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا﴾ وهو ذكر الشيء بمعنى وإعادة الضمير إليه بمعنى آخر، وهو من المحسنات البديعية؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا﴾ عائد إلى الأشياء التي مست الحاجة إلى السؤال عنها، والمراد بالأشياء المنهي عن السؤال عنها: الأشياء التي لم يكن لهم حاجة إلى السؤال عنها؛ كقول بعضهم: من أبي؟ أين ضالتي؟

ومنها: التفنن في قوله: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ حيث قال هنا: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾، وفي البقرة: ﴿مَآ أَلْفَيْنَا﴾، وقال هنا: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهناك ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ للتفنن: وهو ذكر نوعين من الكلام؛ لثقل تكرار أحدهما على اللسان، وهو من المحسنات البديعية أيضاً.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

ومنها: إطلاق الجملة الخبرية مراداً بها معنى الطلبية في قوله: ﴿شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾؛ لأنها بمعنى: فليشهد اثنان منكم.

ومنها: التجوز بإضافة ﴿شَهَـٰدَةُ﴾ إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾؛ لأن حق الشهادة أن تضاف إلى المشهود به، كأن يقال: شهادة الحقوق؛ أي: الشهادة بها، فاتسع فيها، وأضيفت إلى البين؛ إما باعتبار جريانها بينهم، أو باعتبار تعلقها بما يجري بينهم من الخصومات.

ومنها: الاعتراض بـ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ بين المبتدأ والخبر.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ لأنه مجاز عن حضور أسبابه ومقدماته.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنه لو جرى على لفظ: إذا حضر أحدكم الموت.. لكان الترتيب هكذا: إن هو ضرب في الأرض.. فأصابته.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

ومنها: التجوز بالجمع عن المثنى في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾؛ لأن المقام لتثنية الضمير، وإنما جمع؛ لأن المراد ما يعمُّ الشاهدين المذكورين وغيرهما من بقية الناس كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما أخبر بالحكم في شاهدي الوصية، وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة.. ذكَّر بهذا اليوم المهول المخوف، وهو يوم القيامة، فجمع بذلك بين فضيحة الدنيا وعقوبة الآخرة لمن حرَّف الشهادة، ولمن لم يتقِ الله ولم يسمع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة يومٍ يجمعُ الله سبحانه وتعالى المرسلين والمرسل إليهم في صعيد واحد، وهو يوم القيامة. ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه وتعالى للرسل؛ مشيراً إلى خروجهم من عهدة الرسالة

---

(١) البحر المحيط.

وتوبيخاً لأممهم: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾؛ أي: أيَّ إجابة أجابكم بها أممكم حين دعوتموهم في دار الدنيا إلى توحيدي وطاعتي، أهي إجابة قبول وإذعان، أو إجابة رد وإنكار؟ ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال الرسل تفويضاً للأمر إلى العدل الحكيم العالم، وعلماً منهم أن الأدب في السكوت والتفويض، وأنَّ قولهم لا يفيد خيراً ولا يدفع شراً: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾؛ أي: لا علم لنا كعلمك فيهم؛ لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا، ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا لنا، فعلمك فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ، ولأن الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن، وهو معتبر في الدنيا؛ لأن الأحكام في الدنيا مبنية على الظن، وأما الأحكام في الآخرة: فهي مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور، ولا عبرة بالظن في القيامة، فلهذا السبب قالوا: لا علم لنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا إلهنا ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ أي: عالم الغيب والشهادة؛ أي: فإنك تعلم ما أجابوا وأظهروا لنا، وما لم نعلمه مما أضمروه في قلوبهم، وقيل: معناه: إنك لا يخفى عليك ما عندنا من العلوم، وإن الذي سألتنا عنه ليس بخاف عليك؛ لأنك أنت علام الغيوب؛ أي: العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها بالنسبة إلى غيرك، ليس يخفى عليك خافية. وقيل: المعنى: لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة. وقيل: المعنى: لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا. وقيل: إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر.

وقرأ ابن عباس وأبو حيوة[1]: ﴿ماذا أجبتم﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ: ﴿علاَّم﴾ بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ بتقدير الخبر لـ﴿إنَّ﴾؛ أي: إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة من العلم وغيره، ونصب ﴿عَلَّٰمُ﴾؛ إما على الاختصاص، أو على النداء. وقرأ حمزة وأبو بكر: ﴿الغيوب﴾ بكسر الغين حيث وقع، كأن من قال ذلك من العرب.. قد استثقل توالي ضمتين مع الياء، ففر إلى حركة مغايرة للضمة، مناسبة لمجاورة الياء وهي الكسرة.

و﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ﴾، وهو

---

(١) البحر المحيط.

تخصيص[1] بعد التعميم، وتخصيص عيسى من بين الرسل؛ لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطاً وتفريطاً؛ هذه تجعله إلهاً، وهذه تجعله كاذباً. وقيل: هو منصوب باذكر. و﴿قَالَ﴾[2] هنا بمعنى المضارع؛ لأن هذا القول يقع يوم القيامة مقدمة لقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وعبارة[3] «البيضاوي» هنا: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ﴾، والماضي بمعنى الآتي على حد، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ في أن الماضي أقيم مقام المضارع، وفي أن إذ واقعة موقع إذا التي للمستقبل لتحقق الوقوع، فكأنه واقع، أو نصب بإضمار اذكر. انتهت؛ أي: اذكر يا محمد لأمتك قصة إذ يقول الله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم يوم القيامة ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾؛ أي: تذكّر إنعامي عليك بما سيأتي ﴿و﴾ إنعامي ﴿على والدتك﴾ وأمك مريم إذ أنبتها نباتاً حسناً، وطهرتها واصطفيتها على نساء العالمين، ورزقتها من حيث لا تحتسب. ذكَّره[4] سبحانه وتعالى نعمتهُ عليه وعلى أمه مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها؛ لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله تعالى به من الكرامة، وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة، وتوبيخ من اتخذهما إلٰهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله تعالى، وأنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه، ليس لهما من الأمر شيء، وليس المراد بأمره بالذكر يومئذ - أي: يوم القيامة - تكليفه شكرها، والقيام بواجبها؛ إذ ليس هناك تكليف، بل المراد توبيخ الكفرة المختلفين في شأنه وشأن أمه إفراطاً وتفريطاً. انتهى «أبو السعود».

وقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: ظرف للنعمة؛ لأنها بمعنى المصدر؛ أي: اذكر إنعامي عليك وقت تأييدي إياك بروح القدس؛ أي: بجبريل الأمين؛ أي: إذ قويتك وأعنتك بروح القدس؛ أي: بجبريل المطهر من أوصام الآثام حين لقنك وأعانك في تكليم الناس في المهد، وثبتك في إقامة الحجة عليهم في

---

(١) الشوكاني.
(٢) الجمل.
(٣) البيضاوي.
(٤) الشوكاني.

الكهولة، فكان جبريل يسير معه حيث سار، يعينه على الحوادث التي تقع، ويلهمه المعارف والعلوم.

وعبارة «الخازن» هنا: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: بجبريل عليه السلام؛ لأن القدس هو الله تعالى؛ لأنه مصدر بمعنى: المقدس؛ أي: المطهر عن النقائص، وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم، كإضافة بيت الله وناقة الله. وقيل: أراد بروح القدس الروح المطهرة؛ لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية، فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية، ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية، فخصَّ الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرقة، وقد عدد عليه من النعم سبعاً: إذ أيدتك، وإذ علمتك، وإذ تخلق، وإذ تبرىء، وإذ تخرج الموتى، وإذ كففت، وإذ أوحيت.

وقرأ الجمهور: ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ بتشديد الياء من باب فعَّل المضعف. وقرأ مجاهد وابن محيصن: ﴿آيدتك﴾ فوزن هذه القراءة يحتاج في معرفته إلى نقل مضارعه من كلام العرب، فإن كان يؤايد.. فوزنه: فاعل، وإن كان يؤيد.. فهو أفعل، وجملة قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ مبينة لمعنى التأييد، و﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ في محل النصب على الحال؛ أي: تكلم الناس حالة كونك طفلاً صغيراً في الحجر والسرير بقولك: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، الآية ﴿و﴾ حالة كونك ﴿كهلا﴾؛ أي: في زمن الكهولة؛ الزمن بين الثلاثين والأربعين؛ أي: تكلم الناس حال كونك صبياً وكهلاً، لا يتفاوت كلامك في الحالتين، مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بيناً، وهذه معجزة عظيمة، وخاصة شريفة ليست لأحد قبله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً، ثم رفعه الله إليه، فذكر تكليمه في حال الكهولة لبيان أن كلامه في تينك الحالين كان على نسق واحد بديع، صادر عن كمال العقل والتدبير، ذكره «أبو السعود». والمعنى: اذكر يا محمد لأمتك

---

(١) الخازن.

قصة إذ يقول الله سبحانه يوم القيامة لعيسى ابن مريم: اذكر[1] بقلبك أو بلسانك إنعامي عليك وعلى والدتك حين تأييدي إياك بروح القدس، وتكليمك الناس في المهد بما يبرِّىء أمك من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أباً له، وذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾، وكهلاً حين بعثت فيهم رسولاً؛ تقيم عليهم الحجة في ما ضلوا به عن الصراط المستقيم.

وفائدة هذا القصص: تنبيه النصارى الذين كانوا عصر التنزيل إلى قبح مقالتهم، وسوء معتقدهم؛ لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء، وطعن هؤلاء تعدى إلى جلال الله وكبريائه؛ إذ وصفوه بما لا يليق به من اتخاذ الزوجة والولد.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك وقت تعليمي إياك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الكتابة والخط، أو المراد[2]: جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل من ذكر الخاص بعد العام، وتخصيصهما بالذكر؛ لمزيد اختصاصه بهما، أما التوراة: فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدال، كما هو مصرَّح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل: فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه وتعالى ﴿و﴾ علمتك ﴿الحكمة﴾؛ أي: الفهم والاطلاع على أسرار العلوم النظرية والعملية ﴿و﴾ علمتك ﴿التوراة﴾ التي أنزلتها على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي أنزلته عليك.

وذِكر الكِتابين[3]؛ إشارة إلى الأسرار التي لا يطلع عليها أحد إلا أكابر الأنبياء عليهم السلام، فإن الاطلاع على أسرار الكتب الإلهية لا يحصل إلا لمن صار ربانياً في أصناف العلوم الشرعية والعقلية الظاهرة التي يبحث عنها العلماء.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك؛ إذ

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

تجعل قطعة من الطين والتراب المندّىٰ مثل هيئة الطير وصورتها في شكلها، ومقادير أعضائها بإذني وأمري وتيسيري لك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك القطعة المصورة من ريح فمك، فتكون تلك القطعة المصورة ﴿طَيْرًا﴾؛ أي: حيواناً طائراً مثل الخفاش ﴿بِإِذْنِي﴾؛ أي: بتكويني وتخليقي. وإنما قال[1] هنا: ﴿فِيهَا﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿فيه﴾؛ لأن الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الهيئة المصورة بجعلها مصدراً بمعنى اسم المفعول؛ كالخلق؛ وذلك لأن النفخ لا يكون في الهيئة، إنما يكون في المهيأ ذي الهيئة، ويجوز أن يعود الضمير إلى الطير؛ لأنها مؤنثة قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ وأما الضمير المذكور في آل عمران في قوله: ﴿فيه﴾، فيعود إلى الكاف يعني: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، وإنما كرر قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾؛ تأكيداً لكون ذلك الخلق واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه؛ لأن المخلوق لا يخلق شيئاً، إنما خالق الأشياء كلها هو الله تعالى لا خالق لها سواه، وإنما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله تعالى بها.

وقرأ ابن عباس[2]: ﴿فتنفخها فتكون﴾، وقرأ الجمهور: ﴿فَتَكُونُ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ عيسى ابن عمر: ﴿فيها فيكون﴾ بالياء من تحت. وقرأ[3] نافع ويعقوب: ﴿طائراً﴾، ويحتمل الإفراد والجمع كالباقر.

﴿وَ﴾ اذكر نعمتي عليك إذ ﴿تبرىء﴾ وتشفي ﴿الْأَكْمَهَ﴾؛ أي: الأعمى المطموس البصر الذي ولد كذلك ﴿وَ﴾ تبرىء ﴿الأبرص﴾؛ أي: صاحب البرص، وهو داء معروف يبيض منه الجلد. ﴿بِإِذْنِي﴾ لك، وتسهيله عليك، وتيسيره لك ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾؛ أي: بفعلي ذلك عند دعائك وقولك للميت: أخرج بإذن الله من قبرك، فيكون ذلك آية لك عظيمة.

وتكرير ﴿بِإِذْنِي﴾ في المواضع الأربعة؛ للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله،

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البيضاوي.

ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه كما مرَّ. وإنما قال في آل عمران[1]: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرتين، وقال هنا: ﴿بِإِذْنِي﴾ أربع مرات عقيب أربع جمل؛ لأن ما هنا موضع ذكر النعمة والامتنان بها، فناسب الإسهاب والإطناب، وما هناك موضع إخبار لبني إسرائيل، فناسب الإيجاز.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوف على ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك حين كففت ودفعت وصرفت ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾؛ أي: اليهود حين أرادوا قتلك، فلم يتمكنوا منه، وقوله: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ظرف لـ﴿كَفَفْتُ﴾؛ أي: إذ جئتهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقك؛ أي: بما ذكر هنا، وما لم يذكر؛ كالإخبار بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وغير ذلك من معجزاته، فـ(ال) فيه للجنس، وذلك أن عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة.. قصد اليهود قتله، فخلصه منهم ورفعه إلى السماء. ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود، ولم يؤمنوا بهذه المعجزات: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الذي جاء به عيسى من المعجزات ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين واضح.

وقرأ حمزة والكسائي هنا، وفي هود، والصف، ويونس[2]: ﴿ساحر﴾ بالألف، والإشارة حينئذ إلى عيسى؛ أي: ما هذا الرجل وهو عيسى عليه السلام إلا ساحر ظاهر.

وقرأ ابن عامر وعاصم في يونس فقط بالألف. وقرأ باقي السبعة: ﴿سِحْر﴾ بكسر السين وسكون الحاء؛ أي: ما هذا الذي جاء به عيسى من الخوارق إلا سحر مبين، أو ما هذا؛ أي: عيسى إلا سحر مبين، وهذا على سبيل المبالغة؛ أو على حذف مضاف.

والخلاصة[3]: أنهم لا يعتدون بما جاء على يديه من الآيات وخوارق

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح والبحر المحيط.
(٣) المراغي.

العادات، ولا يؤمنون به، وإن جاء بآيات أخرى؛ إذ لم يكن طعنهم لشبهات تتصل بها، بل كان عناداً ومكابرةً، ومن ثَمَّ ادعوا أن السحر صنعته، والتمويه وقلب الحقائق دأبه وعادته.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ معطوف على ما قبله؛ أي: واذكر نعمتي عليك حين أوحيت إلى الحواريين وألهمتهم، وقذفت في قلوبهم، وقد كذبك جمهور بني إسرائيل، وجعلتهم أنصاراً لك يؤيدون دعوتك وينشرون شريعتك. فالوحي بمعنى الإلهام، وقيل: أمرتهم على ألسنة الرسل من قبلك ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾؛ أي: أن صدقوا بوحدانيتي في الألوهية، وصدقوا برسالة رسولي عيسى عليه السلام، والحواريون: هم أصحاب عيسى وخواصه ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا؛ أي: قال الحواريون للرب جلَّ جلاله، أو لعيسى: آمنا وصدقنا بوحدانيته تعالى، وبرسالة رسوله عيسى عليه السلام ﴿وَٱشْهَدْ﴾ أنت يا رب أو يا عيسى ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مخلصون في إيماننا، فأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون؛ أي: مخلصون في إيمانهم، مذعنون لأوامره وتاركون لنواهيه، وإنما قدم[1] ذكر الإيمان على الإسلام؛ لأن الإيمان من أعمال القلوب، والإسلام والانقياد والخضوع في الظاهر، والمعنى: أنهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم.

قال أبو حيان في «البحر»: وتقدم نظير هذه الجملة في آل عمران إلا أنه هناك قال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ لأنه تقدم ذكر اللّه فقط في قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وهنا قال: ﴿ءَامَنَّا﴾، فلم يقيد بلفظ الجلالة؛ إذ قد تقدم ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وقال هناك: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا﴾، وهنا قال: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا﴾، وهذا هو الأصل؛ إذ ﴿أن﴾ محذوف منه النون لاجتماع الأمثال انتهى.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى كلاماً منقطعاً عما قبله؛ ليبين ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه عقب حكاية ما صدر من الحواريين من المقالة المعدودة من

---

(١) الخازن.

نعم الله عليه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة حين قال الحواريون لعيسى عليه السلام. ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾؛ أي: هل يرضى ربك ويختار ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: أن يهبط لنا من السماء خواناً وطبقاً عليها طعام، فنأكل منه إذا نحن سألناه، أو سألته لنا ذلك؟

قرأ الجمهور: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء على الغيبة، ورفع ﴿رَبُّكَ﴾؛ أي: هل يفعل ربك ذلك إن سألته لنا أو سألناه نحن؟ قال ابن الأنباري: ولا[1] يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكُّوا في قدرة الله، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي؟ وهو يعلم أنه مستطيع، ولكنه يريد: هل يسهل عليك ذلك؟ وقال أبو علي: المعنى: هل يفعل ذلك بمسألتك إياه، وزعم بعضهم أنهم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم، فرد عليهم عيسى بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أن تنسبوه إلى عجز، والأول أصح. وفسر[2] بعضهم الاستطاعة بمعنى: القدرة، وقالوا: إن هذا السؤال لا يصدر عن مؤمن صحيح الإيمان، وأجابوا عن ذلك بعدة أجوبة:

الأول: أن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان، لا للشك في قدرة الله على ذلك؛ كما سأل إبراهيم عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه بإيمان الشهادة والمعاينة مع إقراره بإيمانه بذلك الغيب.

الثاني: أنه سؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة الإلهية؛ أي: هل ينافي الحكمة الإلهية أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ فإن ما ينافي الحكمة لا يقع، وإن كان مما تتعلق به القدرة؛ كعقاب المحسن على إحسانه، وإثابة الظالم على ظلمه.

الثالث: أن المراد: هل تستطيع سؤال ربك؟

وقرأ الكسائي[3]: ﴿تستطيع﴾ بتاء الخطاب لعيسى، و﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب على التعظيم، بإدغام اللام في التاء، وبه قرأ علي وابن عباس، وسعيد بن جبير،

---

(١) زاد المسير.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.

ومجاهد وعائشة، والمعنى عليها: هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك؟ ولا إشكال على هذه القراءة.

﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ابن مريم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تسألوه شيئاً لم تسأله الأمم من قبلكم، وقيل: المعنى: خافوا عقاب الله في أن تقترحوا عليه أمثال هذه المقترحات التي كان سلفكم يقترحها على موسى؛ لئلا تكون فتنة لكم، فإنَّ من شأن المؤمن الصادق أن لا يجرب ربه باقتراح الآيات. وقيل: المعنى: اتقوا الله، وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عليه تعالى عسى أن يوفقكم إلى ذلك. وقيل: المعنى: اتقوا الله في اقتراح معجزة لم يسبق لها مثال بعد تقدم معجزات كثيرة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته تعالى، وبصحة نبوتي، أو إن صدقتم في ادعاء الإيمان والإسلام.. فإن ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات. وقيل: أمرهم بالتقوى؛ ليصير ذلك ذريعة لحصول المسؤول، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ انتهى «أبو السعود».

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال الحواريون ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ هذا بيان للسبب الحامل لهم على السؤال؛ أي: لسنا نريد بسؤال المائدة إزالة شبهتنا في قدرته تعالى على تنزيلها، أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى، بل سبب سؤالنا أنا نريد أن نأكل من تلك المائدة أكل تبرك. وقيل: أكل حاجة وتمتع. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾؛ أي: تسكن قلوبنا، وتستيقن بكمال قدرة الله تعالى؛ لأنا ـ وإن علمنا قدرة الله بالدليل ـ إذا شاهدنا نزول المائدة.. ازداد اليقين، وقويت الطمأنينة بأنك مرسل إلينا من عنده تعالى، أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه. وقال[1] ابن عباس: قال لهم عيسى: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم لا تسألونه شيئاً إلا أعطاكم إياه، فصاموا، ثم سألوا المائدة. ﴿وَنَعْلَمَ﴾ علماً يقينياً ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾؛ أي: نعلم أنك قد صدقتنا في دعوى النبوة، وفي أن الله يجيب دعوتنا، وفي قولك[2]: أنا إذا صمنا ثلاثين يوماً.. لا نسأل الله

---

(١) زاد المسير. (٢) المراح.

تعالى شيئاً إلا أعطانا إياه. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عند من لم يحضرها من بني إسرائيل، أو من سائر الناس، وهذه المعجزة سماوية، وهي أعظم وأعجب، فإذا شاهدناها.. كنا عليها من الشاهدين، نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل؛ ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً، ويؤمن بسببها كفارهم، أو نكون من الشاهدين لله بكمال القدرة، ولك بالنبوة بسبب مشاهدتها.

والحاصل: أنهم قالوا: نطلبها لفوائد:

١ ـ أننا نريد أن نأكل منها؛ لأننا محتاجون إلى الطعام، فإن الجوع قد غلبنا، ولا نجد طعاماً آخر.

٢ ـ أننا إذا شاهدنا نزولها.. ازداد اليقين وقويت الطمأنينة؛ إذ ينضم علم المشاهدة باللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك، وعلم النظر والاستدلال.

٣ ـ أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل الذين لم يحضروها، أو من الشاهدين لله بكمال القدرة، ولك بالرسالة، وبذا يؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

وقرأ ابن جبير[1]: ﴿ونُعلَم﴾ بضم النون مبنياً للمفعول، وهكذا في كتاب «التحرير والتحبير»، وفي كتاب «ابن عطية» وقرأ سعيد بن جبير: ﴿ويُعلَم﴾ بالياء المضمومة، والضمير عائد على القلوب، وفي كتاب الزمخشري: ﴿ويعلم﴾ بالياء على البناء للمفعول. وقرأ الأعمش: ﴿وتعلم﴾ بالتاء؛ أي: وتعلمه قلوبنا. وقرأ الجمهور ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنون، وفي كتاب «التحرير والتحبير» وقرأ سنان وعيسى: ﴿وتكون عليها﴾ بالتاء الفوقانية.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: لما رأى عيسى ابن مريم أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك السؤال.. قام واغتسل ولبس المسح[2] وصلى ركعتين، فطأطأ رأسه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) **المسح** ـ بكسر الميم وسكون السين ـ: البلاسي بكسر الباء، يجمع على أمساح، والبلاس: ثوب من الشعر غليظ اهـ «تاج العروس».

وغض بصره، وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ يا ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾ معشر المؤمنين ﴿مَآئِدَةً﴾؛ أي: خواناً عليه طعام ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾؛ أي: نتخذ يوم نزولها عيداً نعظمه ونصلي فيه، وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لَنَا﴾ بإعادة الجار؛ أي: يكون يوم نزولها عيداً لأهل زماننا، ولمن يجيء بعدنا لكي نعبدك فيه، فنزلت في يوم الأحد، فاتخذه النصارى عيداً لهم ﴿و﴾ تكون ﴿آية﴾ صادرة ﴿مِّنكَ﴾ لنا دالة على وحدانيتك وكمال قدرتك، وصحة نبوة رسولك عيسى عليه السلام ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾؛ أي: وأعطنا هذه المائدة المطلوبة لنا، أو ارزقنا رزقاً نستعين به على عبادتك. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأفضل المعطين، بل لا رازق في الحقيقة غيرك، ولا معطي سواك. والمعنى: أن[1] عيسى عليه السلام لما علم صحة قصدهم، وأنهم لا يريدون تعجيزه، ولا اقتراح آية.. دعا الله بهذا الدعاء، وناداه بالاسم الكريم الدال على الألوهية والقدرة والحكمة إلى نحو ذلك من صفات الكمال، ثم باسم الرب الجامع لمعنى الملك والتدبير والتربية والإنعام؛ أي: يا الله، يا مالك أمرنا، ومتولي تربيتنا أنزل علينا مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم، وتتغذى بها أبدانهم، وتكون عيداً خاصاً بنا معشر المؤمنين دون غيرنا، بأول من آمن منا، وآخر من آمن، واجعلها علامة من لدنك ترشد القوم إلى صحة دعوتي وصدق نبوتي، وارزقنا منها ومن غيرها ما به تتغذى أجسامنا، فأنت خير الرازقين، ترزق من تشاء بغير حساب، ومن محاسن هذا الدعاء: أنه أخَّر ذكر الفائدة المادية للمائدة عن ذكر فائدتها الدينية الروحية بعكس ما فعله الحواريون؛ إذ قدموا الأكل على غيره من الفوائد الأخرى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ على أن الجملة صفة لـ﴿مَآئِدَةً﴾. وقرأ عبد الله والأعمش: ﴿يكن﴾ بالجزم على جواب الأمر، والمعنى: يكن يوم نزولها عيداً وهو يوم الأحد، ومن أجل ذلك اتخذه النصارى عيداً كما مرَّ. وقيل: العيد: السرور والفرح، ولذلك يقال: يوم عيد، فالمعنى: يكون لنا سروراً وفرحاً. وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدري: ﴿لأُولانا وأُخرانا﴾ أنَّثوا

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على معنى الأمة والجماعة. وقرأ ابن السميقع وابن محيصن والضحاك: ﴿وأنه منك﴾ بفتح الهمزة وبنون مشددة، والضمير في ﴿وأنه﴾ إما للعيد أو الإنزال.

فأجاب الله سبحانه وتعالى دعاء عيسى عليه السلام فـ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾؛ أي: المائدة المطلوبة لكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحواريون، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ مشدداً، وقرأ باقي السبعة مخففاً، والأعمش وطلحة بن مصرف: ﴿إني سأنزلها﴾ بسين الاستقبال؛ أي: وعد الله تعالى عيسى عليه السلام بإنزال المائدة مرة أو مراراً، لكنه رتب شرطاً على هذا الوعد فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾؛ أي: بعد نزولها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾؛ أي: تعذيباً، كالسلام بمعنى التسليم، والضمير[1] في ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ للمصدر، ولو أريد بالعذاب ما يعذب به.. لم يكن بد من الباء؛ أي: إني أعذب من يكفر تعذيباً لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً، فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة، فمسخوا خنازير، فلم يعذب بمثل ذلك غيرهم، وفي هذا من التهديد والترهيب ما لا يقادر قدره.

والخلاصة[2]: أن من يكفر منكم بعد نزول هذه الآية التي اقترحتموها، وجاءت بطريق لا لبس فيه ولا شك.. فإني أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب مثله أحداً من سائر كفار العالمين؛ لأن عقاب المخطىء أو الكافر يكون بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر في نفسه، والبعد فيه عن الشبهة والعذر، وأيُّ شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله تترى، ثم يقترح آية خاصة تشترك في العلم بها حواسه جميعاً ويتنفع بها في دنياه قبل آخرته، فيعطى ما طلب، ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه، ويكون من الكافرين؟!

وللعلماء في الطعام الذي نزل في المائدة آراء، فقيل: هو خبز وسمك، وقيل: خبز ولحم، وقيل: كان ينزل عليهم طعاماً أينما ذهبوا؛ كما كان ينزل المن على بني إسرائيل، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس.

---

(١) النفسي. (٢) المراغي.

فائدة في المائدة: وروي عن سلمان[1] الفارسي: أنَّ عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء.. لبس صوفاً، ثم قال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا...﴾ الخ، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين: غمامة فوقها، وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام، وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها، ويذكر اسم الله عليها، ويأكل منها، فقال شمعون رأس الحواريين: أنتَ أولى بذلك، فقام عيسى، وتوضأ، وصلى، وبكى، ثم كشف المنديل، وقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس تسيل دسماً، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من الألوان ما خلا الكرَّاث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله من طعام الدنيا هذا، أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما، ولكنه شيء خلقه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتم واشكروا.. يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقال الحواريون: لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة احيي بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودي كما كنت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا وقالوا بعد النزول والأكل: هذا سحر مبين، فمسخ الله منهم ثلاث مئة وثلاثين رجلاً، باتوا ليلتهم مع نسائهم، ثم أصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات، ويأكلون العذرة في الحشوش، ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام.. بكت وجعلت تطيف به، وجعل يدعوهم بأسمائهم واحداً بعد واحد، فيبكون ويشيرون برؤوسهم، ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا. والله أعلم.

الإعراب

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(١) الخازن والمراح.

﴿يَوۡمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف جوازاً تقديره: اذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾. ﴿فَيَقُولُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يقول﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَجۡمَعُ﴾. ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ مقول محكي لـ﴿يقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَاذَآ﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أُجِبۡتُمۡۖ﴾ مقدَّم عليه وجوباً؛ لكونه مما يلزم الصدارة. ﴿أُجِبۡتُمۡۖ﴾: فعل ونائب فاعل، و الجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ إلى آخر الآية: مقول لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿عِلۡمَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ تقديره: لا علم موجود لنا، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، والكاف: في محل النصب اسمها. ﴿أَنتَ﴾: ضمير رفع منفصل مستعار لضمير النصب في محل النصب توكيد لاسم ﴿إن﴾. ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾: خبر ﴿إن﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، مسوقة لتعليل ما قبلها، وفي «الفتوحات»[1]: قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾: ﴿أَنتَ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون توكيداً لاسم ﴿إن﴾، فيكون منصوب المحل، وأن يكون مبتدأ خبره ما بعده، والجملة خبر ﴿إن﴾، وأن يكون فصلاً، وفيه الخلاف المشهور؛ هل له محل من الإعراب، أم لا؟ وإذا قيل: إن له محلاً من الإعراب، فهل يعرف بإعراب ما قبله كقول الفراء، فيكون في محل نصب، أو بإعراب ما بعده، فيكون في محل رفع، كقول الكسائي؟

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾.

﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، ولكن بمعنى إذا التي للاستقبال متعلق بمحذوف تقديره: اذكر. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ بمعنى المضارع؛ لأن هذا القول

(١) الجمل.

يقع يوم القيامة مقدمة لقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿عِيسَى﴾: منادى مفرد العلم في محل النصب مبني بضم مقدر منع من ظهوره التعذر. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة له تابع لمحله منصوب. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه. وإذا كان[1] المنادى علماً مفرداً ظاهر الضم موصوفاً بابن متصلٍ مضافٍ إلى عَلَمٍ.. جاز فتحه إتباعاً لفتحة ابن، وضمه على البناء الأصلي فيه، هذا على مذهب الجمهور. وأجاز الفراء، وتبعه أبو البقاء فيما لا يظهر فيه الضم ـ كما هنا ـ تقدير ضم البناء، وفتح الإتباع لابن، كما قال ابن مالك:

وَنَحْوِ زَيْدٍ ضُمَّ وَٱفْتَحَنَّ مِنْ نَحْوِ أَزَيْدُ بْنَ سَعِيْدٍ لاَتَهِنْ

ويجوز أن يكون المنادى في هذا التركيب منصوباً؛ لأنه في نية الإضافة، ويكون الابن مقحماً للتوكيد. قال التبريزي: الأظهر عندي أن موضع عيسى نصب، لأنك تجعل الاسم مع نعته إذا أضفته إلى العلم كالشيء الواحد المضاف انتهى. وكل ما كان مثل هذا التركيب.. جاز فيه الوجهان: نحو يا زيد بن عمرو، وأنشد النحويون:

يَا حَكَمُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ بْنِ ٱلْجَارُوْدْ أَنْتَ ٱلْجَوادَ بْنُ ٱلْجَوَادِ بْنِ ٱلْجُوْد

وإذا فتحت آخر المنادى في هذا التركيب.. تكون الفتحة حركة إتباع لحركة نون ابن، ولم يعتد بسكون باء ابن؛ لأن الساكن حاجز غير حصين، وسيأتي إن شاء الله تعالى في مبحث الصرف قاعدة مفيدة في مثل هذا المنادى على سبيل الاستطراد، وجملة النداء في الآية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نعمتي﴾؛ لأنه مصدر بمعنى إنعامي. ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾: معطوف على ﴿عَلَيْكَ﴾.

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿نِعْمَتِى﴾. ﴿أَيَّدتُّكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل النصب حال من الكاف في ﴿أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تُكَلِّمُ﴾. ﴿وَكَهْلًا﴾: الواو: عاطفة. ﴿كهلا﴾: معطوف على محل الجار والمجرور قبله على كونه حالاً من فاعل ﴿تُكَلِّمُ﴾، والتقدير: تكلم الناس حالة كونك صغيراً في زمن المهد، وكبيراً في زمن الكهولة. ﴿وَإِذْ﴾: والظرف معطوف على الظرف في قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿نِعْمَتِى﴾. ﴿عَلَّمْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿عَلَّمْتُكَ﴾. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى معطوف على ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿تَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مِنَ ٱلطِّينِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَخْلُقُ﴾، أو حال من هيئة الطير على قول من أجاز تقديم حال المجرور عليه، كما ذكره أبو البقاء. ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾: الكاف: اسم بمعنى مثل في محل النصب مفعول ﴿تَخْلُقُ﴾ مبني على الفتح، وهو مضاف. ﴿هيئة﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿ٱلطَّيْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿بِإِذْنِى﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَخْلُقُ﴾.

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾.

﴿فَتَنفُخُ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿تنفخ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على

عيسى. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تنفخ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿تَخْلُقُ﴾. ﴿فَتَكُونُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على الهيئة. ﴿طَيْرًا﴾: خبرها. ﴿بِإِذْنِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، تنازع فيه كل من ﴿تنفخ﴾ و﴿تَكُونُ﴾. ﴿وَتُبْرِئُ﴾: الواو: عاطفة ﴿تبرىء الأكمه﴾: فعل ومفعول. ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿عيسى﴾. ﴿بِإِذْنِي﴾: متعلق بـ﴿تبرىء﴾، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿تَخْلُقُ﴾. ﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿بِإِذْنِي﴾: متعلق بـ﴿تُخْرِجُ﴾.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجر مضاف إليه. لـ﴿إِذْ﴾. ﴿عَنكَ﴾: متعلق بـ﴿كَفَفْتُ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿كَفَفْتُ﴾. ﴿جِئْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: متعلق بـ﴿جِئْتَهُم﴾. ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: عاطفة ﴿قال الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿جِئْتَهُم﴾. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنْ﴾ نافية تعمل عمل ليس، ولكن بطل عملها لانتقاض نفيها بـ﴿إِلَّا﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿سِحْرٌ﴾: خبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى معطوف على ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾. ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾. ﴿أَنۡ﴾: مفسرة بمعنى أي التفسرية؛ لوقوعها بعد ما في معنى القول دون حروفه، ويصح كونها مصدرية بتكلف، وتكون في موضع نصب بـ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾؛ أي: أوحيت إليهم الأمر بالإيمان، كما ذكره أبو البقاء. ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مفسرة لـ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿بِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامِنُواْ﴾. ﴿وَبِرَسُولِي﴾: معطوف عليه. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾: الواو: عاطفة. ﴿اشهد﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على الرب، أو على ﴿عِيسَى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿بِأَنَّنَا﴾: الباء: حرف جر، ﴿أن﴾: حرف نصب، ونا: اسمها. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾: خبرها، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بكوننا مسلمين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱشهد﴾.

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى متعلق باذكر المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿يَٰعِيسَى﴾ إلى آخره مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿يَٰعِيسَى﴾: منادى مفرد علم. ﴿ٱبۡنَ﴾: صفة له، أو عطف بيان، أو بدل منه. ﴿مَرۡيَمَ﴾ مضاف إليه لـ﴿ٱبۡنَ﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَلۡ﴾ للاستفهام الاستخباري. ﴿يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الاستفهامية جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يُنَزِّلَ﴾: منصوب به، وفاعله ضمير يعود على الرب. ﴿عَلَيۡنَا﴾: متعلق به. ﴿مَآئِدَةً﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ صفة لها، أو متعلق بـ﴿يُنَزِّلَ﴾، وجملة

﴿يُنَزِّلَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يستطيع﴾ تقديره: هل يستطيع ربك تنزيل مائدة من السماء علينا.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، والجملة مستأنفة. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاتقوا الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿نُرِيدُ﴾ فعل، والفاعل ضمير مستتر يعود على الحواريين ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿نَّأْكُلَ﴾ فعل مضارع منصوب بها، وفاعله ضمير يعود على الحواريين، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: نريد أكلنا منها، وجملة ﴿نُرِيدُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَّأْكُلَ﴾. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾. ﴿وَنَعْلَمَ﴾ معطوف أيضاً على ﴿نَّأْكُلَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: أنه. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿صَدَقْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم؛ تقديره: ونعلم صدقك إيانا حقاً.

فائدة: وإذا ولي أن المخففة من الثقيلة فعلٌ متصرف؛ فإن كان ماضياً.. فصل بينهما بـ﴿قَدْ﴾ نحو قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، وإن كان

مضارعاً.. فصل بينهما بحرف تنفيس كقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، ولا يقع بغير فصل، قيل: إلا قليلاً، وقيل: إلا ضرورة، ذكره أبو حيان. ﴿وَنَكُونَ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿نَّأْكُلَ﴾، واسمها ضمير مستتر فيه يعود على الحواريين ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿الشَّٰهِدِينَ﴾. ﴿مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿نكون﴾.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿قَالَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لـ﴿عِيسَى﴾، أو عطف بيان ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿اللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد علم في محل النصب على النداء مبني على الضم لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمنه معنى حرف الخطاب، وإنما حرك؛ ليعلم أن له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة ضمة جبراً لما فاته من الإعراب، والميم المشددة عوض عن حرف النداء مبني على الفتح، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثانٍ. ﴿أَنزِلْ﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَائِدَةً﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾: صفة أولى لـ﴿مَائِدَةً﴾، أو متعلق بـ﴿أَنزِلْ﴾، وجملة ﴿أَنزِلْ﴾ من الفعل والفاعل جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَائِدَةً﴾. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿عِيدًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عِيدًا﴾: خبر ﴿تَكُونُ﴾. ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾: جار ومجرور بدل من ﴿لَنَا﴾ بدل تفصيل من مجمل. ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ معطوف على ﴿أولنا﴾، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ من اسمها وخبرها، في محل النصب صفة ثانية لـ﴿مَائِدَةً﴾. ﴿وَءَايَةً﴾: معطوف على ﴿عِيدًا﴾. ﴿مِّنكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾. ﴿وَارْزُقْنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزِلْ﴾ على كونها جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾: خبر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا

مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إنّ﴾ حرف نصب، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ خبر ﴿إنّ﴾ ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَمَن﴾: الفاء: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو جملة الشرط، أو هما. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَعْدُ﴾: ظرف زمان في محل النصب على الظرفية مبني على الضم لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف تقديره: بعد تنزيلها، وإنما حرك؛ ليعلم أن له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة ضمة ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَكْفُرْ﴾. ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إن﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أُعَذِّبُهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَذَابًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة إن في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾: ﴿لَّآ﴾: نافية. ﴿أُعَذِّبُهُۥٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والهاء: ضمير عائد على المصدر في محل النصب على المفعولية المطلقة. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدًا﴾، وجملة: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ في محل النصب صفة لـ﴿عَذَابًا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قال الخطابي[1]: العلاَّم بمنزلة العليم، وبناء فعَّال بناء التكثير. فأما الغيوب: فجمع غيب: وهو ما غاب عنك.

---

(١) زاد المسير.

﴿نِعْمَتِى﴾ وقال الحسن: المراد بذكر النعمة الشكر، فأما النعمة: فلفظها لفظ الواحد، ومعناها الجمع، ولكن هنا مصدر بمعنى الإنعام. ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾: قويتك، مأخوذ من الأيد، وهو القوة، يقال: آد يئيد أيداً وآداً إذا اشتد وقوي وصلب، وأيد تأييداً ـ من باب فعَّل المضعف ـ فهو مؤيد، وذاك مؤيد، وآيَد مؤايدة، فهو مؤيد وذاك مؤيد ـ من باب أفعل الرباعي ـ إذا قواه وأثبته، وتأيد ـ من باب تفعل ـ إذا تقوى، والإياد: ما أيد به الشيء ويقال: إيادا الجيش: جناحاه؛ أي: ميمنته وميسرته، والجبل الحصين، والأيد: القوي.

﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾: والمهد: الموضع يهيأ ويوطأ للصبي، يجمع على مهود كفلس وفلوس، ومعنى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾؛ أي: صغيراً في المهد ﴿وَكَهْلًا﴾؛ أي: كبيراً في زمن الكهولة. وحكى[1] ثابت بن أبي ثابت: أن الكهل ابن أربعين إلى الخمسين، وقال غيره: ابن ثلاث وثلاثين.

﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ الطير: اسم جنس لطائر، وقال الخليل: الأكمهُ الذي يولد أعمى، وقد يقال لمن تذهب عينه بعد ما كان يبصر.

﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ تقدم[2] الكلام في اشتقاق هذه المفردات ومعانيها، وابن: صفة لعيسى، نصب لأنه مضاف، وهنا قاعدة كلية مفيدة؛ وذلك أن المنادى المفرد المعرفة الظاهر الضمة إذا وصف بابن أو ابنة، ووقع الابن أو الابنة بين علمين، أو اسمين متفقين في اللفظ، ولم يفصل بين الابن وبين موصوفه بشيء.. تثبت له أحكام، منها: أنه يجوز إتباع المنادى المضموم لحركة نون ابن، فيفتح نحو: يا زيد ابن عمر، ويا هندَ ابنة بكر. بفتح الدال من: زيد وهند، وضمها، فلو كانت الضمة مقدرة مثل ما نحن فيه.. فإن الضمة مقدرة على ألف عيسى، فهل يقدر بنائها على الفتح إتباعاً كما في الضمة الظاهرة؟ فيه خلاف، والجمهور على عدم جوازه؛ إذ لا فائدة في ذلك، فإنه إنما كان للإتباع، وهذا المعنى مفقود في الضمة المقدرة، وأجاز الفراء ذلك؛ إجراءً للمقدر مجرى

---

(١) إعراب النحاس. (٢) الفتوحات.

الظاهر، وتبعه أبو البقاء، فإنه قال: يجوز أن تكون على الألف من عيسى فتحة؛ لأنه قد وصف بابن، وهو بين علمين، وأن تكون فيها ضمة، وهو مثل قولك: يا زيد بن عمرو، بفتح الدال وضمها، وهذا الذي قاله غير بعيد. اهـ «سمين».

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ الوحي في اللغة: الإشارة السريعة الخفية، والإعلام بالشيء بسرعة وخفاء، والمراد به[1] هنا: ما يلقيه الله في نفوس الأحياء من الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، وهكذا ألقى الله في قلوب الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسى عليه السلام.

﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة[2]: الخوان عليه طعام، فإن لم يكن عليه طعام.. فليس بمائدة، هذا هو المشهور، إلا أن الراغب قال: المائدة: الطبق الذي عليه الطعام، وتقال أيضاً للطعام، إلا أن هذا مخالف لما عليه المعظم، وهذه المسألة لها نظائر في اللغة، لا يقال للخوان مائدة إلا وعليه الطعام، وإلا فهو خوان، ولا يقال: جراب إلا وهو مدبوغ، وإلا فهو إهاب، ولا يقال: قلم إلا وهو مبري، وإلا فهو أنبوب.

واختلف اللغويون في اشتقاقها، فقال الزجاج: هو من ماد يميد - من باب باع - إذا تحرك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، ومنه: ميد البحر، وهو ما يصيب راكبه، فكأنها تميد بما عليها من طعام، قال: وهي فاعلة على الأصل.

وقال أبو عبيد: هي فاعلة بمعنى مفعولة، مشتقة من ماده بمعنى: أعطاه، وامتاده بمعنى: استعطاه، فهي بمعنى: مفعولة كعيشة راضية، وأصلها أنها ميد بها صاحبها؛ أي: أعطيها. والعرب تقول: مادني فلان يميدني: أحسن إلي وأعطاني، وقال أبو بكر الأنباري: سميت مائدة؛ لأنها غياث وعطاء، من قول العرب: ماد فلان فلاناً إذا أحسن إليه اهـ «سمين».

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ والعيد[1] مشتق من العود؛ لأنه يعود كل سنة، قاله ثعلب عن ابن الأعرابي، وقال ابن الأنباري: النحويون يقولون: يوم العيد، لأنه يعود بالفرح والسرور، وعيد الفرح لا يعود بالفرح والحزن، وكل ما عاد إليك في وقت فهو عيد. وقال الراغب: العيد حالة تعاود الإنسان، والعائدة كل نفع يرجع إلى الإنسان بشيء، ومنه: العود للبعير المسن؛ إما لمعاودة السير والعمل، فهو بمعنى فاعل، وإما لمعاودة السنين إياه ومرورها عليه، فهو بمعنى: مفعول، وصغّروه على: عييد، وكسروه على: أعياد، وكان القياس: عويد؛ لزوال موجب قلب الواو ياء، لأنها إنما قلبت لسكونها بعد كسرة؛ كميزان، وإنما فعلوا ذلك فرقاً بينه وبين عود الخشب. اهـ «سمين». ﴿عَذَابًا﴾ في «السمين»[2]: عذاباً: اسم مصدر بمعنى التعذيب، أو مصدر على حذف الزوائد، نحو: عطاء ونبات لأعطى وأنبت، وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين، والهاء في لا أعذبه عائدة على عذاب الذي تقدم أنه بمعنى التعذيب، والتقدير: فإني أعذبه تعذيباً لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحداً. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؛ لأن فيه توبيخاً للكفار.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

ومنها: التجوز في التعبير عما في المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن هذا القول يقع يوم القيامة إشعاراً بتحقق الوقوع، فأقام الماضي مقام المضارع، و﴿إِذْ﴾ مقام إذا التي للمستقبل، فأصل العبارة: إذ يقول الله.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فتخصيص عيسى من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود

---

(١) السمين. (٢) الجمل.

والنصارى فيه إفراطاً وتفريطاً، هذه تجعله إلٰهاً، وهذه تجعله كاذباً كما سبق.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

ومنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، وما عطف عليه؛ لأنه تفصيل لقوله: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾، وفي قوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾؛ لأنه تفصيل لقوله: ﴿لَنَآ﴾.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إشعاراً بمزيد اختصاصه بهما.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾؛ لأنه بمعنى تصور، وفي قوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لأنه بمعنى تحيي.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿بِإِذْنِى﴾؛ حيث كرره في أربعة مواضع للإشعار بأن ذلك كله من جهة الله تعالى ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله تعالى.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ لأن حق المقام أن يقول: إذ قالوا، لتقدم المرجع.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿بِإِذْنِى﴾؛ لأنه جاء به أربع مرات عقيب أربع جمل؛ لأن المقام مقام ذكر النعمة والامتنان بها، فناسبه الإسهاب، بخلاف ما مرَّ في آل عمران؛ لأن ما هناك موضع إخبار لبني إسرائيل، فناسبه الإيجاز.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه كان الكلام[1] قبل هذه الآيات في تعداد النعم التي أنعم الله بها سبحانه على عيسى، وفي إلهامه للحواريين الإيمان به وبرسوله، وفي طلب الحواريين من عيسى إنزال مائدة من السماء، ثم طلب عيسى من ربه إجابة مطلبهم، وإخبار الله تعالى بأنه أجابهم، ثم لم يزل الكلام في هذه الآيات مع عيسى أيضاً، ففيها سؤال من الله على مرأى من قومه توبيخاً وتقريعاً لهم على افترائهم، وإجابة من عيسى عن ذلك فيها تنصل من ذلك الذنب العظيم الذي اقترفوه بعده، وهو القول بالتثليث، ثم إخبار من الله تعالى بما ينجي الإنسان من عذاب يوم القيامة مع بيان أن ما في السموات والأرض كله مملوك له، وفي قبضته يتصرف فيه بعدله وحكمته، وهو القادر على كل شيء لا شريك له يمنعه إن أعطى، أو يلزمه بالإعطاء إن منع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾: معطوف على قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ عطف قصة على قصة، ﴿وَإِذْ﴾ بمعنى: إذا التي للمستقبل؛ لأن ﴿إِذْ﴾ قد تجيء بمعنى: إذا، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ يعني: إذا فزعوا، وقول أبي النجم:

---

(١) المراغي.

ثُمَّ جَزَاكَ ٱللَّهُ عَنِّي إِذْ جَزَىٰ جَنَّاتِ عَدْنٍ فِي ٱلسَّمَوَاتِ ٱلْعُلَىٰ

و﴿قال﴾ بمعنى: يقول؛ لأن هذا القول إنما يكون في يوم القيامة، وإنما عبر بالماضي لما مر من الدلالة على التحقيق والوقوع، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لأمتك قصة إذ يقول الله يوم القيامة لعيسى ابن مريم - توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم بإقراره عليه السلام بالعبودية على رؤوس الأشهاد، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل -: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: هل قلت للناس في الدنيا. ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ﴾، والله ثالثهما؛ أي: اجعلوني وأمي مريم معبودين لكم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: متجاوزين عبادة اللّه تعالى، وتاركين عبادته، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى عليه السلام من النصارى؛ لأن عيسى عليه السلام لم يقل هذه المقالة.

فإن قلتَ[1]: إذا كان عيسى عليه السلام لم يقلها، فما وجه هذا السؤال مع علم الله بأنه لم يقله؟

قلتُ: وجه هذا السؤال: إثبات الحجة على قومه، وإكذاب لهم في ادعائهم ذلك عليه، وأنه أمرهم به، فهو كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا، وهو يعلم أنه لم يفعله، وإنما أراد تعظيم ذلك الفعل، فنفى عيسى عليه السلام عن نفسه هذه المقالة، وقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، فاعترف بالعبودية، وأنه ليس بإلٰه كما زعمت وادعت النصارى فيه.

فإن قلتَ: إن النصارى لم يقولوا بإلٰهيَّة مريم، فكيف يقول اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟

قلت: إن النصارى لما ادعت في عيسى عليه السلام أنه إلٰه، ورأوا أن مريم ولدته.. لزمهم بهذه المقالة على سبيل التبعية.

ومعنى قوله[2]: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة، وذلك يكون؛ إما باتخاذ إلٰه أو أكثر مع الله تعالى، وهو الشرك؛ إذ

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

عبادة الشريك المتخذ هي غير عبادة الله تعالى خالق السموات والأرض، سواء اعتقد أن هذا الشريك ينفع ويضر استقلالاً، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب، أو بالوساطة عند الله؛ أي: بِمَالَه من التأثير والكرامة على النفع والضر، وهذا هو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة، كما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

وقَلَّ أن يوجد من المشركين من يتخذ إلهاً غير الله متجاوزاً بعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره، فالإيمان الفطري الذي غرس في نفوس البشر يرشد إلى أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك كنهها أحد، فالموحدون أتباع الأنبياء يتوجهون بعباداتهم إلى رب هذه السلطة الغيبية وحده اعتقاداً منهم أنه هو الفاعل الكامل التصرف، وإن نسب الفعل إلى غيره.. فبإقدار الله إياه، وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه، والمشركون يتوجهون إليه تارة، وإلى بعض ما يعظمون من خلقه تارة أخرى؛ كالشمس والنجوم والملائكة وبعض مخلوقات أخرى، ويتوجهون أحياناً إليهما معاً، فيجعلون تلك المخلوقات المعظمة وسيلة إلى خالق الأكوان ومدبر الكائنات.

والخلاصة: أن اتخاذ إلٰه من دون الله يراد به عبادة غيره، سواء أكانت خالصة لذلك الغير، أو شركة بينه وبين غيره، وقد نعى الله تعالى عليهم اتخاذ المسيح إلهاً في مواضع عديدة من هذه السورة، وعبادة أمه كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية، أنكرت عبادتها فرقة إصلاح المسيحية التي جاءت بعد الإسلام بزمن طويل. وهذه العبادة منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود، ومنها ما هو استغاثة واستشفاع، ومنها ما هو صيام ينسب إليها ويسمى بصيام العذراء، وكل أولئك يقترن بخشوع وخضوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة؛ إما بنفسها أو بواسطة ابنها، ويسمونها: والدة الإله.

والآية ترشد إلى أنهم اتخذوها هي وابنها إلٰهين ـ والاتخاذ غير التسمية ـ فيصدق بالعبادة وهي واقعة حتماً.

﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام، وقد ارتعدت مفاصله، وارتعش جسمه من سماع هذا الخطاب؛ أعني قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قال مجيباً لله سبحانه وتعالى هذا الخطاب ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ من أن يكون لك شريك؛ أي: تنزيهاً لك عن النقائص وبراءة لك من العيوب؛ إذ لا شبهة في ألوهيتك وأنت منزه عن الشرك فضلاً أن يتخذ إلهان دونك، والمعنى: أنزهك يا إلهي تنزيهاً لائقاً بك عن أن يكون معك إلٰه آخر، فضلاً عن أن أقول ذلك، وبهذا أثبت له التنزيه عن المشاركة في الذات والصفات.

ثم انتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس بحق، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾؛ أي: أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله؛ أي: كيف أقول هذا الكلام ولست بأهل له، ولست أستحق العبادة حتى أدعو الناس إليها؛ أي: ليس من شأني ولا مما يصح أن يقع مني أن أقول قولاً لا حق لي أن أقوله؛ لأنك أيدتني بالعصمة عن مثل هذا القول الباطل. وهو بتنزيهه الله أولاً أثبت أن ذلك القول الذي نُسب إليه قول لا شائبة فيه من الحق، وليس من شأنه ولا مما يقع من مثله، وقد أكد هذا النفي مرة أخرى بحجة أخرى ارتقى فيها من برهان راجع إلى نفسه ـ وهو عصمته عليه السلام ـ إلى برهان أعلى راجع إلى ربه علام الغيوب فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ﴾؛ أي: إن صح أني قلته لهم فيما مضى ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وهذا مبالغة في الأدب في إظهار الذل في حضرة ذي الجلال، وتفويض الأمور بالكلية إلى الكبير المتعالي. والمعنى: إني لا أحتاج إلى الاعتذار؛ لأنك تعلم أني لم أقله، ولو قلته.. لعلمته لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾؛ أي: ذاتي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾؛ أي: ذاتك، فنفس[1] الشيء: ذاته وهويته، والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وقيل: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾؛ أي: ما كان مني لهم من الأمر والنهي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا

(١) النسفي.

﴿فِى نَفْسِكَۚ﴾؛ أي: ما كان منك لهم من الخذلان، وقيل: تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه، ولا أعلم حقيقة ذاتك ولا ما احتوت عليه من صفات الكمال.

واعلم: أنهم اختلفوا في إطلاق النفس على الله تعالى، فقيل: لا يجوز إطلاقها عليه إلا في مقام المشاكلة، والحق أنه يجوز إطلاق النفس على الله من غير مشاكلة؛ إذ ورد إطلاقها في غير المشاكلة قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾ ذكره الصاوي.

والمعنى: أن ذلك القول إن كان قد صدر مني.. فقد علمته؛ إذ علمك واسع محيط بكل شيء، فأنت تعلم ما أسره وأخفيه في نفسي، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه وعلمه مني غيري، كما أني لا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لم ترشدني إليها بالكسب والاستدلال، لكني أعلم ما تظهره لي بالوحي بواسطة ملائكتك المقربين إليك ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ أي: إنك أنت العالم بالخفايا عن العباد؛ لأنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك، ما كان منها وما سيكون وما هو كائن، وعلم غيرك مستمد من فيضك لا من ذاته، فهو إما أن يناله بواسطة المشاعر والحواس أو العقل، وإما أن يتلقاه هبة منك بالوحي والإلهام. فقوله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[1] يدل بمنطوقه على أنه تعالى يعلم الغيب، فيكون مقرراً لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾، ويدل بمفهومه على أنه لا يعلم الغيب غيره، فيكون مقرراً لقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾ ودل بتصدير الجملة بـ﴿إِنَّ﴾، وتوسط ضمير الفصل، وبناء المبالغة، والجمع المعرف باللام أن شيئاً لا يعزب عن علمه ألبتة كما هو مقرر في محله.

وبعد تنزيه ربه وتبرئة نفسه وإقامة البراهين على ذلك.. بيَّن حقيقة ما قاله لقومه؛ إذ الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة إلا بإثبات ما يجب أن يكونوا عليه من أمر التوحيد بعد نفي ضده، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾؛ أي: ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به. وقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ﴾ عطف[2] بيان للضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾، أو بدل منه، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل

---

(١) الفتوحات. (٢) البيضاوي.

مطلقاً، فيلزم منه بقاء الموصول بلا عائد، أو خبر محذوف، أو مفعوله، مثل: هو، أو أعني، وقيل[1]: ﴿أن﴾ مفسرة للهاء الراجع للقول المأمور به، والمعنى: ما قلت لهم في الدنيا إلا قولاً أمرتني به، وذلك القول هو أن أقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم؛ أي: وحدوه ولا تشركوا به شيئاً.

والخلاصة: أني ما قلت لهم في شأن الإيمان وأساس الدين إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقاداً وتبليغاً لهم بأنك ربي وربهم، وأنني عبد من عبادك مثلهم إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: وكنت قائماً عليهم مراقباً لهم أراقبهم وأمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان، أشهد على ما يقولون وما يفعلون، فأُقر الحق وأُنكر الباطل ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾؛ أي: مدة دوامي ووجودي بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾؛ أي: رفعتني من بينهم إلى السماء، فالمراد: وفاة الرفع لا وفاة الموت، وقال الحسن: الوفاة: وفاة الموت، ووفاة النوم، ووفاة الرفع. ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: كنت أنت الحفيظ عليهم المراقب لأعمالهم وأحوالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ دوني؛ لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم، وأنت تشهد على كل شيء؛ إذ لا يخفى عليك شيء، فالرقيب: الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، والشهيد: العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء، وفي هذا إيماء إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما عرّفه بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ أفعال القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه. وقد تقدَّم في هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم فوَّض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ أي: إن

---

(١) المراح.

تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة وماتوا على كفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ لا يقدرون على دفع ضُر نزل بهم، ولا جلب نفع لأنفسهم، وأنت العادل فيهم؛ لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أي: لمن تاب عن كفره منهم، ومات على الإيمان، فإن ذلك بفضلك ورحمتك ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغالب في الانتقام ممن يريد الانتقام منه، لا يمتنع عليه ما يريده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله كلها الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

قيل: قاله على وجه الاستعطاف كما يُستطعف السيد لعبده، ولهذا لم يقل: إن تعذبهم فإنهم عصوك، وقيل: قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم، ذكره «الشوكاني».

والمعنى: إن تعذب من أرسلتني إليهم فبلغتُهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك، فضلَّ منهم من ضل، وقالوا ما لم أقله، واهتدى منهم من اهتدى فلم يعبدوا معك سواك.. فإنهم عبادك وأنت الرحيم بهم، ولست أنا ولا غيري من الخلق بأرحم بهم منك، وإنما تجزيهم بحسب علمك بما يظهرون وما يبطنون، فأنت العليم بالمؤمن المخلص في إيمانه، وبمن أشرك بك غيرك، أو بمن أطاعك وبمن عصاك، وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، وإن تغفر.. فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة، وإنك أنت العزيز الغالب على أمره، الحكيم في تصرفه وصنعه، فيضع كل جزاء وكل فعل في موضعه.

وخلاصة المعنى: أنك إن تعذب.. فإنما تعذب من يستحق التعذيب، وإن تغفر.. فإنما تغفر لمن هو أهل لذلك، ومهما توقعه فيهم من عذاب.. فلا دافع له من دونك، ومهما تمنحهم من مغفرة.. فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته؛ لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يغلب، ويمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع، وأنت الحكيم الذي يضع كل شيء موضعه، فلا يمكن أحداً غيرك أن يرجعك عنه.

ومن هذا تعلم أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئاً من الشفاعة

لقومه، ومما يؤيد هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ: (تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل وسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك).

وما رواه البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة، فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ قال: فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم».

وما رواه أحمد والنسائي وابن مردويه: أنه ﷺ قام بهذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ. . .﴾ الآية، حتى أصبح، يركع بها ويسجد، فسأله أبو ذر عن ذلك فقال: «إني سألت ربي الشفاعة فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً».

فهذه الأحاديث صريحة في أن الشفاعة لا ينالها أحد يشرك بالله شيئاً.

قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا. . .﴾ كلام مستأنف ختم به حكاية ما حكى مما يقع يوم يسأل الله الرسل عليهم السلام؛ أي: قال الله سبحانه وتعالى: هذا اليوم ـ يعني: يوم القيامة ـ هو ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾؛ أي: إن هذا اليوم هو اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم في الدنيا في إيمانهم، وفي شهاداتهم وفي سائر أقوالهم وأحوالهم. والمعنى: إن صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة؛ لأنه يوم الإثابة والجزاء، وما تقدم من صدقهم في الدنيا يتبين نفعه يوم القيامة، والمراد بالصادقين: النبيون والمؤمنون؛ لأن الكفار لا ينفعهم صدقهم يوم القيامة.

قال[1] قتادة: متكلمان لا يخطئان يوم القيامة: عيسى عليه السلام؛ لأنه يقوم فيقول: ما قص الله عنه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ الآية، فكان صادقاً في الدنيا والآخرة فينفعه صدقه، وأما المتكلم الآخر فإبليس، فإنه يقوم ويقول: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الآية، فصدق عدو الله فيما قال، ولم ينفعه صدقه انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ بالرفع على أن ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ و﴿يَوْمُ﴾ خبره، والجملة محكية بـ﴿قال﴾، وهي في موضع المفعول به لـ﴿قال﴾. وقرأ نافع: ﴿هذا يومَ﴾ ـ بفتح الميم ـ وخرجه الكوفيون على أنه مبني خبر لـ﴿هذا﴾، وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية، وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إلى الجملة، فعلى قولهم تتحد القراءتان في المعنى. وعند البصريين هو معرب لا مبني، منصوب على أنه ظرف لـ﴿قال﴾. وقرأ الأعمش: ﴿يوماً ينفع﴾ ـ بالتنوين ـ كقوله: ﴿واتقوا يوماً لا تجزىء﴾. وقرأ الحسن بن عياش الشامي: ﴿هذا يومٌ﴾ بالرفع والتنوين. وقرأ الجمهور ﴿صدقُهم﴾ بالرفع فاعل ينفع وقرىء بالنصب وخرج على أنه مفعول له أي لصدقهم، ثم بين الله تعالى ذلك النفع بذكر ما لهم من الثواب على صدقهم فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للصادقين في الآخرة على صدقهم في الدنيا ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: بساتين تسيل من تحت أشجارها الأنهار الأربعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: حالة كونهم مقدرين الخلود والمكث الطويل في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة لا نهاية لها ولا انقضاء، وتقدم لك الفرق بين الخلود والأبد فلا عود ولا إعادة. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن الصادقين في الآخرة بما عملوه في الدنيا من الطاعات الخالصة، ومعنى رضا الرب سبحانه عن عبده: قبول عمله منه وإثابته عليه. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: ورضي الصادقون عن الله سبحانه وتعالى بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال، ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، وأعلى منازل الكرامة، وهذا المذكور هو غاية السعادة الأبدية؛

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

إذ لا مطلب لهم أعلى منه حتى تمتد أعناقهم إليه وتتطلع نفوسهم لبلوغه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبداً ورضوان الله عنهم والفوز والظفر بالمطلوب على أتم الأحوال. وقيل[1]: الإشارة إلى رضوان الله؛ أي: ذلك الرضوان هو الفوز العظيم، فالجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف لا، والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق، وأيُّ مناسبة بينهما؟ والمعنى: ذلك الفوز العظيم؛ أي: ذلك[2] الذي ذكر من النعيمين الجسماني والروحاني اللذين يحصلون عليهما بعد النجاة من أهوال يوم القيامة هو الفوز البالغ النهاية؛ لأن الفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده أو مما يحول دونه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

وبعد أن بيَّن ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الحق في مقعد الصدق.. بيَّن عقبه سعة ملكه وعموم قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره تعالى فقال: ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سلطنة السموات السبع والأرضين السبعة ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾؛ أي: وسلطنة ما في السموات والأرض فاحمدوا الذي خلق السموات والأرض ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌۢ﴾؛ أي: قادر؛ أي: أن كل ما سوى الله تعالى من الكائنات والأجساد والأرواح ممكن لذاته، موجود بإيجاده تعالى، وإذا كان الله موجوداً.. كان مالكاً له، وإذا كان مالكاً له.. كان له تعالى أن يتصرف في الكل بالأمر والنهي والثواب والعقاب كيف أراد، فصح التكليف على أي وجه أراده تعالى، وكان الله مالك الملك، فله بحكم المالكية أن ينسخ شرع موسى ويضع موضعه شرع محمد ﷺ، فبطل قول اليهود بعدم نسخ شرع موسى، ثم إن مريم وعيسى داخلان فيما سوى الله، فهما كائنان بتكوين الله تعالى، فثبت كونهما

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

عبدين لله مخلوقين له، فظهر بهذا التقرير: أن هذه الآية برهان قاطع في صحة جميع العلوم التي اشتملت عليها هذه السورة.

وعبارة «الفتوحات» هنا: قوله ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، هذا[1] تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا في حق المسيح وأمه؛ أي: له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم، يتصرف فيها كيف يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وأمراً ونهياً من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك. اهـ «أبو السعود». وأتى[2] بـ﴿ما﴾ دون ﴿من﴾ تغليباً لغير العقلاء على العقلاء؛ لأن غير العقلاء هم الأكثر المناسب لمقام إظهار العظمة والكبرياء، وكون الكل في ملكوته وتحت قدرته لا يصلح شيء منها للألوهية سواه، فيكون تنبيهاً على قصورهم عن رتبة الربوبية انتهى «كرخي».

والحاصل[3]: أن الملك كله والقدرة كلها لله وحده، وفي قوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ تعريض بأن المسيح وأمه اللذين عبدا من دون الله داخلان تحت قبضته تعالى، إذ الملك والقدرة له وحده، فلا ينبغي لأحد أن يتكل على شفاعتهما. ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وغاية ما أعطاهم الكرامة لديه، والمنزلة الرفيعة من بين عباده. ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

خاتمة: في بيان بعض ما تضمنته هذه السورة من التشريع والأحكام الاعتقادية والعملية:

---

(١) الجمل.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

أهم الأصول التي انفردت بها هذه السورة:

١ ـ بيان أن الله أكمل لعباده هذا الدين الذي ارتضى لهم، وأن دين الله واحد وإن اختلفت شرائع الأنبياء ومناهجهم، وأن هذا الدين مبني على العلم اليقيني في الاعتقاد، والهداية في الأخلاق والأعمال، وأن التقليد فيه باطل لا يقبله الله، وأن أصول الدين الإلهي على ألسنة الرسل كلهم هي الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فمن أقامها كما أمرت الرسل من أيٍّ ملة كاليهود والنصارى، والصابئين، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٢ ـ بيان عموم بعثة النبي ﷺ، وأمره بالتبليغ العام، وأنه لا يكلف إلا التبليغ فقط، ومن حجج رسالته أنه بيَّن لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفون من كتبهم مما ضاع قبل بعثة النبي ﷺ، ومما كانوا يكتمونه من الأحكام اتباعاً لأهوائهم، وأن هذا الرسول قد عصمه الله وحفظه من أن يضره أحد أو يصده عن تبليغ رسالة ربه، وأننا نهينا عن سؤاله عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف.

٣ ـ بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفراداً وجماعات، وأنه لا يضرهم من ضل إذا هم استقاموا على صراط الهداية، فهو لا يضرهم لا في دنيا ولا دين، ومن ذلك الوفاء بالعقود التي يتعاقدون عليها في جميع المعاملات الدنيوية، وتحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم، والتعاون على البر والتقوى كتأليف الجماعات العلمية والخيرية، وتحريم التعاون على الإثم والعدوان، وتحريم موالاة المؤمنين للكافرين، وبيان أن ذلك من آيات النفاق.

٤ ـ تفصيل أحكام الطعام حلالِه وحرامه، وبيان أن التحريم منه؛ إما ذاتي كالميتة وما في معناها، وإما لسبب ديني كالذي يذبح للأصنام، وبيان أن الضرورات تبيح المحظورات.

٥ ـ تحريم الخمر وكل مسكر، والميسر وهو القمار وما في حكمه؛

كالمضاربات في البورصة[1].

٦ - وجوب الشهادة بالقسط، والحكم بالعدل، والمساواة بين غير المسلمين والمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء، وتأكيد وجوب ذلك في سائر الأحكام.

٧ - بيان تفويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله وحده، وأن النافع في ذلك اليوم هو الصدق، وكان مسك ختامها ذكر الجزاء في الآخرة بما يناسب أحكامها كلها.

وقد روى أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن جبير بن نفير قال: حججت، فدخلت على عائشة فقالت: يا جبير تقرأ المائدة، قلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه. وروى أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمر قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكره، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾، أو مستأنفة. ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰعِيسَى﴾: منادى مفرد العلم. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة له. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ءَأَنتَ﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخي. ﴿أنت﴾: مبتدأ. ﴿قُلْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل

---

(١) **البورصة**: مجتمع التجار وعملاء المصارف والسماسرة للمضاربة بالأموال. إيطالية، عربيها: المثابة اهـ «منجد».

النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْتَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱتَّخِذُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَأُمِّىَ﴾: معطوف على ياء المتكلم ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذوا﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿اتخذوا﴾ تقديره: حال كونكم متجاوزين الله، أو بمحذوف صفة لإلهين تقديره: إلهين كائنين من دون الله، وجملة اتخذوني في محل النصب مقول ﴿قُلْتَ﴾.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿عيسى﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: أسبحك سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مفعول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿لِىٓ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يَكُونُ﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَقُولَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على عيسى، وجملة ﴿أَقُولَ﴾ صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿يَكُونُ﴾ تقديره: ما يكون قول ما ليس لي بحق كائناً لي، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَقُولَ﴾، لأنه بمعنى: اذكر. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿مَا﴾ ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: أعني، فاللام فيه للتبيين كـ(لام): سَقْياً لك. ﴿بِحَقٍّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَيْسَ﴾، والتقدير: ما ليس كائناً بحق لي؛ أي: بلائق بي، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿لَيْسَ﴾. وقال أبو البقاء[1]: اسم ﴿لَيْسَ﴾ ضمير مستتر فيها، وخبرها ﴿لِى﴾ و﴿بِحَقٍّ﴾ في موضع الحال من الضمير في الجار، ويجوز أن يكون ﴿بِحَقٍّ﴾ مفعولاً به تقديره: ما ليس يثبت لي بسبب

---

(١) العكبري.

حق، فالباء تتعلق بالفعل المحذوف لا بنفس الجار؛ لأن المعاني لا تعمل في المفعول به، ويجوز أن يجعل ﴿بِحَقٍّ﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ و﴿لِي﴾ تبيين كما في قولهم: سقياً لك ورعياً، ويجوز أن يكون ﴿بِحَقٍّ﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ و﴿لِي﴾ صفة ﴿بِحَقٍّ﴾ قدِّم عليه فصار حالاً، وهذا يخرَّج على قول من أجاز تقديم حال المجرور عليه انتهى. وقيل[1]: إن ﴿لِي﴾ متعلقة بنفس ﴿حق﴾؛ لأن الباء زائدة و﴿حق﴾ بمعنى: مستحق؛ أي: ما ليس مستحقاً لي ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿قُلْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول؛ لأنه بمعنى: ذكرته، وجملة ﴿قُلْتُهُۥ﴾ في محل النصب خبر كان تقديره: إن كنت قائلاً إياه، أي: ذاكراً إياه ﴿فَقَدْ﴾: الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً لاقترانها بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، وليست[2] علم هنا عرفانية؛ لأن المعرفة تستدعي سبق الجهل، فهي هنا على بابها، ومفعولها الثاني محذوف تقديره: فقد علمته واقعاً مني، وجملة علمته في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿تَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿تَعْلَمُ﴾، والثاني محذوف تقديره: منطوياً وثابتاً. ﴿فِى نَفْسِى﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَلَآ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿عيسى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تَعْلَمُ﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به لـ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأن علم هنا بمعنى: عرف ﴿فِى نَفْسِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿إِنَّكَ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، والكاف: اسمها. و﴿أَنتَ﴾: تأكيد. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾: خبرها ومضاف إليه، وجملة

(١) الجمل.

(٢) الصاوي بتصرف.

﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿قُلْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿قُلْتُ﴾؛ لأنه بمعنى: ذكرت. ﴿أَمَرْتَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أمر﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾.

فائدة: حيث[1] وقعت ما قبل ليس، أو لم، أو: لا، أو: بعد إلا، فهي موصولة نحو: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾، ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، وحيث وقعت بعد كاف التشبيه فهي مصدرية نحو: قل كما قال زيد، وحيث وقعت بعد الباء. فإنها تحتملهما نحو: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾، وحيث وقعت بين فعلين سابقهما علم أو دراية أو نظر.. احتملت الموصولية والاستفهامية نحو: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، وحيث وقعت في القرآن قبل إلا.. فهي نافية، إلا في ثلاثة عشر موضعاً: ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾، ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ إلا موضعي هود من قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهي فيهما مصدرية ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، حيث كان قاله في «الاتقان» اهـ «كرخي».

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿أَنِ﴾: مصدرية. ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية، فعل أمر مبني على حذف النون. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به منصوب على التعظيم. ﴿رَبِّي﴾: بدل من الجلالة ومضاف إليه. ﴿وَرَبَّكُمۡۚ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو؛ أي: الذي أمرتني به عبادتهم الله ربي وربهم، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

﴿وَكُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهِيدٗا﴾. ﴿شَهِيدٗا﴾: خبر ﴿كان﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ على كونها مقول القول، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿قُلۡتُ﴾. ﴿مَّا﴾: مصدرية ظرفية. ﴿دُمۡتُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِمۡۖ﴾: جار ومجرور خبر دام، وجملة دام صلة ﴿مَّا﴾ المصدرية، ﴿مَّا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: مدة دوامي فيهم، والظرف المقدر متعلق بـ﴿كان﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَوَفَّيۡتَنِي﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول، والجملة الفعلية فعل شرط ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَنتَ﴾: تأكيد لاسم ﴿كان﴾. ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾: خبر ﴿كان﴾. ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾: متعلق بـ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾. ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾. ﴿شَهِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من تاء ﴿كُنتَ﴾.

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تُعَذِّبۡهُمۡ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية،

وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿إنّ﴾: حرف نصب، والهاء اسمها. ﴿عِبَادُكَ﴾: خبرها ومضاف إليه، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿فَإِنَّكَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إنّ﴾ الشرطية. ﴿إن﴾: حرف نصب، والكاف: اسمها. ﴿أَنتَ﴾: تأكيد للكاف. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول لـ﴿إنَّ﴾. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم: بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إنْ﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ﴾: خبر مرفوع؛ لأنه مضاف إلى معرب فبقي على حقه من الإعراب. ويقرأ بالنصب، ويقال في إعرابه: ﴿يومَ﴾: منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: هذا واقع يوم ينفع هذا على مذهب البصريين وعند الكوفيين ﴿يومَ﴾ في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى الجملة المضاف إليها، وعندهم يجوز بناؤه، وإن أضيف إلى فعل معرب، وأما عند البصريين فلا يبنى إلا إذا أضيف إلى فعل مبني. ﴿يَنفَعُ﴾ فعل مضارع. ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: مفعول به. ﴿صِدْقُهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً مسوقة لبيان النفع المذكور، كأنه قيل: ما لهم من النعيم؟ فقال: لهم جنات. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّٰتٌ﴾، ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَرَضُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَّضِىَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبر. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة لـ﴿فوز﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو مبتدأ ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف تقديره: كائن ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٌۢ﴾. ﴿قَدِيرٌۢ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾: اتخذ[1] من باب افتعل ثلاثيه: تُخِذ يتخذ من باب علم يعلم بمعنى: أخذ، فأدغمت إحدى التائين في الأخرى. قال ابن الأثير: وليس من الأخذ في شيء، فإن الافتعال من الأخذ ائتخذ؛ لأن فاءه همزة، والهمزة لا تدغم في التاء خلافاً لقول الجوهري: الاتخاذ افتعال من الأخذ إلا

(١) القاموس المحيط..

أنه أُدغم بعد تليين الهمزة وإبدال الياء تاء، ثم لما كثر استعماله بلفظ الأفتعال.. توهموا أصالة التاء، فبنوا منه فعل يفعل، وأهل العربية على خلافه.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ وسبحان مصدر لسبح سبحاناً كغفر غفراناً، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله كمعاذ الله، وتصدير الكلام به اعتذار عما نسبت النصارى إليه، والمعنى: تنزيهاً لك عن أن يكون معك إلٰه سواك.

﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾: دمت بوزن قلت؛ لأنه من دام يدوم، فهو أجوف واوي كقال، أصله: دوم من باب فعل المفتوح تحركت[1] الواو وانفتح ما قبلها فقلت ألفاً، فصار: دام كقال، فلما اتصل بتاء الضمير.. سكن آخر الفعل، فالتقى ساكنان؛ وهما الألف المنقلبة عن عين الكلمة وآخر الفعل، فحذفت الألف للتخلص من التقاء الساكنين، فصار: دمت، فجهل وزنه هل هو من باب فعل المفتوح أو المكسور أو المضموم؟ وجهل عينه هل هي واو أو ياء قبل انقلابها ألفاً؟ فروعي جانب التنبيه على العين المحذوفة، فأعطي حركة مجانسة لعينه، فصار: دمت بضم الدال، فعرف أن عينه واو من هذا الضم؛ لأنه حركة مجانسة للواو ويعرف كونه من باب فعل المفتوح من مصدره واسم فاعله؛ لأنه يقال فيه: دوام ودائم كما قال ابن مالك في لامية الأفعال:

وَٱنْقُلْ لِفَاءِ ٱلثُّلَاثِيِّ شَكْلَ عَيْنٍ إِذَا ٱعْـ ... ـتَلَّتْ وَكَانَ بِتَا ٱلإِضْمَارِ مُتَّصِلاَ

أَوْ نُونِهِ وَإِذَا فَتْحاً يَكُونُ فَعَنْـ ... ـهُ ٱعْتَضْ مُجَانِسَ تِلْكَ ٱلْعَيْنِ مُنْتَقِلاَ

ويقال فيه: دام يدام كخاف يخاف، فحينئذ يقرأ بكسر الدال؛ لأنه من باب فعِل المكسور، فتكون حركته حركة نقل كخفت لا حركة مجانسة كقلت.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ توفى من باب تفعل الخماسي، ويستعمل التوفي في أخذ الشيء وافياً؛ أي: كاملاً، والموت نوع منه قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ وليس المراد هنا الموت، بل المراد الرفع إلى السماء.

﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ﴾ والرقيب فعيل بمعنى فاعل؛ أي: المراقب الحافظ

---

(١) مناهل الرجال على لامية الأفعال بتصرف.

لهم، وكذا ﴿شَهِيدٌ﴾ بمعنى شاهد.

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هما[1] فعيل بمعنى فاعل، وفيهما من المبالغة ما ليس فيه، والحكمة لغة: الاتقان والمنع من الخروج عن الإرادة، ومنه: حكمة الدابة، والحكيم: صفة ذات إن فسر بذي الحكمة، وصفة فعل إن فسر بأنه المحكم لصنعته اهـ «سمين».

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: ﴿رَّضِيَ﴾ من باب فعل المكسور رضاً بكسر أوله مصدر سماعي له، والقياس فتح أوله، ولكنه لم يسمع كما قال ابن مالك في خلاصته:

وَمَـا أَتَـىٰ مُـخَـالِـفَـاً لِـمَـا مَـضَـىٰ فَـبَـابُـهُ ٱلـنَّـقْـلُ كَـسُـخْـطٍ وَرِضَـا

والاسم منه: الرضاء ممدوداً، وأصل رضوا: رضيوا استثقلت الضمة على الياء، ثم نقلت إلى ما قبلها بعد سلب حركته فالتقى ساكنان وهما: الياء والواو، ثم حذفت الياء للتخلص من التقاء الساكنين، فصار: رضوا بوزن فعوا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التجوز في استعمال: ﴿إذ﴾ بمعنى: إذا، والماضي بعده بمعنى المستقبل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن هذا القول إنما يقع في يوم القيامة.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾؛ لأنه توبيخ لقومه وتبكيت لهم على رؤس الأشهاد.

ومنها: المشاكلة والمقابلة في قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾؛ لأنه أتى بقوله: ﴿مَا فِى نَفْسِكَ﴾ على جهة المقابلة والمشاكلة لقوله: ﴿مَا فِى نَفْسِى﴾ فهو كقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وكقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ لأنه أكد هذه

---

(١) الفتوحات ج ١ ص ٤٠.

الجملة بـ﴿إِنَّ﴾، والضمير المنفصل، وصيغة المبالغة، والجمع مع أل الاستغراقية.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، وفي قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: المجاز اللغوي في قوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب.

ومنها: الحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى لي في تفسير سورة المائدة، فالحمد لله على أفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وصحبه وآله سيدنا محمد ﷺ زبدة أرساله ما تطارد الجديدان، وتطاول المدى والأوان.

وكان الفراغ من مسودة هذه السورة في تاريخ: ١٤٠٩/٨/١٩ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية يوم الأحد قبيل الظهر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

سورة الأنعام

سورة الأنعام مكية إلا ست آيات أو ثماني آيات أو تسع آيات، فإنها مدنيات: ٢٠/٢٣/٩١/٩٣/١١٤/١٤١/١٥١/١٥٢/١٥٣/ ، وهي وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الثلاث آيات. وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ إلى آخر الآيتين، وذكر مقاتل نحو هذا، وزاد آيتين وهما: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ الآية، فجملتها ثمان آيات. وقد روى كثير من المحدثين من غير واحد من الصحابة والتابعين أن هذه السورة نزلت جملة واحدة إلا هذه الآيات.

وهي مئة وخمس وستون آية: (١٦٥)، وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة: (٣٠٥٢)، وعدد حروفها اثنا عشر ألفاً وأربع مئة واثنان وعشرون حرفاً: (١٢٤٢٢). وقال القرطبي: هي مكية إلا آيتين هما ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس.

مناسبة هذه السورة لما قبلها: الناظر[١] في ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة؛ ليكون ذلك أعون على التلاوة، وأسهل في الحفظ، فالناس يبدؤون بقراءته من أوله، فيكون الانتقال من السبع الطوال إلى المئتين، فالمثاني، فالمفصل أنفى للمَلَل، وأدعى للنشاط، ويبدؤون بحفظه من آخره؛ لأنه أسهل على الأطفال، ولأنه قد روعي

---

(١) المراغي.

التناسب في معاني السور مع التناسب في مقدار الطول والقصر.

ووجه مناسبتها لآخر سورة المائدة من وجوه عدة:

١ ـ أن معظم سورة المائدة في محاجة أهل الكتاب، ومعظم سورة الأنعام في محاجة المشركين والملحدة.

٢ ـ أن سورة الأنعام قد ذكرت فيها أحكام الأطعمة المحرمة والذبائح بالإجمال، وذكرت في المائدة بالتفصيل وهي قد نزلت أخيراً.

٣ ـ أن هذه افتتحت بالحمد، وتلك اختتمت بفصل القضاء، وبينهما تلازم كما قال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

التسمية: وسميت سورة الأنعام؛ لورود ذكر الأنعام فيها: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾، ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها.

ومن خصائصها: ما أخرجه[١] أبو عبيد وابن المنذر والطبري وابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن أسماء: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض. وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد».

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو الشيخ والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما

---

(١) الشوكاني.

بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم».

وأخرج الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، والإسماعيلي في «معجمه» والبيهقي عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام.. سبح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق.

وأخرج البيهقي وضعفه والخطيب في «تاريخه» عن علي بن أبي طالب قال: أنزل القرآن خمساً خمساً، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكاً حتى أدوها إلى النبي ﷺ، ما قرئت على عليل إلا شفاه الله.

وأخرج السلفي بسند واهٍ عن ابن عباس مرفوعاً: من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.. نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مرزبة من حديد، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئاً من الشر.. ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يوم القيامة.. قال الله تعالى: «أنا ربك وأنت عبدي، امش في ظلي، واشرب من الكوثر، واغتسل من السلسبيل، وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب».

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر في جماعة وقعد في مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام.. وكل الله به سبعين ملكاً يسبحون الله ويستغفرون له إلى يوم القيامة».

وفي فضائل هذه السورة: روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة:

قال القرطبي: قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرّف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى

المتكلمون أصول الدين. انتهى من «الشوكاني».

تنبيه[1]: قال بعض العلماء: اختصت هذه السورة بنوعين من الفضيلة:

أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة.

والثاني: أنه شيعها سبعون ألفاً من الملائكة، والسبب في ذلك: أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى في كتابه «الناسخ والمنسوخ من القرآن»: سورة الأنعام تحتوي على أربع عشرة آية منسوخة:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ الآية (١٥) مكية فهي منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية (٢) مدنية من سورة الفتح.

والثانية والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية (٦٨/ ٨٩) مكية نسخت بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ الآية (١٤٠) مدنية.

والرابعة: قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ الآية (٧٠) مكية يعني به اليهود والنصارى، نسخت بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية (٢٩) من سورة التوبة.

والخامسة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الآية (٩١) مكية نسخت بآية السيف.

والسادسة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم

---

(١) الخطيب.

﴿بِحَفِيظٍ﴾ الآية (١٠٤) مكية نسخت بآية السيف.

والسابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية (١٠٦) مكية نسخت بآية السيف.

والثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الآية (١٠٧) مكية، نسخت بآية السيف.

والتاسعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية (١٠٨) مكية، نسخت بآية السيف.

والعاشرة والحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الآية (١١٢/ ١٣٧) مكية، نسخت بآية السيف.

والثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الآية (١٢١) مكية، نسخت بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: الذبائح آية (٥).

والثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ آية (١٣٥) مكية نسخت بآية السيف.

والرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ آية (١٥٩) مكية نسخت بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ (٣) وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ (٤) فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٥) أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ (٦) وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ (٧) وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (١٠) قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (١١)﴾.

المناسبة

مناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة[١]: أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله، وجرت تلك المحاورة، وذكر ثواب ما للصادقين، وأعقب ذلك بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن، وأنه قادر على كل شيء.. ذكر بأن الحمد المستغرق جميع المحامد له، فلا يمكن أن يوجد معه شريك في الإلهية فيحمد، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية كون ملك السموات والأرض وما فيهن له بوصف خلق السموات والأرض؛ لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه، ولما قدم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك، وذكَر الصادقين وجزاءهم.. أعقب خلق السموات والأرض بجعل الظلمات والنور، فكان ذلك مناسباً للكافر والصادق.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما أرشد في الآيات السالفة إلى دلائل وحدانيته، ودل على أنها مع ظهورها لم تمنع الكافرين من الشك، وإلى دلائل البعث، وأنها على شدة وضوحها لم تمنع المشركين من الشك والريب، وإلى أن الله المتصف بتلك الصفات التي تعرفونها هو الله المحيط علمه بما في السموات والأرض، فلا ينبغي أن يشرك به غيره فيهما، ولكن المشركين جهلوا ذلك، وجوزوا أن يكون غير الرب إلٰهاً، بل عبدوا معه آلٰهة أخرى.. ذكر هنا سبب عدم اهتدائهم بالوحي، وأنذرهم عاقبة التكذيب بالحق، ولفت - صرف ووجَّه - أنظارهم إلى ما حل بالأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم لعلهم يرعوون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أن اللّه سبحانه وتعالى لما أرشد في الآيات المتقدمة إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد والبعث، ثم ذكر بعدها الأسباب التي دعت قريشاً إلى التكذيب، وأنذرهم عاقبة هذا التكذيب بما يحل بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وأنه لا يحول دونه ما هم فيه من قوة وضعف الرسول ﷺ، وتمكنهم في مكة وهي أم القرى، وأهلها القدوة والسادة بين العرب.. ذكر هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحي وبعثة الرسول، وبها تم بيان أسباب جحودهم وإنكارهم لأصول الدين الثلاثة: التوحيد، والبعث، ونبوة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف مقترحاتهم على النبي ﷺ، وأنهم تارة يطلبون إنزال ملك مع الرسول ﷺ، وأخرى يطلبون إنزال ملك بالرسالة، وكان مبنى هذه المقالة الاستهزاء، وكان قلب الرسول يضيق بها ذرعاً

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

عند سماعه إياها . . ذكر هنا ما يخفف عنه ما يلاقيه منهم من سوء الأدب ومن الهزء والسخرية، فأبان له أنك لست ببدع من الرسول، فإنَّ كثيراً منهم لاقوا من أقوامهم مثل ما لاقيت، بل أشد من ذلك وأنكى، فأنزل الله بهم من العذاب ما يستحقونه كفاء أفعالهم الشنيعة، وجرأتهم على من اصطفاهم ربهم من خلقه، ثم أمر هؤلاء المكذبين بأن يسيروا في الأرض ليروا كيف كان عاقبة المكذبين لأنبيائه.

أسباب النزول

وأما الأسباب: فلم يكن لهذه الآيات سبب لنزولها؛ لأنها إنما نزلت لتعليم العباد كيف يحمدونه فكأنه قال: قولوا يا عبادي عند حمدي وثنائي: الحمد لله. وقال أهل المعاني: لفظه خبر، ومعناه أمر، والمعنى: احمدوا الله سبحانه وتعالى لذاته، وعلى نعمه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: جنس الحمد بأنواعه، وكل الشكر على نعمه مستحق لله ﴿ٱلَّذِى﴾ خلقكم أيها الناس من نفس واحدة و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أوجد وأبدع السموات السبع والأرضين السبعة على غير مثال، فهو سبحانه وتعالى هو المستحق عليكم الحمد والشكر على نعمه، لا ما تعبدون من دونه وتجعلونه شريكاً له من خلقه. والمراد بالسموات والأرض: العوالم العلوية التي يرى كثير منها فوقنا، وهذا العالم السفلي الذي نعيش فيه.

وإنما قدم[1] السموات على الأرض لشرفها؛ لأنها متعبد الملائكة، ولم تقع فيها معصية، والأرض وإن كان فيها الأنبياء، لكنها احتوت على الاشرار والمفسدين، ولتقدم وجودها على وجود الأرض كما قاله القاضي. ومراده أن السموات على هذه الهيئة مقدمة على الأرض الكائنة على هذه الهيئة الموجودة؛ لأنه تعالى قال في سورة النازعات: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، فإنه صريح في أن بسط الأرض

---

(١) الفتوحات.

مؤخر عن تسوية السماء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى إيضاحه في تلك السورة. اهـ «كرخي». ولا منافاة بين آية فُصِّلَت وبين آية النازعات فإن الأرض خلقت أولاً كرة ثم خلقت السموات من دخان كما دلت عليه آية فُصلت، ثم بنى السماء ورفعها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها. وإنما جمع السموات وأفرد الأرض؛ لاختلاف أجناسها، فإن الأولى على ما قيل من موج مكفوف، والثانية من مرمرة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من ياقوتة حمراء، والأرض وإن كانت سبعاً أيضاً إلا أنها من جنس واحد، واختلف هل الأرض واحدة؟ وهو الصحيح، فالتعدد باعتبار أقطارها، وقيل: طباق كالسماء، وأما السماء: فهي طباق باتفاق ذكره «الصاوي»، ولكن هذا كله إسرائيليات لا مستند له.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى بدأ هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال، وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد، فلاندّ له ولا شريك ولا نظير ولا مثيل. ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام، الذي أوجد وأنشأ وأبدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة بما يدهش العقول والأفكار تذكرة وذكرى لأولي الأبصار. والحمد[1]: هو الثناء الحسن والذكر الجميل، والفرق بينه وبين المدح: أن المدح أعم من الحمد؛ لأن المدح يكون للعاقل ولغير العاقل، فكما يمدح العاقل على أنواع فضائله كذلك يمدح اللؤلؤ لحسن شكله، والياقوت على نهاية صفائه وصقالته. والحمد لا يكون إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإحسان، والحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد تعظيم المنعم لأجل ما صدر عنه من الإنعام واصلاً إليك أو إلى غيرك، والشكر: تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحصل عندك، والمقصود من الآية: ذكر الدلالة على وجود الصانع.

---

(١) المراح.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ أي: والذي أوجد وأنشأ الظلمات والنور الحسيين والمعنويين، كظلمة الليل ونور النهار وظلمة الكفر ونور الإيمان. واختلف[1] العلماء في المراد منهما: فمن قائل: إن المقصود منهما ظلمة الليل ونور النهار، وإلى هذا جنح ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، وفي ذلك ردٌّ على المجوس ـ الثنوية ـ الذين زعموا أن للعالم ربين، أحدهما: النور، وهو الخالق للخير، والثاني: الظلمة، وهو الخالق للشر. ومن قائل: إن المراد منهما الكفر والإيمان، وروي هذا عن ابن عباس.

والفرق[2] بين الخلق والجعل: أن كلاً منهما هو الإنشاء والإبداع إلا أن الخلق مختص بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، والجعل عام له، كما في هذه الآية الكريمة، وللتشريعي أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ الآية. وإنما جمع الظلمات دون النور؛ لكثرة محالها؛ إذ ما من جرم إلا وله ظل، والظل هو الظلمة بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار، وهذا إذا حملا على الكيفيتين المحسوستين بحاسة البصر وإن حمل النور على الإسلام والإيمان واليقين والنبوة، والظلمات على ظلمة الشرك والكفر والنفاق.. فنقول: لأن الحق واحد والباطل كثير. وفي «البيضاوي»[3]: وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، وفي «شيخ الإسلام» قوله: لكثرة أسبابها؛ إذ ما من جرم إلا وله ظل، والظل هو الظلمة بخلاف النور، فإنه من جنس واحد وهو النار، ولا ترد الأجرام النيرة كالكواكب؛ لأن مرجع كل نير إلى النار على ما قيل: إن الكواكب أجرام نورية نارية، وإن الشهب تنفصل من نار الكواكب، فصح أن النور من جنس النار. اهـ.

وإنما قدم الظلمات على النور؛ لأن الظلمة عدم النور عن الجسم الذي يقبله وعدم المحدثات متقدم على وجودها. ﴿ثُمَّ﴾ بعد قيام هذه الأدلة ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) الفتوحات.

﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ وجحدوا به ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يميلون عن عبادته إلى عبادة غيره من الأصنام والأحجار، فهو من العدول[1] بمعنى الميل، ولا مفعول له حينئذ. والجار والمجرور في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾، ويجوز أن يتعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وقدم عليه للفاصلة، وفي ﴿الباء﴾ حينئذ احتمالان:

أحدهما: أن تكون بمعنى: ﴿عن﴾ ويعدلون من العدول أيضاً؛ أي: يعدلون عن ربهم إلى غيره.

والثاني: أنها للتعدية، ويعدلون من العدل بمعنى التسوية بين الشيئين، والمعنى: ثم الذين كفروا يسوون بربهم غيره من المخلوقين، فيكون المفعول محذوفاً. اهـ «سمين».

وعبارة «المراح» هنا: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي[2]: يشركون به غيره، وهذه الجملة إما معطوفة على قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والباء متعلقة بـ﴿كَفَرُواْ﴾، فيكون ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدول بمعنى الميل، ولا مفعول له، والمعنى: إن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه؛ لأنه تعالى ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا بربهم يميلون عنه فيكفرون نعمته، أو متعلقة بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وهو من العدل، ويوضع الرب موضع الضمير العائد إليه تعالى، والمعنى: إنه مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته، وباعتبار شؤونه العظيمة الخاصة، ثم هؤلاء الكفرة يسوون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسه الحمد، وإما معطوفة على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والباء متعلقة بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾ وقدمت لأجل الفاصلة، وهي إما بمعنى: عن، ويعدلون من العدول، والمعنى: إن الله تعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم الذين كفروا يعدلون عن ربهم إلى غيره، أو للتعدية و﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدل، وهو التسوية، والمعنى: أنه تعالى خلق هذه الأشياء العظيمة التي لا يقدر عليها أحد سواه، ثم إنهم يعدلون به جماداً لا يقدر على شيء أصلاً، فيكون المفعول

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراح.

محذوفاً، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الشرك بعد وضوح آيات قدرته تعالى.

والمعنى: ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم، فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم، وأوهاماً ولدوها بخيالهم، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم. قال[1] ابن عطية: والآية دالة على قبح فعل الكافرين؛ لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض والظلمات والنور وغيرها قد تقرر، وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم؟ فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك، ثم تشتمني؟ أي: بعد وضوح هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو.. لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ﴿ثم﴾ انتهى.

وعبارة «الفتوحات» هنا: و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ليست للترتيب الزماني، وإنما هي للتراخي بين الرتبتين، والمراد: استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من الدلالات.

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: فما معنى: ﴿ثم﴾ هنا؟

قلت: استبعاد أن يعدلوا به مع وضوح آيات قدرته، وكذلك: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد أن يمتروا بعد ما ثبت أنه يحييهم ويميتهم ويبعثهم اهـ «سمين» انتهت.

وبعد أن وصف الخالق سبحانه وتعالى نفسه بما دل على توحيده واستحقاقه.. انتقل إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره في العبادة، مذكراً لهم بدلائل التوحيد والبعث فقال و﴿هو﴾؛ أي: المعبود الذي يستحق منكم العبادة أيها المشركون، الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ أي: خلق أباكم آدم من طين؛ أي: من تراب مخلوط بالماء؛ أي: من جميع أنواعه الأحمر والأبيض والأسود فلذلك اختلفت ألوان بني آدم، وعجن طينته بالماء العذب والملح والمر، فلذلك اختلفت أخلاقهم؛ أي: أخذ قبضة من جميع أنواع التراب وعجنها

---

(١) البحر المحيط.

بجميع أنواع المياه، فاختلاف الألوان لاختلاف ألوان تلك القبضة، واختلاف الأخلاق لاختلاف أنواع تلك المياه، وعلى هذا فالكلام على حذف مضاف كما قدرنا. وقيل: لا حذف، بل[1] كل فرد من أفراد البشر من سلالة من طين، فإنَّ بنيته مكونة من الغذاء، ومن ذلك البويضات التي في الأنثى، والحيوان المنوي الذي في الذكر، فكلها مكونة من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولدة من النبات، فالمرجع إلى النبات، والنبات إلى الطين، فثبت[2] أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من طين. وقال المهدوي: إن الإنسان مخلوق ابتداءً من طين؛ لخبر: «ما من مولود يولد إلا ويُذَرُّ على النطفة من تراب حفرته». وأياً ما كان الإنسان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ما لا يخفى، فإن من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط، كما على إحياء ما قارنها مدةً أظهرُ قدرة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلقكم من طين ﴿قَضَىٰٓ﴾؛ أي: كتب وقدر وحدد لكم ﴿أَجَلًا﴾؛ أي: مدة معينة من وقت الولادة إلى وقت الموت لجلوسكم في الدنيا، وتسمى تلك المدة العمر؛ أي: خصص الله موت كل أحد بوقت معين، وذلك التخصيص تعلق مشيئته تعالى بإيقاع ذلك الموت في ذلك الوقت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: حد معين ووقت معلوم من موتكم إلى بعثكم، وتسمى تلك المدة مدة البرزخ مكتوبة ﴿عِندَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى[3]. ويروى عن ابن عباس أنه قال: لكل أحد أجلان: أجل من وقت الولادة إلى وقت الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان الإنسان تقياً وَصُولاً للرحم.. زيد له من أَجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم.. نقص من أجل العمر، وزِيد في أجل البعث، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

والآية[4] ترشد إلى أنه تعالى قضى لعباده أجلين: أجلاً لحياة كل فرد منهم

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

ينتهي بموته، وأجلاً لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء مدة الدنيا. ومعنى كونه مسمى عنده: أنه لا يعلمه غيره، لأنه لم يُطلع أحداً على يوم القيامة لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، والمراد بقوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ الذي لا يطلع عليه غيره ﴿ثُمَّ﴾ بعد ظهور مثل هذه الحجة الباهرة ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكون في البعث، وتكذبون به بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم من طين، ومن قدر على الابتداء.. فهو أقدر على الإعادة، وهذا[1] استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم، ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء.. كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد، والثانية دليل البعث، ويؤخذ منه صحة الحشر والنشر. والضمير في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ، ولفظ الجلالة خبره، والجار والمجرور متعلق بلفظ الجلالة؛ لأنه بمعنى المعبود، والضمير عائد الإلٰه الموصوف بالصفات السابقة، وهي: خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلق الناس من طين إلى آخرها، فكان في الإخبار بذلك فائدة، وهذا ما عليه الجمهور.

والمعنى: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور إلخ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود المستحق للعبادة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾، والمتصرف فيهما لا غير، وقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ في القلوب من الدواعي والصوارف ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ في الجوارح من الأعمال، خبر بعد خبر جيء به تقريراً وتوكيداً لما قبله؛ لأن الذي يستوي في علمه السر والجهر هو الله وحده، والمراد بالسر: ما يخفيه الإنسان في ضميره، فهو من أعمال القلوب وبالجهر ما يظهره الإنسان فهو من أعمال الجوارح. والمعنى: إن الله لا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: مكتسبكم؛ أي: ما تستحقون على فعلكم من الثواب والعقاب.

بقي في الآية سؤال[2]، وهو أن الكسب، إما أن يكون من أعمال القلوب،

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

وهو المسمى بالسر، أو من أعمال الجوارح، وهو المسمى بالجهر، فالأفعال لا تخرج عن هذين النوعين يعني: السر والجهر، فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يقتضي عطف الشيء على نفسه، وذلك غير جائز، فما معنى ذلك؟ وأجيب عنه: بأنه يجب حمل قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ على ما يستحقه الإنسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب.

والحاصل فيه: أنه محمول على المكتسب كما فسرناه آنفاً، كذلك فهو نظير قولهم: هذا المال كسب فلان؛ أي: مكتسبه، ولا يجوز حمله على نفس الكسب وإلا لزم عطف الشيء على نفسه، ذكره الإمام فخر الدين الرازي.

قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ يعني: أهل مكة، كلام مستأنف وارد لبيان كفرهم بآيات الله تعالى، وإعراضهم عنها بالكلية بعد ما بين في الآية الأولى إشراكهم بالله تعالى وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد، وفي الآية الثانية امتراءهم في البعث، وإعراضهم عن بعض آياته، و﴿ما﴾: نافية، وصيغة المضارع لحكاية الماضية، أو للدلالة على الاستمرار التجددي. و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ زائدة في الفاعل؛ لاستغراق الجنس، ومعنى زيادتها: أن ما بعدها معمول لما قبلها فاعل لقوله: ﴿تَأْتِيهِم﴾، وفي قوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تبعيضية صفة لـ﴿آية﴾؛ أي: وما يظهر لأهل مكة دليل من الأدلة التي يجب النظر فيها، والاستدلال والاعتبار بها من الآيات التكوينية كالسموات والأرض والظلمات والنور، أو ما يظهر لهم معجزة من المعجزات الباهرات التي جاء بها رسول الله ﷺ كانشقاق القمر، أو ما تنزل عليهم آية من آيات القرآن ﴿إِلَّا كَانُوا﴾؛ أي: كان أهل مكة ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن النظر فيها أو عن تصديقها أو عن سماعها وقبولها ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: تاركين للنظر فيها ومكذبين بها، لا يلتفتون إليها ولا يرفعون بها رأساً لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب. قيل: الآية هنا: العلامة على وحدانية الله وانفراده بالألوهية. وقيل: الرسالة. وقيل: المعجز الخارق. وقيل: القرآن، ومعنى: ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن قبولها أو سماعها والإعراض ضد الإقبال كما أشرنا إلى هذه الأقوال في الحل.

وتضمنت[1] هذه الآية مذمة هؤلاء الذين كفروا بأنهم يعرضون عن كل آية ترد عليهم، ولما تقدم الكلام أولاً في التوحيد، وثانياً في المعاد، وثالثاً في تقرير هذين المطلوبين.. ذكر بعد ذلك ما يتعلق بتقرير النبوة، وبيَّن فيه أنهم أعرضوا عن تأمل الدلائل، ويدل ذلك على أن التقليد باطل، وأن التأمل في الدلائل واجب، ولذلك ذموا بإعراضهم عن الدلائل، فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾؛ أي: فقد كذب أهل مكة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو تلك الآية السابقة بتفصيلها ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حين جاءهم وأتاهم ذلك الحق؛ أي: فقد كذب أهل مكة بالمعجزات كانشقاق القمر بمكة وانفلاقه فلقتين، فذهبت فلقة وبقيت فلقة، أو بالقرآن، أو بمحمد ﷺ. وظاهر[2] قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ أن الفاء للتعقيب، وأن إعراضهم عن الآية أعقبه التكذيب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: يأتي أهل مكة ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: أخبار[3] عاقبة الشيء الذي كانوا به يستسخرون، وهو القرآن، أو محمد ﷺ على أن ﴿مَا﴾ عبارة عن ذلك الشيء، أبهمه تهويلاً للأمر وتعظيماً له؛ أي: سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزؤوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم، أو المعنى: سوف يأتيهم أخبار عاقبة كونهم مستهزئين بذلك الحق يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب على أن ﴿مَا﴾ مصدرية. والأنباء[4]: جمع نبأ، وهو الخبر العظيم المزعج، وجمعه إشارة إلى تكرر الجزاء لهم في الدنيا ويوم القيامة.

والخلاصة: فسوف يأتيهم جزاء استهزاء الذي كانوا يستهزئون به في العاجل بالقتل والأسر، والآجل بالعذاب الدائم في النار، وهذه الجملة معطوفة على محذوف تقديره: فقد كذبوا بالحق لما جاءهم واستهزئوا به، فسوف يأتيهم إلخ.

ولما هددهم وأوعدهم على إعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم.. أتبع ذلك بما يجري مجرى الموعظة والنصيحة، وحض على الاعتبار بالقرون الماضية،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني بتصرف.
(٤) الصاوي.

فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ويروا هنا بمعنى: يعلموا؛ لأنهم لم يبصروا هلاك القرون السالفة، والهمزة فيه للاستفهام التقريري، لا للإنكار كما قاله الشوكاني؛ لأن الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، فلا يدخل على حرف النفي، ونظير ما هنا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝﴾، وكم خبرية بمعنى: عدد كثير؛ أي: ألم يعلم هؤلاء الكفار المعرضون عن آياتنا المكذبون لرسولنا محمد ﷺ يعني: أهل مكة؛ أي: لم يعلموا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار في أسفارهم للتجارة إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء، كم من قرن أهلكنا من قبلهم؛ أي: أهلكنا من قبل زمان أهل مكة كثيراً من الأمم السالفة قرناً بعد قرن؛ بسبب تكذيبهم الرسل، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم.

والقرن(١): يطلق على أهل كل عصر سموا بذلك؛ لاقترانهم، وقيل: القرن مدة من الزمان، وهي: ستون عاماً أو سبعون أو ثمانون أو مئة على اختلاف الأقوال، فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف؛ أي: من أهل قرن. وقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾؛ أي: القرن، وجمع الضمير باعتبار كون القرن جمعاً في المعنى، وجملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾، والجملتان بعدها نعوت لـ﴿قَرْنٍ﴾؛ أي: قرناً موصوفاً بالصفات الثلاث، وقيل: مستأنفة؛ أي: ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون الموصوفين بكونهم ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ يا أهل مكة؛ أي: أعطينا أولئك القرون والجماعة من البسطة في الأجساد والامتداد في الأعمار والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا ما لم نعطكم يا أهل مكة، ومع ذلك فقد أهلكناهم بذنوبهم، ولم ينفعهم ولم يدفع عنهم التمكين وما بعده من الصفات عذاب الله حين جاءهم، فيخاف على أهل مكة أن ينزل بهم الهلاك مثل ما نزل بمن قبلهم مع أن من قبلهم كانوا أعظم شأناً منهم، لكن لما كذبوا الرسل.. استحقوا الهلاك، فكذلك أهل مكة، إن استمروا على تكذيب محمد ﷺ يخشى عليهم الهلاك مثلهم. وفي قوله: ﴿لَّكُمْ﴾ التفات إلى الخطاب عن الغيبة التي في

---

(١) الشوكاني.

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ والمعنى: ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق أنا أهلكنا كثيراً من الأقوام الذين كذبوا الرسل قبلهم بعد أن أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطهم مثله، ثم لم تكن تلك النعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم وعتوهم واستكبارهم.

ثم ذكر بعد هذا ما امتازت به تلك القرون عن كفار قريش من النعم الإلٰهية التي اقتضتها طبيعة بلادهم، وخصب تربتها، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾؛ أي: أنزلنا المطر ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: على أولئك القرون حالة كونه ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثيراً متتابعاً كلما احتاجوا إليه، وهذه الجملة والتي بعدها معطوفتان على جملة ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾ كما مرَّ؛ أي: ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون الموصوفين بكونهم مكناهم في الأرض، وبكونهم أرسلنا السماء عليهم مدراراً ﴿و﴾ بكونهم ﴿جعلنا الأنهار﴾ والمياه ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾؛ أي: تسيل من تحت بساتينهم وزروعهم فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار وسقيا الغيث المدرار ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾؛ أي: فأهلكنا أولئك القرون ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بتكذيبهم الأنبياء، وبكونهم باعوا الدين بالدنيا؛ أي: أهلكنا[1] كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب، فما أغنت عنهم تلك العدد والأسباب، فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب.

والخلاصة: أن من مضى من قبلكم من الأمم أعطيناهم القوة الشديدة في الجسم، والسعة في الأموال والأولاد، ومع ذلك فلم ينفعهم من ذلك شيء، فلا تأمنوا سطوتي بالأولى منهم، قال الشاعر:

لاَ يَأْمَنُ ٱلدَّهْرَ ذُو بَغْيٍ وَلَوْ مَلِكَا ... جُنُودُهُ ضَاقَ عَنْهُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: قوماً آخرين بدلاً من الهالكين يعمرون البلاد، ويكونون أجدر

(١) الفتوحات.

بشكران النعمة، فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه، وأن ما ذكر من إهلاك الأمم الكثيرة، فلم ينقص من ملكه شيئاً، بل كلما أهلك أمة.. أنشأ بدلها أخرى، فإنه تعالى يهلك من يشاء، ويوجد من يشاء. وإنما قال هنا: قرناً بالإفراد، وفي موضع آخر قروناً بالجمع، للتفنن؛ لأن المعنى واحد؛ لأنه أفرد هنا نظراً للجنس، وجمع في موضع آخر نظراً للمعنى. اهـ «أبو السعود».

وفي هذه[1] الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية، فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع.. أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا، فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عدداً وعدداً؟ وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، فكأنه قال: فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه، ذكره الحافظ ابن كثير.
والذنوب[2] التي تدعو إلى الهلاك ضربان:

١ ـ معاندة الرسل والاستكبار، والعتو والتكذيب.

٢ ـ كفران النعم بالبطر وغمط الحق، وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، كما جاء في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾. وفي هذه الآية ردٌّ على كفار مكة، وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف أصحاب النبي ﷺ وفقرهم، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وهؤلاء القوم الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله لا بد أن يخلفوا عنهم في صفاتهم، وإن كانوا من أبناء جنسهم، فالعبر والحوادث واختلاف الزمن لها تأثير كبير في النفوس تخفف من غلواء الناس، وتقلل من

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

بطشهم وعتوهم، وفي المشاهدة أكبر دليل على صحة ذلك.

ولما كان الرسول ﷺ يَعْجب مِن كُفْر قومه به، وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه وإظهار إعجازه، وكان يضيق صدره لذلك، ويبلغ منه الحزن والأسف كل مبلغ كما قال في سورة هود ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾.. بيَّن الله سبحانه وتعالى أسباب ذلك ومناشئه من طباع البشر وأخلاقهم؛ ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة.. فإنها لا تجدي إلا عند من كان مستعداً لها، وزالت عنه موانع الكبر والعناد، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿كِتَٰبًا﴾ من السماء دفعة واحدة مجموعاً ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾؛ أي: في أوراق مجمعة ﴿فَـ﴾ـرأوه نازلاً فيها بأعينهم و﴿لمسوه﴾؛ أي: لمسوا ذلك الكتاب والقرطاس عند وصوله إلى الأرض ﴿بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ منهم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ما هذا الذي رأيناه ولمسناه إلا سحر بيّن في نفسه، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتاباً ولمسناه بأيدينا، وما ثَمَّ كتاب نزل، ولا قرطاس رُئي، ولا لُمس، وتلك مقالة أمثالهم في آيات الأنبياء من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. والمعنى[1]: لم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم في المرئي المحسوس، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه، وإنما قال: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ لأن اللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها من الخداع؛ لأن البصر يخدع بالتخيل، وقال في سورة الحجر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ ـ حبست ومنعت ـ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

والحاصل: أن[2] علة تكذيبهم بالحق هي إعراضهم عن الآيات، وإقفال باب النظر والاستدلال لإخفاء الآيات في أنفسها وقوة الشبهات التي تحوم حولها.

﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال كفار مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾؛ أي: هلا أنزل على

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

محمد ملك نراه يخبرنا بصدقه في دعوى النبوة والرسالة، ويشهد له بما يقول حتى نؤمن به ونتبعه كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ والمعنى: إن منكري النبوات يقولون: لو بعث الله إلى الخلق رسولاً.. لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة؛ لأن علومهم أكثر، وقدرتهم أشد، ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل، ووقوع الشبهات في نبوتهم أقل، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾؛ أي: لو أنزلنا ملكاً على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: لفرغ من إهلاكهم؛ أي: لأهلكناهم؛ إذ لم يؤمنوا عند نزوله ورؤيتهم له؛ لأن مثل هذه الآية البينة ـ وهي نزول الملك على تلك الصفة ـ إذا لم يقع الإيمان بعدها.. فقد استحقوا الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له طرفة عين، وكلمة: ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر؛ لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة وأشق. وقيل: إن المعنى: أن الله سبحانه لو أنزل ملكاً مشاهداً.. لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزهق أرواحهم عند ذلك، فيبطل ما أرسل الله له رسله وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وذلك أن الآدمي إذا رأى الملك فإمَّا أن يراه على صورته الأصلية، أو على صورة البشر، فإن رآه على صورته الأصلية.. لم يبق الآدمي حياً، فإن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل على صورته الأصلية.. غشي عليه، وإنَّ جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم وأضياف لوط وخصم داود وغير أولئك، وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية، فما ظنك بمن عداهم من العوام؟ وأيضاً إذا رآه.. يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف، فيجب إهلاكهم، وذلك مخل بصحة التكليف، وإن رآه على صورة البشر.. فلا يتفاوت الحال سواء كان هو في نفسه ملكاً، أو بشراً، وأيضاً إن إنزال الملك يقوي الشبهات؛ لأن كل معجزة ظهرت عليه ردوها وقالوا: هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القوة والعلم.. لفعلنا مثل ما فعلته.

والوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: ولو جعلنا الرسول ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: لجعلنا الملك ﴿رَجُلًا﴾؛ أي: على صورة الرجل؛ لأن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها، ولو نظر إلى الملك ناظر من الآدميين لصعق عند رؤيته. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي[1]: ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي؟ فإنما طلبوا حال لبس لا حال بيان؛ لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان.. قالوا: هذا إنسان مثلكم وليس بملك، فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه. قال الزجاج: المعنى: للبسنا عليهم؛ أي: على رؤوسائهم كما يلبسون على ضعفتهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينكم وبينه فرق، فيلبسون عليهم بهذا، ويشككونهم، فأعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل.. لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون. وفي «تنوير المقباس»: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾؛ أي: على الملائكة ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي: مثل ما يلبسون من الثياب، ويقال: وللبسنا عليهم؛ أي: خلطنا عليهم صورة الملك ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي: كما يخلطون على أنفسهم صفة محمد ونعته انتهى.

والحاصل[2]: أنه كان لكفار مكة اقتراحان تقدموا بهما إلى النبي ﷺ في مواطن مختلفة:

١ ـ أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيراً يرونه ويسمعون كلامه، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

٢ ـ أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم، والاقتراح الأول مبني على اعتقاد أنَّ أرقى البشر عقلاً وأخلاقاً وآداباً ـ وهم الرسل عليهم السلام ـ ليسوا بأهل لأن يكونوا رسلاً بين الله وبين عباده؛ لأنهم بشر يأكلون ويشربون كما جاء في سورة المؤمنين: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ

---

(١) الواحدي.
(٢) المراغي.

أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وقد ردَّ الله الاقتراحين من وجهين:

١ ـ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾؛ أي: ولو أنزلنا ملكاً كما اقترحوا.. لقضي الأمر بإهلاكهم، ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلاً كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم، قال ابن عباس: ولو أتاهم ملك في صورته.. لأهلكناهم، ثم لا يؤخرون.

٢ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾؛ أي: ولو جعل الرسول ملكاً.. لجعل متمثلاً في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن ربه، ولو جعله ملكاً في صورة بشر.. لاعتقدوا أنه بشر؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكاً وهم قد كانوا في غنى عن ذلك، وهذا شأن كثير من الناس يوقعون أنفسهم في المشكلات بسوء صنيعهم، ثم يحارون في المخلص منها.

وذكر البخاري[1] في تفسير قضاء الأمر عدة وجوه:

١ ـ أن سنة الله قد جرت بأن أقوام الرسل إذا اقترحوا آية، ثم لم يؤمنوا بها يعذبهم الله عذاب الاستئصال، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التي بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

٢ ـ أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية.. لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون.

٣ ـ أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة، يزول بها الاختيار الذي هو قاعدة التكليف.

---

(١) المراغي.

٤ ـ أنهم اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان، فلو أعطوه ولم يجد ذلك معهم نفعاً.. دل ذلك على منتهى العناد الذي يستدعي الإهلاك وعدم النظرة.

وقرأ ابن محيصن[(١)]: ﴿ولبسنا﴾ بلام واحدة، والزهري: ﴿وللبّسنا﴾ بتشديد الباء. ثم قال سبحانه وتعالى مؤنساً لنبيه ﷺ ومسلياً له. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد استسخر واستحقر برسل أولي شأن خطير وذوي عدد كثير كائنين في زمان قبل زمانك؛ أي: استهزأ بهم قومهم كما استهزأ بك قومك أهل مكة. ﴿فَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط ونزل وحل ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾؛ أي: بالكفار الذين سخروا من أولئك الرسل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: العذاب الذي كانوا يستهزئون به وينكرونه حينما أخبرتهم به الرسل؛ لأن الكفار كانوا يستهزئون بالعذاب الذي كان يخوفهم الرسول بنزوله.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى أخبر[(٢)] رسوله ﷺ بأن الكفار قد استهزؤا برسل كرام قبلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ فما تراه من استهزاء كفار قريش بك ليس ببدع منهم، بل هم جروا فيه على آثار أعداء الرسل قبلك، وقد حل بأولئك الساخرين العذاب الذي أنذرهم إياه أولئك الرسل جزاء على سوء صنيعهم.

وفي الآية وجوه من العبر:

١ ـ تعليم النبي ﷺ سنن الله في الأمم مع رسلهم.

٢ ـ تسلية له عن إيذاء قومه له.

٣ ـ بشارة له بحسن العاقبة، وما سيكون له من الغلبة والسلطان، وما سيحل بأولئك المستهزئين من الخزي والنكال، وقد أهلكهم الله تعالى، وامتن على نبيه بذلك في سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ والمشهور أنهم كانوا خمسة من رؤساء قريش هلكوا كلهم يوم أحد.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وخلاصة المعنى: هوّن عليك يامحمد ماتلقى من هؤلاء المستخفين بحقك فيَّ وفي طاعتي، وامضِ لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيِّهم.. نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم، ونعجل النقمة لهم وتحل بهم المثلات.

وقال أبو حيان[1]: هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ على ما كان يلقى من قومه، وإشارة له بالتأسي بمن سبق من الرسل، وهو نظير: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لأن ما كان مشتركاً من الشدائد أهون على النفس مما يكون فيه الانفراد، وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى. وقالت الخنساء:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ ٱلْبَاكِيْنَ حَوْلِي ... عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يُبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي ٱلنَّفْسَ عَنْهُ بِٱلتَّأَسِّي

قال بعض المولدين:

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَىٰ إِلَىٰ ذِي مُرُءَةٍ ... يُوَاسِيْكَ أَوْ يُسْلِيْكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

ولما كان الكفار لا ينفعهم الاشتراك في العذاب، ولا يتسلون بذلك.. نفى تعالى ذلك عنهم فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ انتهى بتصرف.

وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة بكسر دال[2] ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ على أصل التقاء الساكنين، وقرأ باقي السبعة بالضم اتباعاً ومراعاة لضم التاء؛ إذ الحاجز بينهما ساكن، وهو حاجز غير حصين.

ولما[3] كان ما يحل بالمستهزئين بالرسل من الهلاك بموجب سنة الله المطردة فيهم قد يكون موضعاً للريبة والشك لدى المخاطبين بذلك؛ إذ هم أمة أميّة لم تدرس الكتب والتواريخ، ولم تجالس العلماء فتعرف الأخبار بهلاك من

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

أهلك بذنوبهم.. أمر الله تعالى نبيه بأن يرشدهم إلى الطريق الذي يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم، وهو السير في الأرض، والنظر فيما حلَّ بالمكذبين ليعتبروا بذلك، فللرؤية من الاعتبار ما لا يكون في السماع كما قال بعض العصريين:

لَطَائِفُ مَعْنَىً فِيْ ٱلْعِيَانِ وَلَمْ تَكُنْ لِتُدْرَكَ إِلاَّ بِٱلتَّزَاوُرِ وَٱللِّقَا

فقال ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستهزئين من قومك ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قل لهم لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها، ووصلتم إليه من لذاتها وشهواتها، بل سيروا في نواحي الأرض لتعرفوا صحة ما أخبرتكم به من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل في الأزمنة السالفة قيل: المراد بالسير: سير الأفكار، وقيل: سير الأقدام ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فالنظر على القول الأول: نظر فكرة وعبرة، وهو بالبصيرة لا بالبصر، وعلى القول الثاني نظر العين والبصر، والمعنى على الأول: ثم تفكروا في أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال، وعلى الثاني: ثم انظروا بأعينكم إلى آثار الأمم الخالية والقرون الماضية السالفة، فإنكم عند السير في الأرض والسفر في البلاد لا بد وأن تشاهدوا تلك الآثار، فيكمل الاعتبار ويقوى الاستبصار، والمعنى[1]: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا في الأرض وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة وجناتهم مغبرة وأراضيهم مكفهرة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة.. فأنتم بهم لاحقون وبعد هلاكهم هالكون.

وفي «الفتوحات»[2] قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾؛ أي: تفكروا وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ إما لأن النظر في آثار الهالكين لا يتم إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم، فالتراخي المفاد بـ﴿ثم﴾ من حيث أن انتهاء السير بعيد عن ابتدائه، وإما لإظهار ما بين وجوب السير ووجوب النظر من التفاوت، فإن وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلة

---

(١) الشوكاني. (٢) الجمل.

إلى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء في قوله: ﴿فانظروا﴾ في آية آخرى بخلاف وجوب النظر فإنه ذاتي مقصود في نفسه. انتهى.

وقال النسفي: والفرق بين[1] ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ وبين ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ أن النظر جعل مسبباً عن السير في ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين. ومعنى ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بـ﴿ثم﴾ لتباعد ما بين الواجب والمباح انتهى.

قال أبو حيان[2]: والظاهر أن السير المأمور به هو الانتقال من مكان إلى مكان، وإن النظر المأمور به هو نظر العين، وإن الأرض هي ما قرب من بلادهم من ديار الهالكين بذنوبهم، كأرض عاد ومدين ومدائن قوم لوط وثمود وقال قوم الأرض هنا عام؛ لأن في كل قطر منها آثار الهالكين وعبراً للناظرين.

والخلاصة[3]: قل يا محمد لأولئك المكذبين الجاحدين حقيقة ما جئتهم به: سيروا في الأرض كما هو دأبكم وعادتكم، وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الأرض ومكنا لهم ما لم نمكن لكم، ثم انظروا في أثناء رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك، وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم وما تسمعون من أخبارهم، ثم اعتبروا إن لم تنهكم حلومكم ولم تزجركم حجج الله عليكم، واحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحل بكم مثل ما حل بهم.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلَّهِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه، والفاعل ضمير يعود على الموصول،

---

(١) النسفي. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وهي صلة حقيقية لرفعها ضمير الموصول ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلنُّورَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على الموصول أيضاً، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ولكن المراد منها استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من الدلالات؛ أي: استبعاد لما صنعوه من العدل مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر واتخاذ شريك له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وتقديمه على عامله للاهتمام به ولرعاية الفواصل. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل ومفعول ﴿مِّن طِينٍ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، وأتى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿أَجَلًا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَأَجَلٌ﴾: متبدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة له ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ولكن المراد منها استبعاد صدور الشك منهم مع وجود المقتضى لعدمه. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَمْتَرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿هو﴾ مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بلفظ الجلالة بتأويله؛ لأنه بمعنى المعبود. ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على الجار والمجرور ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿سِرَّكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾: معطوف على ﴿سِرَّكُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان لـ﴿هو﴾، أو في محل النصب حال من الضمير المستتر في المعبود الذي هو بمعنى الجلالة. ﴿وَيَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الرفع، أو في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَعْلَمُ﴾ الأول. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى: عرف. ﴿تَكْسِبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تكسبونه.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَأْتِيهِم﴾: فعل ومفعول به. ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾: ﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿ءَايَةٍ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾، والتقدير: وما تأتيهم آية كائنة من آيات ربهم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُعْرِضِينَ﴾ قدم عليه لرعاية الفاصلة. ﴿مُعْرِضِينَ﴾: خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة كان في محل النصب حال من ضمير ﴿تَأْتِيهِم﴾، والتقدير: وما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا حالة كونهم معرضين عنها.

فائدة: واعلم[1] أن الفعل الماضي لا يقع بعد ﴿إلا﴾ إلا بأحد شرطين: إما وقوعه بعد فعل كهذه الآية الكريمة، أو اقترانه بـ﴿قد﴾ نحو: ما زيد إلا قد قام.

---

(١) الجمل.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾.

﴿فَقَدْ﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى: حين في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿جَآءَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الحق، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾، والتقدير: فقد كذبوا بالحق حين مجيئه إياهم. ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فقد كذبوا بالحق لما جاءهم واستهزؤوا به، وذلك المحذوف معطوف على جملة ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستقبال. ﴿يَأْتِيهِمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، والضمير حينئذ يعود على الحق لا على ﴿مَا﴾؛ لأنها حينئذ حرف، فالضمير لا يعود إليها، قاله ابن عطية بخلاف الأخفش.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري مبنية على الفتح.

فائدة: والاستفهام التقريري: هو[1] حمل المخاطب على الإقرار بما بعد حرف النفي، وهو هنا: لم، والهمزة خرجت عن الاستفهام إليه، ولا يجاب إلا

---

(١) الحامدي على الآجرومية.

ببلى نظير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ اهـ «قليوبي على الآجرومية».

وما في «الشوكاني» هنا من أن الاستفهام للإنكار غير صواب. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَرَوْا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، والواو فاعل، وهي إما بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وهو أولى، أو علمية فتتعدى إلى مفعولين.. ﴿كَمْ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير في محل النصب معفول مقدم وجوباً لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، وهي معلقة ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كَمْ﴾ مجرور بـ﴿مِّن﴾ الزائدة، وجملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾ في محل النصب سادة مسد مفعول رأى البصرية، أو مسد مفعولي رأى العلمية، وجملة ﴿يَرَوْا﴾ من الفعل والفاعل جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿قَرْنٍ﴾، ولكنها سببية. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مكنا﴾. ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن﴾ ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾؛ لأن مكنا بمعنى: أعطينا، فيتعدى إلى مفعولين. ﴿لَمْ نُمَكِّن﴾: فعل وجازم، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ﴿مكنا﴾، ومفعوله الأول محذوف تقديره: ما لم نمكنه لكم، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿ما﴾ الموصوفة، والتقدير: مكناهم وأعطيناهم في الأرض شيئاً لم نمكنه ولم نعطه لكم.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ في[1] ﴿مَا﴾ هذه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موصولة بمعنى الذي، وهي حينئذ صفة لمصدر محذوف، والتقدير: التمكين الذي لم نمكن لكم، والعائد محذوف؛ أي: الذي لم نمكنه لكم.

والثاني: أن تكون مفعولاً بها، لكن على المعنى؛ لأن معنى ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾: أعطيناهم ما لم نعطكم، ذكره أبو البقاء، قال الشيخ: هذا تضمين، والتضمين لا يقاس.

---

(١) الجمل.

الثالث: أن تكون نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها، والعائد محذوف؛ أي: شيئاً لم نمكنه لكم، ذكره أبو البقاء أيضاً. قال الشيخ: وهذا أقرب إلى الصواب اهـ «سمين».

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به. ﴿مِّدْرَارًا﴾: حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، والجملة في محل النصب أو الجر معطوفة على جملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾. ﴿مِن تَحْتِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، والجملة في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿جعلنا﴾ إن جعلنا[1] جعل تصييرية، وإن جعلناها اتخاذية.. كانت حالاً من ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾. ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿أهلكنا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾: عطف مسبب على سبب. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أهلكنا﴾. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أنشأنا﴾. ﴿قَرْنًا﴾: مفعول به لـ﴿أنشأنا﴾. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: صفة لـ﴿قَرْنًا﴾؛ لأنه اسم جمع كقوم ورهط، فلذلك اعتبر معناه في صفته.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿نَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿كِتَٰبًا﴾ مفعول ﴿نَزَّلْنَا﴾. ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾: متعلق بـ﴿كِتَٰبًا﴾؛ لأنه مصدر

---

(١) الفتوحات.

بمعنى اسم المفعول أو نعت له. ﴿فَلَمَسُوهُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿لمسوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَزَّلْنَا﴾. ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لمسوه﴾. ﴿لَقَالَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿قال﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿سِحْرٌ﴾ خبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة سيقت للإخبار عنهم بفرط تعنتهم وتصلبهم في كفرهم. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مَلَكٌ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: عاطفة أو استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَّقُضِيَ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿قضي الأمر﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾ أو مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُنظَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿قضى﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة أو استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ﴾: لـ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿جعلناه رجلا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب ﴿لو﴾، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، أو مستأنفة. ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾:

الواو: عاطفة، واللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ مؤكدة للام الأولى، وقرىء بحذف لام الجواب اكتفاء بما في المعطوف عليه. ﴿لبسنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة الجواب. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿لبسنا﴾. ﴿يَلْبِسُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يلبسونه. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ في ﴿مَّا﴾ هذه قولان:

أحدهما: أنها موصولة بمعنى: الذي؛ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، أو على غيرهم، قاله أبو البقاء، وتكون ﴿مَّا﴾ حينئذ مفعولاً بها.

الثاني: أنها مصدرية؛ أي: وللبسنا عليهم مثل ما يلبسون على غيرهم ويشكلونهم.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ﴾: الواو: استئنافية، اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بِرُسُلٍ﴾: جار ومجرور نائب فاعل ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة ﴿رسل﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، والجملة القسمية مع جوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿فَحَاقَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿حاق﴾: فعل ماض. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿سَخِرُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُم﴾: متعلق به، وجملة ﴿سَخِرُواْ﴾ صلة الموصول. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿حاق﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت:

﴿سِيرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱنظُرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سِيرُواْ﴾. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ولم يؤنث ﴿كَانَ﴾ مع كون اسمها مؤنثاً؛ لأن تأنيثه غير حقيقي، أو لأنه بمعنى: المآل والمنتهى، فهو في معنى المذكر، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرُواْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمد لغة: الوصف بالجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل ظاهراً وباطناً، فخرج بقولهم على جهة التعظيم نحو قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ فإنه كان على جهة التهكم، لا على جهة التعظيم. واصطلاحاً: فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ والجعل: هو الإنشاء والإبداع كالخلق، وذكره بعد الخلق للتفنن؛ لأنه هنا بمعنى: خلق. و﴿ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾: جمع ظلمة، والظلمة: هي الحال التي يكون عليها مكان لا نور فيه، والنور ضدها، وهو قسمان: حسي: وهو ما يدرك بالبصر كنور الشمس والقمر، ومعنوي: وهو ما يدرك بالبصيرة كنور الإيمان والعلم.

﴿يَعْدِلُونَ﴾: يقال: عدل به غيره إذا جعله مساوياً له في العبادة والدعوة لكشف الضر وجلب النفع، فهو من العدل بمعنى التسوية بين الشيئين، ويصح أن يكون من العدول بمعنى: الميل، بمعنى: يميلون عن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿مِّن طِينٍ﴾: والطين: التراب المندى يقال[1] منه: طان الكتان يطينه وطنه يا هذا، فهو من باب باع.

---

(١) البحر المحيط.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾: قضى بمعنى: كتب وقدر كما مر، والأجل: هو المدة المضروبة للشيء؛ أي: المقدار المحدود له من الزمان.

﴿تَمْتَرُونَ﴾ من الامتراء بمعنى: الشك، لا من المماراة بمعنى الجدال.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: الآيات[1] هنا: آيات القرآن المرشدة إلى آيات الأكوان، والمثبتة لنبوة محمد ﷺ.

﴿مُعْرِضِينَ﴾: اسم فاعل من الإعراض وهو التولي عن الشيء والإدبار عنه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: والحق هو دين الله الذي جاء به خاتم رسله محمد ﷺ من عقائد صحيحة ومعاملات شرعية وآداب كريمة.

﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: الأنباء: المراد بها[2] في القرآن: وعد الله بنصر رسله وإظهار دينه ووعيده لأعدائه بخذلانهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة، وهو جمع: نبأ؛ كأسباب جمع سبب، والنبأ: ما يعظم وقعه من الأخبار.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾: والقرن من الناس: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون، وقد جاء في القرآن مفرداً وجمعاً. وقيل: القرن: القوم المجتمعون في زمن قلت السنون أو كثرت، لقوله عليه السلام: «خير القرون قرني» يعني: أصحابه، وقال قس بن ساعدة:

فِيْ ٱلذَّاهِبِيْنِ ٱلأَوَّلِيْنَ ... مِنَ ٱلْقُرُوْنِ لَنَا بَصَائِرْ

وقال آخر:

إِذَا ذَهَبَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِيْ كُنْتَ فِيْهِمُ ... وَخُلِّفْتَ فِيْ قَوْمٍ فَأَنْتَ غَرِيْبُ

سموا بذلك لكون بعضهم يقرن ببعض، فهو من قرنت الشيء بالشيء جعلته بجانبه أو مواجهاً له.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

﴿مَكَّنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقال: مكنه في الأرض أو في الشيء جعله متمكناً من التصرف فيه، ومكن له: أعطاه أسباب التمكن في الأرض، وقال أبو عبيدة: مكناهم ومكنا لهم لغتان فصيحتان بمعنىً، نحو نصحته ونصحت له كذا قاله أبو علي والجرجاني.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾: السماء: المطر، والمدرار: الغزير. وقال أبو حيان: المدرار[1]: المتتابع، يقال: مطر مدرار وعطاء مدرار، وهو في المطر أكثر، ومدرار مفعال من الدر للمبالغة، كمذكار ومئناث ومهذار للكثير ذلك منه.

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: الإنشاء: الخلق والإحداث من غير سبب، وكل من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه، والنشء: الأحداث واحدهم ناشىء كخادم وخدم.

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: صفة لقرناً؛ لأنه اسم جمع كقوم ورهط فجمع الصفة اعتباراً لمعناه. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾: الكتاب: الصحيفة المكتوبة ومجموعة الصحف في غرض واحد، والقرطاس ـ مثلث القاف ـ: اسم[2] لما يكتب عليه من رق أو ورق أو غير ذلك قال زهير:

لَـهَـا أَخَـادِيْـدُ مِـنْ آثَـارِ سَـاكِـنِـهَـا كَـمَـا تَـرَدَّدَ فِـيْ قِـرْطَـاسِـهِ ٱلْـقَـلَـمُ

ولا يسمى قرطاساً إلا إذا كان مكتوباً، وإن لم يكن مكتوباً فهو طرس وكاغد وورق، وكسر القاف أكثر استعمالاً وأشهر من ضمها، وهو اسمي أعجمي يجمع على قراطيس.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ اللمس كالمس: إدراك الشيء بظاهر البشرة، وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء والبحث عنه، ويقال: لمسه والتمسه وتلمسه، ومنه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: خداع وتمويه يُري ما لا حقيقة له في صورة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الحقائق. ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: لتم أمر هلاكهم ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار بمعنى: الإمهال؛ أي: لا يمهلون. ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم﴾: اللبس: الستر والتغطية، يقال: لبس الثوب يلبسه بكسر الباء في الماضي، وفتحها في المضارع من باب سمع إذا استتر به، ولبسه في عنقه، ولبَس الحق بالباطل يلبِسه بفتح الباء في الماضي، وكسرها في المضارع من باب ضرب إذا ستره به؛ أي: جعله مكانه ليظن أنه الحق، ولبست عليه أمره؛ أي: جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه، ولبست الأمر على القوم ألبسه من باب ضرب إذا شبهته وجعلته مشكلاً عليهم، وأصله: الستر بالثوب.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: من الهزؤ - بضمتين أو بضم وسكون، والاستهزاء[1]: السخرية، والاستهزاء بالشخص: احتقاره وعدم الاهتمام بأمره.

﴿فَحَاقَ﴾: يقال: حاق به المكروه يحيق من باب باع حيقاً وحيوقاً وحيقاناً إذا نزل به وأحاط عليه فلم يكن له منه مخلص.

وفي «الفتوحات»: ﴿فَحَاقَ﴾ ألفه منقلبة عن ياء، بدليل قولهم، في المضارع: يحيق كباع يبيع، والمصدر: حيق وحوق وحيقان كالغليان والنزوان. انتهت.

﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ يقال: سخر منه إذا هَزَأ به، والسخري[2] والاستهزاء والتهكم معناها متقارب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأن لام الجنس[3] إذا دخلت على المبتدأ تفيد حصره في الخبر كما قال علي الأجهوري:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) الفتوحات القيومية.

مُـبْـتَـدَأٌ بِـلاَمِ جِـنْـسٍ عُـرِّفَـا مُـنْـحَـصِـرٌ فِـيْ مُـخْـبَـرٍ بِـهِ وَفَـا
وَإِنْ عَـرَا عَـنْـهَـا وَعُـرِّفَ ٱلْـخَـبَـرْ بِـٱللاَّمِ مُـطْـلَـقَـاً فَـبِـٱلْـعَـكْـسِ ٱسْـتَـقَـرّ

والمعنى: لا يستحق الحمد والثناء إلا الله تعالى.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وفي قوله: ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

ومنها: رعاية الفاصلة بتقديم الجار والمجرور على متعلقه في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾؛ لأن الإتيان بصيغة المضارع دون الماضي لحكاية الحال الماضية، أو للدلالة على الاستمرار التجددي.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن في إضافة آيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضمير: ﴿هم﴾ تفخيماً لشأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها.

ومنها: الالتفات من خطابهم بقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾؛ لأنه خطاب لأهل مكة؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: ما لم نمكن لهم.

فائدة: والالتفات[1] له فوائد، منها تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد، وهذه فائدته العامة، ويختص كل موقع بنكت ولطائف باختلاف محله كما هو مقرر في علم البديع، ووجهه هنا حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عنايته، وخصصه بالمواجهة. اهـ «كرخي».

---

(١) الجمل.

ومنها: إقامة الظاهر مقام المضمر في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾؛ إذ الأصل: فقد كذبوا بها؛ أي: بالآية؛ لأن المراد بالحق نفس الآية، وفي قوله: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأن فيه إظهاراً في مقام الإضمار شهادة عليهم بالكفر؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: لقالوا.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مِن قَرْنٍ﴾؛ أي: أهل قرن، وفي قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾؛ أي: المطر، عبر عنه بالسماء؛ لأنه ينزل من السماء فهو مجاز.

ومنها: تنكير رسل في قوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ للتفخيم والتكثير.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: ومن الأمور الاتفاقية في القرآن خمس سور منه بدئت بالحمد لله، وخمس منها ختمت به، فالخمس التي بدئت بالحمدلة: سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾، وسورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وسورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، وسورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وسورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والخمس التي ختمت بها سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وسورة النمل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، وسورة الصافات: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٨٢﴾، وسورة الزمر: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وسورة الجاثية: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ...﴾ الآية، مناسبة هذه[1] الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تصرفه فيمن أهلكهم بذنوبهم.. أمر نبيه ﷺ بسؤالهم ذلك، فإنه لا يمكنهم أن يقولوا إلا أن ذلك لله تعالى، فيلزمهم بذلك أنه تعالى هو المالك المهلك لهم، وهذا السؤال سؤال تبكيت وتقرير، ثم أمره تعالى بنسبة ذلك لله تعالى ليكون أول من بادر إلى الاعتراف بذلك.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله

(١) البحر المحيط.

سبحانه وتعالى لما ذكر أنه موجد العالم، المتصرف فيهم بما يريد، ودل ذلك على نفاذ قدرته.. أردفه بذكر رحمته وإحسانه إلى الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر أن له ملك ما حوى المكان من السموات والأرض.. ذكر ما حواه الزمان من الليل والنهار، وأن كان كل واحد من الزمان والمكان يستلزم الآخر، لكن النص عليهما أبلغ في الملكية، وقدم المكان؛ لأنه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان.

قوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما قدم أنه خلق السموات والأرض، وأنه مالك لما تضمنه المكان والزمان.. أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك على سبيل التوبيخ لهم؛ أي: من هذه صفاته هو الذي يتخذ ولياً وناصراً ومعيناً، لا الآلهة التي لكم؛ إذ هي لا تنفع ولا تضر؛ لأنها بين جماد أو حيوان مقهور.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر تعالى انفراده بتصرفه بما يريده من ضر وخير وقدرته على الأشياء.. ذكر قهره وغلبته، وأن العالم مقهورون ممنوعون من بلوغ مرادهم، بل يقسرهم ويجبرهم على ما يريده هو تعالى.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر[1] سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أصول الدين الثلاثة: التوحيد، والبعث والجزاء، ورسالة محمد ﷺ، ثم ذكر شبهات الكافرين على الرسالة، وبين ما يدحضها، ثم أرشد إلى سننه تعالى في أقوام الرسل المكذبين، وأن عاقبتهم الهلاك والاستئصال والخزي والنكال تسليةً لرسوله ﷺ وتثبيتاً لقلبه، وإعانةً له على المضي في تبليغ رسالته.. ذكر هنا هذه الأصول الثلاثة بأسلوب آخر ـ أسلوب

(١) المراغي بتصرف.

السؤال والجواب ـ بهرهم فيه بالحجة، ودلهم على واضح المحجة تفنناً في الحجاج في المواضع الهامة، فإن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد. . كان لها في النفس قبول أيما قبول، وكذلك أساليب الحجاج إذا تنوعت دفعت عن السامع السأم، وجعلته ينشط لسماع ما يلقى إليه، فهو إذا لم يعقل الدليل الأول أو عمي عليه أسلوبه. . رأى في الدليل الثاني ما ينير له طريق المطلوب، أو رأى في الأسلوب الثاني ما يكفيه مؤنة البحث في الدليل الأول، فهو في غنى بما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت، أو يلجأ إلى غائب، ومن ثم نرى الخطباء المفلقين، والعلماء المبرزين ينوعون أساليب حجاجهم، ويكثرون البراهين على المطلوب الواحد، ليكون ذلك أدعى إلى الإقناع، وأقرب إلى الاقتناع انتهت.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ. . .﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما بيَّن في الآية السابقة أن شهادة الله على صحة نبوة رسوله ﷺ كافية في تحققها. . ذكر هنا كذبهم في ادعائهم أنهم لا يعرفون محمداً ﷺ، فهم يعرفون نبوته ورسالته كما يعرفون أبنائهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] ابن إسحاق وابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: جاء النحام بن زيد، وقردم بن كعب، ومجزىء بن عمرو، فقالوا: يا محمد، ما تعلم مع الله إلٰهاً غيره؟ فقال: «لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو» فأنزل الله في قولهم: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين لرسالتك العادلين بربهم المعرضين عن دعوتك، يعني: كفار مكة ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً

---

(1) المراغي. (2) لباب النقول.

وتصرفاً؛ أي: من الذي كانت له هذه المخلوقات علويها وسفليها، وقد كانت العرب تؤمن بأن الله خالق السموات والأرض، وأن كل ما فيهما ملك وعبيد له كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، والمقصود من السؤال: التبكيت والتوبيخ، فإن أجابوك.. فذاك وإلا فـ﴿قُل﴾ لهم يا محمد إن ذلك كله ﴿لِّلَّهِ﴾ فإنه لا جواب غيره؛ أي: فأخبرهم أن ذلك لله الذي قهر كل شيء، وملك كل شيء، واستعبد كل شيء، لا للأصنام التي تعبدونها أنتم، فإنها أموات لا تملك شيئاً ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، وإنما أمره بالجواب عقب السؤال.. ليكون أبلغ في التأكيد، وآكد في الحجة.

وعبارة «المراغي» هنا قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ هذا تقرير للجواب نيابة عنهم، أو إلجاء لهم إلى الإقرار بأن الكل له سبحانه وتعالى، ولا خلاف بيني وبينكم في ذلك، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً آخر إليه. وإتيان السائل بالجواب يحسن إذا كان ما يأتي به هو عين ما يعتقده المسؤول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازماً لما يعرفه ويعتقده انتهت.

ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته.. أردفه بكمال رحمته وإحسانه إليهم، فقال تعالى: ﴿كَتَبَ﴾ الله سبحانه وتعالى وأوجب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾؛ أي: على ذاته العلية إيجاب الفضل والكرم، وإيجاب إنجاز الوعد ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ والإحسان إلى خلقه؛ إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن لا يعجل بالعقوبة لمن استحقها، بل يقبل التوبة والإنابة ممن تاب وأناب إليه، فالمراد بإيجابها على نفسه أنه وعد ذلك وعداً مؤكداً منجزاً لا محالة؛ إذ لا يجب على الله شيء لعباده، والمراد بالرحمة: ما يعم الدارين، ومن ذلك: الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده، والإمهال على الكفار.

فصل في ذكر الأحاديث المناسبة للآية

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله الخلق.. كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي». متفق عليه.

وفي «البخاري»: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش». وفي رواية لهما: «إن الله لما خلق الخلق ـ وعند مسلم: لما قضى الله الخلق ـ كتب في كتاب كتبه على نفسه، فهو موضوع عنده ـ زاد البخاري: على العرش، ثم اتفقا ـ: إن رحمتي تغلب غضبي».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» متفق عليه. زاد البخاري في رواية له: «ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة.. لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب.. لم يأمن من العذاب»، ولمسلم «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة.. أكملها بهذه الرحمة» رواه مسلم.

وعن عمر رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا واللَّهِ، وهي تقدر أن لا تطرحه، فقال ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها». متفق عليه.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لام قسم، وجملة القسم مستأنفة مسوقة للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر، فلا تعلق لها بما قبلها من حيث الإعراب، وإن تعلقت به من حيث المعنى؛ أي: وعزتي وجلالي ليجمعنكم الله سبحانه وتعالى في القبور محشورين إلى يوم القيامة الذي لا شك في مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه، فيجازيكم على شرككم وسائر

معاصيكم، أو المعنى: ليجمعنكم إلى المحشر في يوم القيامة؛ لأن الجمع إنما يكون إلى المكان لا إلى الزمان.

والحاصل: أن الله[1] الذي تقرون معنى بأنه مالك السموات والأرض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه؛ إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعكم إلى يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا شك في مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه للحساب والجزاء على الأعمال، إذ إنه وازع نفسي لا يتم تهذيب النفوس إلا به، فهو يمنع الظلم وهضم الحقوق وإيذاء الناس وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن خوفاً من هول ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها.

ولما كان مقتضى الرحمة والفضل أعم وأسبق من مقتضى العدل.. كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم، ومنهم من يعفو الله عنه، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولا يزاد فيه، وإنما الزيادة في الجزاء على الإحسان: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضاً، فما مثله إلا مثل الحكومة العادلة تبيِّن للأمة ما تؤاخذ عليه من الأعمال الضارة، وما تكافىء به من يصدق في خدمتها ويرقى إلى سماء العزة والكرامة. وقد سبق حديث الشيخين وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي» والمراد بالسبق هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا فيه.

والخلاصة: أنه لما قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فكأنه قيل: وما تلك الرحمة؟ فقيل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ذلك أنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الفساد في الأرض، واختلت نظم الاجتماع، وأكل القوي

---

(١) المراغي.

الضعيف، ولا وازع ولا زاجر، فصار التهديد بهذا اليوم من أسباب الرحمة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ في محل النصب على الذم، أو في محل الرفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء[1] فيه للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل وإتباع الحواس والوهم، والانهماك في التقليد، وإغفال النظر.. أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمان.

فإن قيل[2]: ظاهر اللفظ يدل على أن خسرانهم سبب لعدم إيمانهم، والأمر بالعكس.

أجيب: بأن سبق القضاء بالخسران والخذلان هو الذي حملهم على الامتناع من الإيمان بحيث لا سبيل لهم أصلاً. اهـ «كرخي»؛ أي: فمعنى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: قضى عليهم بالخسران، فصح السبب في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومعنى خسران الأنفس: إفساد فطرتها، وعدم اهتدائها بما منحها الله تعالى من أسباب الهدايات، فالمقلدون خسروا أنفسهم باتخاذهم الأصنام، وعرضوها لسخط الله تعالى وأليم عذابه؛ لأنهم حرموها استعمال نعمتي العقل والعلم، فكانوا كمن خسر شيئاً من متاع الدنيا، وأصل الخسار: الغبن، يقال: خسر الرجل إذا غبن في بيعه.

والمعنى على النصب؛ أي: أخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم بالتذكير والذم والتوبيخ من بين من يجمعون إلى يوم القيامة؛ إذ هم لخسرانهم أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة، فهم قلما ينظرون ويستدلون، وإن هم فعلوا ذلك.. قعد بهم ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللائمين واحتقار الأهل والمعاشرين.

والمعنى على الرفع: الذين سبق عليهم خسران أنفسهم في علم الله تعالى، فهم لا يؤمنون في الدنيا لسبق الخسران عليهم في علمه.

---

(١) البيضاوي. (٢) الفتوحات.

والخلاصة[1]: أن الفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين.. فقد خسر نفسه، فرداً كان أو أمة، فما بال من خسرهما معاً؟

﴿وَلَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا سَكَنَ﴾؛ أي: حل واستقر ووجد ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ إن قلنا: إنه من السكنى بمعنى: الحلول والاستقرار في المكان، أو: له سبحانه وتعالى ما سكن وتحرك في جميع الأزمان، إن قلنا: إنه من السكون ضد الحركة، وقال مقاتل: من المخلوقات ما يستقر بالنهار وينتشر بالليل، ومنها ما يستقر بالليل وينتشر بالنهار.

فإن قيل[2]: لِمَ خصَّ السكون بالذِّكر دون الحركة؟

فعن ابن العربي ثلاثة أوجه:

أحدها: أن السكون أعم وجوداً من الحركة؛ لأن الساكن من المخلوقات أكثر عدداً من المتحرك.

والثاني: أن كل متحرك قد يسكن وليس كل ساكن يتحرك.

والثالث: أن في الآية إضماراً، والمعنى: وله ما سكن وتحرك كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، فيكون من باب الاكتفاء.

والمعنى: لله ما في السموات وما في الأرض، وله ما سكن في الليل والنهار، وخص هذا بالذكر وإن كان داخلاً في عموم ما في السموات والأرض تنبيهاً إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا، ولا سيما إذا جن الليل وهدأ الخلق.

وقال ابن جرير[3]: كل ما طلعت عليه الشمس وغربت، فهو من ساكن الليل والنهار، فيكون المراد منه: جميع ما حصل في الأرض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما في البر والبحر، وهذا يفيد الحصر، والمعنى: إن جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره.

---

(١) المراغي. (٢) زاد المسير بزيادة. (٣) الخازن.

وبعد أن ذكر سبحانه تصرفه في الخلق دقيقه وجليله كما هو شأن الربوبية الكاملة.. ذكر أنه هو السميع العليم، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه تعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم وأصواتهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بسرائرهم وأحوالهم؛ أي: وهو سبحانه وتعالى المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع، فمهما يكن خفياً عن غيره.. فهو يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، والمحيط علمه بكل شيء ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

والخلاصة: أنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داعٍ، ولا يعزب عن علمه حاجة محتاجٍ حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء؟!

وبعد هذا القول الذي أمر فيه رسوله للتذكير بأنه المالك لكل شيء والمدبر لكل شيء إذ هو سميع لكل شيء، ولا يعزب عن علمه شيء أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق، وهو وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه إليه دون سواه في كل ما هو فوق كسب البشر، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَتَّخِذُ﴾ وأجعل ﴿وَلِيًّا﴾ ومعبوداً لنفسي ومتولياً لأموري؛ أي: لا أتخذ غير الله تعالى ولياً لنفسي كما اتخذتموهم أولياء لأنفسكم. والاستفهام فيه إنكاري بمعنى النفي، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عباده الأصنام، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي مطلقاً.. دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل، والمراد بالولي هنا: المعبود؛ أي: كيف اتخذ غير الله معبوداً؟ ذكره «الشوكاني».

والمعنى[1]: قل لهم: لا أطلب من غيره تعالى نفعاً ولا ضراً، لا فعلاً ولا منعاً، فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر المخلوقين وتولي بعضهم بعضاً فيما هو من كسبهم العادي: فلا يدخل في عموم الإنكار الذي يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض. وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون

---

(١) المراغي.

معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله يتوجهون إليهم بالدعاء، ويستغيثون بهم، ويستشفعون بهم عند الله في قضاء حاجاتهم من نصر على عدو، وشفاء من مرض وسعة في رزق إلى نحو ذلك. وهذا بلا شك عبادة لغير الله وشرك بالله؛ لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله، ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعاً لإرادة الولي الشافع أو المتخذ ولياً وشفيعاً.

وقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدل من[1] الله أو صفة له، وقد تعرف بالإضافة؛ لأنه بمعنى الماضي بدليل قراءة ﴿فطر﴾ بصيغة الفعل الماضي فاتفقت الصفة والموصوف في التعريف؛ أي: موجد السموات والأرض ومنشئهما على غير مثال سبق.

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها؛ أي: ابتدعتها. وقد كانت المادة التي خلقت منها السموات والأرض كتلة واحدة دخانية، ففتق رتقها، وفصل منها أجرام السموات والأرض، وهذا ولا شك ضرب من الفطر والشق قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وفي ذلك تعريض بأن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته بدون تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع ينبغي أن لا يتوجه إلى غيره بالدعاء، ولا يستعان بسواه في كل ما وراء الأسباب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَاطِرِ﴾ بالجر على أنه بدل من الجلالة، أو صفة له كما مر. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على إضمار: هو. وقرىء شاذاً بالنصب، والأحسن أن يكون نصبه على المدح. وقرأ الزهري: ﴿فطر﴾ على صيغة الفعل الماضي. وقد أكد ما تقدم وزاده تثبيتاً بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُطْعِمُ﴾ ويرزق ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ ولا يُرزق كقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾

---

(١) الجمل.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

والمعنى[1]: إن المنافع كلها من عند الله تعالى، وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات؛ لأن الحاجة إليه أمس، كما خص الربا بالأكل، وإن كان المقصود الانتفاع بالربا.

والحاصل: أنه[2] يرزق الناس الطعام وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه؛ لأنه منزه عن الحاجة إلى كل ما سواه أياً كان نوعها. وفي هذا إيماء إلى أن من اتخذوا أولياء من دونه من البشر محتاجون إلى الطعام، ولا حياة لهم بدونه، وأن الله هو الذي خلق لهم الطعام، فهم عاجزون عن خلقه وعاجزون عن البقاء بدونه، فأحرى بهم؛ أي: لا يتخذوا أولياء مع الغني الرزاق الفعال لما يريد. وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان؛ لأنها أضعف من البشر؛ إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد، والإنسان على جميع أنواع الحيوان.

وقرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين في الأول، وضمها وفتح العين في الثاني؛ أي: يرزق ولا يرزق كما فسرناه كذلك أولاً. وقرأ[3] مجاهد وابن جبير والأعمش وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وأبو عمرو في رواية عنه: ﴿ولا يطعم﴾ بفتح الياء والعين في الثاني، والمعنى: أنه تعالى منزه عن الأكل، ولا يشبه المخلوقين. وقرأ يمان العماني وابن أبي عبلة: ﴿ولا يطعم﴾ بضم الياء وكسر العين مثل الأول، فالضمير في ﴿وهو يطعم﴾ عائد على الله، وفي ﴿ولا يطعم﴾ عائد على ﴿الولي﴾. وروى ابن المأمون عن يعقوب: ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ على بناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل، فالضمير لغير الله. وقرأ الأشهب، ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ على بنائهما للفاعل، وفسر بأن معناه: وهو يطعم غيره ولا يستطعم لنفسه، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى: استطعمت. قال الزمخشري: ويجوز أن يكون المعنى على هذه القراءة: ﴿وهو يطعم﴾ تارة ﴿ولا يطعم﴾ أخرى على حسب المصالح. وقرىء[4] بفتح الياء والعين في الأول

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

(٤) الشوكاني.

وضمها وكسر العين في الثاني على أن الضمير يعود إلى الولي المذكور.

وفي قراءة من قرأ باختلاف الفعلين تجنيس التشكيل، وهو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين، وسماه أسامة بن منقذ في بديعته: تجنيس التحريف، وهو بتجنيس التشكيل أولى كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مبحث البلاغة، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار قومك ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من جناب الله تعالى ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من هذه الأمة؛ أي: استسلم لأمر الله وانقاد إلى طاعته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وقيل لي: ولا تكونن يا محمد من المشركين بالله تعالى في أمر من الأمور، والمعنى: أمرت بالإسلام، ونهيت عن الإشراك؛ أي: قل[1] لهم بعد أن استبانت لديكم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده، وعدم اتخاذ غيره ولياً: إني أمرت من ربي الموصوف بجليل الصفات أن أكون أول من أسلم إليه، وانقاد لديه من هذه الأمة التي بعثت فيها، فلا أدعو إلى شيء إلا كنت أول مؤمن به سائر على نهجه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وقيل لي بعد إسلام الوجه له: لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقربوهم إليه زلفى.

وبعد أن أمره بهذا القول المبين لأساس الدِّين، وبين أنه مأموراً به كغيره.. أمره بقول آخر فيه بيان لجزاء من خالف الأمر والنهي السالفين، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى عبادة غيري: إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم، ونهاني عن عبادة شيء سواه، و﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ وخالفت ﴿رَبِّي﴾ فيما أمرني به ونهاني عنه فعبدت شيئاً سواه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: عذاباً عظيماً شديداً في يوم عظيم شديد هوله وهو يوم القيامة؛ أي: إني[2] أخاف عذاب يوم عظيم ـ وهو يوم القيامة ـ إن عصيت ربي، فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به، محذوف الجواب كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

والخلاصة: قل لهم يا محمد: إنْ فُرض وقوع العصيان مني.. فإنني أخاف أن يصيبني عذاب ذلك اليوم العظيم ـ وهو يوم القيامة ـ الذي يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون. وفي الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيماً، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين، بل الأمر يومئذ لله، فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه ظناً منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه، وإذا كان خوف النبي ﷺ من العذاب على المعصية منتفياً لوجود العصمة.. فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له في جميع الأحوال.

﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ العذاب ويدفع ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم العذاب العظيم، وهو يوم القيامة؛ أي: من يصرف الله سبحانه وتعالى عنه العذاب يومئذ ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾؛ أي: قد أنجاه الله مما يخاف، وأكرمه بما يحب، وأدخله الجنة دار كرامته. والإشارة في قوله: ﴿ذلك﴾ إلى الصرف، أو إلى الرحمة؛ أي: ذلك الصرف أو الرحمة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الفلاح العظيم والنجاة الظاهرة، يعني: أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين، وإنما ذكر الرحمة بعد صرف العذاب، لئلا يتوهم أن الحاصل له صرف العذاب فقط، بل حصلت له الرحمة مع صرف العذاب عنه.

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم[1]: ﴿من يصرف﴾ مبنياً للفاعل فـ﴿من﴾ مفعول مقدم، والضمير في ﴿يصرف﴾ عائد على الله، ويؤيده قراءة أُبي: ﴿من يصرف الله﴾. وقرأ باقي السبعة: ﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ مبنياً للمفعول، ومعلوم أن الصارف هو الله تعالى، فحذف للعلم به أو للإيجاز. والمعنى: أنه من يدفع الله عنه العذاب في ذلك اليوم.. فقد رحمه؛ إذ أنجاه من الهول الأكبر، ومن نجا منه.. فقد دخل الجنة، والنجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر الذي لا فوز أعظم منه.

واعلم: أن الفوز إنما ينال بحصول مطلوبين:

---

(١) البحر المحيط والبيضاوي.

أحدهما: سلبي، وهو النجاة من العذاب.

والثاني: إيجابي، وهو الظفر بالنعيم المقيم في الجنة.

وبعد أن بين أن صرف العذاب والفوز بالنعيم المقيم من رحمته في الآخرة.. بيَّن أن الأمر كذلك في الدنيا، وأن التصرف فيها له تعالى وحده، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: وإن يصبك الله تعالى ببلية كمرض وفقر ونحو ذلك، والضر: اسم جامع لما ينال الإنسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: فلا رافع له عنك إلا هو وحده؛ أي: وإن يصبك أيها الإنسان ضر كمرض وفقر وحزن وذل اقتضته سنة الله.. فلا كاشف له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو سبحانه وتعالى دون الأولياء الذين يتخذون من دونه ويتوجه إليهم المشرك بكشفه، وهو سبحانه وتعالى؛ إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب الكسبية التي تزيله، وإما أن يكشفه بغير عمل منك، بل بلطفه وكرمه، فله الحمد على نعمه المتظاهرة التي لا حد لها.

فائدة: فالضر[1] إما في النفس كقلة العلم والفضل والعفة، وإما في البدن كعدم جارحة ونقص ومرض، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه. اهـ «كرخي».

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: وإن يصبك الله سبحانه وتعالى أيها الإنسان بخير ويعطكه؛ كصحة وغنى وقوة وجاه، والخير: اسم جامع لما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: فهو قادر على حفظه عليك كما قدر على إعطائك إياه، وهو القدير على كل شيء، أما أولئك الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدرون على مسِّك بخير ولا ضر. وعبارة «الخازن» هنا: وهذه الآية خطاب للنبي ﷺ، والمعنى: لا تتخذ ولياً سوى الله؛ لأنه هو القادر على أن يمسك بضر، وهو القادر على دفعه عنك، وهو القادر على إيصال الخير إليك، وأنه لا يقدر على ذلك إلا هو فاتخذه ولياً وناصراً

---

(١) الفتوحات.

ومعيناً، وهذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ، فهو عام لكل أحد، والمعنى: وإن يمسسك الله بضر أيها الإنسان.. فلا كاشف لذلك الضر إلا هو، وإن يمسسك بخير أيها الإنسان.. فهو على كل شيء قدير من دفع الضر وإيصال الخير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال لي: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإنْ اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» أخرجه الترمذي، زاد فيه رزين «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»، وفيه: «وإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، ولن يغلب عسر يسرين». قال ابن الأثير: وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله في «مسند» أحمد بن حنبل انتهت.

فعلى[1] المؤمن الصادق في إيمانه أن لا يطلب شيئاً من أمور الدنيا والآخرة من كشف ضر، وصرف عذاب، أو إيجاد خير، ومنح ثواب إلا من الله تعالى وحده دون غيره من الشفعاء والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً. وهذا الطلب من الله؛ إما بالعمل ومراعاة الأسباب التي اقتضتها سنته في الخلق، ودل عليها الشرع وهدى إليها العقل؛ وإما بالتوجه إليه و دعائه كما ندب إلى ذلك كتابه الكريم، وسنة نبيه ﷺ قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وبعد أن أثبت سبحانه وتعالى لنفسه كمال القدرة.. أثبت لها كمال السلطان والتسخير لجميع عباده، والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور؛ ليرشدنا إلى أن من اتخذ الأولياء.. فقد ضل ضلالاً بعيداً فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي[2]: الغالب

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

لعباده، العالي فوقهم، القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته، والقاهر والقهار معناه: الذي يدبر خلقه بما يريد، فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه، فلا يستطيع أحد من خلقه ردَّ تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره، وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى؛ لأنه القادر، والقاهر: الذي لا يعجزه شيء أراده. ومعنى فوق عباده هنا: أن قهره قد استعلى على خلقه، فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه، ولا ينفك عنه، فكل من قهر شيئاً فهو مستعلٍ عليه بالقهر والغلبة. وقال «الشوكاني»: ومعنى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما تقول: السلطان فوق رعيته؛ أي: بالمنزلة والرفعة، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة وهو: منع غيره عن بلوغ المراد. انتهى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره عباده ﴿الْخَبِيرُ﴾؛ أي: العالم بأعمالهم وما يصلحهم.

وخلاصة المعنى: أنه تعالى هو الغالب لعباده العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم، فهو فوقهم بالقهر وهم دونه، وهو الحكيم في تدبيره، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها، ولا تخفى عليه خوافي الأمور ولا يقع في تدبيره خلل ولا في حكمته دخل.

وقد ختم سبحانه هذه الأوامر القولية المبينة لحقيقة الدين وأدلته بشهادة الله لرسوله، وشهادة رسوله له، فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾.

روى ابن عباس: أن رؤساء أهل مكة قالوا: يا محمد، ما وجد الله غيرك رسولاً، وما ترى أحداً يصدقك، وقد سألنا اليهود والنصارى عنك، فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم بالنبوة، فأرنا من يشهد لك بالنبوة؟ فأنزل الله قوله هذا: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؛ أي: قل لهؤلاء المشركين من قومك الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك أيُّ شهيد أكبر شهادة وأعظمها وأجدر أن تكون شهادته أصحها وأصدقها؟ ثم أمره بأن يجيب عن هذا السؤال بأن أكبر الشهداء

وأصدقهم وأعظمهم شهادة هو: الله سبحانه وتعالى، فقال ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد إن لم يجيبوا لك ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أكبر شهادة؛ لأنه لا جواب غيره؛ أي: أجب لهم بأن أكبر الأشياء شهادة هو من لا يجوز أن يقع في شهادته كذب ولا زور ولا خطأ، وذلك هو الله سبحانه وتعالى، وهو سبحانه وتعالى ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالحق، وعليكم بالباطل الذي تقولونه. والمراد[1] بشهادة الله: إظهار المعجزة على يد النبي ﷺ، فإن حقيقة الشهادة ما بُيِّن به المدعى، وهو كما يكون بالقول يكون بالفعل، ولا شك أن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول لعروض الاحتمالات في الألفاظ دون الأفعال، فإن دلالتها لا يعرض لها الاحتمال، وإن المعجزة نازلة منزلة قوله تعالى صدق عبدي في كل ما يبلغ عني انتهى «كرخي».

والحاصل[2]: أنهم طلبوا شاهداً مقبول القول يشهد له بالنبوة، فبين الله تعالى بهذه الآية أن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى، ثم بيَّن أنه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ فهو بمنزلة التعليل لما قبله؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى يشهد لي بالنبوة؛ لأنه أوحى إليَّ هذا القرآن، وهو معجزة لأنكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته، فكان معجزاً، وإذا كان معجزاً.. كان نزوله عليَّ شهادة من الله تعالى بأني رسوله، وهو المراد بقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ يعني: أوحي إليَّ هذا القرآن لأخوفكم به وأحذركم مخالفة أمر الله عز وجل ولأبشركم، فحذف المعطوف لدلالة المعنى عليه، أو اقتصر على الإنذار؛ لأنه في مقام تخويف لهؤلاء المكذبين بالرسالة المتخذين غير الله إلٰهاً. وقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ في محل النصب معطوف على الكاف في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾؛ أي: ولأنذر به من بلغه القرآن ممن يأتي بعدي إلى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الأمم من الإنس والجن، فكل من بلغ إليه القرآن وسمعه فالنبي ﷺ نذير له. قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه. وقال أنس بن مالك: لما نزلت هذه الآية.. كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل. وعن

---

(١) الجمل. (٢) الخازن.

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً.. فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلِغ أوعى له من سامع» أخرجه الترمذي، وله عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم أخرجه أبو داود موقوفاً، وقالت فرقة: الفاعل ببلغ عائد على ﴿من﴾ لا على القرآن، والمفعول محذوف والتقدير: ومن بلغ الحلم.

وشهادة[1] الله بين الرسول وقومه ضربان: شهادته برسالة الرسول، وشهادته بصدق ما جاء به.

والأول أنواع ثلاثة:

١ - إخباره بها في كتابه بنحو قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾.

٢ - تأييده بالآيات الكثيرة التي من أعظمها القرآن، فهو المعجزة الدائمة بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله وإظهارهم على أعدائهم.

٣ - وشهادة كتبه السابقة له، وبشارة الرسل السابقين به، ولا تزال هذه الشهادة في كتب اليهود والنصارى.

والثاني ثلاثة أنواع أيضاً:

١ - شهادة كتبه بذلك كقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ

---

(١) المراغي.

﴿ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾.

٢ ـ ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على توحيده واتصافه بصفات الكمال.

٣ ـ ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال وببقاء النفس.

والخلاصة: أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن، وآياته في الأكوان، وآياته في العقل والوجدان اللذين أودعهما في نفس الإنسان.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَأُوحِيَ﴾ مبنياً للمفعول، ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ مرفوع به. وقرأ عكرمة وأبو نهيك وابن السميقع والجحدري: ﴿وأوحي﴾ مبنياً للفاعل، و﴿القرآن﴾ منصوب به. والمعنى(٢): أوحى الله سبحانه وتعالى إليَّ هذا القرآنَ الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به وأنذر به من بلغ إليه؛ أي: كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة إلى يوم القيامة.

والاستفهام في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع لهم والإنكار عليهم على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل، أو بقلب الثانية؛ أي: لا تنبغي ولا تصح منكم هذه الشهادة؛ لأن المعبود واحد لا تعدد فيه. وأما من قرأ على الخبر.. فقد حقق عليهم شركهم؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيري: هل إنكم أيها المشركون لتشهدون وتثبتون وتعتقدون وتقرون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني: الأصنام، إن كان الخطاب لأهل مكة، فإنهم أصحاب أوثان، وإن كان لجميع المشركين، فالآلهة كل ما عبد من دون الله تعالى من وثن أو كوكب أو نار أو آدمي، وإنما قال: ﴿أُخْرَىٰ﴾ بتأنيث الصفة وإفرادها؛ لأن ما لا يعقل يعامل جمعه معاملة المؤنثة الواحدة، كما قال بعضهم:

وَجَمْعُ كَثْرَةٍ لِمَا لاَ يَعْقِلُ ... الأَفْصَحُ الإِفْرَادُ فِيْهِ يَا فُلُ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

نظير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ولم يقل: الأول، ولا الأولين.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون به من أن مع الله آلهة أخرى، بل أجحد ذلك وأنكر ﴿قُل﴾ لهم ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾؛ أي: ما المستحق العبادة مني ومنكم إلا ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومعبود منفرد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له، وبذلك أشهد لا بما شهدتم، بل أتبرأ من ذلك، وكرر: ﴿قُل﴾ تأكيداً للكلام. ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به؛ أي: وأنا بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله تعالى، وهذه الجملة كالتوكيد لما قبلها. وفي هذه[1] الآية دليل على إثبات التوحيد لله عز وجل وإبطال كل معبود سواه؛ لأن كلمة: ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، ولفظة الواحد صريح في التوحيد، ونفي الشريك، فثبت بذلك إيجاب التوحيد وسلب كل شريك، والتبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى. قال العلماء: يستحب لكل من أسلم أن يأتي بالشهادتين، ويبرأ من كل دين خالف الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ونص[2] الشافعي على استحباب ضمِّ التبرؤ إلى الشهادة؛ لأن الله تعالى لما صرح بالتوحيد.. قال: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الذين أعطيناهم الكتب السالفة، وهم علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ أي: يعرفون محمداً ﷺ من جهة الكتابين بصفته المذكورة فيهما ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بصفاتهم، فإنهم كذبوا في قولهم: إنا لا نعرف محمداً في كتابنا. وذلك أن كفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنا سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، وأنكروا معرفته.. بين الله عز وجل أن شهادته كافية على صحة نبوته، وبين في هذه الآية أنهم يعرفونه، وأنهم كذبوا في قولهم: إنهم لا يعرفونه. وروي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام.. قال له عمر بن الخطاب: إن الله عز وجل أنزل على نبيه محمد ﷺ بمكة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابني، فقال عمر: وكيف ذاك؟ قال: أشهد أنه رسول الله حقاً ولا أدري ما يصنع النساء.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ وغبنوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ وأوبقوها وأهلكوها في نار جهنم بإنكارهم نبوة محمد ﷺ من جميع المشركين وكفار أهل الكتاب، والموصول مبتدأ خبره قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ودخلت الفاء عليه لشبه المبتدأ بالشرط في العموم؛ أي: فهم يؤثرون مالهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم على الإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، علماً منهم بأنهم إذا آمنوا.. سلبوا الرياسة، وجعلوا مساوين لسائر المسلمين في سائر الأحكام والمعاملات. وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعز عليه أن يؤمن فيكون تابعاً ومرؤوساً، ويكون مثله مثل بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وغيرهما من فقراء المسلمين. فهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية خسروا أنفسهم لضعف إرادتهم، لا لفقدان العلم والمعرفة؛ لأن الله أخبر عنهم أنهم على علم ومعرفة. ومعنى[1] هذا الخسران كما قاله جمهور المفسرين: أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله سبحانه وتعالى للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار.

وبعد أن ذكر أن إنكار نبوة محمد ﷺ خسران للنفس.. ذكر أن الافتراء على الله ظلم لها ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للإنكار بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أشد ظلماً وأكثر عناداً وأخطأ فعلاً وأعظم كفراً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَذِبًا﴾ كمن زعم أن له ولداً أو شريكاً أو أن غيره يدعى معه أو من دونه أو يتخذ ولياً له يقربه إليه زلفى ويشفع للناس عنده، أو زاد في دينه ما ليس منه ﴿أَوْ﴾ ممن ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى المنزلة كالقرآن، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هم مشركو العرب،

---

(١) المراح.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ هم أهل الكتابين الذين أنكروا معرفته، وكذبوا قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾. وإذا كان كل من التكذيب والكذب والافتراء قد بلغ غاية القبح، وصاحبه يعد مفترياً ظالماً.. فما حال من جمع بينهما فكذب على الله، وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة. ثم بيَّن سبحانه وتعالى عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم، فقال: ﴿إِنَّهُ﴾ أي إن الشأن والحال ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يظفر ﴿الظَّالِمُونَ﴾ عامة؛ أي: إن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله تعالى، ولا بالفوز بنعيم الجنة بمعنى: أنهم لا ينجون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوب، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته، فكان أظلم الظالمين.

والخلاصة: أنه لا ينجح القائلون على الله الكذب، والمفترون على الله الباطل، كقول كفار مكة: هذه الأصنام شركاء لله، والله أمرنا بعبادتها، وقولهم: إن الملائكة بنات الله، وقولهم: أمرنا الله بتحريم البحائر والسوائب، وكقول اليهود والنصارى: حصل في التوراة والإنجيل أن هاتين الشريعتين لا يتطرق إليهما النسخ، ولا يجيء بعدهما نبي، وكقول المشركين: القرآن سحر، أو شعر، أو كهانة.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن المفترين على الله الكذب يسألون يوم القيامة سؤال توبيخ وإنكار على ما اجترحوا، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: واذكر لهم يا محمد قصة يوم نحشر ونجمع العابدين والمعبودين جميعاً وسائر الناس على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم وظلم غيرها، وهو يوم القيامة. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ خاصة على رؤوس الأشهاد للتوبيخ وهم أشدهم ظلماً ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ وتظنون أنها أولياؤكم من دون الله تعالى، تستعينون بهم كما يستعان به، ويدعون كما يدعى، وأنهم يقربونكم إليه زلفى، ويشفعون لكم عنده، فأين ضلوا عنكم، فلا يرون معكم كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. ولعله[1] يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة

التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أنهم يشاهدونهم، ولكن لما لم ينفعوهم.. فكأنهم غيب عنهم. وقال ابن[1] عباس: وكل زعم في كتاب الله، فهو كذب.

وعطف[2] بـ﴿ثم﴾ الدالة على التراخي نظراً للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في المواقف، فإن فيه مواقف بين كل موقف وموقف تراخٍ على حسب طول ذلك اليوم.

وقرأ الجمهور: ﴿نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾ بالنون فيهما. وقرأ حميد ويعقوب فيهما بالياء. وقرأ أبو هريرة: ﴿نحشِرهم﴾ بكسر الشين.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بأنهم يوم القيامة ينكرون ذلك الشرك، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، والفتنة هنا: الشرك، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: ثم لم تكن عاقبة فتنتهم وشركهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾؛ أي: إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة بقولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وذلك إذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لأهل التوحيد، فيقول بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد، فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم، وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر. وظاهر[3] الآيات يدل على أنهم كانوا ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم بالله توهماً منهم أن ذلك ينفعهم كما جاء في هذه الآية، ويعترفون به في بعض آخر كما جاء في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ لأن معناهما متعارضان، فقال: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا لنجحد إشراكنا فـ﴿قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

قال الزجاج: تأويل هذه الآية حسن في اللغة العربية، لا يعرفه إلا من

---

(١) البيضاوي. (٢) المراح. (٣) البحر المحيط.

وقف على معاني كلام العرب، وذلك أنه تعالى بيَّن كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين في حبه، فذكر أن عاقبة كفرهم وشركهم الذي لزموه طول أعمارهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به، وقالوا: إنه دين آبائنا، لم تكن إلا جحوده، والتبرؤ منه، والحلف على عدم التدين به، ونظير هذا في اللغة أنك ترى إنساناً يحب شخصاً غاوياً مذموم الطريقة، فإذا وقع في هلكة بسببه.. تبرأ منه فيقال له: ما كانت محبتك ـ عاقبة محبتك ـ لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته انتهى. وعلى هذا فالفتنة: هي شركهم في الدنيا كما فسرها ابن عباس، ويكون في الكلام تقدير مضاف هو كلمة: عاقبة كما قدمنا ذلك. وقيل[1]: المراد بالفتنة هنا: جوابهم؛ أي: لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرؤ، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذباً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي بالياء: ﴿ثم لم يكن﴾. وقرأ أبي وابن مسعود والأعمش: ﴿وما كان فتنتهم﴾. وقرأ طلحة وابن مطرف: ﴿ثم ما كان﴾. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرفع. وقرأت فرقة: ﴿ثم لم يكن﴾ بالياء، و﴿فتنتهم﴾ بالرفع، وإعراب هذه القراءات واضح، والجاري منها على الأشهر قراءة: ﴿ثم لم يكن فتنتهم﴾ بالياء بالنصب؛ لأن أن مع ما بعدها أجريت في التعريف مجرى المضمر، وإذا اجتمع الأعرف وما دونه في التعريف.. فذكروا أن الأشهر جعل الأعرف هو الاسم، وما دونه هو الخبر، ولذلك أجمعت السبعة على ذلك في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ وفي قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾. وقرأ عكرمة وسلام بن مسكين: ﴿واللَّهُ ربُّنا﴾ برفع الاسمين، قال ابن عطية: وهذا على التقديم والتأخير؛ أي: قالوا: ما كنا مشركين، والله ربنا. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿ربَّنا﴾ بنصبه على النداء، أو المدح، والباقون بالكسر.

﴿انظُرْ﴾ يا محمد؛ أي: فكر وتأمل بعين البصيرة إلى حال هؤلاء المشركين

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ﴾ الكذب الصريح بإنكار صدور الإشراك منهم في الدنيا؛ حيث قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: وانظر أيضاً كيف ضل وغاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: يختلقون ويكذبون بألوهيته وشفاعته لهم من شركائهم وأصنامهم، فلم تغنِ عنهم شيئاً، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها لهم، وهذا على جعل ﴿مَّا﴾ موصولاً اسمياً واقعة على الآلهة. ويحتمل أن تكون مصدرية، والمعنى عليه: انظر يا محمد كيف كذبوا باليمين الفاجرة بإنكار صدور ما صدر منهم في الدنيا من الإشراك، وكيف ضل وذهب عنهم افتراؤهم، وتلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من أن الشركاء يقربونهم إلى الله حتى نفوا صدوره منهم بتاتاً، وتبرؤوا منه غاية البراءة؟

وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة. وقال[1] مجاهد: إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمة الله تعالى، وشفاعة رسوله ﷺ للمؤمنين قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجوا مع أهل التوحيد، فإذا قال الله لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ قالوا: واللَّهِ ربنا ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم.

فإن قلت[2]: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور على أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟

قلتُ: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرةً ودهشاً، ألا تراهم يقولون: ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا.. فإنا ظالمون، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، وقالوا: يا مالك ليقض علينا ربك، وقد علموا أنه لا يقضى عليهم.

الإعراب

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ

---

(1) البحر المحيط. (2) النسفي.

يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿قُل﴾ مقول محكي لـ﴿قُل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لِّمَن﴾: ﴿اللام﴾ حرف جر. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمحذوف وجوباً خبر مقدم لـ﴿مَّا﴾ الموصولة. ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمحذوف تقديره: هو الله، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿كَتَبَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كَتَبَ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾: مفعول به لـ﴿كَتَبَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب حال من الجلالة. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿يجمعن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والكاف: ضمير المخاطبين في محل النصب مفعول به. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بيجمع، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. وقيل[1]: موضعه نصب بدلاً من ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أول. ﴿خَسِرُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَهُمْ﴾: الفاء: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ بالشرط، ﴿هم﴾: مبتدأ ثانٍ، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ الثاني،

---

(١) البحر المحيط.

والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾.

﴿وَلَهُۥ﴾ الواو: استئنافية. ﴿له﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة وفي[1] «السمين»: قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ جملة اسمية فيها قولان: أظهرهما: أنها مستأنفة إخباراً بذلك، والثاني: أنها في محل النصب معطوفة على قوله: ﴿للَّه﴾؛ أي: على الجملة المحكية بـ﴿قل﴾؛ أي: قل: هو لله، وقل: له ما سكن. ﴿سَكَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿فِي ٱلَّيۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سَكَنَ﴾. ﴿وَٱلنَّهَارِۚ﴾: معطوف على الليل، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر أول. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ، أو صفة لـ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، أو مستأنفة.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري حقها أن تدخل على اتخذ، ولكن[2] لما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً، لا لاتخاذ الولي مطلقاً.. دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل، والمراد بالولي هنا: المعبود؛ أي: كيف اتخذ غير الله معبوداً. ﴿غير الله﴾: مفعول أول ومضاف إليه. ﴿أَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَلِيّٗا﴾: مفعول ثانٍ له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾. ويجوز[3] أن يكون اتخذ متعدياً إلى واحد، وهو: ولياً، و﴿غير اللَّه﴾ صفة له قدمت عليه فصارت حالاً، ولا يجوز

---

(١) العكبري. (٢) الفتوحات. (٣) الشوكاني.

أن تكون غير هنا استثناء. ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بدل من الجلالة ومضاف إليه، أو صفة له، وقد تعرف بالإضافة، لأنه بمعنى الماضي. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿يُطْعِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُطْعِمُ﴾.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت ﴿إِنِّيٓ﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أُمِرْتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ تقديره: إني مأمور بأن أكون، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنْ أَكُونَ﴾: ناصب وفعل مضارع، واسمه ضمير يعود على محمد. ﴿أَوَّلَ مَنْ﴾: خبر ﴿أَكُونَ﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المقدرة تقديره: قل إني أمرت بكوني أول من أسلم. ﴿أَسْلَمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُونَنَّ﴾، وجملة ﴿تَكُونَنَّ﴾ في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ﴾، والتقدير: إني مأمور بكوني أول من أسلم، وبعدم كوني من المشركين. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ معطوف على ﴿أُمِرْتُ﴾ بتقدير عامل؛ أي: وقيل لي: ولا تكونن من المشركين، والمعنى: إني أمرت بما ذكر، ونهيت عن الإشراك. اهـ شيخنا.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ

﴿أَخَافُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت ﴿إِنِّ﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنِّ﴾ وجملة ﴿إِنِّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط. ﴿عَصَيْتُ رَبِّي﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن عصيت ربي.. أخاف عذاب يوم عظيم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الفعل الذي هو أخاف ومفعوله الذي هو عذاب يوم عظيم. ﴿عَذَابَ﴾ مفعول ﴿أَخَافُ﴾، وهو مضاف. و﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16)﴾.

﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿يُصْرَفْ﴾: فعل مضارع مجهول أو معلوم، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على العذاب، أو فاعله ضمير يعود على الله؛ أي: أيُّ شخص يصرف العذاب عنه، أو: أيَّ شخص يصرف الله العذاب عنه ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُصْرَفْ﴾. وكذا الظرف في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق به. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكونه مقروناً بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿رَحِمَهُ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿الْفَوْزُ﴾: خبره. ﴿الْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿الْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿من﴾ الشرطية على كونها مستأنفة.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)﴾.

﴿وَإِنْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿بِضُرٍّ﴾:

جار ومجرور متعلق به. ﴿فَلَا﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لا﴾: نافية للجنس تعمل عمل إن. ﴿كَاشِفَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا كاشف له موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا كاشف له موجود هو إلا هو سبحانه وتعالى. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه بدل من محل ﴿لا كاشف﴾، فإن محله الرفع على الابتداء.

والثاني: أنه بدل من الضمير المستكن في الخبر اهـ «كرخي». وجملة ﴿لا﴾ النافية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾: الواو: عاطفة ﴿يَمْسَسْكَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِخَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿فَهُوَ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ جوابه محذوف تقديره: فلا راد له غيره كما في آية يونس: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لكل من الجوابين المذكور في الشرطية الأولى، والمحذوف في الثانية. اهـ.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف إما متعلق بـ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، أو متعلق بمحذوف خبر ثانٍ لـ﴿وَهُوَ﴾، أو حال من الضمير في ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، والتقدير: وهو القاهر حالة كونه مستعلياً أو غالباً فوق عباده ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ خبر ثانٍ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَيُّ﴾: اسم استفهام مبتدأ مرفوع. و﴿شَيْءٍ﴾: مضاف إليه لـ﴿أَيُّ﴾ ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿شَهَٰدَةً﴾: تمييز محول عن المبتدأ، والأصل: شهادة أي شيء أكبر، أو: أي شيء شهادته أكبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ﴾ إلى قوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، خبره محذوف؛ أي: الله أكبر شهادة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿شَهِيدٌۢ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو شهيد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿بَيْنِى﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدٌۢ﴾. ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾. ﴿وَأُوحِىَ﴾: الواو: عاطفة ﴿أوحي﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾: نائب فاعل لـ﴿أوحي﴾ وبدل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية على كونها مقولا لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لِأُنذِرَكُم﴾: اللام: لام كي. ﴿أنذركم﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنذر﴾. ﴿وَمَنۢ﴾: الواو: عاطفة. ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على الكاف في ﴿أنذركم﴾. ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على القرآن، والعائد محذوف تقديره: ومن بلغه القرآن، وجملة ﴿بَلَغَ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿أنذر﴾ من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لإنذاري إياكم به، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أوحى﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه في محل نصب عطفاً على المنصوب في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ وتكون ﴿من﴾ موصولة، والعائد عليها من صلتها محذوف؛ أي: ولأنذر الذي بلغه القرآن.

والثاني: أن في ﴿بَلَغَۢ﴾ ضميراً مرفوعاً يعود على ﴿من﴾، ويكون المفعول محذوفاً وهو منصوب المحل أيضاً عطفاً على مفعول ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، والتقدير: ولأنذر الذي بلغ الحلم، والعائد هنا مستقر في الفعل.

والثالث: أن ﴿من﴾ مرفوعة المحل عطفاً على الضمير المرفوع في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، وجاز ذلك؛ لأن الفصل بالمفعول، والجار والمجرور أغنى عن تأكيده، والتقدير: لأنذركم به ولينذركم الذي بلغه القرآن. اهـ «سمين».

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري كما سبق في بحث التفسير. ﴿إنكم﴾: ناصب ومنصوب. ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾: اللام: لام الابتداء المؤكدة زحلقت إلى خبر ﴿إن﴾ ﴿تشهدون﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ التقدير: أئنكم لشاهدون، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿مَعَ اللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم لـ﴿أن﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾: اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر عن الخبر. ﴿أُخْرَىٰ﴾: صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿تشهدون﴾؛ أي: لتشهدون كون آلهة أخرى مع الله. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾: مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّآ﴾: نافية. ﴿أَشْهَدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة لـ﴿إله﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَإِنَّنِى﴾: الواو: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب، والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿بَرِىٓءٌ﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَرِىٓءٌ﴾. ﴿تُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية أو الموصولة، والعائد حينئذ

محذوف تقديره: مما تشركونه، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ على كونها مقولا لـ﴿قل﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان؛ لأن آتى بمعنى: أعطى، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف جر وتنبيه. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿يَعْرِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿أَبْنَاءَهُمُ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كمعرفتهم أبناءهم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: معرفة كائنة كمعرفتهم أبناءهم. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿فَهُمْ﴾: الفاء: رابطة الخبر لشبه المبتدأ بالشرط. ﴿هم﴾: مبتدأ ثان. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿افْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿افْتَرَىٰ﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول ﴿افْتَرَىٰ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿افْتَرَىٰ﴾. ﴿بِآيَاتِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب ومنصوب. ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف جوازاً تقديره: واذكر لهم يا محمد قصة يوم نحشرهم. ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، أو توكيد له عند من يقول التأكيد، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾؛ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة نحشرهم. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَقُولُ﴾، ﴿أَشْرَكُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿نقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم. ﴿شُرَكَآؤُكُمُ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿نَقُولُ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿شُرَكَآؤُكُمُ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تَزْعُمُونَ﴾: فعل، وفاعله ومفعولاه محذوفان تقديرهما: تزعمونهم شركائكم، وجملة ﴿تَزْعُمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد الضمير المحذوف من ﴿تَزْعُمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن قَالُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه اسماً لـ﴿تَكُن﴾ تقديره: ثم لم تكن عاقبة فتنتهم وشركهم إلا قولهم: واللهِ ربنا، وجملة ﴿لَمْ تَكُن﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿ثم نقول﴾، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿وَٱللَّهِ﴾: الواو: حرف جر وقسم. ﴿اللَّهِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: نقسم والله، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿رَبِّنَا﴾: بدل من الجلالة أو عطف بيان منه. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مُشْرِكِينَ﴾: خبر كان،

وجملة كان في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب القسم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿كَذَبُوا۟﴾ والعامل فيه ﴿كَذَبُوا۟﴾ وصاحب الحال الواو في ﴿كَذَبُوا۟﴾ أي: جاحدين كذبوا على أنفسهم ﴿كَذَبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَبُوا۟﴾، وجملة ﴿كَذَبُوا۟﴾ في محل النصب على أنها مفعول لـ﴿ٱنظُرْ﴾، وكيف علقته عن العمل في لفظه. ﴿وَضَلَّ﴾: فعل ماضٍ. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو مصدرية في محل الرفع فاعل لـ﴿ضل﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ خبره، وجملة كان من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كانوا يفترونه، أو صلة لماالمصدرية، ﴿مَّا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر على الفاعلية تقديره: وضل عنهم افتراؤهم، وجملة ﴿ضل﴾ معطوفة على جملة ﴿كَذَبُوا۟﴾. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَضَلَّ﴾ يجوز أن يكون نسقاً على كذبوا، فيكون داخلاً في حيز النظر، ويجوز أن يكون استئناف إخبار، فلا يدخل في حيز المنظور إليه، وقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟﴾ يجوز في ﴿مَّا﴾ أن تكون مصدرية؛ أي: وضل عنهم افتراؤهم، وهو قول ابن عطية، ويجوز أن تكون موصولة اسمية؛ أي: وضل عنهم الذي كانوا يفترونه اهـ «سمين».

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: يقال: كتب على نفسه يكتب من باب نصر؛ أي: أوجب إيجاب فضل وكرم، لا إيجاب لزوم، وقيل: كتب هنا بمعنى: وعد فضلاً وكرماً، وقيل: بمعنى: سطر وخط؛ أي: أمر بالكتب في اللوح المحفوظ. وقال الزجاج: الرحمة: إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، فلم يعاجلهم على كفرهم، وقيل: الرحمة لمن آمن وصدق الرسل.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال السدي: سكن هنا من السكنى يقال: سكن في المكان يسكن من باب دخل سكنى إذا حل واستقر فيه، ولم يذكر الزمخشري

غيره، قال: وتعديه بفي كما في قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وقيل: هو من السكون المقابل للحركة، وعلى هذا ففي المقام حذف؛ أي: وله ما سكن وتحرك، وحذف مقابله للاكتفاء كما في قوله: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، واقتصر على ذكر السكون؛ لأن كل متحرك قد يسكن، ولأنه أكثر وجوداً. ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾: الولي: الناصر ومتولي الأمر المتصرف فيه.

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفي «المصباح»[1]: فطر الله الخلق فطراً من باب قتل: خلقهم، والاسم: الفطرة. اهـ. وفي «السمين»: والفطر: الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال، ومنه: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: موجد هما على غير مثال يحتذى. وعن ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى فطر وفاطر حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها؛ أي: أنشأتها وابتدأتها، ويقال: فطرت كذا وفطر هو فطوراً، وانفطر انفطاراً، وفطرت الشاة: حلبتها بإصبعين، وفطرت العجين: خبزته من وقته. وفي «الكرخي»: والفطير ضد الخمير، وهو العجين الذي لم يختمر، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير، ويقال: إياك والرأي الفطير، ويقال: عندي خبز خمير وخبز فطير. اهـ. وأصل الفطر: الشق، ومنه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ①﴾، ويقال: فطر ناب البعير، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، وقوله: ﴿يتفطرن منه﴾.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؛ أي: هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد. ﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: يبعد عنه، ويقال: صرف الله عنه الأذى من باب ضرب إذا أبعده ونجاه عنه.

﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾؛ أي: بإنجائه من الهول الأكبر. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: المس أعم من اللمس، وحقيقة المس تلاقي جسمين يقال: مسه السوء والكبر والعذاب والتعب إذا أصابه ونزل به، والضر: الألم والحزن والخوف وما يفضي إليها أو إلى أحدها.

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ يقال: كشف الضر إذا أزاله، وكشفَتْ عن ساقيها:

(١) العكبري.

أزالت ما يسترهما.

والخير[1]: ما كان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلة، والنفع: اللذة والسرور وما يفضي إليهما أو إلى أحدهما، والشر: ما لا منفعة فيه ألبتة، أو ما كان ضره أكبر من نفعه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ من القهر، والقهر: الغلبة والحمل على الشيء من غير اختيار؛ أي: فالقهر؛ إما أن يراد به الغلبة، أو التذليل، وما هنا من الأول، وكذا قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ ومن الثاني قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ﴾ وشهادة الشيء حضوره ومشاهدته، والشهادة به: الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبني على المشاهدة بالبصر أو بالعقل والوجدان.

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾: مأخوذ من الإنذار، والإنذار: التخويف، واكتفى به عن ذكر البشارة لمناسبته للمقام؛ أي: لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن، ووصل إليه من الأسود والأحمر، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة مما تشركون به؛ أي: من الأصنام.

﴿ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ﴾ ﴿أُخْرَىٰ ۚ﴾ صفة لآلهة، وصفه بالصفة المفردة. ولم يقل: آلهة أُخر بالجمع ليطابق الوصف موصوفه في الجمعية؛ لأن الآلهة مما لا يعقل يعامل جمعه معاملة المؤنثة الواحدة كما سبق، ولما كانت الآلهة حجارةً وخشباً.. أجريت هذا المجرى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من آتى الرباعي فهو بمعنى: أعطى، فيتعدى إلى مفعولين.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الشين من ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، وأبو هريرة بكسرها، وهما لغتان في المضارع من بابي: ضرب وقتل.

---

(١) الفتوحات.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ إذا قلنا كتب بمعنى: أوجب؛ لأنه استعار الكتابة بمعنى: الخط والتسطير للكتابة بمعنى: الإلزام والإيجاب بجامع الإثبات في كل.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ إذا قلنا من السكون ضد التحرك، والاكتفاء: ذكر أحد متقابلين وحذف الآخر لعلمه من المذكور، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنه بمعنى: أهلكوا، فالخسران حقيقة في البيوع.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾؛ أي: لا ينبغي لي ولا يمكن مني أن أعبد غيره.

ومنها: تجنيس[1] التشكيل في قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، وضابطه: أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين، وسماه أسامة بن منقذ في بديعته: تجنيس التحريف، وهو بتجنيس التشكيل أولى.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لاعتراض الجملة الشرطية بين الفعل ومفعوله اللذين هما: ﴿أَخَافُ﴾ و﴿عَذَابَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، وقوله: ﴿وَإِن

---

(١) المراغي.

يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بِضُرّٖ﴾. وفي قوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾.

ومنها: التعليق بأمر مستحيل في قوله: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾؛ لأن العصيان ممتنع في حقه ﷺ لعصمته. وقال[1] أبو عبد الله الرازي: نظير هذه الآية قولك: إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة إلى متساويتين.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾، وفيه الحذف أيضاً تقديره: فلا كاشف له عنك إلا هو.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾.

ومنها: الجناس المغاير والمماثل في قوله: ﴿أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾، وفي قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ﴾، وفي قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾، وفي قوله: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، وفيه أيضاً الجمع بين الأسئلة والأجوبة، والجناس المغاير في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾.

ومنها: القسم في قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجيبي في قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بين أحوال الكفار في الآخرة، وذكر ما يكون منهم من تلجلج واضطراب، فتارة ينكرون شركهم بالله، وأخرى يعترفون بها، وذكر ما يواجهون به من اللوم والتقريع على الشركاء الذين اتخذوهم أولياء وشفعاء.. ذكر هنا ما يوجب اليأس من إيمان بعض منهم لوجود الموانع الصادة عنه، فمهما توالت الآيات والنذر لا تجدي معهم شيئاً؛ إذ الحجب كثيفة، والأغطية سميكة، فاختراقها عسير، والوصول إليها في حكم المستحيل.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا. . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيَّن في الآيات السابقة حال طائفة من المشركين تلقي السمع مصغية للقرآن، لكن لا يدخل القلب شيء مما تسمع؛ لما عليه من أكنة التقليد والاستنكار لكل شيء جديد، فهم يستمعون ولا يسمعون. . بين في هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم يوم القيامة، وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالح العمل، ويكونوا من المؤمنين حقاً، ثم كذبهم فيما يقولون، وأنهم لو ردوا. . لعادوا لما كانوا فيه؛ لفقد استعدادهم للإيمان، وأن حالهم بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه كشف الغطاء ورؤية الأهوال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا. . .﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] ذكر في الآيات السالفة إنكارهم في الدنيا للبعث والجزاء. . بين هنا حالهم في الآخرة يوم يكشف عنهم الغطاء، فيتحسرون ويندمون على تفريطهم السابق، وغرورهم بذلك المتاع الزائل، ثم أردفه ذكر حقيقة الدنيا مقابلاً بينها وبين الآخرة، وموازناً بين حاليهما لدى المتقين والعاصين.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل هذه السورة في دعوة مشركي مكة إلى الإسلام ومحاجتهم في التوحيد والنبوة والبعث، وكثر فيها حكاية أقوالهم بلفظ: وقالوا، نحو: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ﴾، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ إلى نحو ذلك، وتلقين الرسول ﷺ الرد عليهم مع إقامة الحجة والبرهان بلفظ: قل، نحو: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بعد هذا الحجاج كله ذكر في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي ﷺ، وحزنه مما يقولون في نبوته، وما يراه منهم من الإعراض عن دعوته، وسلاه على ذلك ببيان سنته سبحانه في الرسل مع أقوامهم، وأن كثيراً منهم كذبوا

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

فصبروا حتى جاءهم النصر المبين، وخذل الله أعداءهم الكافرين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ الآية، سبب[1] نزولها: ما رواه أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: حضر عند النبي ﷺ أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، والحارث بن عامر، وأبو جهل في جمع كثير من قريش، واستمعوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة، ما يقول محمد، فقال: والذي جعلها ـ الكعبة ـ بيته ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك شفتيه، ويتكلم بأساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، يحدث قريشاً بما يستملحونه، قال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا لا تقر بشيء من هذا وقال: الموت أهون من هذا، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ...﴾ الآية، سبب[2] نزولها: ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي طالب، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، ويتباعد عما جاء به، وكان يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش بأبي طالب يريدون أن يفعلوا السوء برسول الله ﷺ فقال أبو طالب شعراً:

وَٱللَّهِ لَنْ يَصِلُوْا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّىٰ أُوَسَّدَ فِيْ ٱلتُّرَابِ دَفِيْنَا

فَٱصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَٱبْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُوْنَا

وَدَعَوْتَنِيْ وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِيْ ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِيْنَا

وَعَرَضْتَ دِيْنَاً لاَ مَحَالَةَ أَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ ٱلْبَرِيَّةِ دِيْنَا

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي والبحر المحيط.

لَـوْلاَ ٱلْـمَـلاَمَـةُ أَوْ حِـذَارُ مَـسَـبَّـةٍ   لَـوَجَـدْتَـنِـيْ سَـمْـحَـاً بِـذَاكَ مُـبِـيْـنَـا

وأخرج[1] ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال قال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ...﴾ الآية، روى الترمذي والحاكم عن علي أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: وإنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وروى ابن جرير عن السدي أن الأخنس بن شريق، وأبا جهل التقيا، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيري، قال أبو جهل: واللَّهِ إن محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾ الآية، سبب[2] نزولها: ما رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنه: أن الحارث بن عامر أتى النبي ﷺ في نفر من قريش، فقال: يا محمد، ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات، فإن فعلت آمنا بك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن أولئك الكافرين من أهل مكة ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: فريق يستمع إليك يا محمد إذا أنت تلوت القرآن داعياً إلى توحيد الله مبشراً ومنذراً ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: والحال أنا قد جعلنا على قلوب هؤلاء المستمعين أغطية تمنعهم عن أن يفقهوه ويفهموه؛ أي: تحولهم دون فقهه وفهمه.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: وقد جعلنا أيضاً في آذانهم وأسماعهم وقراً؛ أي:

---

(١) لباب النقول مع زيادة من البحر المحيط.   (٢) لباب النقول.

ثقلاً وصمماً يمنعهم عن سماعه، ويحولهم دون سماعه بقصد التدبر والوصول إلى ما فيه من الهداية والرشد، وذلك كما مرَّ في أسباب النزول: أنه اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية وأُبي ابنا خلف، والحارث بن عامر يستمعون القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة، ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يحرك ويقول أساطير الأولين. وفي هذا[1] الكلام تشبيه للحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية، فالقلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره، كالوعاء الذي وضع عليه الغطاء، فلا يدخل فيه شيء، والآذان التي لا تسمع الكلام سماع فهمٍ وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو بالصمم، فسمعها وعدمه سواء.

بيان هذا: أن الله سبحانه وتعالى جعل التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه مانعاً من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فالمقلد لا يستمع إلى متكلم ليميز الحق من الباطل، وإذا وصل إلى سمعه ما هو مخالف لما يدين به لا يتدبره، ولا يراه جديراً بالموازنة بينه وبين ما عنده من عقيدةٍ أو رأي ليختار أقربهما إلى الصحة، وأجدرهما بالصدق، وأكثرهما هداية ورشاداً، وأبعثهما إلى اطمئنان النفس الموصل لها إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وقال[2] ابن عطية: وهذه عبارة عن ما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير، كأنهم لم يكونوا سامعين لأقواله.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقْرًا﴾ بفتح الواو وسكون القاف. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وقراً﴾ بكسر الواو وسكون القاف، كأنه ذهب إلى أن آذانهم وقِّرت بالصمم، كما تُوقَّر الدابة من الحمل.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: وإن يرى هؤلاء المشركون كل آية من الآيات، وعلامة من العلامات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك، كانشقاق القمر،

---

(١) زاد المسير. (٢) المراغي.

ونبع الماء من بين أصابعك، وحنين الجذع، وتصيير الطعام القليل كثيراً ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾؛ أي: لا يصدقوا بتلك الآيات أنها من الله تعالى، بل يقولون: إنها سحر ولا يفعلون بموجبها من الإيمان بك؛ إذ هم لا يفقهونها ولا يدركون المراد منها؛ لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ، فحظهم كحظ الصم من سماع أصوات البشر، وكلمة: ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ﴾ ابتدائية بمعنى الفاء، وإن لم يقع بعدها مبتدأ؛ لأن حتى الابتدائية هي الداخلة على الجمل التي يبتدأ بها، وإن لم يقع بعدها مبتدأ في الظاهر.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ حال من الواو في ﴿جَاءُوكَ﴾، وقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب إذا، وهو العامل فيها؛ أي: فإذا جاءك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة حال كونهم مجادلين ومنازعين ومنكرين لك في دعوتك إلى التوحيد.. قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ما هذا الذي يقرؤه محمد ويتلوه إلا أكاذيب الأولين وخرافاتهم، فليست من عند الله تعالى.

والمعنى[1]: أنهم بلغوا من الكفر والعناد، أنهم إذا جاؤوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون: إن هذا إلا أساطير الأولين.

وقال أبو[2] حيان: وحتى إذا وقعت بعدها إذا يحتمل أن تكون بمعنى الفاء، ويحتمل أن تكون بمعنى: إلى أن، فيكون التقدير: فإذا جاءوك يجادلونك.. يقول الذين كفروا، أو يكون التقدير: وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً؛ أي: منعناهم من فهم القرآن وتدبره إلى أن يقولوا: إن هذا إلا أساطير الأولين في وقت مجيئهم مجادليك؛ لأن الغاية لا تؤخذ إلا من جواب الشرط لا من الشرط، وعلى هذين المعنيين يستخرج جميع ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

ذاك[1] أنهم لم يعقلوا مما في القرآن من أنباء الغيب إلا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها من الأنباء والخرافات، فلا علم فيها، ولا فائدة منها، وهذه حال من يسمع جرس الكلام ولا يتدبره ولا يفقه أسراره، أو من ينظر إلى الشيء نظرة جميلة لا يستنبط منها علماً، ولا يستفيد منها عقيدة ولا رأياً، وما مثلهما إلا مثل من يشاهد ألعاب الصور المتحركة ـ السينما ـ مفسرة بلغةٍ هو لا يعرفها، فكل همه مما يرى من المناظر والكتابة لا يعدو التسلية وشغل الوقت. فلو عقل هؤلاء قصص القرآن وتدبروا معانيها.. لكان لهم من ذلك آيات بينات تدل على صدق الرسول ﷺ، وعبر ومواعظ ونذر تبيِّن سنن الله تعالى في خلقه مع الأقوام الذين كذبوا وكان عاقبة أمرهم الدمار والنكال، ثم بين أن أمرهم لم يقتصر على حد الضلال، بل تعدوه إلى الإضلال، وساروا قدماً، فقال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: وأولئك المشركون المعاندون للنبي ﷺ الجاحدون لنبوته لا يقنعون بتكذيبهم له، وعده حديث خرافة، بل ينهون الناس عن استماعه؛ لئلا يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لاشمئزازهم ونفورهم منه، وتأكيداً لنهيهم فيكونون ناهين منتهين، يعني: أن كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، وعن الاجتماع به وينهونهم عن استماع القرآن، وكانوا هم كذلك، أو المعنى: ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه، فلا يؤمنون به كأبي طالب. ثم ذكر أن عاقبة ذلك الوبال والنكال لهم، فقال: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾؛ أي: وما يهلكون بما فعلوا من النهي والنأي ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بإقبالها لأشد العذاب ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يعلمون أنهم يهلكون أنفسهم ويذهبونها إلى النار بما يفعلون من الكفر والمعصية.

والخلاصة[2]: وما يهلكون إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه، وهو عذاب الضلال والإضلال، وما يشعرون بذلك، بل يظنون أنهم يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ، وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب، فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوته ﷺ بعضهم في نِقَمَ خاصة، وبعضهم في وقعة

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بدر وغيرها من الغزوات، ويتبع هذا الهلاك الدنيوي هلاك الآخرة، واللفظ يشملهما معاً.

وقرأ[1] الحسن: ﴿وينون﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على النون، وهو تسهيل قياسي.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ولو تبصر يا محمد أو أيها السامع ما يحل بهؤلاء الكفار الذين ينهون عنك وينأون عنك من الفزع والهول والشدة والندم على كفرهم، والحسرة على ما فرط منهم في جنب الله حين وقفوا وعرضوا على النار الأخروي؛ أي: حين تعرضهم ملائكة العذاب من أرض الموقف على النار.. لرأيت أمراً عجيباً، وموقفاً فظيعاً، فجواب لو محذوف كما قدرنا، و﴿تَرَىٰٓ﴾ بصرية تتعدى إلى مفعول واحد كما قدرنا أيضاً؛ أي: لو رأيت ما يحل بهم في تلك الحالة.. لرأيت ما لا يحيط به الوصف، ولا يقدر على التعبير عنه اللسان، ولا يبلغ تصويره البيان، ولو أوتِيَ المتكلم بلاغة سحبان.

ثم ذكر ما يحدث منهم حينئذ، فقال: ﴿فَقَالُوا۟﴾ معطوف على ﴿وُقِفُوا۟﴾؛ أي: فيقول هؤلاء المشركون بربهم إذا حبسوا على النار ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾؛ أي: يا قومنا نتمنى أن ﴿نُرَدُّ﴾ ونرجع إلى الدنيا حتى نتوب إلى الله، ونعمل صالحاً، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وحججه التي نصبها دلالة على وحدانيته، وصدق رسله ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المصدقين به وبرسله، ومن المتبعين لأمره ونهيه.

والخلاصة: أنهم حين عاينوا الشدائد والأهوال بسبب تقصيرهم.. تمنوا الردَّ إلى الدنيا ليسعوا في إزالة ذلك التقصير، ويتركوا التكذيب بالآيات، ويعملوا صالح العمل، وتمني هذا الرد إلى الدنيا بناء على جهلهم أنه محال، أو أنهم مع علمهم باستحالته لا مانع من تمنيه على سبيل التحسر؛ لأنه يصح أن يتمنى ما لا يكون.

وقرأ[2] الجمهور: ﴿وُقِفُوا۟﴾ مبنياً للمفعول، ومعناه عند الجمهور: حبسوا

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على النار، ووقف في هذه القراءة متعد، ومصدره: الوقف، وقد سمع في المتعدي: أوقف، وهي لغة قليلة، وقرأ ابن السميقع وزيد بن علي: ﴿وقفوا﴾ مبنياً للفاعل من وقف اللازم، ومصدره: الوقوف، والمعنى[1]: على هذه القراءة؛ أي: ولو تراهم حين يكونون في جوف النار، وتكون النار محيطةً بهم ويكونون غائصين فيها مقدار عذابها.. لرأيت منظراً هائلاً، وحالاً فظيعاً، وإنما صح على هذا التقدير أن يقال: وقفوا على النار؛ لأنها دركات وطبقات بعضها فوق بعض، فيصح هناك معنى الاستعلاء.

وقرأ[2] الكسائي وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأهل المدينة برفع الأفعال الثلاثة: ﴿نردُّ﴾، ﴿ولا نكذبُ﴾ و﴿نكونُ﴾.

والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمني؛ أي: تمنوا الرد وأن لا يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين. وقرأ حفص وحمزة بنصب: ﴿نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾ بإضمار: أن بعد الواو على جواب التمني. واختار سيبويه القطع في ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ويكون غير داخل في التمني، والتقدير: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب؛ أي: لا نكذب رددنا أو لم نرد، قال: وهو مثل دعني ولا أعود؛ أي: لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني، واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمني بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأن الكذب لا يكون في التمني. وقرأ ابن عامر: ﴿ونكونَ﴾ بالنصب، وأدخل الفعلين الأولين في التمني. وقرأ أُبي: ﴿ولا نكذب بآيات ربنا أبدا﴾. وقرأ هو وابن مسعود: ﴿ياليتنا نرد فلا نكذب﴾ بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في جواب التمني كما ينصب بالواو.

ثم بيَّن أن[3] هذا التمني لم يكن لتغيير حالهم، بل لأنه بدا لهم ما كان خفياً عنهم، فقال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾؛ أي: بدالهم سوء عاقبة ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات، ونزل بهم عقابه، فتبرموا وتضجروا وتمنوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

الخلاص منه بالرد إلى الدنيا، وترك ما أفضى إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان، كما يتمنى الموت من أنهكه المرض وأضناه الداء العضال؛ لأنه ينقذه من الآلام، لا لأنه محبوب في نفسه، ولا مرجو لذاته؛ بيان هذا: أنه إذا جاء ذلك اليوم الذي تبتلى فيه السرائر، وتنكشف فيه جميع الحقائق، وتشهد على الناس الأعضاء والجوارح، وتتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية في كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كما تتمثل الوقائع مصورة في آلة الصور المتحركة - فلم السينما - فكل أحد يظهر له في الآخرة ما كان خافياً عليه من خير في نفسه وشر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: فهي لا تخفى على أنفسكم فضلاً عن خفائها على ربكم.

والخلاصة: أنه تعالى بين لنا أن تمني أولئك الكفار لما تمنوا به، لا يدل على تبدل حقيقتهم، بل بدا لهم ما كان خافياً عليهم من أحوالهم بإخفائهم إياه على الناس أو عليهم: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فتمنوا الخروج مما حاق بهم، ولكن الحقيقة لا تتغير، وإنما يكون للنفوس أطوار وأحوال.

وعبارة «الشوكاني» هنا: قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ هذا[١] إضراب عما يدل عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق؛ أي: لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد، بل هو لسبب آخر: وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون؛ أي: يجحدون من الشرك، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فعدلوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة، وقيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم، وقيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، وقال المبرد: ﴿بَدَا لَهُم﴾ جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه، وهو مثل القول الأول، وقيل: المعنى: أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث

---

(١) فتح القدير.

والقيامة. ثم بيَّن أنهم كاذبون في هذا الندم، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿لَعَادُوا﴾؛ أي: لرجعوا ﴿لـ﴾ فعل ﴿ما نهوا عنه﴾ من الكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصي، فإن ذلك من أنفسهم ثابت فيها؛ لخبث طينتهم وسوء استعدادهم، ومن ثم لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوا، ولا سوء ما رأوا، كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله تعالى ثم عاند ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، ولو شاهدوا ما شاهدوا؛ أي: لأن دينهم الكذب، لأن قضاء الله جرى عليهم في الأزل بالشرك، وقيل: المعنى: وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان؛ أي: لكاذبون فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله، وبالكون من المؤمنين بالله ورسوله، فلو ردوا إلى الدنيا لرُد المعاند المستكبر منهم مشتملاً بكبره وعناده، والمنافق مرتدياً بمكره ونفاقه، والشهواني ملوثاً بشهواته القابضة على زمامه. وأما ما ظهر لهم إذ وقفوا على النار من حقيقة ما جاء به الرسول، فما مثله إلا مثل ما يلوح لهم في الدنيا من الآيات والعبر، فهم يكابرون فيها أنفسهم، ويغالطون عقولهم ووجداناتهم، ألا ترى شارب الخمر والمقامر يريان ما حل بغيرهما من الشقاء، فيظهران الندم على ما فرط منهما، ويتوبان ويعزمان على أن لا يعود إلى مثل ما عملا، ثم لا يلبثان أن يرجعا سيرتهما الأولى خضوعاً لما اعتادا وألفا، وترجيحاً للذة العاجلة على المنفعة الآجلة؟

وقرأ إبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش: ﴿ولو ردوا﴾ بكسر على نقل حركة الدال من ردد إلى الراء؛ لأن الأصل: رددوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء.

وجملة قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ معترضة[1] بين المعطوف وهو: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ وبين المعطوف عليه، وهو ﴿لَعَادُوا﴾؛ أي: لعادوا إلى ما نهوا عنه. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما حياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت، وهذا من شدة تمردهم وعنادهم؛ حيث يقولون هذه المقالة

---

(١) فتح القدير.

على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مستأنفة؛ أي: وقال كفار مكة ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما حياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد أن فارقنا هذه الحياة، وليس لنا بعد هذه الحياة ثواب ولا عقاب. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ وتبصر يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ وحبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾؛ أي: عند ربهم لأجل السؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب.. لرأيت أمراً فظيعاً، أو المعنى: وقفوا على جزاء ربهم؛ أي: على ما وعدهم ربهم من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين، وعلى ما أخبرهم به من أمر الآخرة، والمعنى: ولو ترى هؤلاء الضالين المكذبين حين تقفهم الملائكة في الموقف الذي يحاسبهم فيه ربهم، ويمسكونهم إلى أن يحكم الله فيهم بما يشاء.. لأفظعك أمرهم، واستبشعت منظرهم، ورأيت ما لا يحيط به وصف، وجعلهم موقوفين على ربهم؛ لأن من تقفهم الملائكة وتحبسهم في موقف الحساب إمتثالاً لأمر الله فيهم، كما قال: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يكون أمرهم مقصوراً عليه تعالى، لا يتصرف فيهم غيره، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾؛ أي: يقول لهم ربهم حينئذ: أليس هذا الذي أنتم فيه من البعث هو الحق الذي لا شك فيه ولا ريب لا باطل كما تزعمون، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ. ﴿قَالُواْ﴾ جواباً للرب جل جلاله ﴿بَلَىٰ﴾ هو حق لا يحوم حوله الباطل، أقسمنا لك ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ وهذا إقرار مؤكد باليمين؛ لانجلاء الأمر غاية الانجلاء، وهم يطمعون في نفع ذلك الإقرار، وينكرون الإشراك فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين. ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: يقول لهم الرب سبحانه وتعالى: إذا كان الأمر كما اعترفتم.. فذوقوا العذاب الذي كنتم به تكذبون. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم وجحدكم في الدنيا بالبعث بعد الموت الذي دأبتم عليه، واتخذتموه شعاراً لكم لا تتركونه. وعبرَّ بالذوق عن ألم العذاب للإشارة إلى أنهم يجدونه وجدان الذائق في قوة الإحساس به.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: قد خسر أولئك الكفار الذين كذبوا

بما وعد الله به من البعث والقيامة ولقاء الله كلَّ ما ربحه وفاز به المؤمنون من ثمرات الإيمان في الدنيا، كرضا الله وشكره حين النعمة والعزاء وقت المصيبة، ومن ثمرات الإيمان في الآخرة من الحساب اليسير والثواب الجسيم، والرضوان الأكبر، والنعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب. وما سبب هذا إلا أن إنكار البعث والجزاء يفسد الفطرة البشرية، ويفضي إلى الشرور والآثام، فإن الاعتقاد بأن لا حياة بعد هذه الحياة.. يجعل همَّ الكافرين محصوراً في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية، كالجاه والرياسة والعلو في الأرض - ولو بالباطل - ومن كانوا كذلك.. كانوا شراً من الشياطين، يكيد بعضهم لبعض، ويفترس بعضهم بعضاً، لا يصدهم عن الشر إلا العجز، ولا تحكم بينهم إلا القوة. وشاهِدنا على ذلك أنَّ أرقى أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة هم الذين يقوضون صروح المدنية بمدافعهم ودباباتهم وطياراتهم، وبكل ما أوتوا من فن واختراع، ويهلكون الحرث والنسل، ويخربون العامر من المدن ودور الصناعات بمنتهى القسوة والشدة، ويهلكون ملايين الأنفس ما بين قتيل وجريح دون أن تستشعر قلوبهم عاطفة رحمة ولا رحمة، ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء.. لما انتهوا في الطغيان إلى هذا الحد الذي نراه الآن.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾؛ أي: كذبوا بلقاء الله إلى أن جاءتهم الساعة والقيامة مباغتةً مفاجئةً لهم من غير شعور منهم لها، وقد ورد في الكتاب والسنة أنَّ الله تعالى أخفى علمها على كل أحد حتى الرسل والملائكة، فلا يعلم أحد متى يكون مجيئها، وفي أي وقت يكون حصولها. ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾؛ أي: قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله، وأصروا على هذا التكذيب حتى إذا جاءتهم منيتهم - وهي بالنسبة إليهم مبدأ الساعة، ومقدمات القيامة - مفاجئةً لهم من حيث لم يكونوا ينظرونها، ولا يعدون العدة لمجيئها.. قالوا: يا حسرتنا على تفريطنا في الحياة الدنيا التي كنا نزعم أن لا حياة بعدها؛ أي: أصروا على التكذيب حتى قالوا وقت مجيء الساعة لهم بغتةً: يا ندامتنا على تفريطنا وتقصيرنا في تحصيل الزاد للساعة في الدنيا، هذا أوانك فاحضري إلينا لنتعجب منك. ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ﴾؛

أي: والحال أنهم يحملون ﴿أوزارهم﴾ وذنوبهم وخطاياهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ وعواتقهم؛ أي: يقاسون عذاب ذنوبهم مقاساة ثقل ذلك عليهم، فلا تفارقهم ذنوبهم، وخص الظهر بالذكر؛ لأنه يطيق من الحمل ما لا يطيقه غيره من الأعضاء، كالرأس والكاهل، وهذا كما تقدم في قوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لأن اليد أقوى في الإدراك اللمسي من غيرها، وفي ذلك إيماء إلى أن عذابهم ليس مقصوراً على الحسرة والندامة على ما فات وزال، بل يقاسون مع ذلك تحمُّل الأوزار الثقال، وإشارة إلى أن تلك الحسرة من الشدة والهول بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من صنوف العقوبات.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي: أن الأعمال القبيحة تتمثل بصورة رجل قبيح، يحمله صاحبها يوم القيامة، والصالحة بصورة رجل حسن، يحمل صاحبها يوم القيامة.

والخلاصة: أنهم ينادون الحسرة التي أحاطت بهم أسبابها وهم في أسوأ حال بما يحملون من أوزارهم على ظهورهم، وقد بيَّن الله تعالى سوء تلك الحال التي تلابسهم حينما يلهجون ويتكلمون بذلك المقال، فقال: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا واعرفوا ما سأذكره لكم وهو قوله: ﴿سَآءَ﴾ وقبح ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ ويحملون على ظهورهم يوم القيامة؛ أي: ما أسوأ تلك الأثقال التي يحملونها وما أقبحها، والمخصوص بالذم ذنوبهم.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾؛ أي: وما هذه الحياة الدنيا التي قال الكفار فيها أنه لا حياة غيرها ﴿إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ فهي دائرة بين عمل لا يفيد في العاقبة، كلعب الأطفال، وعمل له فائدة عاجلة سلبية؛ كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام، ومن ثمَّ قال بعض الحكماء: إن جميع لذات الدنيا سلبية إذ هي إزالة للآلام، فلذة الطعام في إزالة ألم الجوع، وبقدر هذا الألم تعظم اللذة في إزالته، ولذة شرب الماء هي إزالة العطش، وهكذا، أو المعنى: وما الأشغال التي تشغلك في الحياة الدنيا عن خدمة الله وطاعته ﴿إِلَّا لَعِبٞ﴾؛ أي: عمل لا فائدة ولا عاقبة له؛ كلعب الأطفال ﴿وَلَهۡوٞۖ﴾؛ أي: عمل فائدته عاجلة لا آجلة، وليس المراد أن

مطلق الحياة لعب ولهو، بل ما قرب منها إلى الله.. فهو مزرعة للآخرة، فليست من أشغال الدنيا، وما أبعد منها عنه.. فهو حسرة وندامة، واللعب: هو كل ما يشغل النفس عما تنتفع به، واللهو: صرفها عن الجد إلى الهزل، وقيل: المعنى أي: وما اللذات والمستحسنات الحاصلة في هذه الدنيا إلا فرح يشغل النفس عما تنتفع به، وباطل يصرف النفس عن الجد في الأمور إلى الهزل.

وفي الآية وجه آخر، وهو أن متاع هذه الدنيا متاع قليل قصير الأجل، لا ينبغي أن يغتر العاقل به، فما هو إلا كلعب الأطفال قصير المدة، فإن الطفل سريع الملل لكل ما يقدم إليه من أصناف اللعب، أو أن زمن الطفولة قصير، كله غفلة، أو كلهو المهموم في قصر مدته على كونه غير مقصود لذاته، والقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.

واللام في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ لام[1] قسم؛ أي: وعزتي وجلالي للدار التي هي محل الحياة الأخرى، وهي الجنة ـ جعلنا الله سبحانه وتعالى من أهلها ـ ﴿خَيْرٌ﴾، وأفضل ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ويجتنبون الكفر والمعاصي لخلو لذاتها من المضار والآلام، وسلامتها من التقضّي والانصرام من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذين لا حظَّ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من قبيل اللعب في قصر مدته وعدم فائدته، أو من قبيل اللهو في كونه دفعاً لألم الهم والكدر.

والخلاصة: أن نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا، كما قال الشاعر:

لِلَّهِ أَيَّامُ نَجْدٍ وَٱلنَّعِيْمُ بِهَا   قَدْ كَانَ دَاراً لَنَا أَكْرِمْ بِهِ دَارَا

فالبدني منه أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته وفي دوامه وثباته، وفي كونه إيجابياً لا سلبياً، وفي كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقذار، بخلاف نعيم الدنيا؛ لأن لذاتها يشوبها مكدرات، وسرورها يعقبه غم وحزن كما قال الشاعر:

أَشَدُّ ٱلْغَمِّ عِنْدِيْ فِيْ سُرُوْرٍ   تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ زَوَالَا

---

(١) الخازن.

والروحاني منه كلقاء الله ورضوانه وكمال معرفته، يجل عنه الوصف والتحديد، ولا شبيه له في نعيم الدنيا.

وقرأ[1] ابن عامر وحده: ﴿ولدار الآخرة﴾ بالإضافة، فقيل: من إضافة الموصوف إلى صفته؛ كمسجد الجامع، وقيل: من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه؛ أي: ولدار الآخرة. وقراءة ابن عامر موافقة لمصحفه، فإنها رسمت في مصاحف الشاميين بلام واحدة، واختارها بعضهم لموافقتها لما أجمع عليه في يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، وفي مصاحف الناس بلامين. وقرأ باقي السبعة: ﴿وللدار الآخرة﴾ بتعريف الدار بأل ورفع الآخرة نعتاً لها.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: قل لهم: أتغفلون أيها المخاطبون المنكرون للبعث عن هذا المذكور، فلا تعقلون وتفهمون أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وأنها فانية، والآخرة باقية، وأنتم ترون من يموت، ومن تنوبه النوائب وتفجعه الفواجع؟ ففي ذلك مزدجر عن الركون إليها، واستبعاد النفوس لها، ودليل على أن لها مدبِّراً يلزم الخلق عبادته وعدم إشراك غيره معه في ذلك التدبير والنظام، وإخلاص العبادة والطاعة له.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص[2]: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء، خطاباً لمن كان في حضرة الرسول ﷺ من منكري البعث كما فسرنا. وقرأ الباقون بالياء على الغيبة؛ أي: أيغفل الذين يتقون، فلا يعقلون أن الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار، فيعملون لما ينالون به الدرجة الرفيعة والنعيم الدائم، فلا يفترون في طلب ما يوصل إلى ذلك.

وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ كلام مستأنف مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له. والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن والحال، والجملة بعده مفسرة له، وما ذكره «الشوكاني» وغيره هنا من أن

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

﴿قَدْ﴾ للتكثير غير ظاهر كما ذكره أبو حيان؛ لأن علمه تعالى لا يمكن فيه التكثير والزيادة. والظاهر أن يقال: إنها هنا للتحقيق والتوكيد، نظير قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، وقوله الشاعر:

وَقَـدْ تُـدْرِكُ ٱلإِنْسَـانَ رَحْـمَـةُ رَبِّـهِ وَلَـوْ كَـانَ تَـحْتَ ٱلأَرْضِ سَبْعِيْنَ وَادِيَا

أي: حقاً علمنا يا محمد أنه ليحزنك ويهمك القول الذي يقولونه لك في الظاهر في طعنك وتكذيب نبوتك، ورد دعوتك إلى التوحيد، وتنفير العرب عنك من قولهم: إنك ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون.

قال ابن كثير(١): يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له، ومخالفتهم إياه: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وأسفك عليهم، كما جاء في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾. قرأ(٢) نافع: ﴿ليُحزنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي من أحزن الرباعي، والباقون بفتح الياء وضم الزاي من حزن الثلاثي.

ثم بين أن هذا التكذيب منشؤه العناد والجحود لإخفاء الدليل، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ أي: فلا تحزن لما يقولون فيك وفي دينك في الظاهر؛ لأنهم لا يكذبونك في السر، فإنهم قد علموا صدقك. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنية والإعجازية ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بها ويعاندونها، ويدفعونها بصدودهم عنها وتنفير الناس عنها بعد معرفة حقيقتها. وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر.

وقرأ علي ونافع والكسائي(٣): ﴿يكذبونك﴾ بسكون الكاف من أكذب الرباعي؛ أي: لا يجدونك كاذباً؛ لأنهم يعرفون صدقك وأمانتك. وقرأ باقي السبعة وابن عباس: ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بفتح الكاف وتشديد الذال من كذب المضعف؛

---

(١) ابن كثير.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.

أي: لا ينسبونك إلى الكذب بالاعتقاد واللسان. فقيل: هما بمعنى واحد نحو: كثر وأكثر، وقيل: بينهما فرق كما فسرنا. حكى الكسائي أن العرب تقول: كذَّبت الرجل إذا نسبت إليه الكذب، وأكذبته إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن تنسبه إليه.

والمعنى[١]: أنهم يقولون في كل معجزة: إنها سحر، وينكرون دلالة المعجزة على الصدق على الإطلاق، أو المعنى: أن القوم ما كذبوك، وإنما كذبوني؛ لأنك رسولي؛ كقول السيد لعبده وقد أهانه بعض الناس: أيها العبد، إنه ما أهانك، وإنما أهانني، والمقصود تعظيم الشأن لا نفي الإهانة عن العبد، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾. روى سفيان الثوري عن علي قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وروي أن الحارث بن عامر من قريش قال: يا محمد، واللَّهِ ما كذبتنا قط، ولكنا إن اتبعناك.. نتخطف من أرضنا، فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب.

والخلاصة[٢]: أنهم لا ينسبون النبي ﷺ إلى افتراء الكذب، ولا يجدونه كاذباً في خبر يخبر به؛ بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع، وإنما يدعون أن ما جاء به من أخبار الغيب التي من أهمها البعث والجزاء كذبٌ غير مطابق للواقع، ولا يقتضي ذلك أن يكون هو الذي افتراه، فإن التكذيب قد يكون للكلام دون المتكلم الناقل له، وذكر الرازي في نفي التكذيب مع إثبات الجحود أربعة أوجه:

١ ـ أنهم ما كانوا يكذبونه في السر، ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية، ويجحدون القرآن والنبوة.

٢ ـ أنهم لا يقولون له: إنك كذاب؛ لأنهم جربوه الدهر الطويل، فلم يكذب فيه قط، ولكن جحدوا صحة النبوة والرسالة، واعتقدوا أنه تخيل أنه نبي، وصدق ما تخيله فدعا إليه.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

٣ ـ أنهم لما أصروا على التكذيب مع ظهور المعجزات القاهرة وفق دعواه.. كان تكذيبهم تكذيباً لآيات الله المؤيدة له، أو تكذيباً له سبحانه وتعالى، فكأن الله قال له: إن القوم ما كذبوك، ولكن كذبوني، وذلك أن تكذيب الرسول كتكذيب المرسل المصدِّق له بتأييده على حد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

٤ ـ أن المراد أنهم لا يخصونك بالتكذيب، بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقاً، ويقولون في كل معجزة إنها سحر، فكأن الخلاصة أنهم لا يكذبونك على التعيين، ولكن يكذبون جميع الأنبياء والرسل.

ثم لفت وصرف نظر رسوله ﷺ لأن يقتدي بالرسل قبله في الصبر على التكذيب، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كذب الرسل الذين من قبلك ـ كنوح ومن بعده ـ قومهم، كما كذبك قومك ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾؛ أي: فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ بإهلاك قومهم فاصبر يا أشرف الخلق كما صبروا.. تظفر على أعدائك كما ظفروا، بل أنت أولى بالتزام الصبر؛ لأنك مبعوث إلى جميع العالمين.

وقرأ[١] الجمهور: ﴿وَأُوذُوا۟﴾ بواو بعد الهمزة من آذى يؤذي رباعياً. وقرأ ابن عامر في رواية شاذة: ﴿وأذوا﴾ من غير واو بعد الهمزة، وهو من أذيت الرجل ثلاثياً لا من آذيت رباعياً. اهـ «سمين». وفي الآية تسلية للرسول ﷺ بعد تسلية، وإرشاد إلى سننه تعالى في الرسل والأمم، وقد صرح بوجوب الصبر على هذا الإيذاء في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾. وقد دلت التجارب على أن التأسي يهون المصاب، ويفيد شيئاً من السلوى، ومن هذا تعلم حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية مع الأمر بالصبر المرة بعد المرة؛ لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له ﷺ من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما وبتذكره.

---

(١) الفتوحات.

وفي الآية بشارة للرسول ﷺ مؤكدة للتسلية بأن الله تعالى سينصره على المكذبين الظالمين من قومه، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة الدعوة، كما أنَّ فيها إيماءً إلى حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر.. كان حقيقاً بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر.

والمعنى: أن[1] هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك، فاقتد بهم، ولا تحزن، واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا، حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم، فإنا لا نخلف الميعاد، ولكل أجل كتاب ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: لا مغير ولا ناقض لحكمه وقضائه تعالى، وقد حكم الله سبحانه وتعالى بنصر الأنبياء في نحو قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾؛ أي: فإن وعد الله إياك بالنصر حق وصدق، ولا يمكن تطرق الخلف والتبديل إليه، بل وعده كائن، وأنت منصور على المكذبين ظاهر عليهم، وقد كان ذلك فللّه الحمد.

والحاصل: أن كلمات الله لا يمكن أن يبدلها مبدل، فنصر الرسل حتم لا بد منه، والتبديل: جعل شيء بدلاً من شيء آخر، وتبديل الكلمات والأقوال نوعان:

١ - تبديل ذاتها بجعل قول مكان قول، وكلمة مكان أخرى، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾.

٢ - تبديل مدلولها ومضمونها، كمنع نفاذ الوعد والوعيد، أو وقوعه على خلاف القول الذي سبق، وهذا الأخير هو المراد هنا.

ثم أكد سبحانه عدم التبديل بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي قد جاءك يا محمد من خبر المرسلين الذي قصصناه عليك من قبل

---

(١) الشوكاني.

في القرآن ما فيه كفاية وتأس لك بهم، كيف كذبهم قومهم وكيف أنجيناهم ودمرنا قومهم. فقد روي أن سورة الأنعام نزلت بين سورة الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبأ المرسلين بالتفصيل. وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك، كعاقبة المكذبين للرسل، فيرجعون إليك، ويدخلون في الدين الذي أنت تدعوهم إليه طوعاً أو كرهاً.

وكما وعد الله رسله بالنصر.. وعد المؤمنين به في نحو قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فما بالنا نرى كثيراً ممن يدَّعون الإيمان في هذا الزمان غير منصورين، فلا بد إذاً من أن يكونوا في إيمانهم غير صادقين، ولأهوائهم متبعين، ولسنته في أسباب جاهلين، فالله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، بل ينصر المؤمن الصادق الذي يتحرى الحق والعدل في حربه، لا الظالم الباغي من خلقه، والذي يقصد إعلاء كلمة الله ونصر دينه، كما جاء في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ﴾ الشأن ﴿كَبُرَ﴾ وشق وعظم ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ وإبائهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن، وأحببت أن تجيبهم إلى ما سألوه. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت ﴿أَن تَبْتَغِىَ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ ومنفذاً وسرباً ﴿فِى الْأَرْضِ﴾؛ أي: أن تتخذ منفذاً تنفذ به إلى جوف الأرض، والنفق: سرب في الأرض تخلص منه إلى مكان آخر.

وقرأ نبيح الغنوي: ﴿أن تبتغي نافقاء﴾ والنافقاء ممدوداً: هو أحد مخارج جحر اليربوع.

﴿أَوْ﴾ تبتغي ﴿سُلَّمًا﴾ ومصعداً ترتقي به ﴿فِى السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ ومعجزة من جنس ما اقترحوه وطلبوه منك من تحت الأرض، أو من فوق السماء.. فأفعل ذلك، ولكنك لا تستطيع ذلك، فدع الحزن: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

والمعنى: وإن كان إتيانك بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم ويكشف شبهتهم، فيؤمنون عن بينة وبرهان، فإن استطعت أن تبتغي لنفسك نفقاً تطلبه في الأرض، فتذهب في أعماقها، أو سلماً في جو السماء ترقى فيه إلى ما فوقها، فتأتيهم بآية مما اقترحوا عليك.. فأت بما يدخل تحت طوع قدرتك من ذلك، كتفجير ينبوع لهم من الأرض، أو تنزيل كتاب تحمله من السماء، وقد كانوا طلبوا ذلك كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ وقد أمره الله أن يجيبهم عن ذلك بقوله عقب هذا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؛ أي: وليس ذلك في قدرة البشر، وإن كان رسولاً فالرسل لا يقدرون على شيء مما يعجز عنه البشر، ولا يستطيع إيجاده غير الخالق.

وخلاصة ذلك: أنك لن تستطيع الإتيان بشيء من تلك الآيات، ولا ابتغاء السبل إليها في الأرض ولا في السماء، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك؛ لعلمه أنه لن يكون سبباً لما تحبه من هدايتهم. والمقصود من هذا الكلام: أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر، وهذا دليل على مبالغة حرصه ﷺ على إسلام قومه إلى حيث لو قدر على أن يأتي بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء.. لفعل رجاءً لإيمانهم.

ثم أكد عدم إيمانهم، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾؛ أي: لجمع هؤلاء المكذبين لك ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾ جمع إلجاء وقسر، ولكنه لم يشأ ذلك، ولله الحكمة البالغة؛ أي: ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه؛ إما بأن يجعل الإيمان ضرورياً لهم كالملائكة، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير، لا متفاوتي الاستعداد مختلفي الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات، ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت، وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ أي: إذا عرفت سننه تعالى في خلق

الإنسان، وأنه لا تبديل لخلق الله.. فلا تكونن من الجاهلين لسننه في ذلك، فتتمنى ما تراه حسناً نافعاً، وإن كان حصوله ممتنعاً؛ لكونه مخالفاً لتلك السنن التي اقتضتها الحكمة الإلهية. فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك، هو صنيع أهل الجهل، ولست منهم، فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة، فهو أعلم بما فيه المصلحة، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها.. لكان إيمانهم بها اضطراراً، أو المعنى: ولا تجزع على إعراضهم عنك، ولا يشتد تحزنك على تكذيبهم بك، فإن فعلت ذلك.. فتقارب حالك من حال الجاهلين الذين لا صبر لهم.

وخلاصة ذلك: لا تكونن بالحرص على إسلامهم والميل إلى الإتيان بمقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شؤونه تعالى في خلقه.

الإعراب

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ الواو: استئنافية. ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يَسْتَمِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ووحد الضمير في الفعل حملاً على لفظ ﴿مَّن﴾ وما جاء منه على لفظ الجمع فعلى معنى ﴿مَّن﴾ نحو: ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ و﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها، أو مستأنفة مسوقة للإخبار بما تضمنته من الختم على قلوبهم وسمعهم، وجعلنا بمعنى: صيرنا يتعدى إلى مفعولين. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ لـ﴿جعلنا﴾. ﴿أَكِنَّةً﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، والتقدير: وجعلنا أكنة مستقرة على قلوبهم. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر المنصوب على كونه

مفعولاً لأجله تقديره: وجعلنا على قلوبهم أكنة كراهية فقههم إياه. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جعلنا﴾. ﴿وَقْرًا﴾: معطوف على ﴿أَكِنَّةً﴾ على كونه مفعولاً أولاً لـ﴿جعلنا﴾، ولا يعد الفصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف فصلاً، والتقدير: وجعلنا وقراً مستقراً في آذانهم.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ورأى بصرية تتعدى لمفعول واحد ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُؤْمِنُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿يؤمنوا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابتدائية تبتدأ بعدها الجمل، أو غائية لا عمل لها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جَآءُوكَ﴾. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة. ﴿كَفَرُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿يقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنْ﴾ نافية لا عمل لها لانتقاض نفيها بـ﴿إلا﴾. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر واستثناء لا عمل لها. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَهُمْ﴾ الواو: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿يَنْهَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: ينهون الناس. ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الفاعل

في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾. ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُۖ﴾: متعلق به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَنْهَوْنَ﴾. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾: الواو: عاطفة على محذوف. ﴿إن﴾: نافية لا عمل لها. ﴿يُهْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: وهم ينهون عنه وينأون عنه؛ أي: عن الرسول، أو القرآن قاصدين تخلي الناس عن الرسول فيلهلكونه، وهم في الحقيقة يهلكون أنفسهم، ذكره أبو حيان. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الواو: حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَشْعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُهْلِكُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وهي بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، ومفعول ترى محذوف تقديره: ولو ترى حالهم إذ وقفوا على النار، وجواب ﴿لو﴾ محذوف أيضاً تقديره: ولو ترى حالهم إذ وقفوا على النار.. لرأيت أمراً عجيباً، وشأناً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، وعبر بـ﴿إذ﴾ عما في المستقبل إشعاراً بتحقق وقوعه، والظرف متعلق بـ﴿ترى﴾. ﴿وُقِفُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿فَقَالُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وُقِفُواْ﴾: ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف تقديره: يا قومنا ليتنا، أو ﴿يا﴾: حرف تنبيه، فلا حذف. ﴿ليتنا﴾: ﴿ليت﴾: حرف تمنٍ ونصب، ونا: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿نُرَدُّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير المتكلمين، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿ليت﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نُكَذِّبَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد الواو العاطفة، وفاعله ضمير المتكلمين.

﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نكذب﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيَّد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى تقديره: يا قومنا نتمنى ردنا إلى الدنيا، وعدم تكذيبنا بآيات ربنا. ﴿وَنَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿نُكَذِّبَ﴾ منصوب بأن مضمرة، واسمها ضمير المتكلمين. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿نكون﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿نُكَذِّبَ﴾ على كونها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد تقديره: يا قومنا نتمنى ردنا إلى الدنيا، وعدم تكذيبنا بآيات ربنا، وكوننا من المؤمنين. هذا على قراءة النصب في الفعلين، وأما على قراءة رفعهما ﴿ولا نكذِّبُ﴾: الواو: حالية، وجملة ﴿نكذِّبُ﴾ في محل الرفع خبر مبتدأ محذوف تقديره: يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿نُرَدُّ﴾، وجملة ﴿نكون﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿نكذِّبُ﴾ على كونها خبر المبتدأ المحذوف، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿نُرَدُّ﴾، والتقدير: يا ليتنا نرد غير مكذبين، وكائنين من المؤمنين، فيكون تمني الرد مقيداً بهاتين الحالتين، فيكون الفعلان داخلين في المتمنى، ويحتمل كون الرفع في الفعلين بالعطف على الفعل قبلهما، وهو ﴿نُرَدُّ﴾، ويكونون قد تمنوا ثلاثة أشياء: الرد إلى دار الدنيا، وعدم تكذيبهم بآيات ربهم، وكونهم من المؤمنين.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب عما يدل عليه التمني من رغبتهم في الإيمان؛ أي: ليس الأمر كما يدل عليه تمنيهم من خلوص رغبتهم في الإيمان، بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون من قبل من الشرك؛ لأنهم قالوا أولاً: والله ربنا ما كنا مشركين. ﴿بَدَا﴾: فعل ماضٍ. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿بَدَا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة التي قدرناها سابقاً بقولنا: ليس الأمر كما يدل عليه تمنيهم على كونها مستأنفة. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يُخْفُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿يُخْفُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾،

وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يخفونه من قبل. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿رُدُّوا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَعَادُوا﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿عادوا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عادوا﴾. ﴿نُهُوا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿عَنْهُ﴾. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: الواو: استئنافية أو اعتراضية. ﴿إنّ﴾: حرف نصب، والهاء في محل النصب اسمها. ﴿لَكَاذِبُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء زحلقت عن محلها. ﴿كاذبون﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، أو معترضة لاعتراضها بين المعطوف الذي هو ﴿وَقَالُوا﴾، والمعطوف عليه الذي هو، قوله: ﴿لَعَادُوا﴾.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ الواو: استئنافية أو عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿لَعَادُوا﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿حَيَاتُنَا﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿حياتنا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية حجازية تعمل عمل ليس. ﴿نَحْنُ﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾: الباء: زائدة في خبر ﴿ما﴾. ﴿مبعوثين﴾: خبرها منصوب، وعلامة نصبه الياء المقدرة الممنوع ظهورها بالياء المجلوبة لأجل حرف جر زائد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ

بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد وهو محذوف تقديره: ولو ترى حالهم إذ وقفوا، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ مع جوابها المحذوف مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان بحسب الأصل، ولكنها مضمنة هنا معنى الاستقبال في محل النصب على الظرفية، مبنية على السكون، والظرف متعلق بـ﴿ترى﴾. ﴿وُقِفُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿وقفوا﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو حال من ربهم. وفي «الفتوحات»: في[1] هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها استئنافية في جواب سؤال مقدر تقديره: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ قال: قال لهم: أليس هذا بالحق؟

والثاني: أن تكون الجملة حالية، وصاحب الحال ربهم، كأنه قيل: وقفوا عليه قائلاً لهم أليس هذا بالحق؟ اهـ «سمين».

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿هَٰذَا﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ الباء: زائدة في خبر ﴿ليس﴾. ﴿الحق﴾: خبرها، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي المفهوم من السؤال. ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾: الواو: حرف جر وقسم. ﴿ربنا﴾: مقسم به ومضاف إليه مجرور بواو القسم، الجار والمجرور

(١) الفتوحات.

متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم وربنا، والجملة القسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَذُوقُواْ﴾: الفاء: حرف موضوع للدلالة[1] على ترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به في الدنيا. ﴿ذوقوا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِمَا﴾ الباء: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: فذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ذوقوا﴾، ويصح أن تكون ﴿ما﴾ موصولاً اسمياً عائده محذوف تقديره: فذوقوا العذاب بسبب شرككم الذي كنتم تكفرون به في بعض المواقف بقولكم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿بَغْتَةً﴾: منصوب على الحالية من الساعة، ولكن على تأويله بالمشتق تقديره: مباغتة ومفاجئة لهم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ في نصبها أربعة أوجه:

أحدها: أنها مصدر في موضع الحال من فاعل ﴿جَآءَتْهُمُ﴾؛ أي: مباغتة، أو من مفعوله؛ أي: مبغوتين.

---

(١) الجمل.

الثاني: أنها مصدر معنوي لـ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾؛ لأن معنى جاءتهم: بغتتهم بغتة، فهو كقولهم: أتيته ركضاً.

الثالث: أنها منصوبة بفعل محذوف من لفظها؛ أي: تبغتهم بغتة.

الرابع: بفعل من غير لفظها؛ أي: أتتهم بغتة انتهى. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حتى﴾ الغائية تقديره: استمروا على التكذيب إلى قولهم: يا حسرتنا على ما فرطنا في الساعة وقت مجيئها إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كذبوا﴾. ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾: مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿حسرتنا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾: ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿فَرَّطۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَّطۡنَا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿على﴾ تقديره: على تفريطنا فيها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿حسرتنا﴾؛ لأنه في الأصل مصدر لفرَّط المضعف، والتفريط: التقصير مع القدرة على تركه.

﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿وَهُمۡ﴾: الواو: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قالوا يا حسرتنا في حالة حملهم أوزارهم. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَحۡمِلُونَ﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه. ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿يَزِرُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ساء الذي يزرونه، أو ساء شيء يزرونه، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، وهي مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية تقديره: ألا ساء وزرهم، والمخصوص بالذم حملهم ذلك.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: صفة لها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لَعِبٌ﴾: خبر المبتدأ ﴿وَلَهْوٌ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَلدَّارُ﴾: الواو: استئنافية. اللام: موطئة لقسم محذوف. ﴿الدار﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾: صفة الدار؛ لأنه في الأصل صفة بمعنى المتأخرة. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿يَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، و﴿خَيْرٌ﴾ أفعل التفضيل، وحسن حذف المفضل عليه لوقوعه خبراً، والتقدير: خير من الحياة الدنيا. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة، للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: أتغفلون عن خيرية الدار الآخرة من الدنيا، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة، والمحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ﴿إنّ﴾ حرف نصب وتوكيد، وكسرت همزتها لدخول اللام المعلقة لنعلم عن العمل في خبرها قال ابن مالك:

وَكَسَرُوْا مِنْ بَعْدِ فِعْلٍ عُلِّقَا ... بِٱللَّامِ كَٱعْلَمْ إِنَّهُ لَذُوْ تُقَىٰ

والهاء ضمير الشأن في محل النصب اسمها. ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء زحلقت للخبر؛ لئلا يتوالى حرفا تأكيد. ﴿يحزنك﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلَّذِى﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ من اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي ﴿نَعْلَمُ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يقولونه.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء: تعليلية. ﴿إنّ﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها ﴿لَا﴾:

نافية. ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل محذوف معلوم من السياق تقديره: لا تحزن لتكذيبهم إياك في الظاهر؛ لأنهم لا يكذبونك في السر. ﴿وَلَكِنَّ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿الظَّالِمِينَ﴾: اسمها منصوب بالياء. ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يجحدون﴾، وجملة ﴿يَجْحَدُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: استئنافية. اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كذبت﴾، ولا يجوز أن يكون صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾؛ لأنه زمان، والجثة لا توصف بالزمان ذكره أبو البقاء، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿فَصَبَرُوا﴾: الفاء: عاطفة. ﴿صبروا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كُذِّبَتْ﴾ على كونها جواب قسم لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿كُذِّبُوا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿على﴾، والجار والمجرور متعلق بـ﴿صبروا﴾، والتقدير: فصبروا على تكذيب الكافرين إياهم. ﴿وَأُوذُوا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ﴾؛ أي: كذبت الرسل وأوذوا فصبروا على كل ذلك. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿صبروا﴾؛ أي: فصبروا إلى إتيان نصرنا إياهم. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿مُبَدِّلَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُبَدِّلَ﴾، وخبر ﴿لا﴾ محذوف تقديره: ولا مبدل لكلمات الله موجود، وجملة ﴿لا﴾ مستأنفة. ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: استئنافية،

واللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول. ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جاء﴾، وفاعل ﴿جاء﴾ محذوف تقديره: ولقد جاءك من نبأ المرسلين ما فيه كفاية، كما سبق في مبحث التفسير، ويحتمل كون الفاعل من نبأ المرسلين على جعل ﴿مِن﴾ زائدة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

﴿وَإِن﴾: الواو: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض، شأنية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، واسمها ضمير الشأن. ﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾: فاعل، ومضاف إليه وجملة ﴿كَبُرَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مفسرة لاسمها الذي هو ضمير الشأن، ولا حاجة إلى تقدير: قد، وقيل: اسم كان ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، و﴿كَبُرَ﴾ جملة فعلية في محل النصب على أنها خبر لـ﴿كان﴾ مقدم على اسمها؛ لأنها فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور. اهـ «أبو السعود»، والإتيان بلفظ ﴿كَانَ﴾ مع استقامة المعنى بدونها ليبقى الشرط على مضيه، ولا تقلبه إن للاستقبال؛ لأن ﴿كَانَ﴾ لقوة دلالتها على المضي لا تقلبها كلمة ﴿إن﴾ إلى الاستقبال بخلاف سائر الأفعال. اهـ «كرخي». ﴿فَإِنِ﴾: الفاء: رابطة الجواب جوازاً. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿ٱسْتَطَعْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الثانية محذوف تقديره: فافعل ذلك، وجملة ﴿إن﴾ الثانية مع جوابها المحذوف جواب لـ﴿إن﴾ الأولى وجملة ﴿إن﴾ الأولى مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾: ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَبْتَغِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿نَفَقًا﴾: مفعول به. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَفَقًا﴾، أو متعلق بـ﴿تَبْتَغِيَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: فإن استطعت ابتغاء نفق في الأرض أو سلم في السماء. ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾: معطوف على نفقاً. ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿سُلَّمًا﴾، أو متعلق بـ﴿تَبْتَغِيَ﴾.

﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾: الفاء: عاطفة ﴿تأتي﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿تَبْتَغِيَ﴾ والهاء: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِآيَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تأتي﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾: اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿جمعهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جمع﴾. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت سننه تعالى في خلق الإنسان، وأنه لا تبديل لخلق الله، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ﴿لا تكونن﴾ ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ﴿لا﴾ مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير مستتر فيها تقديره: أنت يعود على محمد ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: جار ومجرور، وخبر ﴿تَكُونَنَّ﴾، وجملة ﴿تَكُونَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، كأزمة جمع زمام، وأعنة جمع عنان، وفي «المصباح»: كننته أكنه من باب ردَّ سترته في كنه بالكسر، وهو: السترة، وأكننته: أخفيته. وقال أبو زيد: الثلاثي والرباعي لغتان في الستر، وفي الإخفاء جميعاً واكتن الشيء واستكن: استتر، والكنان: الغطاء وزناً، ومعنى، والجمع: أكنة مثل: أغطية انتهى.

وقال بعضهم: الكنُّ بالكسر ما يحفظ فيه الشيء، وبالفتح: المصدر، يقال: كننته كناً؛ أي: جعلته في كن، ويجمع على أكنان، قال تعالى: ﴿مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، والكنان: الغطاء الساتر والوعاء الجامع قال الشاعر:

إِذَا مَا ٱنْتَضَوْهَا فِي ٱلْوَغَىٰ مِنْ أَكِنَّةٍ حَسِبْتَ بُرُوْقَ ٱلْغَيْثِ هَاجَتْ غُيُوْمُهَا

والفعل من هذه المادة يستعمل ثلاثياً ورباعياً يقال: كننت الشيء كناً وأكننته إكناناً إلا أن الراغب فرّق بين فعل وأفعل، فقال: وخصَّ كننت بما يستر من بيت أو ثوب أو غير ذلك من الأجسام قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ وأكننت بما يستر في النفس قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قلت: ويشهد لما قاله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٧﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾، وكنا يجمع على أكنة في القلة والكثرة لتضعيفه اهـ «سمين».

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ في «المصباح»: الوقر بالكسر: حمل البغل والحمار، ويستعمل في البعير، وأوقر بعيره بالألف، وقرت الأذن توقر من باب تعب ووقرت تقر من باب وعد: ثقل سمعها، ووقرها الله وقراً من باب وعد، يستعمل لازماً ومتعدياً، والوقار: الحمل والرزانة، وهو مصدر وقر بالضم مثل: جمل جمالاً، ويقال أيضاً: وقر يقر من باب وعد فهو وقور مثل رسول، والمرأة وقور أيضاً فعول بمعنى فاعل، مثل صبور وشكور، والوقار: العظمة أيضاً والوقر بالفتح الثقل في السمع.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾ والآية: العلامة الدالة على صدق الرسول ﷺ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وفي «المختار»: والأساطير: الأباطيل، والواحد: أسطورة بالضم وإسطارة بالكسر انتهى.

وفي «السمين»: وأساطير فيه أقوال:

أحدها: أنه جمع لواحد مقدر، واختلف في ذلك المقدر فقيل: أسطورة، وقيل: أسطور، وقيل: أسطار، وقيل: أسطير، وقال بعضهم: بل لُفظ بهذه المفردات.

والثاني: أنه جمع جمع، فأساطير جمع: أسطار، وأسطار جمع: سطر بفتح الطاء، وأما سطر بسكونها فجمعه في القلة على أسطر، وفي الكثرة على سطور، كفلس وأفلس وفلوس، وبقية الأقوال ليس بشيء، فلا نطيل الكلام بذكرها، فراجعها في «الفتوحات».

ومعنى الأساطير: الأحاديث الباطلة والخرافات والترهات.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أصله: ينهيون، استثقلت الضمة على الياء، ثم حذفت فالتقى ساكنان وهما: الياء والواو، ثم حذفت الياء فصار: ينهون.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ وفي «المصباح»: نأى نأياً من باب سعى يتعدى بنفسه وبالحرف، وهو الأكثر، فيقال: نأيته ونأيت عنه، ويتعدى بالهمزة إلى الثاني فيقال: أنأيته عنه انتهى. والنأي عنه يشمل الإعراض عن سماعه، والإعراض عن هدايته، وأصله: ينأيون كينهيون فعل به ما فيه فعل آنفاً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ ووقف يتعدى، ولا يتعدى، وفرقت العرب بينهما بالمصدر، فمصدر اللازم على فعول، ومصدر المتعدي على فعل، ولا يقال: أوقفت، قال أبو عمرو بن العلاء: لم أسمع في شيء من كلام العرب: أوقفت فلاناً إلا أني لو رأيت رجلاً واقفاً فقلت له: ما أوقفك ههنا لكان عندي حسناً، وإنما كان حسناً؛ لأن تعدي الفعل بالهمزة مقيس نحو: ضحك وأضحكته أنا، ولكن سمع غيره في وقف المتعدي أوقفته اهـ «سمين». ويقال: وقف الرجل على الأرض وقوفاً إذا قام، ووقف المال على كذا وقفاً إذا حبسه عليه، وجعل منفعته له، كوقف العقار على الفقراء.

﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: والساعة في اللغة: الزمن القصير المعين، ثم أطلق على الوقت الذي ينقضي به أجل هذه الحياة، ويخرب العالم وما يتبع ذلك من البعث والحساب، سُمي بذلك لسرعة الحساب فيه، كأنه ساعة، والألف واللام في الساعة للغلبة كالنجم والثريا، لأنها غلبت على يوم القيامة. والبغتة: الفجأة، يقال: بغته بغتة إذا هجم عليه من غير شعور، والبغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير اعتدادٍ له، وجعل بال منه، حتى لو استشعر الإنسان به، ثم جاءه بسرعة لا يقال فيه: بغتة.

﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ والحسرة: الغم على ما فات، والندم عليه، وشدة التلهف والتألم عليه، كأن المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكب.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ التفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله، والتقصير ممن قدر على الجد والتشمير من الفرط، وهو السبق، ومنه الفارط والفرط، وهو الذي يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ جمع وزر بكسر أوله كحمل وأحمال وعدل وأعدال، والوزر في الأصل: الحمل الثقيل، ومنه وزره بزنة وعده: حمله على ظهره ووزرته حملته شيئاً ثقيلاً ووزير الملك من هذا؛ لأنه يتحمل أعباء ما قلده الملك من مؤونة رعيته وحشمه، ومنه: أوزار الحرب لسلاحها وآلها، ثم أطلق في الدين على الإثم والذنب، كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذي يثقل الظهر.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ واللعب: الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصداً صحيحاً من تحصيل منفعة، أو دفع مضرة، كأفعال الصبيان التي يتلذذون بها، واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، وقد يسمى كل ما به استمتاع لهواً، ويقال: لهوت بالشيء ألهو به لهواً وتلهيت به إذا تشاغلت وغفلت به عن غيره. ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ الحزن: ألم يحل بالنفس عند فقد محبوب، أو امتناع مرغوب، أو حدوث مكروه، ولا سبيل لعلاجه إلا التسلي والتأسي كما قالت الخنساء:

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ ٱلْبَاكِيْنَ حَوْلِيْ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِيْ
وَمَا يَبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِيْ وَلَكِنْ أُسَلِّيْ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ بِٱلتَّأَسِّيْ

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقال: كذبه إذا رماه بالكذب والجحود، والجحد: نفي ما في القلب إثباته، أو إثبات ما في القلب نفيه، ويقال: جحده حقه وبحقه.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وكلمات اللَّه هي وعده ووعيده، ومن ذلك وعده للرسل بالنصر، ووعيده لأعدائهم بالغلب والخذلان، كقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

﴿مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ النبأ: الخبر ذو الشأن العظيم يجمع على: أنباء كسبب وأسباب.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ يقال: كبر على فلان الأمر إذا عظم عنده وشق

عليه وقعه، والإعراض: التولي والانصراف عن الشيء رغبة عنه أو احتقاراً له.

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ استطاع من باب استفعل السداسي كاستعان واستقام يقال: استطعت الشيء إذا صار في طوعك منقاداً لك باستيفاء الأسباب التي تمكنك من فعله. ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ ابتغى من باب افتعل الخماسي، والابتغاء: طلب ما في طلبه كلفة ومشقة من البغي، وهو تجاوز الحد، ويكون في الخير كابتغاء رضوان الله تعالى، وهو غاية الكمال، وفي الشر كابتغاء الفتنة، وهو غاية الضلال.

﴿نَفَقًا﴾ والنفق: السرب في الأرض، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج، وفي «السمين» النفق: السرب النافذ في الأرض، وأصله في حجرة اليربوع، ومنه: النافقاء والقاصعاء انتهى.

﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ والسلم: المصعد والمرقاة، وقيل: الدرج، وقيل: السبب تقول العرب: اتخذني سلماً لحاجتك؛ أي: سبباً، وهو مشتق من السلامة؛ لأنه هو الذي يسلمك إلى مصعدك وتذكيره أفصح من تأنيثه.

﴿بِـَٔايَةٍ﴾ الآية: المعجزة ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ جمع: جاهل من الجهل، والجهل هنا ضد العلم، وليس كل جهل عيباً؛ لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً، وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه، ثم بجهل ما ينبغي له، ويعدله كمالاً إذا لم يكن معذوراً في جهله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية أو التمثيلية في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ لأن الظاهر أن الغطاء والصمم هنا ليسا حقيقة؛ بل ذلك من باب استعارة المحسوس للمعقول حتى يستقر في النفس، استعار الأكنة لصرف قلوبهم عن تدبر آيات الله، والثقل في الأذن لتركهم الإصغاء إلى سماعها.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لتسجيل الكفر عليهم، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لتسجيل الظلم عليهم.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ لأن فيه التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، فإن قوله: ﴿جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ خطاب للرسول ﷺ.

ومنها: جناس التصريف في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ وهو[1] أن تنفرد كل كلمة عن الأخرى بحرف، ﴿فينهون﴾ انفردت بالهاء، ﴿وينأون﴾ انفردت بالهمزة، ومنه: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ و﴿يفرحون﴾ و﴿يمرحون﴾، «والخيل معقود في نواصيها الخير»، وفي كتاب «التحبير» سماه تجنيس التحريف، وهو أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين، وأنشد عليه قوله:

إنْ لَـمْ أَشِـنَّ عَـلَـىٰ ٱبْـنِ هِـنْـدٍ غَـارَةً لَـهَّـابَ مَـالٍ أَوَ ذَهَّـابَ نُـفُـوْسِ

وذكر غيره أن تجنيس التحريف هو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين، كقول بعض العرب وقد مات له ولد: اللهم إني مسلم ومسلم.

ومنها: إبراز الآتي بصورة الماضي في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ إشعاراً بتحقق الوقوع.

ومنها: الإتيان بضمير مبهم يفسره خبره في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ إذ لا يعلم ما يراد به إلا بذكر خبره، وهو من الضمائر التي يفسرها ما بعدها لفظاً ورتبة اهـ «سمين».

ومنها: تأكيد الجواب بالقسم في قوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾؛ أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيته، وإيذاناً بصدور ذلك عنهم للرغبة والنشاط.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه شبه من استعاض الكفر عن الإيمان بمن خسر في صفقته العادم الربح ورأس ماله.

ومنها: الإضافة للتفخيم والتعظيم لشأن المضاف في قوله: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: جزائه تعظيماً لشأن الجزاء، وهو نظير قوله ﷺ: «لقى الله وهو عليه غضبان»؛ أي: لقي جزاءه.

ومنها: تعريف العهد في قوله: ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ بدون تقدم ذكر لها لشهرتها واستقرارها في النفوس.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ تنزيلاً لها منزلة العاقل؛ لأنه لا ينادى حقيقة إلا العاقل.

ومنها: تصدير الجملة الحالية بالضمير في قوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾؛ لأنه أبلغ في النسبة؛ إذ صار صاحب الحال مذكوراً مرتين من حيث المعنى.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾؛ لأنه شبه ما يجدونه من المشقة والآلام بسبب ذنوبهم بحمل الوزر الثقيل؛ أي: الحمل الثقيل.

ومنها: الجناس المغاير بين قوله: ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿يَزِرُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾، وقوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾.

ومنها: القصر في مواضع كقوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، وقوله: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾؛ إذ قبله بآيات الله، فلو جاء على طبق ذلك لقيل: حتى أتاهم نصره. وفائدة هذا الالتفات: إسناد النصر إلى ضمير المتكلم المشعر بالعظمة.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ حيث أكدت الصيغة بإن وباللام وباسمية الجملة، للتنبيه على أن الكذب كان طبيعتهم.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ حيث جعل الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة، كقول الخنساء:

فَــإِنَّــمَــا هِــيْ إِقْــبَــالٌ وَإِدْبَــارُ

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومنها: التفخيم والتكثير بتنوين رسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾.

ومنها: تصدير الجملة بالقسم لتأكيد التسلية في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾؛ لأن عموم البلوى مما يهون أمرها بعض تهوين.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال الإمام فخر الدين الرازي: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يقتضي[1] له جواباً، وقد حذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن، وأشباهه كثير في القرآن والشعر، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: واللّهِ لئن قمت إليك، وسكت عن الجواب ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وعظم خوفه؛ لأنه لم يدر أيَّ الأقسام تبغي، ولو قلت: والله لئن قمت إليك لأضربنك، فأتيت بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف.

وقال[2] أبو حيان: وجواب ﴿لو﴾ محذوف لدلالة المعنى عليه تقديره: لرأيت أمراً شنيعاً وهولاً عظيماً، وحذف جواب ﴿لو﴾ لدلالة الكلام عليه جائز، فيصح، ومنه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية، وقول الشاعر:

وَجَــدِّكَ لَــوْ شَــيْءٌ أَتَــانَــا رَسُــوْلُــهُ ... سِــوَاكَ وَلَــكِــنْ لَــمْ نَــجِــدْ لَــكَ مَــدْفَــعَــا

أي: لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) التفسير الكبير للرازي.

(٢) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما بين في الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا أن يلجئهم إلجاءً بالآيات التي تقسرهم على ذلك، بل اقتضت حكمته أن يكون البشر متفاوتين في الاستعداد، مختارين في تصرفاتهم وأعمالهم، ومنهم من يختار الهدى على الضلال، ومنهم من يستحب العمى على الهدى.. ذكر هنا أن

---

(١) المراغي.

الأولين هم الذين ينظرون في الآيات، ويفقهون ما يسمعون من الحجج والبينات، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون، فهم والأموات سواء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين فيما سلف أنه قادر على أن ينزل الآيات إذا رأى من الحكمة والمصلحة إنزالها، ولا ينزلها للتشهي والهوى كما يراه المقترحون من أولئك الظالمين المكذبين.. ذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك، فأرشد إلى عموم قدرته تعالى وشمول علمه وتدبيره، وأن كل ما يدب على وجه الأرض أو يطير في الهواء فهو مشمول بفضله ورحمته، فلو كان في إظهار هذه المعجزات مصلحة للمكلفين.. لفعلها، ولامتنع أن يبخل بها، إذ أنكم ترون أنه لم يبخل على شيء من الحيوان بمنافعها ومصالحها.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيَّن فيما سلف للمشركين أن علمه محيط بما في الأرض والسماء، وأن عنايته تعم كل ما درج على الأرض أو طار في الهواء، وأن أمم الحيوان مشابهة لأمم الإنسان، وقد أوتيت من الإلهام والمعرفة ما تميِّز به بين ما ينفعها ويضرها.. أمر نبيه ﷺ أن يوجه إليهم هذا السؤال، مذكراً لهم بما أودع في فطرتهم من توحيده عزَّ اسمه، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم وقت الرخاء وارتفاع اللأواء، حتى إذا جد الجد ونزل بهم ما لا يطاق حمله من الشدائد.. ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وضل عنهم ما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان، وما وضعوا رمزاً له من ملك أو إنسان.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما هددهم في الآيات السالفة بإتيان

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

العذاب أو الساعة.. هددهم هنا بأخذ سمعهم وأبصارهم، والختم على قلوبهم، ولما كان هذا التهديد أخف من التهديد السابق.. لم يؤكد هنا بحرف الخطاب، واكتفى بخطاب الضمير فقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بلا كاف، ولما كان السابق أعظم من هذا.. أكد خطاب الضمير بحرف الخطاب فقال: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾، وفي تلك وهذه الاستدلال على توحيد الله تعالى، وأنه المتصرف في العالم، الكاشف للعذاب والراد لما شاء بعد الذهاب، وأن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لله ولرسوله ﷺ دعوته إلى الإيمان والتوحيد ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: المؤمنون الذين يسمعون كلام الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ سماع تفهم وتدبر، فيعقلون الآيات، ويذعنون لما عرفوا بها من الحق، لسلامة فطرتهم، وصفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم دون الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، كالمقلدين الذين لا يفكرون في الأشياء بعقولهم، ودون الذين قالوا: سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين، فهؤلاء من موتى القلوب، وأبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون، لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة، وفي آذانهم من الوقر. ﴿وَالْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: الكفار الذين هم كموتى الأجساد الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً؛ إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله تعالى، ولا يعتبرون بآياته، ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يترك أمرهم في الدنيا إلى أن يبعثهم الله تعالى من قبورهم مع سائر الناس ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: ثم إلى موقف حسابه يرجعون، ويحشرون إليه للمجازاة، فحينئذ يسمعون فينالون ما يستحقون على كفرهم وسيىء أعمالهم، وأما قبل ذلك.. فلا يسمعون فلا تبخع نفسك عليهم حسرات، إذ ليس في استطاعتك هدايتهم ولا إرجاعهم إلى محجة الرشاد.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَالْمَوْتَىٰ﴾ إلخ مقابل لقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ إلخ كأنه قال: والذين لا يستجيبون ولا يسمعون يبعثهم الله اهـ «خازن».

وقرىء[1]: ﴿ثم إليه يَرجعون﴾ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع اللازم.

ثم ذكر شيئاً من عنادهم الدال على عظيم جحودهم، فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: وقال الظالمون لأنفسهم الذين يجحدون بآيات ربهم، ويعاندون رسوله إليهم، يعني: من رؤساء مكة، كالحارث بن عامر وأصحابه، وأبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وأمية، وأبي بن خلف، والنضر بن الحارث. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: هلا أنزل على محمد آية ومعجزة من ربه دالة على نبوته من الآيات التي اقترحناها عليه، وجعلناها شرطاً لإيماننا به، كجعل الصفا ذهباً، وتوسيع أرض مكة، وتفجير الأنهار خلالها، أو من المعجزات التي أعطيها الأنبياء من قبله، كفلق البحر وإظلال الجبل، وإحياء الموتى، وإنزال الملائكة، وقلب العصا حية. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾؛ أي: على تنزيل آية مما اقترحوا؛ أي: على أن يوجد خوارق للعادة كما طلبوا إذا اقتضت الحكمة تنزيلها، لا ما تتعلق شهواتهم بتعجيز الرسول بطلبها، فقد مضت سنة الله تعالى بأن إجابة المعاندين إلى ما اقترحوا لم تكن سبباً للهداية في أمة من الأمم، بل كانت سبباً في عقاب المعاجزين للرسل بعذاب الاستئصال، وتنزيل الآية لا يكون خيراً لهم، بل هو شر لهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من حكم الله تعالى في أفعاله، ولا من سننه في خلقه؛ أي: لا يدرون[2] أن في تنزيلها قلعاً لأساس التكليف المبنيِّ على قاعدة الاختيار، وأن الله تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من المعجزات القاهرة، فلم يؤمنوا عند ظهورها.. لاستحقوا عذاب الاستئصال، ولم يبق لهم عذر ولا علة، كما هو سنة الله، فاقتضت رحمة الله بهم صونهم عن هذا البلاء، فما أعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى عليهم، وإن لم يعلموا كيفية هذه الرحمة.

والخلاصة: أن طلبهم للآية أو الآيات مع وجود هذه الآيات البينات إنما هو محاولة تعجيز الرسول، لا أنه هو الدليل الذي يوصلهم إلى صدقه، يرشد إلى

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾، وقـــولـــه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلام[1] مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته تعالى وشمول علمه وسعة تدبيره؛ ليكون كالدليل على أنه قادر على تنزيل الآية، وإنما لم ينزلها محافظة على الحكم البالغة؛ أي: وما من دابة من الدواب التي تدب في أي مكان من أمكنة الأرض ﴿وَلَا﴾ من ﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في أي ناحية من نواحي الأرض ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ أي: إلا جماعات أمثالكم، خلقهم الله كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه وتدبيره وتقديره وإحاطته بكل شيء. قال[2] العلماء: ما خلق الله عز وجل في الأرض لا يخرج عن هاتين الحالتين؛ إما أن يدب على الأرض أو يطير في الهواء، حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير؛ لأن الحيتان تسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء، وإنما خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء، وإن كان ما في السماء مخلوقاً له؛ لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد، وإنما ذكر الجناح في قوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ للتوكيد كقولك: كتبت بيدي، ونظرت بعيني.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال مجاهد؛ أي: إلا أصناف مصنفه تعرف بأسمائها، يريد أن كل جنس من الحيوان أمة، فالطير أمة، والدواب أمة، والسباع أمة، تعرف بأسمائها مثل بني آدم يعرفون بأسمائهم، كما يقال: الإنس والناس، ويدل على أن كل جنس من الدواب أمة ما روي عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم.. لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم». أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

فإن قلت: ثبت بالآية والحديث أن الدواب والطير أمم أمثالنا، وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا، فما وجه هذه المماثلة؟.

---

(١) أبو السعود. (٢) الخازن.

قلتُ: اختلف العلماء في وجه هذه المماثلة، فقيل: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبحه وتصلي له، كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلون له، وقيل: إنها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل، وقيل: إنها يفهم بعضها عن بعض، ويألف بعضها بعضاً، كما أن جنس الإنسان يألف بعضهم بعضاً ويفهم بعضهم عن بعض، وقيل: أمثالكم في طلب الرزق، وتوقي المهالك، ومعرفة الذكر والأنثى، وقيل: أمثالكم في الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب، حتى يقتص للجماء من القرناء، وقال سفيان بن عيينة؛ أي: ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاوس، والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان. وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ؛ أي: لا يوجد[1] نوع من أنواع الأحياء التي تدب على الأرض، ولا نوع من أنواع الطير التي تسبح في الهواء إلا وهي أمم مماثلة لكم أيها الناس، وقد أثبت الإحصائيون الباحثون في طباع الحيوان الذين تفرغوا لدرس غرائزها وأعمالها، أن النمل مثلاً يغزو بعضه بعضاً، وأن المنتصر يسترق المنكسر ويسخره في حمل قوته وبناء قراه إلى نحو أولئك من الأعمال التي تخصه.

وخص دواب الأرض بالذكر؛ لأنها هي التي يراها المخاطبون عامة ويدركون فيها معنى المماثلة دون دواب الأجرام السماوية القابلة للحياة الحيوانية التي أعلمنا بوجودها في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا من أخبار الغيب التي دل العلم الحديث على صدقها، فقد أثبت الباحثون من علماء الفلك أن بعض الكواكب كالمريخ فيه ماء ونبات، فلا بد أن يكون أنواع من الحيوان، بل فيه أمارات على وجود عالم اجتماعي صناعي كالإنسان، منها ما يرى على سطحه بالمرقب ـ التلسكوب ـ من جداول منظمة، وخلجان وجبال ووديان إلى نحو أولئك.

---

(١) المراغي.

وهذه[1] الآية الكريمة ونحوها ترشدنا إلى البحث في طباع الأحياء لنزداد علماً بسنن الله تعالى وأسراره في خلقه، ونزداد بآياته فيها إيماناً وحكمة وكمالاً وعلماً، ونعتبر بحال المكذبين بها الذين لم يستفيدوا بما فضلهم الله به على الحيوان، فكانوا أضلَّ من جميع أنواعه التي لا تجني على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه.

﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾؛ أي: ما تركنا وما أهملنا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ من الشيطان، ومن تغيير شيء منه ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: شيئاً من الكائنات، ما كان منها وما سيكون بحسب السنن الإلهية، فإن الله سبحانه وتعالى أثبت فيه جميع الحوادث، وهو خلق من عالم الغيب، وقيل: المراد بالكتاب هنا: علم الله المحيط بكل شيء، شبه بالكتاب لكونه ثابتاً لا ينسى. قال الحافظ ابن كثير: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: الجميع علمهم عند الله تعالى لا ينسى واحداً من جميعها من رزقه، سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾؛ أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ونظامها، وحاصر لحركاتها وسكناتها. انتهى.

وقيل: هو القرآن؛ أي: ما تركنا شيئاً من ضروب الهداية التي نرسل من أجلها الرسل إلا بيناه فيه، فقد ذكرت فيه أصول الدين وأحكامه، وحكمها، والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية التي سخرها الله للإنسان.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة من أمور الدين؛ إما[2] تفصيلاً، أو إجمالاً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ، وكل حكم سنه الرسول لأمته فقد ذكره الله سبحانه وتعالى في

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

كتابه العزيز بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾، وبقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي[1]: إن القرآن وافٍ ببيان جميع الأحكام، فليس لله على الخلق بعد ذلك تكليف آخر، وإن القرآن دلَّ على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة في الشريعة، فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة. كان ذلك في الحقيقة موجوداً في القرآن.

روي أن ابن مسعود كان يقول: ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه، فقرأت امرأة جميع القرآن، فأتته فقالت: يا ابن أم عبد، تلوت البارحة ما بين الدفتين، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة، فقال: لو تلوتيه لوجدتيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، وإن مما أتانا به رسول الله ﷺ أنه قال: «لعن الله الواشمة والمستوشمة».

وذُكر أن الشافعي كان جالساً في المسجد الحرام فقال: لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى، فقال رجل: ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور، فقال: لا شيء عليه، فقال: أين هذا من كتاب الله، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»، وقال عمر رضي الله عنه للمحرم الذي قتل الزنبور: لا شيء عليك.

وروي أن أبا العسيف قال للنبي ﷺ: اقضِ بيننا بكتاب الله، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأقضين بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة. وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي ﷺ هو عين كتاب الله؛ لأنه ليس في نص الكتاب ذكر الجلد والتغريب. ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء مدة الدنيا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: إلى موقف حسابهم يجمعون؛ أي: يبعث الخلائق والأمم المذكورة من الإنس والدواب والطيور، ويساقون إلى موقف حسابهم حالة كونهم محشورين ومجموعين في صعيد واحد للمجازاة، وفيه

---

(١) المراح.

دلالة على أن البهائم تحشر كما يحشر بنو آدم. وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء منهم: أبو ذر، وأبو هريرة، والحسن وغيرهم، وذهب ابن عباس إلى أن حشرها: موتها، وبه قال الضحاك. والأول أرجح لهذه الآية، ولما صح في السنة المطهرة من أنه «يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال بعضهم: إن الله سبحانه وتعالى بعد توفير القصاص عليها يجعلها تراباً، وعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً، كما رواه الحاكم عن أبي هريرة وصححه.

وقرأ[1] ابن أبي عبلة ﴿ولا طائرٌ﴾ بالرفع عطفاً على موضع ﴿دَآبَّةٍ﴾، وقرأ الأعرج وعلقمة: ﴿ما فرَطنا﴾ بتخفيف الراء، والمعنى واحد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: والكافرون الذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على وحدانيتنا وصدق ما جاء به رسولنا تكذيب جحودٍ واستكبارٍ، أو تكذيب جحود على تقليد الأباء ﴿صُمٌّ﴾ آذانهم، لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع قبول ﴿بكم﴾؛ أي: خرس ألسنتهم، لا ينطقون بما عرفوا من الحق تائهون ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: في ظلمات الكفر والجهل والحيرة، لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم، وهم يتخبطون في تلك الظلمات الحالكة: ظلمة الوثنية، وظلمة تقليد الجاهلية، وظلمة الجهل والأمية. والمعنى: هم كائنون في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات، وضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار؛ لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال.

ثم بين سبحانه وتعالى أن الأمر بيده، ما شاء يفعل، فقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: من تعلقت مشيئته تعالى بإضلاله ﴿يُضْلِلْهُ﴾ عن طريق الهدى، كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، وإضلاله إياهم جاء على مقتضى سننه في البشر أن يُعرِض المستكبر عن دعوة من يراه دونه ـ وإن ظهر له أنه الحق ـ وأن يعرض المقلد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان

(١) البحر المحيط.

بطلانها وإثبات خلافها ما دام مغروراً بها مكبراً لمن جرى من الإباء عليها، والمعنى: ومن يشاء الله إضلاله.. يخلق الله الضلال فيه ويمته على الكفر، فيضل يوم القيامة عن طريق الجنة، وعن وجدان الثواب. ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريق الحق الذي لا يضل سالكه؛ بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله استعمالاً يعرف به الحق، ويعرف به الخير، ويعمل به بحسب سننه تعالى في الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد النفسية. والمعنى: ومن يشأ أن يجعله على طريق يرضاه وهو الإسلام.. يجعله عليه، ويهده إليه، ويمته عليه، فلا يضل من مشى إليه، ولا يزل من ثبت قدمه عليه، والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ استفهام[1] تعجيب، والكاف حرف خطاب أكد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب. وقال الكرماني[2]: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ كلمة استفهام وتعجب، وليس لها نظير؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين العادلين بالله الأوثان والأصنام على سبيل التخويف والتوبيخ: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا كالذي نزل بمن قبلكم من الأمم الذين كذبوا بالرسل، فقد هلك بعضهم بريح عاتية، وبعض آخر بالصاعقة، أو بمياه الطوفان المغرقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ﴾ وجاءتكم ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ والقيامة بأهوالها وخزيها ونكالها، وبعثتم لموقف الحساب ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في هذه الأحوال ﴿تَدْعُونَ﴾ وتستغيثون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أم إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم ألوهية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء، فأخبروني: أغير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين؟.

والخلاصة: قل[3] يا أكرم الخلق لكفار مكة: يا أهل مكة، أخبروني إن أتاكم عذاب الله في الدنيا؛ كالغرق أو الخسف أو المسخ أو نحو ذلك، أو أتاكم العذاب عند قيام الساعة، أترجعون إلى غير الله في دفع ذلك البلاء، أو ترجعون

---

(١) البيضاوي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

فيه إلى الله تعالى إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة، فأجيبوا سؤالي؟ أو المعنى: إن كنتم قوماً صادقين.. فأخبروني أإلهاً غير الله تدعون إلخ.

ثم أجاب عن ذلك بقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تَدْعُونَ﴾ وتستغيثون ﴿فَيَكْشِفُ﴾ ويزيل ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾؛ أي: إنكم لا ترجعون في طلب دفع البلية إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم بمحض مشيئته ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: وتتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع. أي: ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأندادَ إن أتاكم عذاب الله، أو أتتكم الساعة بمستجيرين بشيء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد بكم الهول، بل تدعونه وحده، وبه تستغيثون، وإليه تفزعون دون كل شيء غيره، فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إنْ شاء ذلك؛ لأنه وحده القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء دون ما تدعونه إلهاً من صنم أو وثن؛ لأن الفزع إليه تعالى عند الشدائد مما ركز في فطرة البشر، تنبعث إليه بذاتها، كما تنبعث إلى الماء عند العطش، فلا يذهب به ما يتلقَّى بالتعليم الباطل من مسائل الدين، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم، كما يتوجهون إلى الله تعالى، ويحبونهم كحب الله، وما منشأ ذلك التقديس إلا اعتقاد القدرة على النفع والضر من غير طريق الأسباب المعروفة، لكنهم عند الشدائد وتراكم الأهوال والكروب ينسونهم، ويدعون الله وحده، ولهذا الحب والتعظيم ثلاث درجات:

١ ـ أعرقها في الجهل: أن يعتقد المرء في شيء من المخلوقات أنه إله ينفع ويضر بذاته، فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه.

٢ ـ المرتبة الوسطى: أن يعتقد أن الإله قد حل في بعض المخلوقات واتحد بها، كما تحل الروح في البدن وتدبره، فيكونان شيئاً واحداً.

٣ ـ أضعف درجاته: أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقربونهم

إليه زلفى، ويشفعون لهم عنده، فهو لأجلهم يعطي ويمنع، ويضر ينفع، وهذه هي الدرجة التي كان عليها مشركو قريش، فقد حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾. والتوحيد الخالص هو: الإيمان بأن الله يفعل ما يشاء، ويختار، وأن جميع الخلائق مسخرون لإرادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئاً إلا في دائرة الأسباب التي شرعها لعباده، وأن الوساطة بينه وبين عباده محصورة في تبليغ الرسول رسالته إليهم دون تصرفه فيهم، وأن شفاعة الآخرة لله وحده، يأذن بها إن شاء لمن شاء ممن ارتضى، يرشد إلى ذلك قوله تعالى لخاتم رسله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾.
وقد بيَّن اللّه سبحانه وتعالى أن تلك الوساطة الشركية تنسى عند اشتداد الكروب والأهوال فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم بين سبحانه وتعالى أن من سننه أخذ عباده بالشدائد لعلهم يرعوون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد بعثنا رسلاً إلى أمم كثيرة كائنة في زمان قبل زمانك، فدعوهم إلى توحيدنا وعبادتنا، فلم يستجيبوا لهم وخالفوهم. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أخذ ابتلاء واختبار، وعاقبناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾؛ أي: بشدة الفقر والخوف من بعضهم ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: بالأمراض والأوجاع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: لكي يدعوا الله تعالى في كشفها بالتذلل، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم؛ أي: ليكون ذلك مفيداً لهم لأن سنتنا قد جرت بأنهم في مثل هذه الحال يتضرعون ويجأرون بالدعاء إلى ربهم، فالشدائد تربي النفوس وتهذب الأخلاق، فترجع المغرورين عن غرورهم، وتكف الفجار عن فجورهم، فأخلق بها أن ترجع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر، بل من دونهم من الأصنام والأوثان. ولكن كثيراً من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيرها بأس، ولا يحولها بؤس، فلا تجدي معهم

العبر والمواعظ، ولا تؤثر فيهم صروف الدهر وغيره، ومنهم أولئك الأمم الذين أرسل إليهم هؤلاء الأنبياء، ومن ثَمَّ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ إلى آخر ما سيأتي. وفي هذه الآية تسلية للرسول[1] ﷺ، وأن عادة الأمم مع رسلهم التكذيب والمبالغة في قسوة القلوب حتى هم إذا أخذوا بالبلايا.. لا يتذللون لله ولا يسألونه كشفها، وهؤلاء الأمم الذين بعث الله تعالى إليهم الرسل أبلغ انحرافاً، وأشد شكيمةً، وأجلد من الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، إذ خاطبهم تعالى بقوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الآية، وأخبر أنهم عند الأزمات لا يدعون لكشفها إلا الله تعالى.

وكلمة ﴿لولا﴾ في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وإزعاج؛ أي: فهلا تضرعوا وتذللوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءهم بأسنا وعذابنا؛ أي: حين جاءتهم مقدمات العذاب وبوادره، وحذروا عواقبه وأواخره لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم. ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: صلبت وصبرت على ملاقاة العذاب لما أراد اللّٰه من كفرهم وخذلانهم، فكانت كالحجارة أو أشد قسوة، فلم تؤثر فيهم النذر.

وعبارة «الفتوحات» هنا: قوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ استدراك وقع بين الضدين؛ أي: فلم يتضرعوا إليه تعالى برقة القلب والخضوع، ولكن ظهر منهم نقيضه، حيث قست قلوبهم؛ أي: استمرت على ما هي عليه من القساوة، أو ازدادت قساوة اهـ «أبو السعود». فهذا من أحسن مواقع الاستدراك اهـ شيخنا. انتهت.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي؛ أي: فلم يؤمنوا حين جاءهم بأسنا وعذابنا ووسوس إليهم بأن يثبتوا على ما كان عليه أباؤهم، ولا ينقادوا إلى رجال منهم ضعاف الأحلام، سفهاء العقول، لا ميزة لهم عليهم بعقل راجح ولا فكر ثاقب، وقال لهم: إن حال الدنيا هكذا تكون

---

(١) البحر المحيط.

شدة ثم نعمة، فلم يخطروا ببالهم أن ما أصابهم من الشدائد، ما أصابهم إلا لأجل عملهم الفاسد.

ثم ذكر ما حل بهم من الوبال والنكال بعد أن ابتلاهم بالحسنات، فقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: فلما[1] أعرضوا عما أنذرهم به رسلهم، وتركوا الاهتداء به، وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم، وأصروا على كفرهم وعنادهم، وجمدوا على تقليد من قبلهم.. بلوناهم بالحسنات، و﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: بسطنا عليهم أنواع الرزق، ورخاء العيش وصحة الأجسام، والأمن على الأنفس والأرواح استدراجاً لهم، فلم تربِّهم تلك النعم، ولا شكروا الله على ما أنعم، بل أفادتهم النعمة بطراً وكبراً، كما أفادتهم الشدائد عتواً وقسوة.

والمعنى[2]: فلما تركوا الاتعاظ والازدجار بما ذكروا به من البأس.. استدرجناهم بتيسير مطالبهم الدنيوية وعبر عن ذلك بقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ إذ يقتضي شمول الخيرات وبلوغ الطلبات.

والخلاصة[3]: أنه تعالى سلط عليهم المكاره والشدائد ليعتبروا ويتعظوا، فلما لم تجد معهم شيئاً.. نقلهم إلى حال هي ضدها، ففتح عليهم أبواب الخيرات، وسهل لهم سبل الرزق والرخاء، فلم ينتفعوا أيضاً. وما مثل هذا إلا مثل الأب المشفق على ولده، يخاشنه تارة ويلاينه أخرى طلباً لصلاحه واستقامة حاله، وارجاعاً له عن غيه وطغيانه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾؛ أي: حتى إذا اطمأنوا بما فتح لهم من الخيرات، وظنوا أن الذي أوتوا إنما هو باستحقاقهم، ولم يزدهم ذلك إلا بطراً وغروراً بأن ظنوا أن الذي نزل بهم من الشدائد ليس على سبيل الانتقام من الله ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: أنزلنا بهم عذابنا فجأة ليكون لهم أشد وقعاً وأكثر تحسراً؛ أي: أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كونهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غرة من

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من النجاة، متحزنون غاية الحزن، منقطع رجاؤهم من كل خير. وفي الآية إيماء إلى أن البأساء والضراء وما يقابلها من السراء والنعماء مما يتهذَّب به من وفقهم الله للهداية، وألهمهم الرشاد والاختبار أكبر شاهد على صدق هذه القضية، فالشدائد مصلحة للفساد، مهذِّبة للنفوس، والمؤمن أجدر الناس بالاستفادة من الحوادث.

روى مسلم عن صهيب مرفوعاً: «عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». وروى أحمد أن النبي ﷺ قال «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب.. فإنما هو استدراج» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: استؤصل آخر القوم الذين ظلموا أنفسهم بإهلاكهم بالكلية حتى لم يبق منه أحد؛ أي: فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والإصرار على الشرك، وأعمالهم الخبيثة بالكلية أصلاً وفرعاً بسبب ظلمهم بإقامة المعاصي مقام الطاعات. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: والثناء الكامل، والشكر التام للّه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر، وتحقيق ما وعدهم به من إهلاك المشركين وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة، نعمةٌ جليلة مستحقة للحمد. قال الصاوي: هذا حمد من الله لنفسه على هلاك الكفار ونصر الرسل، وفيه تعليم المؤمنين أنهم يشكرون الله على ذلك إذ هو نعمة عظيمة انتهى.

والخلاصة: أن في الضراء والسراء للمتقين عبرة ونعمة ظاهرة أو باطنة.

وقرأ[1] ابن عامر: ﴿فتّحنا﴾ بتشديد التاء والتشديد لتكثير الفعل. وقرأ عكرمة: ﴿فقَطع دابر﴾ بفتح القاف والطاء والراء؛ أي: فقطع الله، وهو التفات إذ

---

(١) البحر المحيط.

فيه الخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب. وفي هذه الجملة إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين بتذكيرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وقطع دابر الظالمين المفسدين، وإيماء إلى وجوب ذكره في عاقبة كل أمر وخاتمة كل عمل، كما قال تعالى في وصف عباده المتقين: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾؛ أي: أخبروني إن أزال اللّه سمعكم وأبصاركم، فأصمكم وأعماكم، وطبع على قلوبكم، وأزال عقولكم حتى لا تعرفوا شيئاً، يعني: أذهب عنكم هذه الأعضاء أصلاً ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ﴾؛ أي: أيُّ فرد من الآلهة الثابتة بزعمكم ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾؛ أي: بما أخذ عنكم من هذه الأعضاء ويردها لكم، والاستفهام فيه إنكاري؛ أي: ليس لكم إلٰه يردها لكم، وإنما أفرد السمع وجمع ما بعده؛ لأن السمع مصدر لا يثنى ولا يجمع، بخلاف ما بعده. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت به من التوحيد والهدى: أخبروني ماذا يكون من أمركم مع آلهتكم الذين تدعونهم مع الله، وترجون شفاعتهم إن أصمكم الله تعالى، فذهب بسمعكم وأعماكم، فذهب بأبصاركم وختم على قلوبكم، وطبع عليها فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضراً، ولا تدركون حقاً ولا باطلاً؟ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ بما ذكر مما أخذه الله منكم؛ أي: لا إلٰه غيره يقدر على إتيانكم بما سلب، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد والأولياء آلهة لقدروا على ذلك، وإذا كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون، فلماذا تدعونهم؟ وما الدعاء إلا عبادة، والعبادة لا تكون إلا للإله القادر. ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ونكرر عليهم ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالة على وحدانيتنا، ونتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ونجعلها على وجوه شتى متغيرة من نوع إلى نوع آخر، فتارة بترتيب المقدمات العقلية، وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ليعتبروا ويتذكروا، فينيبوا ويرجعوا إلى ربهم، فكل واحد يقوي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب ﴿ثُمَّ هُمْ﴾؛ أي: كفار مكة بعد تصريف الآيات

وتكريرها عليهم ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ ويعرضون عن تلك الآيات، ويتجنبون عن التأمل والتفكر فيها، ويلقونها وراء ظهورهم، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد إعراضهم عنها بعد ذكرها على الوجوه المختلفة، والغرض من هذه الجملة: تعجيب رسول الله ﷺ من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة.

وروى أبو قرة إسحاق بن محمد المسيبي عن نافع[1]: ﴿به انظر﴾ بضم الهاء، وهي قراءة الأعرج. وقرأ الجمهور بكسر هاء ﴿بِهِۗ﴾ في ﴿بِهِ ٱنظُرۡ﴾. وقرأ بعض القراء: ﴿كيف نصرف﴾ من صرف الثلاثي.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾؛ أي: أخبروني يا أهل مكة عن شأنكم ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ﴾ وجاءكم ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ الذي مضت سنة الله في الأولين بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين ﴿بَغۡتَةً﴾ وفجأة؛ أي: مباغتاً ومفاجئاً لكم، فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمارات تشعركم بقرب نزوله بكم ﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾؛ أي: أو أتاكم مجاهراً ومعايناً لكم وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه بحيث ترون مبادئه ومقدماته بأبصاركم ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ﴾ حينئذ ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: هل يهلك الله به إلا القوم الظالمين منكم، الذين أصروا على الشرك والعناد والجحود، إذ قد مضت سنته تعالى في مثل هذا العذاب أن ينجي منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين. والاستفهام هنا إنكاري.

والخلاصة: أنه لا يهلك بهذا العذاب غيركم لظلمكم أنفسكم وجنايتكم عليها بما اخترتم لها من الشرك والفجور، وعبادة من لا يستحق العبادة، وترك عبادة من هو بها حقيق وجدير. فإن قلت: إن المصيبة إذا وقعت تعم الصالح والطالح، فلِمَ خص الكافر هنا بالهلاك؟

قلتُ: الجواب: إن هلاك الكفار سخط وغضب، وهلاك المؤمن إثابة ورفع درجات، فلا يسمى في الحقيقة هلاكاً.

وقرأ ابن محيصن[2]: ﴿هل يهلك﴾ مبنياً للفاعل.

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.
(٢) البحر المحيط.

ثم بين وظيفة الرسل، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا﴾ حالة كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من آمن بهم بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من كفر بالعذاب، ولا قدرة لهم على إظهار المعجزات، بل ذلك مفوض إلى مشيئة الله تعالى؛ أي: وما نرسل المرسلين إلا ببشارة أهل الطاعة بالفوز بالجنة جزاء وفاقاً على طاعتهم، وبإنذار من أصر على الشرك والإفساد في الأرض بالعذاب؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حييَّ عن بينة. ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ وصدق من أرسلناه إليه من رسلنا ﴿وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: أصلح اعتقاده وعمله بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الدنيا الذي ينزل بالمكذبين الجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده الله تعالى للكافرين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحفظهم من كل فزع وهول، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾، وكذلك هم لا يحزنون في الدنيا كحزن المشركين في شدته وطول مدته، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح؛ لموت ولد أو قريب، أو فقد مال أو قلة نصير، يكون حزنهم مقروناً بالصبر وحسن الأسوة، فلا يضرهم في أنفسهم ولا في أبدانهم، ولا يغير شيئاً من أخلاقهم وعاداتهم، فالإيمان يعصمهم من عنت البأساء وبطر النعماء، مسترشدين بنحو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي أرسلنا بها رسلنا، ويبلغونها إلى الأمم ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: يصيبهم العذاب في الدنيا أحياناً عند الجحود والعناد، وفي الآخرة على سبيل الدوام والاطراد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعتنا جزاء كفرهم وإفسادهم وخروجهم عن أمر اللّه وطاعته، وارتكابهم مناهيه ومحارمه، وهذه الجملة مقابل لقوله: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ فكأنه قال: ومن لم يؤمن يمسهم العذاب.

وقرأ علقمة[1]: ﴿نمسهم العذاب﴾ بالنون المضمومة من أمس الرباعي، وأدغم الأعمش: ﴿العذاب بما﴾ كأبي عمرو. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش: ﴿يفسقون﴾ بكسر السين.

الإعراب

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَسْمَعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَالْمَوْتَى﴾: مبتدأ ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُرْجَعُونَ﴾. ﴿يُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ على كونها خبر المبتدأ. وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب تركتها خوف الإطالة.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ الواو: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض. ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿آيَةٌ﴾: نائب فاعل. ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لـ﴿آيَةٌ﴾، أو متعلق بـ﴿نُزِّلَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب.

(١) البحر المحيط.

﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿قَادِرٌ﴾: خبرها، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر. ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على تنزيله آية، الجار والمجرور متعلق بـ﴿قَادِرٌ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: استئنافية. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: اسمها ومضاف إليه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ مستأنفة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿دَآبَّةٍ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة دخول ﴿مِن﴾ الاستغراقية عليه، أو وصفه بما بعده. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿دَآبَّةٍ﴾. ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾: معطوف على ﴿دَآبَّةٍ﴾ تابع للفظه، وقرىء بالرفع تبعاً لمحله. ﴿يَطِيرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿طَٰٓئِرٍ﴾، والجملة صلة له. ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَطِيرُ﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أُمَمٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿أَمْثَالُكُم﴾: صفة لـ﴿أمم﴾، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿فَرَّطْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَّطْنَا﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿فَرَّطْنَا﴾ على تضمينه معنى ما أغفلنا، وما تركنا في الكتاب شيئاً يحتاج إليه من دلائل الإلهية؛ لأن فرطنا لا يتعدى إلا بواسطة حرف الجر إذا كان على معناه الأصلي، كما ذكره أبو حيان في «البحر». ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾. ﴿يُحْشَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق

بـ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿صُمٌّ﴾: خبر المبتدأ. ﴿وَبُكْمٌ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ثانٍ للمبتدأ تقديره: ضالون في الظلمات، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم كائنون في الظلمات. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَشَإِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: إضلاله. ﴿يُضْلِلْهُۚ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: هدايته. ﴿يَجْعَلْهُ﴾: فعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة لـ﴿صِرَٰطٍ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي. ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، وحد الفعل رأى، والتاء ضمير المخاطبين في محل الرفع فاعل مبني على الفتح، والكاف: حرف دال على خطاب الجماعة مبني على الضم، والميم علامة الجمع، والمفعول[1]

(١) الفتوحات.

الأول لـ﴿رأيت﴾، والجملة الاستفهامية التي سدت مسد المفعول الثاني لها محذوفان، والتقدير: أرأيتكم عبادتكم الأصنام، هل تنفعكم؟ أو: اتخاذكم غير الله إلٰهاً هل يكشف ضركم؟ ونحو ذلك، فعبادتكم أو اتخاذكم مفعول أول، والجملة الاستفهامية سادة مسد الثاني، والمعنى: أخبروني عن حال عبادتكم الأصنام، هل تنفعكم إن أتاكم عذاب الله أم لا؟ وجملة ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية معطوف على ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، وجواب الشرط محذوف دل عليه الاستفهام في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾، والتقدير: إن أتاكم عذاب اللّه أو أتتكم الساعة.. دعوتم الله تعالى لا غيره، والجملة الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿غَيْرِ ٱللَّهِ﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَدْعُونَ﴾. ولفظ الجلالة مضاف إليه. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل لهم: لا تدعون غير الله حينئذ. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر كان، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم صادقين في أن غير الله ينفع.. فادعوه، والجملة الشرطية في محل النصب مقول القول.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي عن النفي الذي علم من الاستفهام. ﴿إِيَّاهُ﴾: ضمير نصب في محل النصب مفعول مقدم. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿فَيَكْشِفُ﴾: الفاء: حرف عطف وسبب. ﴿يكشف﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَدْعُونَ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يكشف﴾. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿شَآءَ﴾: فعل شرط في محل الجزم بـ﴿إن﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، وجواب الشرط

محذوف تقديره: إن شاء يكشف، والجملة الشرطية في محل النصب مقول القول ﴿وَتَنسَوْنَ﴾: فعل وفاعل ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول. ﴿تُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تشركونه، وجملة ﴿تنسون﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لقد﴾ اللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لقسم محذوف تقديره: وأقسم والله لقد أرسلنا، وجملة القسم المحذوف مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَآ﴾. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿أُمَمٍ﴾. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أخذناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ على كونها جواب القسم. ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أخذنا﴾. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: معطوف على ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعل: حرف ترج ونصب، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ خبر لعل، وجملة لعل مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف تحضيض. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول. ﴿بَأْسُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾ فصل به بين حرف التحضيض وما دخل عليه، وهو جائز. ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، والتقدير: فلولا تضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾. ﴿وَزَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَسَتْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول

به لـ﴿زين﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانُواْ﴾، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿نَسُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به. ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، وجملة ﴿نَسُواْ﴾ فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿فَتَحْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿فَتَحْنَا﴾ جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة، وحرف غاية؛ لكون ما بعدها غاية لما قبلها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمَّن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَرِحُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿إذا﴾ في محل الخفض بها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أُوتُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أوتوه. ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بَغْتَةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: أخذ بغتة، أو حال من الفاعل؛ أي: أخذناهم باغتين، أو من المفعول؛ أي: مبغوتين، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على كونها غاية لما قبلها، والتقدير: فتحنا عليهم أبواب كل شيء إلى أخذنا إياهم وقت فرحهم بما أوتوا. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: حرف فجأة. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ على كونها جواباً لـ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وقال أبو البقاء: ﴿إذا﴾ هنا

للمفاجأة، وهي ظرف مكان، وهي مبتدأ ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: خبره، وهو العامل في ﴿إذا﴾.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَقُطِعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قطع دابر﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْقَوْمِ﴾: مضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أخذنا﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾. ﴿ظَلَمُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والميم علامة جمع المخاطبين، والمفعول الأول محذوف تقديره: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذهما الله، والجملة الاستفهامية الآتية في موضع المفعول الثاني، والجملة الفعلية، في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ولم يؤتَ[1] هنا بكاف الخطاب وأتى به هناك؛ لأن التهديد هناك أعظم، فناسب التأكيد بالإتيان بكاف الخطاب، ولما لم يؤت بالكاف.. وجب ثبوت علامة الجمع في التاء؛ لئلا يلتبس، ولو جيء معها بالكاف لاستغني بها. ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾: حرف شرط وفعل وفاعل ومفعول. ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾: معطوف على ﴿سَمْعَكُمْ﴾. ﴿وَخَتَمَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم معطوف على ﴿أَخَذَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾: متعلق به، وجواب الشرط محذوف تقديره: أغير الله يأتيكم به، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مَّنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره. ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفة أولى لـ﴿إِلَٰهٌ﴾. ﴿يَأْتِيكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِلَٰهٌ﴾،

---

(١) الجمل.

والجملة صفة ثانية لـ﴿إِلَٰهٌ﴾. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يأتي﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب واقعة موضع المفعول الثاني لرأيت، كما مرَّ. ﴿ٱنظُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال، والعامل فيه ﴿نُصَرِّفُ﴾ أو منصوب على التشبيه بالظرف، وهي معلقة لـ﴿ٱنظُرْ﴾ فهي في محل نصب بإسقاط حرف الجر. ﴿نُصَرِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿نُصَرِّفُ﴾ في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرْ﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَصْدِفُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نُصَرِّفُ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي. ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، والكاف: حرف خطاب، والميم: علامة الجمع، والمفعول الأول لها محذوف تقديره: أخبروني حالكم وشأنكم إن أتاكم عذاب الله، والمفعول الثاني جملة الاستفهام الآتية، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَتَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾. ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾: حالان من ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مباغتاً أو مجاهراً، أو منصوبان على المفعولية المطلقة، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن أتاكم عذاب الله ما يهلك إلا القوم الظالمون، وجملة الشرط في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿يُهْلَكُ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: فاعل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: صفته، وجملة الاستفهام في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿نُرۡسِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: حال من ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾: معطوف عليه ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ثمرة إرسال المرسلين، وأردت بيان حال من آمن بهم أو كفر. . فأقول لك: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ﴾: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: في محل الجزم معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَلَا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوۡفٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا خوف كائناً عليهم، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحۡزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر

مجرور بالباء تقديره: بسبب فسقهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يمسهم﴾. وعبارة «الجمل» هنا: قوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ يجوز في ﴿من﴾ أن تكون شرطية، وأن تكون موصولة، وعلى كلا التقديرين فمحلها رفع بالابتداء، والخبر: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، فإن كانت شرطية.. فالفاء في جواب الشرط، وإن كانت موصولة.. فالفاء زائدة لشبه الموصول بالشرط، وعلى الأول يكون محل الجملتين الجزم، وعلى الثاني لا محل للأولى؛ لأنها صلة الموصول، ومحل الثانية الرفع على الخبرية، وحمل على اللفظ فأفرد في: ﴿ءَامَنَ﴾، وعلى المعنى فجمع في: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ويقوي كونها موصولة مقابلتها بالموصول بعدها في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ اهـ «سمين» انتهت.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يستجيب من استجاب، من باب استفعل، فالسين والتاء فيه زائدتان ليستا للطلب، فهو بمعنى: يجيب، يقال: أجاب[1] الدعوة إذا أتى ما دعى إليه من قول أو عمل، وأجاب الداعي، واستجاب له واستجاب دعاءه إذا لباه، وقام بما دعاه إليه. والقرآن الكريم استعمل أفعال الإجابة في المواضع التي تدل على حصول المسؤول كله بالفعل دفعة واحدة، واستعمل أفعال الاستجابة في المواضع المفيدة لحصول المسؤول بالتهيؤ والاستعداد، كقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ إذ الآية نزلت في وقعة حمراء الأسد بعد وقعة أحد، فالمراد: أنهم تهيؤوا للقتال، أو الأفعال المفيدة للدلالة على حدوث الفعل بالتدريج، كاستجابة دعوة الدين التي تبدأ بالنطق بالشهادتين، ثم بباقي أعماله بالتدريج. والاستجابة من الله يعبَّر بها في الأمور التي تقع في المستقبل، ويكون من شأنها أن تقع بالتدريج، كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار بالمغفرة، وتكفير السيئات، وإيتاء ما وعد المؤمنين في الآخرة كما قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ

---

(١) المراغي.

مِّنكُمْ﴾ الآية.

والسمع والسماع يطلق على إدراك الصوت، وعلى فهم ما يسمع من الكلام ـ وهو ثمرة السمع ـ وعلى قَبول ما يفهم والعمل به، وهذا ثمرة الثمرة. والموتى: جمع ميت كقتيل جمع قتلى، والمراد بالموتى هنا: الكفار الراسخون في الكفر، المطبوع على قلوبهم، الميؤوس من سماعهم سماع تدبر تتبعه الاستجابة للداعي.

﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ من بعث يبعث من باب فتح، والبعث لغة: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثت البعير؛ أي: أثرته من مبركه وسيرته إلى المرعى ونحوه.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لولا: كلمة تحضيض تفيد الحث على حصول ما بعدها؛ لأن التحضيض معناه الطلب بحث وإزعاج، والآية المعجزة المخالفة لسنن الله في خلقه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ والدابة: كل ما يدب على الأرض من الحيوان، مأخوذة من دب يدب بالكسر ـ من باب ضرب ـ دباً ودبيباً إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو، والدبيب: المشي الخفيف، وكل ماشٍ على الأرض دابة، وقولهم: أكذب من دب ودرج؛ أي: أكذب الأحياء والأموات. والطائر: كل ذي جناح يسبح في الهواء، وجمعه: طير، كراكبٍ وركب.

والجناح[1]: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله: الميل إلى ناحية من النواحي، وإنما قيد بجناحيه لدفع الإيهام؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير، كقولهم: طر في حاجتي؛ أي: أسرع فيها، وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ومع عدم الاعتدال يميل، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين. وقيل: ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده، وأبصر بعينه، ونحو ذلك. والأمم: جمع أمة، وهي كل

(١) الشوكاني.

جماعة يجمعهم أمر واحد، كدين واحد أو زمان واحد، أو مكان واحد، أو صفات وأفعال واحدة أمثالكم جمع مثل، كأحمال وحمل، والمثل بمعنى: المثيل؛ أي: الشبيه.

﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ فرط من باب فعَّل المضعف، والتفريط في الأمر: التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت يقال: فرطه وفرط فيه إذا ضيعه وقصر فيه.

﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكتاب هنا: هو اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن. والحشر: هو الجمع والسوق.

﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ جمع: أصم وأبكم، كغر وأغر، وحمر وأحمر.

﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: هو عبارة عن العمى، كما في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾، والمراد[1] به: بيان كمال عراقتهم في الجهل بسوء الحال، فإن الأصم الأبكم إذا كان بصيراً ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره، وإن لم يفهمه بعبارته، وكذا ربما يفهم ما في ضميره بإشارته وإن كان عاجزاً عن العبارة، وأما إذا كان مع ذلك أعمى، أو كان في الظلمات، فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية. اهـ «أبو السعود».

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ بمعنى: أخبروني، وهو أسلوب يذكر للتعجيب والتنبيه إلى أن ما يذكر بعده غريب عجيب، تقوم به الحجة على المخالف. ﴿فَيَكْشِفُ﴾؛ أي: فيزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء، من كشف الشيء عن الشيء يكشف ـ من باب ضرب ـ إذا أزاله عنه ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾؛ أي: عاقبناهم بالبأساء والضراء. وفي «المصباح»: يقال: أخذه الله إذا أهلكه وأخذه بذنبه: عاقبه عليه، وآخذه بالمد كذلك انتهى.

﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ صيغتا تأنيث لا مذكر لهما على أفعل، كأحمر وحمراء، كما هو القياس، فإنه لا يقال: أضرر ولا: أبأس صفةً، بل للتفضيل. والبأساء: تطلق على الحرب والمشقة، والبأس: الشدة في الحرب، والعذاب الشديد،

---

(١) الجمل.

والقوة والشجاعة، والضراء: من الضر ضد النفع. ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ من باب تفعل الخماسي يقال: تضرع إليه إذا أظهر الضراعة والخضوع له بتكلف، والتضرع تفعل من الضراعة، وهي الذلة والهيئة المنبئة عن الانقياد إلى الطاعة، يقال: ضرع يضرع ضراعة من باب فتح، فهو ضارع وضرع، قال الشاعر:

لِيُبْكَ يَزِيْدُ ضَارِعٌ لِخُصُوْمَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيْحُ آلطَّوَائِحُ

أي: ذليل ضعيف، وللسهولة والتذلل المفهومة من هذه المادة اشتقوا منها للثدي اسماً، فقالوا له: ضرع.

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: صلبت وغلظت عن قبول الحق من القسوة؛ لأنه من قسا يقسو من باب دعا يدعو، فهو ناقص واوي أصله: قسوت، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف، فصار: قست بوزن فَعَت ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ والأخذ بالبأساء والضراء: إنزالهما بهم فجأة. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ جمع: مبلس، وهو اليائس المنقطع رجاؤه من الإبلاس، وهو الحزن الحاصل من شدة اليأس، ومنه اشتق إبليس، لشدة يأسه من رحمة الله.

وفي «المختار»: أبلس من رحمة الله؛ أي: يئس، والإبلاس أيضاً الانكسار والحزن، يقال: أبلس فلان إذا سكت غماً. اهـ. فمبلسون بمعنى: متحسرون يائسون من النجاة.

﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: آخرهم الذي يكون في أدبارهم، وقطع دابرهم؛ أي: هلكوا واستئصلوا بالعقاب، ولم يبق منهم أحد. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقال: صرف الشيء إذا كرره على وجوه مختلفة، ومنه تصريف الرياح ﴿يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: يعرضون عن ذلك، يقال: صدف عن الشيء إذا أعرض عنه صدفاً وصدوفاً، وصادفته: لقيته عن إعراض عن جهته. وفي «المختار»: صدف عنه: أعرض عنه، وبابه: ضرب وجلس، وأصدفه عن كذا: إذا أماله عنه. اهـ.

﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ والمراد[1] بالبغتة: العذاب الذي يأتيهم فجأة من غير سبق علامة، والمراد بالجهر: العذاب الذي يأتيهم مع سبق علامة تدل عليه.
﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: بلحوق العذاب.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: بفوات الثواب.

﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ والمس: اللمس باليد، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوء غالباً، من ضر وشر وكبر ونصب وعذاب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنه شبه الكفار بالموتى بجامع عدم العقل في كلٍ، واستعير اسم المشبه به وهو الموتى للمشبه وهو الكفار، على طريقة الاستعارة التصريحية.

وقال أبو حيان[2]: وتشبيه الكافر بالميت من حيث إن الميت جسده خالٍ من الروح، فيظهر منه النتن والصديد والقيح وأنواع العفونات، وأصلح أحواله دفنه تحت التراب، والكافر روحه خالية عن العقل، فيظهر منه جهله بالله تعالى ومخالفته لأمره، وعدم قبوله لمعجزات الرسل، وإذا كانت روحه خالية من العقل.. كان مجنوناً، فأحسن أحواله أن يقيد؛ أي: يحبس، فالعقل بالنسبة إلى الروح، كالروح بالنسبة إلى الجسد. انتهى.

ومنها: التجريد في قوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾؛ لأن الطائر يندرج في الدابة. فذكر[3] الطائر بعد ذكر الدابة تخصيص بعد تعميم، وذكر بعض من كل، فصار من باب التجريد.

ومنها: التأكيد بقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لدفع توهم المجاز في طائر مع كون

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

جناحيه ترشيحاً له؛ لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل، كما في قوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿صُمٌّۢ وَبُكْمٌ﴾؛ أي: كالصم البكم في عدم السماع وعدم الكلام، فحذفت منه الأداة ووجه الشبه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنه شبه كفرهم وجهلهم وضلالتهم بالظلمات الحسية، بجامع عدم الاهتداء في كل إلى المقصود، وفي قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ لأنه شبه الأسباب التي هيأها الله لهم، المقتضية لبسط الرزق عليهم بالأبواب، بجامع الوصول إلى المقصود في كل على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ لتهويل ما فتح عليهم وتعظيمه.

ومنها: القصر في قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾؛ أي: لا تدعون غيره لكشف الضر، فهو قصر صفة على موصوف.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وفي قوله: ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ﴾؛ لأنه كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما[1] كان الكلام في الآيات السالفة في بيان أركان الدين، وأصول العقائد، وهي توحيد الله عز وجل، ووظيفة الرسل عليهم السلام، والجزاء على الأعمال يوم الحساب.. ذكر هنا وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه، وأزال أوهام الناس فيها، وأرشد إلى أمر الجزاء في الآخرة، وكون الأمر فيه لله تعالى وحده على وجه يزيد عقيدة التوحيد تقريراً وتأكيداً وبياناً وتفصيلاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا ...﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته استمالةً لكبراء المتكبرين من قومه، وطمعاً في إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته، كما اقترحه بعض المشركين.. أمر بأن يلقى الذين يدخلون في الإسلام آناً بعد آنٍ عن بينة وبرهان بالتحية والسلام والتبشير برحمة الله ومغفرته، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين؛ إما كفر جحود وعناد، وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد، وكان يدخل في الإسلام الأفراد بعد الأفراد، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء، وكان النبي ﷺ يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أنه يفصِّل الآيات ليظهر الحق، وليستبين سبيل المجرمين.. ذكر هنا أنه نهى عن سلوك سبيلهم، وهو عبادة غير الله، وأن هذه العبادة إنما هي بمحض الهوى والتقليد، لا بسبيل الحجة والبرهان، فهي جمادات وأحجار ينحتونها بأيديهم، ويركِّبونها، ثم يعبدونها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾ سبب نزولها: ما[2] رواه ابن حبان والحاكم عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد نزلت هذه الآية في ستة: أنا، وعبد الله بن مسعود، وأربعة، قالوا لرسول الله ﷺ: اطردهم، فإنا نستحيي أن نكون تبعاً لك كهؤلاء، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا...﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ سبب نزولها: ما روى أحمد والطبراني وابن أبي حاتم عن ابن مسعود

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

قال: مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده خباب بن الأرت، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك، وهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ لو طردت هؤلاء.. تبعناك، فأنزل الله فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: جاء عنبسة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه هؤلاء العبيد.. كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، فكلم أبو طالب النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وكانوا بلالاً، وعمار بن ياسر، وسالماً مولى أبي حذيفة، وصالحاً مولى أسيد، وابن مسعود، والمقداد بن عبد الله، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وأشباههم، فأقبل عمر، فاعتذر من مقالته، فنزل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن خباب قال: جاء الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، فقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك.. فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا.. فاقعد معهم إن شئت، قال: «نعم»، فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾ الآية، ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فنزلت: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية. قال ابن كثير: هذا حديث غريب، فإن الآية مكية، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر.

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ماهان قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ، فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً، فما رد عليهم شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ

﴿يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُل﴾ يا أيها الرسول الذي بعث، كما بعث غيره من الرسل مبشراً من أجاب دعوته بحسن الثواب، ومنذراً من لم يقبلها بسوء العقاب لهؤلاء المكذبين لك بغير علم، يميزون به بين شؤون الألوهية وحقيقة النبوة، فيقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أنه ليس في مقدور البشر، فهم إما أن يقولوه تعجيزاً، وإما أن يظنوا أن الإنسان لا يكون رسولاً إلا إذا خرج من حقيقة البشرية، وصار قادراً على ما لا يقدر عليه البشر، وعالماً بكل ما يعجز عنه علم البشر. ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ أيها المشركون من أهل مكة ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مفاتيح الأمكنة التي يحفظ فيها أرزاق الله، أتصرف في ما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، فكل هذا لله وحده، يتصرف فيه بما يشاء، فيعطي لعباده من خزائنه بحسب ما أوتي كل منهم من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات، ولا يقدر أحد أن يتجاوز ذلك إلى ما لم يؤته، ولم يصل إليه استعداده، والمعنى: ليس عندي خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون؛ لأنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً من الله تعالى، فاطلب لنا منه أن يوسع عيشنا، ويغني فقرنا، فأخبر أن ذلك بيد الله تعالى لا بيدي.

فالتصرف المطلق إنما هو لله القادر على كل شيء، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلغ عنه أمر الدين قادراً على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب، فضلاً عن التصرف بغير سبب مما طلبه المشركون منه، وجعلوه شرطاً للإيمان به، كتفجير الينابيع والأنهار في أرض مكة، وإيجاد الجنات والبساتين فيها، وإسقاط السماء عليهم كسفاً، والإتيان بالله والملائكة قبيلاً. ﴿وَلَآ﴾ أقول لكم: إني ﴿أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل، وذلك أنهم قالوا له: أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار، فأجابهم بقوله: ﴿ولا أعلم الغيب﴾ فأخبركم بما تريدون.

فصل في بحث الغيب

والغيب[1] ما غيب علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به، وهو قسمان:

١ ـ غيب حقيقي، وهو ما غاب عن جميع الخلق حتى الملائكة، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ غيب إضافي، وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره لا يعلمه البشر.

أمّا ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها، فليس بداخل في عموم الغيب الوارد في كتاب الله، وهذه الأسباب ضروب:

١ ـ ما هو علمي كالدلائل العقلية والعلمية، فعلماء الرياضة يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بألوف الأعوام.

٢ ـ ما هو عملي كالبرق الأثيري [التلغراف اللاسلكي] الذي يعلم به المرء ما يقع في أقاصي البلاد من وراء البحار، وبينه وبينها ألوف الأميال.

٣ ـ ما هو إدراكات نفسية خفية تصل إلى مرتبة العلم، كالفراسة والإلهام، وأكثر هذا النوع هواجس تلوح للنفس، ولا يجزم بها الإنسان إلا بعد وقوعها.

فإن قلت[2]: إن الله تعالى أثبت علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام، كقوله في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، فكيف أمره هنا أن يتنصل من ادعاء علم الغيب؟

قلتُ: إن إظهار شيء خاص من عالم الغيب على يدي الرسل، لا يجعل ذلك داخلاً في علومهم الكسبية، فإن الوحي ضرب من العلم الضروري، يجده النبي في نفسه حينما يظهره الله عليه، فإذا حبس عنه.. لم يكن له قدرة ولا وسيلة

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

كسبية للوصول إليه. يؤيد ذلك ما جاء في فترات الوحي في السيرة النبوية، وقد يكون توجّه قلب الرسول إلى الله تعالى في بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحي في الحكم الذي طلب من ربه بيانه. يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾.

والخلاصة: أن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة، كذلك لم يعطوا التصرف في خزائن ملك الله تعالى، فلم يمكّنهم ما لم يمكّن من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم، ولا هو أعطاهم ذلك على سبيل الخصوصية.

ونفي ادعاء الرسول من الأمرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الألوهية، أو ادعاء شيء من صفات الإله القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، ويتضمن جهل المشركين حقيقةَ الألوهية وحقيقة الرسالة، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب، وطلبوا منه الإخبار بما يكون في الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفةً له كسائر الصفات، فقد سألوه عن وقت الساعة، وعن وقت نزول العذاب بهم، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم. وإذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك.. فأحر بمن دونهم منزلة عند الله تعالى من القديسين والأولياء المقربين أن لا يكون لهم ذلك، فادعاؤه لهم جهل عظيم وإثم كبير، ولا ينبغي التحدث به لا بين العامة ولا بين الخاصة، كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين سنن الله في الأكوان. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ﴾ أشاهد من أمر الله ما لا يشاهده البشر، وأقدر على ترك الأكل والشرب والنكاح، وذلك أنهم قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج النساء؟ ثم أمره أن يبيِّن وظيفة الرسول، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾؛ أي: ما اتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ﴾؛ أي: إلا وحي الله الذي يوحيه إليَّ، وتنزيله الذي ينزله عليَّ، فأمضي لوحيه وأعمل بأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة على صحة ما أقول، وليس ذلك بالمنكر في عقولكم، ولا بالمستحيل وجوده، فما وجه إنكاركم لذلك؟

ثم وبخهم على ضلالهم وعنادهم، فأمر رسوله أن يبيِّن لهم أن الضال

والمهتدي لا يستويان، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: هل يستوي أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم - الذي دعوتكم إليه - فلم يميز بين التوحيد والشرك، ولا بين صفات الله وصفات البشر، وذو البصيرة المهتدي إليه، المستقيم في سيره عليه بالحجة والبرهان، حتى صار ذلك في مرآة قلبه أوضح مما ترى العينان وتسمع الآذان؟.

والخلاصة: أنهما لا يستويان، كما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الهمزة فيه داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تسمعون الحق فلا تتفكرون فيما أذكر لكم من الحجج، وتتأملون فيه، فتعلموا صحة ما أقول لكم وأدعوكم إليه، وتميزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام، وتعقلوا ما في القرآن من ضروب الهداية والعرفان بذلك الأسلوب الرائع الذي لم تعهدوه من قبل، فهل يكون ذلك في مقدوري، وقد لبثت فيكم عمراً من قبل عاطلاً من هذه المعرفة، وتلك البلاغة الساحرة، وذلك البيان الخلاب؟ وبعد أن أمره بتبليغ الناس حقيقة رسالته أمره بإنذار من يخشون الحساب والجزاء، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾؛ أي: وخوف يا محمد بما يوحى إليك من القرآن وغيره المؤمنين بالله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ويخشون ﴿أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويرجعوا إليه للمحاسبة والمجازاة، ويخافون أهوال الحشر وشدة الحساب، وما يتبع ذلك من الجزاء على الأعمال عند القدوم على الله في ذلك اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ يوم لا ولي ينصر، ولا شفيع يدفع العذاب إن أريد النجاة منه، بل أمر ذلك متوقف على مرضاة الله تعالى.

قال[1] ابن عباس: المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾: المؤمنون؛ لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال، وقيل معنى: ﴿يَخَافُونَ﴾: يعلمون، والمراد

---

(١) الخازن.

بهم: كل معترف بالبعث من مسلم وكتابي، وإنما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم، وإن كان إنذاره ﷺ لجميع الخلائق؛ لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر. وقيل: المراد بهم: الكفار؛ لأنهم لا يعتقدون صحته، ولذلك قال: يخافون أن يحشروا إلى ربهم، وجملة قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من دون الله تعالى ﴿وَلِيٌّ﴾؛ أي: قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم، في محل النصب حال من ضمير ﴿يُحْشَرُوٓا۟﴾؛ أي[1]: أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولي لهم يواليهم، ولا ناصر يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم من دون الله تعالى، وفيه ردٌّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، وهم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، وهم المشركون.

ثم إن[2] فسرنا ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أن المراد بهم: الكفار، فلا إشكال عليه، لقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وإن فسرناهم بالمؤمنين.. ففيه إشكال؛ لأنه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد ﷺ للمذنبين من أمته، وكذلك تشفع الملائكة والأنبياء والمؤمنون بعضهم لبعض. والجواب عن هذا الإشكال أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، لقوله عز وجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وإذا كانت الشفاعة بإذن الله.. صح قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يعني: حتى يأذن الله لهم في الشفاعة، فإذا أذن فيها كان للمؤمنين ولي وشفيع.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: بإقلاعهم عما هم فيه، وعمل الطاعات متعلق بأنذر؛ أي: خوفهم لكي يتقوا المعاصي، ويكون لهم عوناً في الطاعة، فهؤلاء المؤمنون هم الذين يرجى أن يتقوا الله اهتداءً بهديك، وخوفاً من إنذارك، ويتحروا ما يؤدِّي إلى مرضاته ولا يصدهم عن ذلك إتكال على الأولياء، ولا اعتماد على الشفعاء علماً منهم أن الشفاعة لله جميعاً: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ كما أنهم يستيقنون أن نجاتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتزكيتهم

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

لأنفسهم، لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم، أو شفاعة الشافعين لهم، كما هو حال المشركين الذين جهلوا أن مدار السعادة في الدنيا والآخرة مرتبط بتزكية النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح، والأخلاق الكريمة، والأعمال الصالحة، لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها.

والآية بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

ثم نهى رسوله أن يطيع المترفين من كفار قريش في شأن المؤمنين المستضعفين، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾؛ أي: ولا تبعد يا محمد عن حضرتك هؤلاء المؤمنين الموحدين، ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾؛ أي: أول النهار وآخره، أو المراد: عامة الأوقات، إذ يقال: هو يفعل كذا صباحاً ومساء إذا كان مداوماً عليه، والدعاء إما العبادة مطلقاً، وقيل: المحافظة على صلاة الجماعة، وقيل: الذكر وقراءة القرآن، وقيل: المراد الدعاء لله بجلب النفع ودفع الضرر. والمعنى: ولا تطرد يا محمد الذين يعبدون ربهم بالصلوات الخمس، أو يذكرون ربهم طرفي النهار حالة كونهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: يقصدون بذلك محبة الله تعالى ورضاه؛ أي: مخلصين في ذلك، وقيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر.

وقال أبو حيان: معنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: يخلصون نياتهم له في عبادتهم، ويعبر عن ذات الشيء وحقيقته بالوجه انتهى. والمذهب الأسلم الذي عليه السلف: ترك الوجه على ظاهره بلا تأويل، لأن الوجه صفة ثابتة للّه تعالى نعتقدها ونثبتها لله تعالى بلا تكيف ولا تمثيل ولا تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾، وقرأ ابن عامر وأبو عبد الرحمٰن ومالك بن

---

(١) البحر المحيط.

دينار والحسن ونصر بن عاصم وأبو رجاء العطاردي: ﴿بالغدوة﴾. وروي عن أبي عبد الرحمٰن أيضاً: ﴿بالغدو﴾ بغير هاء. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿بالغدوات والعشيات﴾ بالألف فيهما على الجمع.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾؛ أي: من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب منك ذلك ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، بل حسابهم على أنفسهم، ما عليك منه شيء ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على هؤلاء الذين قصدت طردهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، بل حساب أعمالك على نفسك لا عليهم، فعلام تطردهم؟ كلام معترض بين النهي وجوابه الآتي بقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وهو من تمام الاعتراض؛ أي[1]: إذا كان الأمر كذلك.. فأقبل عليهم، وجالسهم، ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ للبيان، والثانية للتأكيد، وكذا في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

والمعنى[2]: أي ما عليك يا محمد شيء من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، كما أنه ليس عليهم شيء من أمر حسابك على أعمالك، حتى يكون هذا أو ذاك في طردك إياهم بإساءتهم في عملهم، أو في محاسبتك على عملك، فإن الطرد جزاء، والجزاء إنما يكون على سيىء الأعمال، ولا يثبت ذلك إلا بالحساب، والمؤمنون ليسوا بعبيد للرسل، ولا أعمالهم الدينية لهم، بل هي لله تعالى، يريدون بها وجهه لا وجوه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، والرسل هداة مرشدون لا أرباب مسيطرون: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية.. فأجدر بالناس أن لا يكون لهم هذا الحق على أنبيائهم. والظاهر أن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الضمائر كلها عائدة على ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ كما بينا في الحل، وقيل: الضمائر في ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾، وفي ﴿عَلَيۡهِم﴾ عائدة على المشركين. قال الزمخشري: والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك، ولا أنت بحسابهم حتى يهمَّك إيمانهم، ويحركك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين، ذكره أبو حيان.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب للنهي كما مرَّ أعني: قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: لا تطرد هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي.. فتكون بطردك إياهم في زمرة الظالمين؛ أي: من الذين يضعون الشيء في غير مواضعه معدوداً من جنسهم؛ لأن الطرد لا يكون حقاً إلا على الإساءة في الأعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى تجري فيه على صراط العدل، فإن عملهم هو عبادة الله وحده، فحسابهم وجزاؤهم عليه كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

والخلاصة[1]: أن هذه الآية الكريمة أفادت أربعة أشياء:

١ ـ أن الرسول لا يملك التصرف في الكون.

٢ ـ أنه لا يعلم الغيب.

٣ ـ أنه ليس بملك.

٤ ـ أنه لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم.

وعبارة «المراح» هنا: قوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية، معناه[2]: ما عليك من حساب رزق هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي شيء، فتملهم وتبعدهم، ولا من حساب رزقك عليهم شيء، وإنما الرازق لهم ولك هو الله تعالى، فدعهم يكونوا عندك، ولا تطردهم فتكون من الظالمين لنفسك بهذا الطرد، ولهم لأنهم استحقوا مزيد التقريب، وقيل: إن الكفار طعنوا في إيمان أولئك الفقراء، وقالوا: يا محمد إنهم إنما اجتمعوا عندك، وقبلوا

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

دينك؛ لأنهم يجدون عندك بهذا السبب مأكولاً وملبوساً، وإلا فهم فارغون عن دينك، فقال الله تعالى: إن كان الأمر كما يقولون.. فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر، وإن كان لهم باطن غير مرضي عند الله.. فحسابهم عليه لازم لهم لا يتعدى إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم.

فائدة: واحتج[1] الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية، فقالوا: إن النبي ﷺ لما همَّ بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف.. عاتبه الله تعالى على ذلك ونهاه عن طردهم، وذلك يقدح في العصمة لقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. والجواب عن هذا الاحتجاج أن يقال: إن النبي ﷺ ما طردهم ولا هم بطردهم لأجل الاستخفاف بهم، والاستنكاف من فقرهم، وإنما كان هذا الهم لمصلحة، وهي التلطف بهؤلاء الأشراف في إدخالهم في الإسلام، فكان ترجيح هذا الجانب أولى عنده، وهو اجتهاد منه، فأعلمه الله تعالى أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى من الهمِّ بطردهم، فقربهم وأدناهم منه. وأما قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه، فيكون المعنى: إن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب، فلاتهم بطردهم عنك، فتضع الشيء في غير موضعه، فهو من باب ترك الأفضل والأولى، لا من باب ترك الواجبات، والله أعلم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾؛ أي: ومثل ذلك الفتون المتقدم ﴿فَتَنَّا﴾؛ أي: ابتلينا ﴿بَعْضَهُم﴾؛ أي: بعض الناس؛ أي: الأغنياء الكفار ﴿بِبَعْضٍ﴾ منهم؛ أي: بالفقراء المسلمين؛ أي: ابتلينا الغني بالفقير، والفقير بالغني، والشريف بالوضيع، والوضيع بالشريف، فكل أحد مبتلى بضده، فأولئك الكفار الرؤساء والأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين إلى الإسلام مسارعين إلى قبوله، فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين، وأن نعترف لهم بالتبعية، فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك، واعترضوا على الله في جعل أولئك الفقراء رؤساء في الدين، وأما فقراء

---

(١) الخازن.

الصحابة.. فكانوا يرون أولئك الكفار في الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة، فكانوا يقولون: كيف حصلت هذه الأحوال لهؤلاء الكفار؟ وبالجملة فصفات الكمال مختلفة متفاوتة محبوبة لذاتها موزعة على الخلق، فلا تجتمع في إنسان واحد ألبتة، فكل أحد يحسد صاحبه على ما آتاه الله تعالى من صفات الكمال. ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾؛ أي: لتكون عاقبة أمرهم أن يقول المفتونون من الأقوياء والأغنياء والشرفاء في شأن الضعفاء والفقراء من المؤمنين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الصعاليك من العبيد والموالي والفقراء والمساكين ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: أنعم الله عليهم بهذه النعمة العظيمة التي هي نعمة الإسلام ومتابعة الرسول ﷺ وخصهم بها ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؛ أي: دوننا، أو من جملتنا، أو مجموعنا، ونحن الأكابر والرؤساء، وهم المساكين والضعفاء؟ والاستفهام فيه للإنكار بأن يخص الله تعالى هؤلاء الفقراء من بينهم بإصابة الحق، والسبق إلى الخير، فكأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة.

والخلاصة[1]: أن ذلك لن يكون لأنهم هم المفضلون عند الله تعالى بما آتاهم من غنى وثروة وجاه وقوة، فلو كان هذا الدين خيراً.. لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء كما أعطاهم من قبل الجاه والثروة. وقد حكى الله عنهم مثل هذا بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾. ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم مقالتهم الدالة على العتو والاستكبار بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمه - فيوفقهم ويهديهم - من الكافرين لها، فيخذلهم ويحرمهم منها حتى تستبعدوا إنعامه عليهم؛ أي: إن المستحق لمن الله وزيادة نعمه إنما هو من يقدِّرها قدرها، ويعرف حق المنعم بها، فيشكره عليها، لا من سبق الإنعام عليه فكفر وبطر وعتا واستكبر. والاستفهام في ﴿أَلَيۡسَ﴾ للتقرير؛ أي: إنه تعالى كذلك، وبهذا مضت سنة الله في عباده، ولولا هذا لكانت النعم خالدة لا تنزع ممن أوتيها - وإن كفر بها - وهل فتن أولئك الكبراء إلا بما حصل لهم من الغنى والقوة، فظنوا جهلاً منهم بسنة الله في أمثالهم أنه تعالى ما

---

(١) المراغي.

أعطاهم ذلك إلا تكريماً لذواتهم، وتفضيلاً لهم على غيرهم.

وفي[1] هذا الاستفهام التقريري إشارة إلى أن الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى في تنزيل القرآن، وفي التوفيق للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك، وتعريض بأن القائلين بتلك المقالة بمعزل من ذلك كله. وفي الآية إيماء إلى أن ما اغتروا به من النعم لن يدوم، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذي صبروا عليه، بل لا بد أن تنعكس الحال، فيُسلب الأقوياء ما أعطوا من قوة ومال، وتدول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين، فيكونوا هم الأئمة الوارثين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾.

وكذلك[2] فيها إشارة إلى أن تركهم للإيمان لم يكن إلا جحوداً ناشئاً عن الكبر والعلو في الأرض، لا عن حجة ولا عن شبهة، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ يا محمد القوم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: يصدقون بكتابنا وحججنا، ويقرون بذلك قولاً وعملاً سائلين عن ذنوبهم التي فرطت منهم، هل لهم منها توبة ﴿فـ﴾ـلا تؤيسهم منها و﴿قل سلام عليكم﴾؛ أي: أمان الله تعالى لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، وهؤلاء هم القوم الذين نهاه الله عن طردهم، وهم المستضعفون من المؤمنين.

ثم ذكر العلة في هذا، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ أي: قل لهم تبشيراً لهم بسعة رحمته تعالى، وبنيل المطالب: أوجب ربكم سبحانه وتعالى على ذاته المقدسة تفضلاً منه وإحساناً الرحمة لخلقه والإحسان إليهم، فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية، وفيما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية؛ لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

ثم بيّن أصلاً من أصول الدين في هذه الرحمة للمؤمنين، فقال: ﴿أَنَّهُ مَنْ

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

﴿عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا﴾؛ أي: ومن سعة رحمته **تعالى أنه** ـ أي: إن الشأن ـ من عمل وارتكب منكم أيها المؤمنون سوءاً؛ أي: عملاً تسوء عاقبته للضرر الذي حرمه الله لأجله حالة كونه ملتبساً **﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾** دفعته إلى ذلك السوء، كغضب شديد حمله على السب والضرب، أو شهوة مغتلمة قادته إلى انتهاك العرض **﴿ثُمَّ تَابَ﴾** ورجع عن ذلك السوء **﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾**؛ أي: بعد أن عمله شاعراً بقبحه نادماً عليه خائفاً من عاقبته **﴿وَأَصۡلَحَ﴾** عمله بأن أتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده ويذهب أثره من قلبه حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها وتصير أهلاً للقرب من ربها **﴿فَأَنَّهُۥ﴾** سبحانه وتعالى **﴿غَفُورٞ﴾** لمن تاب **﴿رَّحِيمٞ﴾** بقبول توبته؛ أي: فشأنه تعالى في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة، فيغفر له ما تاب عنه، ويتغمده برحمته وإحسانه. وقد بيَّن سبحانه في هذه الآية من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هم أحوج إلى معرفته بنص الوحي، وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين، وبقية أنواعها يمكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنفس والآفاق، وأَمَر نبيه بتبليغها لمن يدخلون في الدين؛ ليهتدوا بها، حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله، والغفلة عن تزكية أنفسهم، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من إفساد الذنوب خوف أن تحيط بها خطيئتها: **﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾**.

وقرأ عاصم وابن عامر[1]: **﴿أنه﴾** بفتح الهمزتين، فالأولى: بدل من الرحمة، والثانية: خبر مبتدأ محذوف تقديره: فأمره أنه؛ أي: إن الله غفور رحيم له. وقيل: إنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: عليه أنه من عمل.

وقرأ ابن كثير والأخوان ـ الكسائي وحمزة ـ وأبو عمرو بكسر الهمزة فيهما، الأولى: على جهة التفسير للرحمة، والثانية: في موضع الخبر أو الجواب. وقرأ نافع بفتح الأولى على الوجهين السابقين، وكسر الثانية على وجهها أيضاً. وقرأت فرقة بكسر الأولى وفتح الثانية، حكاها الزهراوي عن الأعرج، وحكى سيبويه عنه

---

(١) البحر المحيط.

مثل قراءة نافع، وقال الداني: قراءة الأعرج ضد قراءة نافع.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه فصل الحقائق للمؤمنين؛ ليبتعدوا عن سلوك سبيل المجرمين، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وإبطال ما هم عليه من الشرك. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: نميز ونبين لك أدلة حججنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل، وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ معطوف على محذوف تقديره؛ أي: وكذلك نفصل الآيات ليظهر الحق، فيعمل به، ولتستبين وتتضح سبيل المجرمين؛ أي: طريق المشركين فتجتنب، فطريق الهدى واضحة، وطريق الضلال واضحة؛ لما في الحديث «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، ونهارها كليلها، لا يضل عنها إلا هالك».

وقرأ[1] ابن كثير وحفص والعربيان ـ أبو عمرو وابن عامر ـ: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء ﴿سَبِيلُ﴾ بالرفع. وقرأ أبو بكر والأخوان ـ الكسائي وحمزة ـ: وليستبين بالياء سبيل بالرفع فاستبان في هاتين القراءتين لازم. وقرأ نافع ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بتاء الخطاب ﴿سبيلَ﴾ بالنصب، فاستبان هنا متعدية. فقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ، وقيل له ظاهراً، والمراد: أمته؛ لأنه ﷺ كان استبانها، والمعنى: ولتبين يا محمد، أو يا مخاطب للناس سبيل المجرمين.

فالحاصل[2]: أن القراءات ثلاث سبعية، فمتى قرىء الفعل بالفوقانية جاز في ﴿سَبِيلُ﴾ النصب والرفع، والتاء مختلفة المعنى؛ لأنها في حالة النصب حرف خطاب، وفي حالة الرفع للتأنيث، ومتى قرىء بالتحتانية.. تعين الرفع في سبيل؛ وذلك لأن السبيل يذكر ويؤنث، فتأنيث الفعل بناء على تأنيثه، وتذكيره بناء على تذكيره.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الداعين لك إلى الإشراك ﴿إِنِّى نُهِيتُ﴾ وزجرت وصرفت بما نصب لي ربي من الأدلة، وأنزل علي من الآيات في أمر

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

التوحيد ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: عن عبادة الأصنام التي تعبدوها أنتم من دون الله، وتستغيثون بها عند الشدائد، التي لا علم لها ولا عقل؛ لأن الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى، وإنما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى.

ثم أمره أن يبين لهم أن هذه العبادة مبنية على الرأي والهوى، وهي ضلال وغي فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ في عبادة الأصنام وطرد الفقراء؛ أي: ما[1] تميل إليه أنفسكم من عبادة غير الله، ولما كانت أصنامهم مختلفة.. كان لكل عابد صنم هوى يخصه، فلذلك جمع، وأهواؤكم عام، وغالب ما يستعمل في غير الخير، ويعم عبادة الأصنام وما أمروا به من طرد المؤمنين الضعفاء وغير ذلك مما ليس بحق، وهي أعم من الجملة السابقة، وأنص على مخالفتهم وفي قوله: ﴿أَهْوَآءَكُمْ﴾ تنبيه على السبب الذي حصل منه الضلال، وتنبيه لمن أراد اتباع الحق ومجانبة الباطل، كما قال ابن دريد:

وَآفَةُ الْعَقْلِ الْهَوَىٰ فَمَنْ عَلاَ عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

ذكره أبو حيان؛ أي: لا أجري على طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى في عبادة الأحجار التي تنحتونها بأيديكم، ولا أوافقكم على ما تدعونني إليه لا في هذه العبادة، ولا في غيرها من الأعمال؛ لأنها مؤسسة على الهوى وليست على شيء من الحق والهدى. وكرر الأمر بالقول مع قرب العهد اعتناءً بالمأمور به، أو إيذاناً باختلاف القولين من حيث إن الأولى حكاية لما هو من جهته تعالى، وهي النهي، والثاني: حكاية لما هو من جهته عليه السلام، وهو الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه ذكره «أبو السعود».

﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ عن الهدى ﴿إِذًا﴾؛ أي: إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: وما أنا في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم؛ أي: فإن فعلت ذلك.. فقد تركت محجة الحق، وسرت على غير هدى، فصرت ضالاً

(١) البحر المحيط.

مثلكم، وخرجت عن عداد المهتدين، وفي هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية في شيء.

وقرأ[1] السلمي وابن وثاب وطلحة: ﴿ضلِلت﴾ بكسر فتحة اللام، وهي لغة، وفي «التحرير»: قرأ يحيى وابن أبي ليلى هنا، وفي السجدة في ﴿أئذا صللنا﴾ بالصاد غير معجمة، ويقال: صل اللحم أنتن، ويروى: ضللنا؛ أي: دفنا في الضلة، وهي الأرض الصلبة رواه أبو العباس عن مجاهد بن الفرات في كتاب «الشواذ» له، ذكره أبو حيان في «البحر».

ثم أمره أن يقول لهم: إني على هدى من ربي فيما أتبعه، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنِّي﴾ فيما أخالفكم فيه من التوحيد ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على بيان قد بينه لي ربي، وبرهان قد وضح لي من ربي بالوحي والعقل؛ إذ القرآن بينة مشتملة على ضروب كثيرة من البينات العقلية والكونية التي يعجز الرسول عن الإتيان بمثلها ﴿و﴾ قد ﴿كذبتم به﴾؛ أي: والحال أنكم قد كذبتم به؛ أي: بالقرآن الذي هو بينتي من ربي، ومن عجيب أمركم أنكم تكذبون ببينة البينات، ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال من أمركم لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد، والتقليد: براءة من الاستدلال، ورضىً بجهل الآباء والأجداد. وفي هذا حجة دامغة وبينة ناصعة على ما قبله من نفي عبادته ﷺ للذين يدعونهم من دون الله تعالى.

وفي «الفتوحات»: والضمير[2] في ﴿بِهِۦ﴾ يجوز أن يعود على ﴿رَّبِّي﴾؛ أي: وكذبتم بربي حيث أشركتم به، وهو الظاهر. وقيل: على القرآن؛ لأنه كالمذكور. وقيل: على ﴿بَيِّنَةٍ﴾؛ لأنها بمعنى البيان. وقيل: لأن التاء فيها للمبالغة لا للتأنيث، فمعناها على أمر بين من ربي، والمعنى: وكذبتم بالبيان الذي جئت به من عند ربي ـ وهو القرآن ـ والمعجزات الباهرات، والبراهين الواضحات التي تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك. وبعد أن بين تكذيبهم به.. أردفه برد شبهة تخطر حينئذ بالبال، وهي: أن الله سبحانه وتعالى أنذرهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الجمل.

عذاباً يحل بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم، وقد استعجلوا النبي ﷺ ذلك؛ فكان عدم وقوعه شبهة لهم على عدم صدق القرآن؛ إذ هم يجهلون سنة الله في شؤون الإنسان، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: ليس الأمر الذي تستعجلون بوقوعه من نقم الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر، ولم أقل لكم: إن الله فوض أمره إليَّ حتى تطالبوني به، وتعدون عدم إيقاعه عليهم حجة على تكذيبه. وقيل[1]: سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم بسبب هذا الشرك، وكان النضر بن الحارث وأصحابه يستعجلونه بقولهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ بطريق الاستهزاء، أو بطريق الإلزام على زعمهم، فقال تعالى: قل لهم يا محمد: ليس ما تستعجلون به من العذاب الموعود في القرآن، وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه في حكمي وقدرتي حتى أجيء به وأظهر لكم صدقه.

ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: ما الحكم والتصرف في هذا الذي تستعجلونه من العذاب، وفي غيره من شؤون الخلق إلا لله وحده سبحانه وتعالى، وله في ذلك سنن حكيمة تجري عليها أفعاله وأحكامه، فلا يتقدم شيء منها على ميقاته ولا يتأخر عنه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾. ثم بين سبحانه وتعالى أن كل ما قصه على رسوله أو قضاه فهو حق لا شبهة فيه، فقال: ﴿يَقُصُّ﴾ بالصاد المهملة المشددة؛ أي: يقص الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ، ويخبر له القصص ﴿ٱلْحَقَّ﴾ والخبر الصادق في وعده ووعيده وجميع أخباره.

وقرىء بسكون القاف وكسر الضاد المعجمة ـ كما سيأتي ـ بغير ياء؛ لسقوطها في اللفظ؛ أي: يقضي الله سبحانه ويحكم بين عباده القضاء الحق، أو يصنع الحق؛ لأن كل شيء صنعه الله تعالى فهو حق. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾؛ أي: أفضل الفاصلين الذين يفصلون بين الحق والباطل، أو هو أعدل الحاكمين في كل أمر، فهو لا يقع في حكمه وقضائه حيف وميل إلى أحد المتخاصمين، وهو النافذ حكمه في كل شيء، والمحيط علمه بكل شيء، وفي

---

(١) المراح.

مصحف عبد الله: ﴿وهو أسرع الفاصلين﴾.

وقرأ[1] ابن عباس وابن كثير ونافع وعاصم: ﴿يقص الحق﴾ بالصاد المشددة من القصص، والمعنى: إن كل ما أخبر به فهو حق. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿يقض الحق﴾ من القضاء، والمعنى: يقضي القضاء الحق. ولم[2] يُرسم ﴿يقض﴾ إلا بضاد؛ كأن الياء حذفت خطاً كما حذفت لفظاً لالتقاء الساكنين، كما حذفت في قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾، وكما حذفت الواو من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ لما تقدم.

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب بقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ وبيدي وقدرتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: أمر ما تطلبون عجلته ووقوعه حالاً من نزول العذاب الموعود بكم؛ بأن يكون أمره مفوضاً إليَّ من الله تعالى: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لانفصل وانقطع النزاع بيني وبينكم، ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب، فأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، واقتصاصاً من تكذيبكم، ولتخلصت منكم سريعاً لصدكم عن تبليغ دعوة ربي وصدكم الناس عني، وقد وعدني ربي بنصر المؤمنين المصلحين، وخذلان الكافرين المفسدين، ولم أمهلكم ساعة، ولكن الله حليم ذو أناةٍ، لا يعجل بالعقوبة.

فائدة: والفرق بين الاستعجال والإسراع: أن الاستعجال: المطالبة بالشيء قبل وقته، فلذلك كان العجلة مذمومة. والإسراع، تقديم الشيء، في وقته، فلذلك كانت السرعة محمودة.

والخلاصة: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب: لو أن عندي ما تسعجلون به.. لم أمهلكم ساعة، ولكن الله حليم لا يعجل بالعقوبة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا رجاء في رجوعهم

---

(١) زاد المسير والبحر المحيط. (٢) الفتوحات.

عن الظلم إلى الإيمان والحق والعدل، ومن ثمَّ لم يجعل أمر عقابهم إليَّ، بل جعله عنده، ووقت له ميقاتاً هو أعلم به ترونه بعيداً ويراه قريباً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾. وقيل: أعلم بما يستحقون به من العذاب، والوقت الذي يستحقونه فيه، وبما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجاً لهم وإعذاراً إليهم.

الإعراب

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّآ﴾: نافية. ﴿أَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أقول﴾، وجملة ﴿لَّآ أَقُولُ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: مقول محكي لـ﴿أَقُولُ﴾، وإن شئت قلت: ﴿عِندِى﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿أقول﴾. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿ٱلْغَيْبَ﴾: مفعول به؛ لأن علم هنا بمعنى: عرف يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على الجملة الاسمية على كونها مقولاً لـ﴿أقول﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَقُولُ﴾: فعل مضارع. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿لَآ أَقُولُ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾. ﴿إِنِّى مَلَكٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿أَقُولُ﴾ ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء

مفرغ. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿أَتَّبِعُ﴾. ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُوحَىٰٓ﴾، وجملة ﴿يُوحَىٰٓ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: ألا تسمعون. الفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة عل ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَأَنذِرْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أنذر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنذر﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول به ﴿يَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يخافون حشرهم إلى ربهم.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿وَلِيٌّ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر. ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾: معطوف عليه، ﴿ولا﴾: زائدة لتأكيد نفي ما قبلها، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب حال من ضمير ﴿يُحْشَرُوٓا۟﴾ تقديره: يخافون حشرهم حال كونهم عادمين ولياً يواليهم، وشفيعاً

يشفع لهم من دون الله تعالى. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعل: حرف ترجٍ ونصب بمعنى كي التعليلية، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بـ﴿أنذر﴾؛ أي: وأنذرهم به لكي يتقوا الشرك والمعاصي.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه. ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾: معطوف على ﴿الغداة﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾ تقديره: يدعونه تعالى مخلصين له فيه.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿عَلَيْكَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه في محل النصب حال من ﴿شَيْءٍ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها فانتصب حالاً منها، فصاحب الحال من ﴿شَيْءٍ﴾، والعامل فيها الاستقرار في عليك. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والمعنى: ما شيء من حسابهم كائن عليك، والجملة من المبتدأ والخبر معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين النهي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ وبين جوابه الآتي في قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِنْ حِسَابِكَ﴾: جار ومجرور بيان مقدم لشيء، فهو صفة له لا حال منه؛ لما يلزم عليه من تقدم الحال على عاملها وصاحبها، وهو ممتنع على الأصح، أو حال منه على القول الضعيف نظير ما تقدم. ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّن شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها

معترضة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿تطردهم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لم يكن شيء من حسابهم عليك، ولا شيء من حسابك عليهم فطردك إياهم. ﴿فَتَكُونَ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن المضمرة وجوباً الواقعة في جواب النهي، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تكون﴾، وجملة ﴿تكون﴾ من اسمها وخبرها صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن طردك الذين يدعون ربهم، فكونك من الظالمين.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿فَتَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بَعْضَهُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بِبَعْضٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَتَنَّا﴾، والتقدير: وفتنا بعضهم ببعض فتوناً مثل ذلك الفتون المذكور، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾: اللام: لام كي وجر. ﴿يقولوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾: مقول محكي لـ﴿يقولوا﴾، وجملة القول من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لقولهم أهؤلاء إلخ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿فَتَنَّا﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري. ﴿هؤلاء﴾ في محل النصب مفعول لفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده تقديره: أفضل الله هؤلاء من بيننا، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ﴿يقولوا﴾. ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به.

﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿منّ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿عَلَيۡهِم﴾، وجملة ﴿من﴾ من الفعل والفاعل جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن يكون ﴿هؤلاء﴾ مبتدأ، وجملة ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولوا﴾: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. ﴿لَيۡسَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِأَعۡلَمَ﴾: خبر ﴿لَيۡسَ﴾، والباء: زائدة في خبرها. ﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعلم﴾، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَكَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَقُلۡ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة كونه دعاء. ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول لـ﴿قل﴾. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَتَبَ﴾. ﴿ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾: مفعول به لـ﴿كَتَبَ﴾.

﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿أَنَّهُۥ﴾: حرف نصب، والهاء: ضمير الشأن اسمها ﴿مَنۡ﴾: اسم شرط أو موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما.

﴿عَمِلَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنۢ﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾. ﴿سُوٓءَۢا﴾: مفعول به. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: جار ومجرور حال ثانية من فاعل ﴿عَمِلَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿تَابَ﴾: فعل ماض في محل الجزم معطوف على عمل، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تاب﴾. ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ في محل الجزم معطوف على ﴿تَابَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿فَأَنَّهُۥ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿أن﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، والتقدير: فالغفران والرحمة حاصلان له، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المفتوحة، وجملة ﴿أن﴾ المفتوحة في محل النصب بدل من ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ بدل الشيء من الشيء، والتقدير: كتب ربكم على نفسه الرحمة كتب حصول الغفران والرحمة لمن عمل سوءاً بجهالة إلخ. هذا على قراءة الفتح في الهمزتين. وأما على قراءة الكسر في الهمزتين فكسر الأولى على الاستئناف على أن الكلام تم قبلها، وكسر الثانية أيضاً على الاستئناف بمعنى أنها في صدر جملة وقعت خبراً لـ﴿من﴾ الموصولة، أو جواباً لها إن كانت شرطاً. قال أبو علي[1]: من كسر ألف ﴿أَنَّهُۥ﴾ جعله تفسيراً للرحمة، ومن كسر ألف ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾، فلأن ما بعد الفاء حكمه للابتداء، ومن فتح ألف ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ﴾ جعل أنَّ بدلاً من الرحمة، والمعنى: كتب ربكم أنه من عمل، ومن فتحها بعد الفاء.. أضمر خبراً تقديره: فله أنه غفور رحيم، والمعنى: فله غفرانه انتهى. وهنا أوجه كثيرة من الإعراب لا نطيل الكلام بذكرها، ومن أرادها.. فليراجع كتب القوم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾.

---

(١) زاد المسير.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: ونفصل الآيات تفصيلاً مثل التفصيل السابق من أول السورة إلى هنا، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ونفصل الآيات كذلك ليظهر الحق. ﴿تستبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإظهار الحق، ولإبانة سبيل المجرمين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نفصل﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ إلى ﴿قُلْ﴾ الآتي مقول محكي لـ﴿قل﴾ منصوب به، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿نُهِيتُ﴾: فعل مغير، ونائب فاعله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: قل لهم: إني نهيت عن عبادة الأصنام الذين تدعونهم من دون الله تعالى: ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تدعونهم. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾ تقديره: حال كونكم مجاوزين الله تعالى، أو من الضمير المحذوف من ﴿تَدْعُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ نافٍ وفعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة على كونها مقول القول. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء، ملغاة لا عمل لها؛ لعدم

الفعل بعدها. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة: ﴿ضَلَلْتُ﴾ على كونها مقول القول.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إن﴾: حرف نصب، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿مِّن رَّبِّى﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾. ﴿وَكَذَّبْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة مستأنفة على كونها مقول القول، أو في محل النصب حال من ﴿بَيِّنَةٍ﴾، ولكن بتقدير: قد. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿عِندِى﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

﴿إِنِ﴾: نافية. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول القول، وفي قراءة ﴿يقض﴾ بالضاد المعجمة تقول في إعرابه ﴿يقض﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً للتخلص من التقاء الساكنين المحذوفة خطاً تبعاً للخط لما في اللفظ، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّوۡ﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿عِندِى﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم لـ﴿أن﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون ما تستعجلون به عندي، والجملة من الفعل المقدر وفاعله فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَقُضِيَ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لَّوۡ﴾. ﴿قضى الأمر﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بَيۡنِي﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿قضي﴾. ﴿وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾: معطوف على ﴿بَيۡنِي﴾، والجملة من الفعل المغير ونائب فاعله جواب ﴿لَّوۡ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوۡ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ والخزائن جمع: خزانة أو خزينة، والخزانة ما يحفظ فيها الشيء الذي يراد حفظه، ومنع التصرف فيه مخافة أن ينال، ومنه[1] حديث: «فإنما يتخزن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته»، وهي بفتح الخاء. قال الشاعر:

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يَخْزِنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ ... فَلَيْسَ عَلَىٰ شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانِ

وفي «المختار»: يقال: خزن المال إذا جعله في الخزانة واختزنه أيضاً، وخزن السر: إذا كتمه واختزنه أيضاً، وبابهما نصر، والمخزن أيضاً ما يخزن فيه

---

(١) البحر المحيط.

الشيء انتهى.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ والغيب: ما غيب علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب علمه كما مرَّ.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ والأعمى والبصير هنا الضال والمهتدي: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾: والإنذار: العظة والتخويف. ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الطرد[1]: الإبعاد بإهانة، وبابه: نصر، والطريد المطرود، وبنو مطرود وبنو طرَّاد فخذان من إياد. ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾ الغداة والغدوة، كالبكرة: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، أصلها: غدوة، فقلبت الواو ألفاً لتحركها بحسب الأصل، وانفتاح ما قبلها بحسب الآن، وهي نكرة، ويقرأ: ﴿بالغدوة﴾ بضم الغين وسكون الدال وواو بعدها، وأكثر ما تستعمل معرفة علماً، وقد عرفها هنا بالألف واللام.

﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾ آخر النهار، أو من[2] المغرب إلى العشاء، فقيل: هو مفرد، وقيل: هو جمع عشية. ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ يقال: فتن الذهب يفتن ـ من باب ضرب ـ فتنة ومفتوناً: إذا أدخله النار لينظر ما جودته، والفتنة: الاختبار والامتحان، والمعنى هنا: ابتلينا واختبرنا ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ ﴿مَنَّ﴾ ـ مِن باب شد ـ أي: أنعم الله عليهم بنعم كثيرة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ السلام والسلامة: البراءة والعافية من الآفات والعيوب، والسلام من أسمائه تعالى، يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من عجز ونقص وفناء، واستعمل السلام في التحية بمعنى السلامة من كل ما يسوء، وبمعنى: تأمين المسلم عليه من كل أذى يناله من المسلم، فهو دليل المودة والصفاء، وهو تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جلَّ وعلا وملائكته الكرام، ويحيي بها بعضهم بعضاً. ﴿كَتَبَ﴾؛ أي: أوجب وفرض وألزم. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ والجهالة: السفه والخفة التي تقابل الحكمة والروية. ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾؛ أي: تتضح وتظهر يقال: استبنت الشيء وتبينته؛ أي: عرفته بيناً واضحاً. ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ النهي: الزجر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

عن الشيء بالقول نحو: اجتنب قول الزور، والكف عنه بالفعل، كما قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الدعاء: النداء لطلب إيصال الخير أو دفع الضر، ولا يكون عبادةً إلا إذا كان فيما وراء الأسباب العادية التي سخرها الله للعباد، وينالونها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ ضللت بفتح اللام، وهي لغة أهل الحجاز، وهي الفصحى، وهي قراءة الجمهور. وقرىء بكسرها، وهي لغة تميم، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف كما مر، قال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضللت أضل، قال الله: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ قال: فهذه - يعني المفتوحة - لغة نجد، وهي الفصيحة، وأهل العالية يقول: ضللت أضل انتهى.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ والبينة: كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية أو الآيات الحسية، ومن ذلك تسمية الشهادة بيّنة، ويجوز أن تكون التاء في بينة للمبالغة كما مر، والمعنى: على أمر بيِّن، فلما نفى أن يكون متبعاً للهوى.. نبه على ما يجب اتباعه وهو الأمر الواضح من الله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ والقصص: ذكر الخبر أو تتبع الأثر، من قص الحديث، أو من قص الأثر؛ أي: تتبعه، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، وعلى هذه القراءة، فالحق مفعول به اهـ «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأنه استعارة عن الكافر والمؤمن.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنه إنما ذكر لمجرد تتميم الفائدة وتأكيدها، وإلا فالكلام قد تمَّ بدونه.

ومنها: ما يسميه أهل البديع ردَّ الصدر على العجز في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كقولهم عادات السادات، سادات العادات.

وقال الزمخشري[1] بعد كلام قدمه في معنى التفسير: فإن قلت: أما كفى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ حتى ضم إليه قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؟

قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، ومؤداهما واحد، وهو المعنى بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ولا يستقبل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً، كأنه قيل: لا يؤاخذ كل واحد لا أنت ولا هم بحساب صاحبه. انتهى.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم﴾، وفي قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ لأنها مؤكدة لقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ واختار في التأكيد بالاسمية لتدل على الدوام والاستمرار.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ إشعاراً بوصفهم بالظلم، وحق الكلام أن يقال: والله أعلم بكم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[(١)] رسوله ﷺ أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته، وأن ما يستعجلونه من عذاب الله تعجيزاً أو تهكماً ليس عنده، وإنما هو عند الله تعالى، وقد قضت سنته أن يجعل لكل شيء أجلاً وموعداً لا يتقدم ولا يتأخر، وأن الله تعالى هو الذي يقضي الحق ويقصه على رسوله.. ذكر هنا أن مفاتح الغيب عنده، وأن التصرف في الخلق بيده، وأنه

---

(١) المراغي.

هو القاهر فوق عباده لا يشاركه أحد من رسله، ولا من سواهم في ذلك.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.. انتقل من خاص إلى عام، وهو علم الله بجميع الأمور الغيبية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر استئثاره بالعلم التام للكليات والجزئيات.. ذكر استئثاره بالقدرة التامة تنبيهاً على ما تختص به الإلهية، وذكر شيئاً محسوساً قاهراً للأنام، وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار، وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرة، بل هو أمر يوقعه الله تعالى بالإنسان.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآية، مناسبة[3] هذه الآية لما قبلها: لما أبان الله سبحانه وتعالى لعباده إحاطة علمه، وشمول قدرته، واستعلاءه عليهم بالقهر، وحفظه أعمالهم عليهم.. ذكرهم هنا بالدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية، ونهاية الرحمة والفضل والإحسان.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[4]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكَّر المشركين ببعض آياته في أنفسهم، وبمننه عليهم بإنجائهم من الأهوال والكروب التي يشعر بها كل من وقعت له منهم؛ إما بتسخير الأسباب، وإما بدقائق اللطف والإلهام.. ذكر هنا قدرته على تعذيبهم، وأبان أنَّ عاقبة كفران النعم أن تزول وتحل محلها النقم، وأنه يمهل ولا يهمل، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السابقة تكذيب قريش بالقرآن، وكون الرسول مبلِّغاً لا خالقاً للإيمان، وأحالهم في ظهور

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

صدق أنبائه وأخباره على الزمان.. بين في هذه الآيات السبيل في معاملة من يخوض في آيات الله بالباطل، ومن يتخذ دين الله هزواً ولعباً من الكفار الذين لم يجيبوا الدعوة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ...﴾ الآيات، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ...﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف»، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال بعض الناس: «لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً، ونحن مسلمون»، فنزلت: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَعِندَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى خاصة ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: مخازن الغيب أو المفاتح التي يتوصل بها إلى المخازن؛ أي: له سبحانه وتعالى علم الأمور المغيبة المخفية عن غيره، من الأرزاق والأمطار والآجال والعذاب والثواب والحساب والجزاء وغيرها.

وقرىء: ﴿مفاتيح﴾ بالياء. ﴿لَا يَعْلَمُهَآ﴾؛ أي: لا يعلم تلك الأمور المغيبة ولا يحيط بها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، وهذه الجملة الفعلية مؤكدة لمضمون الجملة التي قبلها، ويندرج تحت مضمون هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب اندراجاً أولياً، كما يدل عليه السياق، فهو سبحانه وتعالى الذي يحيط بها، وسواه جاهل بذاته، لا يعلم منها شيئاً إلا بإعلامه عز وجل، فعلينا أن نفوِّض إليه إنجازه وعده لرسله بالنصر، ووعيده لأعدائه بالعذاب والقهر، وأن نجزم بأنه لا يُخلف وعده رسله، وإنما يؤخر تنفيذه إلى الأجل الذي اقتضته حكمته.

---

(١) لباب النقول.

روى البخاري[1] عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾».

وما حكاه الله تعالى عن عيسى عليه السلام من قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ﴾، وما قاله يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب، كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، وجاء في معنى الآية: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض».

وفي[2] هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلي الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ: «من أتى كاهناً أو منجماً.. فقد كفر بما أنزل الله على محمد».

﴿وَيَعْلَمُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ من النبات والدواب ﴿و﴾ ما في ﴿البحر﴾ من الحيوان والجواهر وغيرهما. وإنما[3] قدم ذكر البر؛ لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال والحيوان والنبات والمعادن. وإنما أخر البحر في الذكر؛ لأن إحاطة العقل بأحواله أقل، لكن الحس يدل على أن عجائب البحر أكثر، وأجناس المخلوقات فيه أعجب، وأن طول البحر وعرضه أعظم.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) المراح.

وقال مجاهد[1]: البر: المفاوز والقفار، والبحر: المدن والقرى فيه والأمصار، لا يحدث فيها شيء إلا وهو يعلمه. وقال جمهور المفسرين: هما البر والبحر المعروفان؛ لأن جميع الأرض إما بر، وإما بحر، وفي كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه. والمعنى: أي: وعنده سبحانه وتعالى علم ما لم يغب عنكم؛ لأن ما فيهما ظاهر للعين، يعلمه العباد، وعلمه تعالى بما فيهما علم مشاهدة مقابل لعلم الغيب.

والخلاصة: أن عنده تعالى علم ما غاب عنكم مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه، وعنده علم ما يعلمه جميعكم لا يخفى عليه شيء منه، فعنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾؛ أي: وما تسقط ورقة واحدة من أوراق الشجر أو النجم، ولا تبقى عليه في الصحارى والبراري، أو في الأمصار والقرى ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ أي: إلا والحال أنه سبحانه وتعالى عليم بالساقطة منها والباقية، ويعلم زمان سقوطها، ومكانه، وعدد الساقطة والباقية وأحوالها قبل السقوط وبعده.

﴿وَلَا﴾ من ﴿حَبَّةٍ﴾ ملقاة ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ وبطونها لتنبت، قيل: هي الحبة المعروفة تلقى في بطن الأرض قبل أن تنبت، وقيل: هي الحبة التي في الصخرة التي تحت الأرضين السبع. ﴿وَلَا﴾ من ﴿رَطْبٍ﴾، وهو كل ما ينبت، وقيل: الحي ﴿وَلَا﴾ من ﴿يَابِسٍ﴾ وهو كل ما لا ينبت، وقيل: الميت، وقيل: هما عبارة عن كل شيء؛ لأن جميع الأشياء إما رطبة أو يابسة ﴿إِلَّا﴾ هو ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: إلا كان كل ما ذكر ثابتاً مكتوباً في كتاب مبين؛ أي: موضح مبين مقدارها ووقتها ومكانها، وهو اللوح المحفوظ.

فإن قلت[2]: إن جميع هذه المذكورات داخلة تحت قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ فلِمَ أفردها بالذكر؟

قلتُ: ذكرها من قبيل التفصيل بعد الإجمال، وقد ذكر البر والبحر لما فيهما

---

(١) الخازن.
(٢) الفتوحات.

من العجائب، ثم الورقة؛ لأنها يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها إلا الله، ثم ذكر ما هو أضعف من الورقة، وهو الحبة، ثم ذكر مثالاً يجمع الكل، وهو الرطب واليابس، فذكر هذه الأشياء، وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى، فصارت الأمثال منبهة على عظمة عظيمة، وقدرة عالية، وعلم واسع، فسبحان العليم الخبير.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وما[1] تسقط من حبة بفعل الإنسان باختياره، كالحب الذي يلقيه الزراع في بطون الأرض يسترونه بالتراب، فيحجب عن ضوء النهار، أو تذهب به النمل في قراها وحجورها، أو بغير فعل الإنسان؛ كالذي يسقط من النبات في الشقوق والأخاديد، وما يسقط من الثمار رطباً ويابساً إلا وهو في كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب ذلك فيه، وكتب عدده، والوقت الذي يوجد فيه، والذي يفنى فيه، وجعل الكتاب مبيناً؛ لأنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم عليه، هذا هو الذي اختاره الزجاج لقوله في الآية الأخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، واختار الرازي أن الكتاب المبين: علم الله تعالى الذي يشبه المكتوب في الصحف بثباته وعدم تغيره.

واتفق[2] علماء التفسير بالمأثور على تفسير الكتاب المبين وأم الكتاب والذكر في نحو ما تقدم من الآيات والأحاديث باللوح المحفوظ، وهو شيء أخبر الله به، وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته، فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود، وأن الله قد حفظ كتابه فيه، وأما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة.. فمما لم يثبت عن المعصوم ﷺ بالتواتر، فلا ينبغي أن يدخل في باب العقائد لدى المؤمنين.

وروي عن الحسن: أن حكمة كتابة الله لمقادير الخلق تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب. وزاد بعضهم حكمتين أخريين:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

١ ـ اعتبار الملائكة عليهم السلام بموافقة المحدثات للمعلومات الإلهية.

٢ ـ عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب، ويؤيده ما روى البخاري عن أبي هريرة «جف القلم بما أنت لاق».

وقرأ[١] ابن السميقع: ﴿مفاتيح﴾ بالياء، وروي عن بعضهم: ﴿مفتاح الغيب﴾ على الإفراد. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن السميقع: ﴿ولا رطبٌ ولا يابسٌ﴾ بالرفع فيهما، والأولى أن يكونا معطوفين على موضع ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾، ويحتمل الرفع على الابتداء، وخبره ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ وينيمكم ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ ويراقبكم فيه، استعير[٢] التوفي من الموت للنوم؛ لما بينهما من المشاركة في إزالة الإحساس والتميز، فإن أصل التوفي: قبض الشيء بتمامه.

وعبارة «زادة على البيضاوي» نصها: وعلى[٣] ما ذكره المصنف ليس في ابن آدم إلا روح واحدة، يكون لابن آدم بحسبها ثلاثة أحوال: حالة يقظة، وحالة نوم، وحالة موت، فباعتبار تعلقها بظاهر الإنسان وباطنه تعلقاً كاملاً تثبت له حالة اليقظة، وباعتبار تعلقها بظاهر الإنسان فقط تثبت له حالة النوم، وباعتبار انقطاع تعلقها عن الظاهر والباطن تثبت له حالة الموت.

فعلى هذا: معنى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: يقطع أرواحكم عن التعلق ببواطنكم؛ أي: يقطع تعلقها بالباطن، ومعنى ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: يرد تعلقها بالباطن. وقيل: معنى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: يقبض أرواحكم عند النوم، وهذا مبني على أن في الجسد روحين: روح الحياة: وهي لا تخرج إلا بالموت، وروح التمييز: وهي تخرج بالنوم، فتفارق الجسد، فتطوف بالعالم وترى المنامات، ثم ترجع إلى الجسد عند تيقظه، وسيأتي بسط هذه المسألة وإيضاحها في سورة الزمر إن شاء الله تعالى. واقتصر هنا على الليل، وإن كان ذلك يقع في النهار؛ لأن الغالب أن يكون النوم فيه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ويعلم

---

(١) البحر المحيط. (٢) البيضاوي. (٣) زاده.

جميع ما كسبتم وعملتم في النهار؛ أي: يعلم جميع ما كسبتم حين اليقظة، ويكون معظم ذلك في النهار سواء أكان خيراً أم شراً.

وفي «الفتوحات»: والتقييد[1] بالظرفين جري على الغالب، إذ الغالب أن النوم في الليل والكسب في النهار، وخصَّ النهار بالذكر دون الليل؛ لأن الكسب فيه أكثر؛ لأنه زمن حركة الإنسان، والليل زمن سكونه. اهـ «كرخي».

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: يوقظكم في النهار، عطف على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وتوسيط[2] الفعل بينهما لبيان ما في بعثهم من عظم الإحسان إليهم بالتنبيه على ما يكسبونه من السيئات. قال البيضاوي: أطلق البعث ترشيحاً للتوفي؛ أي: لما استعير التوفي من الموت للنوم.. كان البعث الذي هو في الحقيقة الإحياء بعد الموت ترشيحاً؛ لأنه أمر يلائم المستعار منه. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: هو الذي يتوفاكم بالليل، ثم يبعثكم بالنهار، ويعلم ما جرحتم فيه. ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: يوقظكم ويرسلكم لكسب أرزاقكم وأقواتكم ومناجاة إلٰهكم وخالقكم؛ لأجل أن يقضي أجلاً مسمى؛ أي: لأجل أن يستوفي ويستكمل المتيقظ آخر أجله وعمره المعين له في علمه تعالى، فإن لأعماركم آجالاً مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها وإتمامها. ومعنى الآية: أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك، ولكن ليقضى أجل مسمى؛ أي: معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء آجالكم وموتكم ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثكم وحشركم ﴿يُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في حياتكم الدنيا، ويجازيكم بذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والقادر[3] على البعث مِن تَوفي النوم قادرٌ على البعث من توفي الموت، وفي ذكر الأجل المسمى والرجوع إلى الله تعالى لأجل الحساب والجزاء إيماء إلى تأييد ما تقدم من حكمة تأخير ما كان يستعجله مشركوا مكة من وعيد الله لهم، ووعده لرسله

(١) الجمل. (٢) أبو السعود. (٣) المراغي.

بالنصر عليهم، وبيان عذاب الآخرة فوق ما أنذروا به من عذاب الدنيا، فمن لم يدركه العذاب الأول.. لم يفلت من الثاني.

وقال أبو حيان[1]: ولما ذكر تعالى النوم واليقظة.. كان ذلك تنبيهاً على الموت والبعث، وأن حكمهما بالنسبة إليه تعالى واحد، فكما أنام وأيقظ يميت ويحيي.

وقرأ طلحة وأبو رجاء: ﴿ليقضي أجلاً مسمى﴾ ببناء الفعل للفاعل، ونصب ﴿أجلاً﴾؛ أي: ليتم الله تعالى آجالهم، كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾. وفي قراءة الجمهور يحتمل أن يكون الفاعل المحذوف ضميره تعالى أو ضميرهم.

وبعد أن أبان الله سبحانه و تعالى أمر الموت والرجوع إلى الله للحساب والجزاء.. ذكر قهره لعباده، وإرسال الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡقَاهِرُ﴾؛ أي: الغالب المتصرف في خلقه بما يشاء في أمورهم إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وإثابةً وتعذيباً إلى غير ذلك، العالي بقدرته وسلطانه ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقية تليق بجلاله لا نكيفها ولا نمثلها، بل نؤمن بها، ولا نعطلها ولا نؤولها، بل نمرها على ظاهرها كما جاءت، كما هو مذهب السلف الأسلم الأعلم في آيات الصفات وأحاديثها؛ أي: وهو سبحانه وتعالى القاهر المستحق منكم العبادة، لا المقهورون من الأوثان والأصنام المغلوبون على أمرهم. ومعنى القاهر: الغالب لغيره المذلل له، والله تعالى هو القاهر لخلقه، وقهر كل شيء بضده، فقهر الحياة بالموت، والإيجاد بالإعدام، والغنى بالفقر، والنور بالظلمة.

﴿وَيُرۡسِلُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها العباد ويوكل بكم ﴿حَفَظَةً﴾؛ أي: ملائكة يحفظون أعمالكم ويكتبونها في صحائف تقرأ عليكم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد. يعني: أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم لمراقبتهم، وإحصاء أعمالهم وكتابتها، وحفظها في الصحف التي تنشر يوم الحساب، وهي المرادة

---

(١) البحر المحيط.

بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾، وهؤلاء الحفظة هم الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾، ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف صفتها، ولا نتحكم فيها بآرائنا.

وما[1] مثل مراقبة أولئك الحفظة إلا مثل مراقبة رجال البوليس السري في حكومات العصر الحديث.

وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال في الآية: الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم، يحفظونهم من القتل، ألم تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لم يغن الحرس عنهم شيئاً، وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

والحكمة في كتابة الأعمال وحفظها على العاملين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه، وتعرض على رؤوس الأشهاد.. كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات، وأبعث له على عمل الصالحات، فإن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء.. ربما غلب عليه الغرور بالكرم الإلهي والرجاء في المغفرة والرحمة، فلا يكون لديه من الخشية والحياء ما يزجره عن المعصية، كما يزجره توقع الفضيحة في موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

---

(١) المراغي.

إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ غاية لمحذوف تقديره: وهو الذي يرسل عليكم حفظة من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم حتى إذا جاء أحدكم أسباب الموت ومقدماته، وانتهى عمله ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾؛ أي: قبضت روحه رسلنا الموكلون بذلك من الملائكة، وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولون ذلك بأمره، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

روى ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس: أنه سُئل عن ملك الموت، أهو وحده الذي يقبض الأرواح؟ قال: هو الذي يلي أمر الأرواح، وله أعوان على ذلك، وقرأ هذه الآية، ثم قال: غير أن ملك الموت هو الرئيس.

وروي عن إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة: أن الأعوان يقبضون الأرواح من الأبدان، ثم يدفعونها إلى ملك الموت. وعن الكلبي: أن ملك الموت هو الذي يتولى القبض بنفسه، ويدفعها إلى الأعوان، فإن كان الميت مؤمناً.. دفعها إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافراً.. دفعها إلى ملائكة العذاب؛ أي: وهم يتوجهون بالأرواح إلى حيث يوجههم الله بأمره، وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كيفيته.

فإن قلت: جاء إسناد التوفي إلى الله تعالى في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، وإسناده إلى ملك الموت في قوله: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ وإسناده إلى الرسل في قوله هنا: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾، فكيف الجمع بين هذه الآيات؟.

قلتُ: وجه الجمع بين هذه الآيات: أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، فإذا حضر أجل العبد.. أمر الله ملك الموت بقبض روحه، ولملك الموت أعوان من الملائكة، فيأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده، فإذا وصلت إلى الحلقوم.. تولى قبضها ملك الموت بنفسه، فحصل الجمع بين الآيات. وقيل: المراد من قوله: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾: ملك الموت وحده، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له.

وقرأ حمزة[1]: ﴿توفاه﴾ بألف ممالة، وظاهره أنه فعل ماض كتوفته إلا أنه ذكر على معنى الجمع، ومن قرأ: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ أنث على معنى الجماعة. ويحتمل أن يكون مضارعاً، وأصله: تتوفاه، فحذفت إحدى التاءين على الخلاف في تعيين المحذوفة.

وقرأ الأعمش: ﴿يتوفاه﴾ بزيادة ياء المضارعة على التذكير.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن هؤلاء الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾؛ أي: لا يقصرون فيما أمروا به من قبض روح الميت، ولا يؤخرونه طرفة عين. وقرأ الأعرج وعمرو بن عبيد: ﴿لا يُفْرِطون﴾ بالتخفيف؛ أي: لا يجاوزون الحد فيما أمروا به بزيادة أو نقصان.

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوف على ﴿تَوَفَّتْهُ﴾. وقرىء: ﴿رِدوا﴾ بكسر الراء بنقل حركة الدال المدغمة إلى الراء؛ أي: ثم بعد قبض الملائكة أرواحهم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل بالبعث من القبور والحشر إلى موقف الحساب إلى حكم الله وقضائه وجزائه الذي هو ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ ومالك أمورهم، الذي هو ﴿ٱلْحَقِّ﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم. وفي الآية[2] إيماء إلى أن ردهم إليه حتم؛ لأنه سيدهم الذي يتولى أمورهم، ويحكم بينهم بالحق وأما تولي بعض العباد أمورَ بعضٍ بملك الرقبه أو ملك التصرف والسياسة، فمنه ما هو باطل من كل وجه، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لاثبات له ولا بقاء، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره في سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا، وبقي المولى الحق وحده.

فإن قلت: ما الحكمة في إفراد الضمير في قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ العائد إلى ﴿أَحَدَكُمُ﴾ الذي هو بمعنى: البشر والخلق، وفي جمعه في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ بواو الجمع؟

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

قلتُ: السر في الإفراد أولاً، والجمع ثانياً: وقوع التوفي على الانفراد، والرد على الاجتماع، ذكره «أبو السعود».

وكلمة ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ حرف تنبيه واستفتاح؛ أي: انتبهوا أيها العباد واعلموا أن له سبحانه وتعالى وحده القضاء الحق في ذلك اليوم لا لغيره، لا بحسب الظاهر ولا بحسب الحقيقة، بخلاف الدنيا؛ فإنه وإن لم يكن حاكم في الحقيقة غيره تعالى، لكن فيها بحسب الظاهر حكام متعددة. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾؛ أي: أسرع من يحاسب؛ لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد يد، وسرعة حسابه أنه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره، ولا يشغله شأن عن شأن.

والخلاصة: أنه تعالى أسرع الحاسبين إحصاءً للأعمال ومحاسبة عليها. وقرأ الحسن والأعمش: ﴿الحقَ﴾ بالنصب في قوله: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ على إضمار فعل؛ أي: أعني أو أمدح، أو على أنه صفة مصدر محذوف تقديره: ثم ردوا إلى اللّهِ مولاهم الردَّ الحقَّ.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وعما أودع في الآفاق من آيات التوحيد توبيخاً وتقريراً لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الإلهية: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾؛ أي: من[1] ذا الذي ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ﴿و﴾ من ذا الذي ينجيكم من ظلمات ﴿البحر﴾ إذا ركبتم فيه، فأخطأتم الطريق، وأظلمت عليكم السبل، فلم تهتدوا. وقيل: ظلمات البر والبحر: مجاز عما فيهما من الشدائد والأهوال. وقيل: الحمل على الحقيقة أولى، فظلمات البر: هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح، فيحصل من ذلك الخوف الشديد؛ لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب، وظلمات البحر: ما اجتمع فيه من ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة الرياح العاصفة، والأمواج الهائلة، فيحصل من ذلك أيضاً

---

(١) الخازن.

الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك. والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ، كما مرت الإشارة إليه، فالمقصود: أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيها إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد، وهو المراد من قوله: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ أي: من إله غير الله ينجيكم ويكشف عنكم تلك الكروب حالة كونكم تدعونه سبحانه وتعالى عند نزولها بكم تضرعاً وجهراً، وتدعونه خفية وسراً، وتخلصون له الدعاء في الحالتين، وتنسون ما تشركون، يعني: إذا اشتد بكم الأمر.. تخلصون له الدعاء تضرعاً منكم إليه واستكانة جهراً وخفية، يعني: جهراً حالاً، وسراً حالاً، حالة كونكم قائلين في الدعاء ومقسمين له فيه، والله ربنا ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ الله من هذه الظلمات، وخلصنا من الهلاك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ له على هذه النعمة، نعمة الإنجاء؛ أي: لنكونن من المتصفين بالشكر، المخلصين له بالعبادة دون من نشركه معه في عبادته، والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها.

وقرأ[1] الكوفيون: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد فيهما. وقرأ حميد بن قيس ويعقوب وعلي بن نصر عن أبي عمرو بالتخفيف فيهما. وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ والعربيان ـ أبو عمرو وابن عامر ـ بالتشديد في ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ والتخفيف في ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ جمعوا بين التعدية بالهمزة والتضعيف كقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ﴾. وقرأ[2] أبو بكر عن عاصم: ﴿خفية﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء. وقرأ الباقون بضمها وسكون الفاء، وهما لغتان، وعلى هذا الاختلاف في سورة الأعراف. وقرأ الأعمش: ﴿وخيفة﴾ بكسر الخاء فبعده الياء الساكنة من الخوف؛ أي: مستكيناً أو دعاء خوف. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ بالغيبة. وقرأ الباقون: ﴿لئن أنجيتنا﴾ بالخطاب. والآية تدل[3] على أن الإنسان يأتي عند حصول الشدائد بأمور.

أحدها: الدعاء.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) المراح.

وثانيها: التضرع.

وثالثها: الإخلاص بالقلب، وهو المراد من قوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾.

ورابعها: الالتزام عند الشدائد بالشكر، وهو المراد من قوله: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ثم بين أنهم يحنثون في أيمانهم بعد النجاة، ويشركون بربهم سواه، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى وحده ينجيكم من ظلمات البر والبحر وشدائدهما المرة بعد المرة، ويكشفها عنكم ﴿وَ﴾ ينجيكم ﴿من كل كرب﴾ وغمٍّ سوى ذلك ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ يا أهل مكة بعدما تشاهدون هذه النعم الجليلة ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بعبادته تعالى غيره الذي عرفتم أنه لا يضر ولا ينفع ولا تفون بعهدكم.

والخلاصة[1]: أنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ في هذه الحالة إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضله، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص في جميع الأحوال والأوقات، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال الجسمانية أو إلى نحو ذلك من الأسباب، ويعود إلى الشرك في العبادة، ولا يوفي بالعهد. وفي الآية تنبيه إلى أن من أشرك في عبادته تعالى غيره، فكأنه لم يعبده رأساً، فالتوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك الذين يشركون مع الله سواه، ولا يشكرون نعمه التي أسداها إليهم: إن الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ﴾ ويرسل ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ تجهلون حقيقته، فيصب عليكم ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كالمطر كما فعل بقوم نوح، والحجارة كما رمي أصحاب الفيل وقوم لوط، والصيحة؛ أي: الصرخة التي صرخها جبريل على ثمود قوم صالح، والريح كما في قوم هود. ﴿أَوْ﴾ يثيره ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالرجفة، وغرق فرعون، وخسف قارون ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلط أمركم خلط اضطراب واختلاف لا خلط اتفاق، فيجعلكم ﴿شِيَعًا﴾ وفرقاً مختلفين على أهواء

---

(١) المراغي.

شتى، كل فرقة تشايع وتتبع إماماً في الدين، أو تتعصب لملك أو رئيس، فإذا كنتم مختلفين.. قاتل بعضكم بعضاً ﴿وَيُذِيقَ﴾ الله ﴿بَعْضَكُم﴾ بسبب تلك المخالفة ﴿بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾ آخر وضرره، فيقتل بعضكم بيد بعض.

وقرأ أبو عبد الله المدني: ﴿يلبسكم﴾ بضم الياء من اللبس، استعارة من اللباس؛ أي: يلبسكم الفتنة حالة كونكم شيعاً. وقرأ الأعمش: ﴿ونذيق﴾ بالنون، وهي نون عظمة الواحد، وهي التفات فائدته نسبة ذلك إلى الله على سبيل العظمة والقدرة القاهرة.

فصل في الأحاديث المناسبة للآية

وعن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾.. قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.. قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾.. قال: «هذا أهون ـ أو ـ هذا أيسر» أخرجه البخاري، وإنما كان هذا أهون؛ لأن المستعاذ مما قبله هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين حتى لا يبقى من الأمة أحد.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنه أقبل مع النبي ﷺ ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية.. دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألت ربي: أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها» أخرجه مسلم.

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ صلاة، فأطالها، فقالوا: يا رسول الله، صليت صلاة لم تكن تصليها، قال: «أجل، إنها صلاة رغبة ورغبة، إني سألت الله فيها ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته: أن لا يهلك أمتي بسَنَة، فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من

غيرهم، فأعطانيها، وسألته: أن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها» أخرجه الترمذي.

ثم طلب منه النظر فيما لديه من الحجج والبينات، فقال: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد وتأمل بعين بصيرتك ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عماهم عليه من الكفر والتكذيب؛ أي: انظر كيف نصرف الآيات ونكررها مغيِّرة من حال إلى حال، لكي يقفوا على جلية الأمر، فيرجعوا عماهم عليه من العناد.

والمعنى[1]: تأمل بعين بصيرتك أيها الرسول، كيف نصرف الآيات والدلائل ونتابعها على أنحاء شتَّى، منها ما طريقه الحس، ومنها ما طريقه العقل، ومنها ما سبيله علم الغيب، لعلهم يفقهون الحق، ويدركون الحقائق بأسبابها وعللها التي تفضي إلى الاعتبار والعمل بها. وأقرب الوسائل إلى تحصيل ذلك: تصريف الآيات، واختلاف الحجج والبينات. وبذا يتذكرون ويزدجرون عما هم عليه مقيمون من التكذيب بكتابنا ورسولنا، وانكبابهم على عبادة الأوثان والأصنام. ثم ذكر أن قومه قد كذبوا به على وضوح حجته، فقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾؛ أي: وكذب بالقرآن قومك يا محمد على ما صرفنا فيه من الآيات الجاذبة إلى فقه الإيمان؛ إذ يثبتها الحس والعقل والوجدان. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: والحال أنه كتاب حق صادق فيما نطق به، ثابت لا شك فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿وكذبت به قومك﴾ بالتاء، كما قال ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾. وقيل[2]: الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ يرجع إلى العذاب، وهو الحق، يعني: أنه نازل بهم إن أقاموا على كفرهم وتكذيبهم. وقيل: الضمير يرجع إلى تصريف الآيات، وهو الحق؛ لأنهم كذبوا كونها من عند الله.

ثم أمر رسوله بأن يبلغهم بأن لا سبيل له في جبرهم على الإيمان به،

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: إنني لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، أبشركم وأنذركم، ولم أعط القدرة على التصرف في عباده حتى أجبركم على الإيمان جبراً، وأكرهكم عليه إكراهاً: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾. وقيل[1]: المعنى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الحق، بل إنما أنا منذر، والله هو المجازي لكم على أعمالكم، وقيل: معناه: إني إنما أدعوكم إلى الله وإلى الإيمان به، ولم أومر بحربكم؛ فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف.

ثم هددهم وتوعدهم على التكذيب به فقال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾؛ أي: لكل شيء ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: وقت يقع فيه، والنبأ الشيء الذي ينبأ عنه ويخبر به. وقيل: المعنى: لكل عمل جزاء. وقيل[2]: المعنى: لكل خبر يخبره الله مستقر؛ أي: وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير، وكان ما وعدهم به من العذاب في الدنيا وقع يوم بدر ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صحة هذا الخبر عند وقوعه؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة، والمعنى: لكل شيء ينبأ عنه ويخبر به مستقر؛ أي: وقت تستقر وتظهر فيه حقيقته، ويتميز حقه من باطله، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه، وسوف تعلمون مستقر ما أنبأكم به كتابي من وعد ووعيد، ومن ذلك: ما وعد به الرسول من نصره عليهم، وما أوعد به أعدائه من الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب هؤلاء المشركين ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ ويشرعون وينهمكون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآنية بالكفر والتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ

---

(١) الخازن. (٢) الواحدي.

﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: فصد عنهم بوجهك، وقم ولا تقعد معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ﴾ ويشرعوا ﴿فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾؛ أي: حديث غير التكذيب والاستهزاء بآياتنا، ويصح عود الضمير على الآيات نظراً لمعناها؛ لأنها بمعنى الحديث والقول، ذكره أبو البقاء. قال المراغي: والمخاطب[1] بالآية الرسول ﷺ، ومن كان معه من المؤمنين، ثم المؤمنون في كل زمان؛ أي: وإذا رأيت أيها الرسول، أو أيها المؤمن، الذين يخوضون في آياتنا المنزلة من الكفار المكذبين، أو من أهل الأهواء المفرقين.. فصد عنهم بوجهك، وقم ولا تجلس معهم حتى يخوضوا في حديث غير الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها من جانب الكفار، أو تأويلها بالباطل من جانب أهل الأهواء؛ وتأييداً لما استحدثوا من مذاهب وآراء، وتفنيداً لأقوال خصومهم بالشغب والجدل والمراء، وإذا خاضوا في غير ذلك.. فلا ضير في القعود معهم.

وسِرُّ[2] هذا النهي: أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم يغريهم في التمادي فيما هم فيه، ويدل على الرضا به والمشاركة فيه، والمشاركة في ذلك كفر ظاهر لا يرتكبه إلا كافر مجاهر، أو منافق مراء، كما أنَّ في التأويل لنصر البدع والآراء الفاسدة فتنةً في الدين، لا تنقص عن الأولى ضرراً، فإن أربابها تغشهم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ويخدمون الشرع، ومن ثم حذر السلف من مجالسة أهل الأهواء أشد مما حذروا من مجالسة الكفار؛ إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر مقدار ما يخشى من فتنة المبتدع. ومن الناس من يحرفون آيات الله على مواضعها بهواهم؛ ليكفروا بها مسلماً، أو يضلِّلوا بها مهتدياً، بغياً عليه وحسداً له.

وفي[3] هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ﷺ، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه، فأقل الأحوال

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر. وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها.. علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدة عمره، ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل، وأنكر المنكر. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: وإن أنساك الشيطان بوسوسته نهينا إياك عن مجالسة الخائضين في آيات الله بعد تذكرك أولاً، وقعدت معهم وهم على تلك الحال، ثم ذكرت بعد ذلك.. ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: بعد تذكرك النهي ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها بدلاً من الإيمان بها والاهتداء بهديها؛ أي: فقم عنهم ولا تجلس معهم بعد ذلك. وإنما[1] أبرزهم ظاهرين تسجيلاً عليهم بصفة الظلم، وإلا فحق العبارة أن يقال: فلا تقعد معهم. وجاء في الشرط الأول بـ﴿إذا﴾؛ لأن خوضهم في الآيات محقق، وفي الشرط الثاني بـ﴿إن﴾؛ لأن إنساء الشيطان له ليس أمراً محققاً، بل قد يقع وقد لا يقع، وهو معصوم منه، ولم يجيء مصدر على فعلى إلا ذكرى اهـ «سمين».

والخطاب[2] في قوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ للرسول ﷺ، والمراد غيره، أو هو للرسول ﷺ بالذات، ولغيره بالتبع، كما هو الشأن في أحكام التشريع غير الخاصة به ﷺ. ووقوع النسيان من الأنبياء بغير وسوسة من الشيطان لا خلاف في جوازه، قال تعالى لخاتم أنبيائه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وثبت وقوعه من موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، ولكن الله عصمهم من نسيان

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

شيء مما أمرهم بتبليغه.

وثبت في «الصحيحين» و«السنن» أن النبي ﷺ سها في الصلاة، وقال: «إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت.. فذكّروني». وإنساء الشيطان للإنسان بعض الأمور ليس من قبيل التصرف والسلطان حتى يدخل في مفهوم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾. ومن هذا تعلم أن نسيان الشيء الحسن الذي يسند إلى الشيطان؛ لكونه ضاراً ومفوتاً لبعض المنافع، أو لكونه حصل بوسوسته، ولو بشغل القلب ببعض المباحات، فلا يعد من سلطان الشيطان على الناس، واستحواذه عليهم بالإغواء والإضلال الذي نفاه الله تعالى عن عباده المخلصين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وقرأ[1] ابن عامر: ﴿ينسينك﴾ مشدداً عدّاه بالتضعيف، وعدّاه غيره بالهمزة.

وروي عن ابن عباس: أنه لما قال المسلمون: إن قمنا كلما خاضوا لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، وأن نطوف بالبيت.. نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصي ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾؛ أي: من حساب الخائضين وعقوبتهم ﴿مِّن شَىْءٍ﴾، فـ﴿من﴾ زائدة؛ أي: ليس على الذين آمنوا واتقوا شيء من حساب الخائضين في آيات الله، فلا يحاسبون على خوضهم فيها، وعلى غيره من أعمالهم السيئة التي يحاسبهم الله تعالى عليها إذا هم تجنبوهم، وأعرضوا عنهم كما أمروا. ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: ولكن عليكم أيها المتقون أن تذكروهم ذكرى، وتعظوهم عظة إذا سمعتموهم يخوضون، بأن تقوموا عنهم، وتظهروا كراهة فعلهم وتعظوهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لعلهم يتجنبون الخوض في الآيات حياءً منكم، ورغبة في مجالستكم، قاله مقاتل. أو

---

(١) البحر المحيط.

لعلهم يتقون الوعيد بتذكيركم إياهم.

فصل

قال[1] سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل: هذه الآية منسوخة بالآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾، وذهب الجمهور إلى أنها محكمة لا نسخ فيها؛ لأنها خبر، والخبر لا يدخله النسخ؛ لأنها إنما دلت على أن كل إنسان إنما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره. وقيل: إنما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة، فلا تكون منسوخة.

وبعد أن أمر رسوله بالإعراض عمن اتخذ آيات الله هزوا.. أمره بترك المستهزئين بدينهم، الذين غرتهم الحياة الدنيا فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾؛ أي[2]: واترك يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا وجعلوا دينهم الذي أمروا به ودعوا إليه - وهو دين الإسلام - لعباً ولهواً، وذلك حيث سَخِروا به واستهزؤوا به. وقيل: إنهم اتخذوا عبادة الأصنام لعباً ولهواً. وقيل: إن الكفار إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه. وقيل: إن الله جعل لكل قوم عيداً، فاتخذ كل قوم دينهم - يعني: عيدهم - لعباً ولهواً، يلعبون ويلهون فيه إلا المسلمين، فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيراً وفعل الخير فيه، مثل عيد الفطر، وعيد النحر، ويوم الجمعة. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا، وغلب حبها على قلوبهم، فأعرضوا عن دين الحق، واتخذوا دينهم لعباً ولهواً. وقال الرازي: لأجل استيلاء حب الدنيا أعرضوا عن حقيقة الدين، واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوصلوا بها إلى حطام الدنيا. انتهى. ومعنى الآية: وذر يا محمد الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، واتركهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم. والمراد بتركهم: ترك معاشرتهم ومخالطتهم، لا ترك الإنذار والتخويف.

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

وعبارة «المراغي» هنا[1] أي: ودَعْ أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين هؤلاء المشركين، الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، وغرتهم الحياة الدنيا الفانية، فآثروها على الحياة الباقية، واشتغلوا بلذاتها الحقيرة الفانية المشوبة بالمنغصات عما جاءهم من الحق مؤيداً بالحجج والآيات، فاستبدلوا الخوض فيها بما كان يجب من فقهها وتدبرها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾. واتخاذهم دينهم لعباً ولهواً؛ أنهم لما عملوا ما لا يزكي نفوسهم، ولا يطهر قلوبهم، ولا يهذب أخلاقهم، ولا يقع على وجه يرضي الله سبحانه، ولا يعد للقائه في دار الكرامة.. أضاعوا الوقت فيما لا يفيد، وهذا هو اللعب، أو شغلوا عن شؤونهم وهمومهم الأخروية وهذا هو اللهو.

وبعد أن أمره بترك المستهزئين بدينهم أمره بالتذكير بالقرآن، وتبليغ الرسالة، فقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾؛ أي: وذكر يا محمد بالقرآن وعظ به هؤلاء المشركين وغيرهم مخافة ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ وتحبس ﴿نَفْسٌ﴾ في جهنم وتهلك فيها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: بسبب ما كسبت وعملت من الشرك والمعاصي، والضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ يعود على القرآن المعلوم من السياق؛ لأنه هو الذكر، بُعث به الرسول المذكر.

والمعنى[2]: وذكرهم بالقرآن ومواعظه، وعرفهم الشرائع لكي لا تهلك نفس وترتهن في جهنم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا، وتحرم الثواب في الآخرة ثم وصف النفس المبسلة، وعلل إبسالها، فقال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: ليس لتلك النفس التي هلكت من دون الله ﴿وَلِيٌّ﴾؛ أي: ليس لها ولي يلي أمرها، وناصر ينصرها غير الله تعالى ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها في الآخرة عند الله إلا بإذنه، كما قال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

ثم أرشد إلى أنه لا ينفع في الآخرة إلا صالح العمل لا الشفعاء والوسطاء، فقال: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾؛ أي: وإن تفد تلك النفس المبسلة كل نوع من أنواع الفداء وتعطه ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾؛ أي: لا يقبل ذلك العدل والفداء منها، والمراد: أنه لا يقع الأخذ ولا يحصل، وهذا كقوله في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾.

والخلاصة[١]: أن النفس المبسلة تمنع في ذلك اليوم من أي وسيلة من وسائل النجاة، فلا ولي ولا حميم ولا شفيع ولا فداء إلى نحو أولئك، مما ربما نفع في مقاصد الدنيا وأنجز بعض المنافع. وفي هذا إبطال لأصل من أصول الوثنية، وهو رجاء النجاة في الآخرة، كما هو الحال في الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى، أو بشفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء عنده تعالى، وتقرير لأصل ديني، وهو أن لا نجاة في الآخرة ولا رضوان من الله ولا قرب منه إلا بالعمل بما شرعه على ألسنة رسله من إيمان به، وعمل صالح يزكي النفس ويطهرها؛ أما من دس نفسه، وأبسله كسبه للسيئات والخطايا، واتخذ دين الله هزواً ولعباً، وغرته الحياة الدنيا، فلا تنفعه شفاعة، ولا تقبل منه فدية.

ثم بيَّن أن هذا الإبسال كان بسوء صنيعهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتخذون دينهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا هم ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ وحرموا الثواب، وأسلموا للعذاب، وحبسوا عن دار السعادة ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾؛ أي: بسبب ما كسبوا من الأوزار والآثام حتى أحاطت بهم خطاياهم، ولم يكن لهم من دينهم الذي اتخذوه زاجر ولا مانع يرشدهم إلى التحول عن تلك الأعمال القبيحة، ويصدهم عن العقائد الزائغة.

ثم بين سبحانه ما يكون من الجزاء حين أُبسلوا، فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المتخذين دينهم لعباً ولهواً ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: من ماء حار مغلي

---

(١) المراغي.

بالغ النهاية في شدة الحرارة، يستردد ويتجرجر في بطونهم، وتتقطع به أمعائهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد الألم بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم المستمر في الدنيا الذي ظلوا عليه طول حياتهم حتى صرفوا عما جعل وسيلة للنجاة لو اتبعوه، وهذه الجملة تأكيد وتفصيل لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾.

والخلاصة[1]: أن رسوخهم في الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير. وفي ذلك عبرة لمن يفقه القرآن، ولا يغتر بلقب الإسلام، ويعلم أنَّ المسلم من اتخذ القرآن إمامه، وسنة الرسول طريقه، لا من اغتر بالأماني والأوهام، ولا من ركن إلى شفاعة الشافعين والأولياء والناصرين.

الإعراب

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

﴿وَعِندَهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿عنده﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْلَمُهَا﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، والعامل فيها الاستقرار الذي تضمنه الظرف؛ لوقوعه خبراً. ﴿وَيَعْلَمُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يَعلمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها، مسوقة لبيان تعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات ﴿فِي الْبَرِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة ما. ﴿وَالْبَحْرِ﴾: عطف على البر.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

---

(١) المراغي.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَسۡقُطُ﴾: فعل مضارع. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَرَقَةٍ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿يَعۡلَمُهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿وَرَقَةٍ﴾، وجاءت[1] الحال من النكرة لاعتمادها على النفي، والتقدير: وما تسقط من ورقة إلا عالماً بها؛ لأنه مسقطها بإرادته. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿حَبَّةٖ﴾: معطوف على ﴿وَرَقَةٍ﴾. ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لـ﴿حَبَّةٖ﴾. ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ معطوفان أيضاً على ﴿وَرَقَةٍ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: إلا هو كائن في كتاب مبين، وجملة الاستثناء في محل النصب بدل من جملة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ بدل كل من كل؛ أي: وما تسقط من ورقة، ولا توجد حبة وما بعدها إلا هو في كتاب مبين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾. ﴿وَيَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يعلم﴾. ﴿جَرَحۡتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما جرحتموه. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَرَحۡتُم﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ. ﴿يَبۡعَثُكُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ على كونها صلة الموصول

---

(١) الفتوحات.

لا محل لها من الإعراب.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة له، والفعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، واللام متعلقة بـ﴿يَبْعَثُكُمْ﴾، والتقدير: ثم يبعثكم فيه لقضاء أجل مسمى. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يُنَبِّئُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هو القاهر﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، أو حال من الضمير المستتر في ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ تقديره: حال كونه مستعلياً فوق عباده. ﴿وَيُرْسِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿حَفَظَةً﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على اسم الفاعل على كونها صلة لأل الموصولة، والتقدير: وهو الذي يقهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فيه ثلاثة أوجه[1]:

أحدها: أنه عطف على اسم الفاعل الواقع صلة لـ﴿أل﴾؛ لأنه في معنى

---

(١) الجمل.

يفعل، والتقدير: وهو الذي يقهر عباده، ويرسل، فعطف الفعل على الاسم؛ لأنه في تأويله.

والثاني: أنها جملة فعلية عطفت على جملة اسمية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾.

الثالث: أنها معطوفة على الصلة، و﴿ما﴾ عطف عليها، وهو قوله: ﴿يتوفاكم﴾ و﴿يعلم﴾، وما بعده؛ أي: وهو الذي يتوفاكم، ويرسل عليكم حفظة. اهـ «سمين». ﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابتدائية لدخولها على الجملة، غائية لكون ما بعدها غاية لما قبلها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿رُسُلُنَا﴾؛ أو مستأنفة مسوقة للإخبار عنهم بهذه الصفة. اهـ «كرخي». وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ﴾ حتى[1] هذه هي التي يبتدأ بها الكلام، وهي مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظة تحفظ أعمالكم مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدة حياة أحدكم كائناً ما كان، وجاءه أسباب الموت ومباديه.. توفته رسلنا. اهـ «أبو السعود».

﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿رُدُّوٓا۟﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: صفة أولى للجلالة. ﴿ٱلْحَقِّ﴾: صفة ثانية له. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾: مبتدأ مؤخر،

---

(١) الجمل.

والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من الضمير المجرور باللام، والعامل في الحال الاستقرار الذي تعلق به الظرف.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿يُنَجِّيكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُنَجِّيكُم﴾. ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبَرِّ﴾. ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿يُنَجِّيكُم﴾. ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: حالان من فاعل ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾. ولكن بعد تأويلهما بالمشتق؛ أي: تدعونه حال كونكم متضرعين ومخفين. ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾: اللام موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَنجَىٰنَا﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنجَىٰنَا﴾. ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ اللام: رابطة لجواب القسم. ﴿نكونن﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على المتكلمين. ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿نكون﴾، وجملة ﴿نكون﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه تقديره: إن أنجانا.. نكون من الشاكرين، وقد اجتمع هنا شرط وقسم، فحذف جواب المؤخر منهما، وهو الشرط على القاعدة، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف منصوب على الحال من فاعل ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ تقديره: تدعونه قائلين: لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾: إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُنَجِّيكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿مِّنْهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَجِّيكُم﴾. ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿تُشْرِكُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ على كونها مقولا لـ﴿قل﴾.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿الْقَادِرُ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول القول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَبْعَثَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْعَثَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على بعثه عليكم عذاباً من فوقكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿الْقَادِرُ﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿عذابا﴾. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَبْعَثَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿شِيَعًا﴾: حال من مفعول ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾، ولكن في تأويل متفرقين. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم﴾: فعل ومفعول أول معطوف على ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿بَأْسَ بَعْضٍ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه. ﴿انظُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم للاستفهام التعجبي في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه

﴿نُصَرِّفُ﴾، ولا يجوز أن يكون معمولاً لما قبله؛ لأن اسم الاستفهام له صدر الكلام. ﴿نُصَرِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾: مفعول به، وهذه الجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول لـ﴿ٱنظُرْ﴾، و﴿كَيْفَ﴾ معلقة له عن العمل في لفظه. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ وتعليل ونصب، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها، والمعنى: انظر يا محمد كيف نصرف لهم الآيات لكي يفقهوا ويفهموا ويتدبروا تلك الآيات.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَكَذَّبَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذب﴾: فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿قَوْمُكَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير به؛ أي: كذبوا به حال كونه حقاً، وهو أعظم في القبح، أو الجملة مستأنفة. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّسْتُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿وكيل﴾. ﴿بِوَكِيلٍ﴾: خبر ﴿ليس﴾، والباء زائدة، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل وحرف تنفيس، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَأَيْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر

في محل النصب مفعول به لـ﴿رأى﴾؛ لأن رأى بصرية يتعدى لمفعول واحد. ﴿يَخُوضُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَخُوضُونَ﴾. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿أعرض﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ مع جوابها مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى: إلى تقديره: إلى خوضهم في حديث غيره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أعرض﴾. ﴿فِي حَدِيثٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَخُوضُواْ﴾. ﴿غَيْرِهِۦ﴾: صفة ومضاف إليه مجرور؛ لأنه بمعنى مغاير. ﴿وَإِمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إما﴾ إن: حرف شرط، وما: زائدة. ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾: ينسين: فعل مضارع في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة، حرف لا محل لها من الإعراب، والكاف: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْعُدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَقْعُدْ﴾. ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَقْعُدْ﴾ أيضاً. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾، وجملة ﴿تَقْعُدْ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الشرطية.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿يَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من شيء؛ لأنه صفة نكرة قَدمت عليها. ﴿مِّن

﴿شَىۡءٖ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾: زائدة، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿ذِكۡرَىٰ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: ولكن ذكروهم ذكرى، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾: لعل: حرف نصب وتعليل، والهاء: اسمها، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾.

﴿وَذَرِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ذر﴾: فعل أمر مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب على المفعولية. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿دِينَهُمۡ﴾: مفعول أول لها. ﴿لَعِبٗا﴾: مفعول ثان. ﴿وَلَهۡوٗا﴾: معطوف عليه، والجملة صلة الموصول. ﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾: فاعل. ﴿ٱلدُّنۡيَاۚ﴾: صفة لها، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَذَكِّرۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿ذكر﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر المنصوب على كونه مفعولاً لأجله، تقديره: وذكر به مخافة إبسال نفس. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُبۡسَلَ﴾. ﴿كَسَبَتۡ﴾: فعل ماض، وتاء تأنيث، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَفۡسُۢ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كسبته. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَيۡسَ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿وَلِيّٞ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿وَلِيّٞ﴾: اسم ليس مؤخر. ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ مستأنفة، أو حال من ﴿نَفۡسُۢ﴾ أو صفة لها، كما

ذكره «أبو السعود».

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَعۡدِلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَفۡسٌ﴾. ﴿كُلَّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿عَدۡلٖ﴾: مضاف إليه. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُؤۡخَذۡ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلَّ عَدۡلٖ﴾. ﴿مِنۡهَآۗ﴾: متعلق به، وجملة ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿أُبۡسِلُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُبۡسِلُواْ﴾. ﴿كَسَبُواْۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كسبوه. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿شَرَابٞ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾: صفة لـ﴿شَرَابٞ﴾، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثان لأولئك، أو في محل النصب حال من ضمير ﴿أُبۡسِلُواْ﴾، أو من الموصول، أو مستأنفة. ﴿وَعَذَابٌ﴾: معطوف على ﴿شَرَابٞ﴾. ﴿أَلِيمُۢ﴾: صفة لـ﴿عذاب﴾. ﴿بِمَا كَانُواْ﴾: الباء: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب كفرهم، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر في قوله: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ المفاتح: جمع مفتح ـ بفتح الميم وكسر التاء ـ بمعنى: المخزن، فيكون اسم مكان، والمخزن ـ بفتح الميم وكسر الزاي ـ: المكان الذي يخزن فيه الجواهر النفيسة وغيرها، أو جمع مفتح بكسر الميم وفتح التاء، والمفتح: هو المفتاح الذي تفتح به الأقفال، فيكون اسم الآلة، ففي

الكلام استعارة كما سيأتي في مبحثها.

وفي «السمين»: في المفاتح ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: أنه جمع مفتح بكسر الميم، والقصر مع فتح التاء، وهو الآلة التي يفتح بها، كمنبر ومنابر.

والثاني: أنه جمع مفتح بفتح الميم وكسر التاء، كمسجد، وهو المكان، ويؤيده تفسير ابن عباس بقوله: هي خزائن المطر.

والثالث: أنه جمع مفتاح بكسر الميم والألف، وهو الآلة أيضاً إلا أن هذا فيه ضعف من حيث إنه كان ينبغي أن تقلب ألف المفرد ياء، فيقال: مفاتيح كدنانير، ولكنه قد نقل في جمع مصباح مصابيح، وفي جمع محراب محاريب، وهذا كما أتوا في جمع ما لا مدّ في مفرده، كقولهم: دراهم وصياريف في جمع: درهم وصيرف، فزادوا في هذا ونقصوا في ذلك. وقد قرىء ﴿مفاتيح﴾ كما مرَّ، وهي تؤيِّد أن مفاتح جمع: مفتاح، وإنما حذفت مدته، وجوز الواحدي أن يكون مفاتح جمع: مَفتح ـ بفتح الميم والتاء ـ كمذهب على أنه مصدر، فعلى هذا مفاتح جمع: مفتح بمعنى: الفتح، ويكون المعنى: وعنده فتوح الغيب؛ أي: هو يفتح الغيب على من يشاء من عباده. اهـ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والبحر[2]: كل مكان واسعٍ حاوٍ للكثير من الماء، والبر: ما يقابله.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ والسقوط: الوقوع من علو، والورقة واحدة الورق من النبات والكاغد، وهي معروفة، والرطب واليابس معروفان، يقال: رطب فهو رطيب، ورطب ويبس فهو يابس ويبيس، وشذ فيه يبس بحذف الياء وكسر الباء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ التوفي: أخذ الشيء وافياً؛ أي: تاماً كاملاً، ويقابله التوفية وهو إعطاء الشيء تاماً كاملاً، ويقال: وفاه حقه فتوفاه منه، قال تعالى:

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾، ويقال: توفاه واستوفاه: أحصى عدده، ثم أطلق التوفي على الموت؛ لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذاً تاماً، وأطلق على النوم كما في الآية، وفي آية الزمر.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ والجرح: يطلق على العمل والكسب بالجوارح، وعلى التأثير الدامي من السلاح، وما في معناه كالبراثن والأظفار والأنياب من سباع الطير والوحش، وتسمى الخيل والأنعام المنتجة جوارح أيضاً؛ لأن نتاجها كسبها، والجرح كالكسب، يطلق على الخير و الشر، والاجتراح فعل الشر خاصة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾. وفي «المصباح»: وجرح من باب نفع، واجترح عمل بيده واكتسب، ومنه قيل لكواسب الطير والسباع: جوارح جمع: جارحة؛ لأنها تكسب بيدها.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾؛ أي: يوقظكم من النوم، وعرَّفوا النوم: بأنه فترة طبيعية تهجم على الشخص قهراً عليه، تمنع حواسه الحركة، وعقله الإدراك.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ والحفظة: جمع: حافظ، مثل: كتبة وكاتب، وهو جمع[1] منقاس لفاعل وصفاً مذكراً صحيح اللام عاقلاً، وقلَّ فيما لا يعقل، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَشَاعَ نَحْوُ كَامِلٍ وَكَمَلَهْ

والمراد بالحفظة هنا: الكرام الكاتبون من الملائكة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والظلمات جمع: ظلمة، وهي عدم الضوء، وهي[2] ضربان: ظلمات حسية؛ كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، وظلمات معنوية؛ كظلمة الجهل بالمسالك والطرق، وظلمة فقد الأعلام والمنار، وظلمة الشدائد والأخطار؛ كالعواصف والأعاصير وهياج البحار إلى نحو ذلك من الشدائد التي تبطل الحواس، وتدهش العقول. قال الزجاج: تقول

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

العرب لليوم الذي فيه شدة: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب؛ أي: أنه قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل في ظلمته، وفي المثل؛ أي: رأى الكواكب ظهراً؛ أي: أظلم عليه يومه لاشتداد الأمر فيه حتى كأنه أبصر النجم نهاراً.

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ التضرع: تفعل من الضراعة، وهو المبالغة في الضراعة، وهي الذل والخضوع، والمراد منه هنا: ما كان صادراً عن الإخلاص الذي يثيره الإيمان الفطري المطوي في أنفس البشر. والخفية ـ بضم الخاء وكسرها ـ: الخفاء والاستتار. والدعاء قد يكون بالجهر ورفع الصوت مع البكاء، وقد يكون بالإسرار هرباً من الرياء، فتارة يجأر المرء بالدعاء رافعاً صوته متضرعاً مبتهلاً، وأخرى يسر الدعاء ويخفيه مخلصاً ومحتسباً، ويتحرى أن لا تسمعه أذن، ولا يعلم به أحد، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول، وأرجى لنيل المسؤول. والخفية ـ بضم الخاء وكسرها ـ كما مرَّ: اسم مصدر من أخفى الشيء يخفي إخفاءً وخفية إذا ستره.

وقرأ الأعمش: ﴿خِيفة﴾ كما مرَّ بكسر الخاء وتقديم الياء الساكنة على الفاء، وهي من الخوف، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وسكونها.

﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ والكرب: الغم الشديد، يأخذ بالنفس، ومنه رجل مكروب قال عنترة:

وَمَكْرُوْبٍ كَشَفْتُ ٱلْكَرْبَ عَنْهُ ... بِطَعْنَةِ فَيْصَلٍ لَمَّا دَعَانِيْ

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾؛ أي: يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط إتفاق، فيجعلكم فرقاً مختلفة لا فرقة واحدة. ومعنى خلطهم[1]: إنشاب القتال بينهم، فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال، كقول الشاعر:

وَكَتِيْبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيْبَةٍ ... حَتَّىٰ إِذَا ٱلْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِيْ

فَتَرَكْتُهُمْ تَقِصُ ٱلرِّمَاحُ ظُهُوْرَهُمْ ... مَا بَيْنَ مُنْعَفِرٍ وَآخَرَ مُسْنَدِ

والشيع جمع: شيعة، وهم كل قوم اجتمعوا على أمر واحد.

---

(١) البحر المحيط.

وفي «الفتوحات»[1]: والشيع جمع: شيعة، كسدرة وسدر، والشيعة من يتقوَّى به الإنسان، والجمع: شيع كما تقدم وأشياع، كذا قاله الراغب، والظاهر أن أشياعاً جمع: شيع كعنب وأعناب وضلع وأضلاع، وشيع جمع: شيعة، فهو جمع الجمع اهـ «سمين». وفي «القاموس»: وشيعة[2] الرجل ـ بالكسر ـ: أتباعه وأنصاره، والفرقة على حدة، وتقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولَّى علياً وأهل بيته، حتى صار اسماً لهم خاصَّةً، والجمع: أشياع وشيع؛ كعنب. انتهى.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وهذا هو ما عليه الناس اليوم من الاختلافات وسفك بعضهم دماء بعض، والبأس: العذاب الشديد، كما في «المصباح».

﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نحولها من نوع إلى آخر من فنون الكلام تقريراً للمعنى: وتقريباً إلى الفهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الفقه: فهم الشيء بدليله وعلته المفضي إلى الاعتبار والعمل به.

﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ والوكيل: هو الذي توكل إليه الأمور. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ والنبأ: الشيء الذي ينبأ عنه، والمستقر: يصح كونه مصدراً، واسم مكان أو زمان؛ أي: استقرار أو مكانه أو زمانه.

﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ الخوض[3]، في اللغة: هو الشروع في الماء والعبور فيه، ويستعار للأخذ في الحديث والشروع فيه، يقال: تخاوضوا في الحديث وتفاوضوا فيه، لكن أكثر ما يستعمل الخوض في الحديث على وجه اللعب والعبث.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ والذكرى مصدر: ذكر يذكر ذكرى، جاء على وزن: فعلى، وألفه للتأنيث، ولم يجيء مصدر على فعلى غيره. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أصل[4] البسل في اللغة: التحريم والمنع، ومنه: هذا عليك بسل؛ أي: حرام

---

(١) الجمل.
(٢) القاموس المحيط.
(٣) الخازن.
(٤) الفتوحات.

ممنوع اهـ «خازن».

وعبارة «أبي السعود»: وأصل البسل والإبسال: المن، ومنه: أسد باسل؛ لأن فريسته لا تفلت منه، أو لأنه ممتنع، والباسل: الشجاع؛ لامتناعه من قرنه، وهذا بسيل عليك؛ أي: حرام ممنوع اهـ.

وفي «المختار»: وأبسله: أسلمه، فهو بسيل، وقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال أبو عبيدة: أن تسلم، والمستبسل: الذي يوطّن نفسه على الموت أو الضرب، وقد استبسل؛ أي: استقتل، وهو أن يطرح نفسه في الحرب ويريد أن يقتل أو يقتل لا محالة، وفسر هنا: بالحبس في النار، وبالحرمان من الثواب وبالفضيحة.

قال أبو حيان: الإبسال: تسليم المرء نفسه للهلاك، ويقال: أبسلت ولدي: أرهنته قال الشاعر:

وَإِبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ ... بَعُوْنَاه وَلاَ بِدَمٍ مُرَاقِ

بعوناه: جنيناه، والبعو: الجناية. انتهى.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾؛ أي: تفتد بكل فداء كما عبر به «الخازن»، وعدل بهذا المعنى من باب ضرب.

وفي «المصباح»: يقال: عدلت هذا بهذا عدلاً من باب ضرب إذا جعلته مثله قائماً مقامه، والعدل أيضاً: الفدية، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾. اهـ.

وفي «البيضاوي»: والعدل: الفدية؛ لأنها تعادل المفدى، و﴿كُلَّ﴾ نصب على المصدر.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وشراب[1]: فعال بمعنى: مفعول، وفعال بمعنى: مفعول؛ كطعام بمعنى: مطعوم لا ينقاس، لا يقال: أكال بمعنى مأكول، وضراب

---

(١) الفتوحات.

بمعنى: مضروب، والحميم: الماء الشديد الحرارة، وأليم: شديد الألم، فكلاهما صيغة مبالغة على وزن فعيل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنه استعار المفاتح للأمور الغيبية، كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات، قال الزمخشري: جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال، فهو سبحانه العالم بالمغيبات وحده، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، فإنه استعار التوفي من الموت للنوم؛ لأن التوفي حقيقة في الموت لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز.

ومنها: الترشيح في قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ وهو ذكر ما يلائم المستعار منه. قال القاضي: أطلق البعث ترشيحاً للتوفي؛ أي: لما استعير التوفي من الموت للنوم.. كان البعث ـ الذي هو في الحقيقة الإحياء بعد الموت ـ ترشيحاً؛ لأنه أمر يلائم المستعار منه اهـ «كرخي».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ لأنه استعار الظلمات المعطلة لحاسة البصر للشدائد الهائلة التي تبطل الحواس وتدهش العقول، وفي قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ لأن الذوق حقيقة في المذوقات.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لأن الخوض حقيقة في الانغماس في الماء، فاستعير للأخذ في الحديث والشروع فيه على وجه اللعب واللهو، وقيل: الخوض كناية عن الاستهزاء بها والطعن فيها.

ومنها: الحصر في مواضع، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد حصره في الخبر، وكقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، وقوله:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾، وقوله: ﴿رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿فوق وتحت﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للتسجيل عليهم بقبح ما ارتكبوا؛ حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم، وحق العبارة أن يقال: فلا تقعد معهم كما مر.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ من إسناد ما للسبب إلى المسبب؛ لأن المراد بالإسناد أسباب الموت ومقدماته.

ومنها: الاستفتاح والتنبيه في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر جزاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بأنه لا ولي لهم ولا شفيع من دون الله، وأنهم مبسلون في عذاب جهنم، ولهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.. أمر نبيه ﷺ بأن يقول لهم هذه المقالة؛ أي: كيف ندعوا من دون الله أصناماً لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن أردنا منها نفعاً، ولا نخشى ضرها بوجه من الوجوه،

ومن كان هكذا.. فلا يستحق العبادة توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم عبادتها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه يحشر إلى جزائه العالم، وهو منتهى ما يؤول إليه أمرهم.. ذكر مبتدأ وجود العالم وخلقه له بالحق؛ أي: بما هو حق لا عبث فيه ولا هو باطل؛ أي: لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً، بل صدرا عن حكمة وصواب، وليستدل بهما على وجود الصانع؛ إذ هذه المخلوقات العظيمة الظاهر عليها سمات الحدوث، لا بد لها من محدث واحد عالم قادر مريد سبحانه جلَّ وعلا.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الجملة لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر خلق الخلق وسرعة إيجاده لما يشاء، وتضمن البعث إفنائهم قبل ذلك.. ناسب ذكر الوصف بالحكيم، ولما ذكر أنه عالم الغيب والشهادة.. ناسب ذكر الوصف بالخبير، إذ هي صفة تدل على علم ما لطف إدراكه من الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.. ناسب ذكر هذه الآية هنا، وكان التذكار بقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه أنسب لرجوع العرب إليه؛ إذ هو جدهم الأعلى، فذكِّروا بأن إنكار هذا النبي محمد ﷺ عليكم عبادة الأصنام هو مثل إنكار جدكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادتها، وفي ذلك التنبيه على اقتفاء من سلف من صالحي الآباء والأجداد، وهم وسائر الطوائف معظِّمون لإبراهيم عليه السلام.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ...﴾ الآية، سبب

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن زجر عن بكر بن سوادة قال: حمل رجل من العدو على المسلمين، فقتل رجلاً، ثم حمل، فقتل رجلاً آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فضرب فرسه فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه، فقتل رجلاً ثم آخر، ثم قتل. قال فيرون: إن هذه الآية نزلت فيه. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى دين آبائهم ﴿أَنَدْعُواْ﴾؛ أي: نعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين عبادة الله الضار النافع ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؛ أي: الأصنام التي لا تنفعنا في الدنيا والآخرة إن عبدناها، ولا تضرنا إن تركنا عبادتها، وأدنى مراتب المعبودية: القدرة على ذلك؛ أي: لا ينبغي لنا ولا يمكن منا أن نعبد غير الله سبحانه وتعالى بعد أن هدانا الله تعالى إلى الإسلام والتوحيد، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ ﴿و﴾ هل ﴿نرد على أعقابنا﴾؛ أي: وهل نرجع وراءنا وخلفنا إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وأرشدنا إلى دينه وأكرمنا به، لا نرجع إلى الشرك، ويقال لكل[2] من أعرض عن الحق إلى الباطل: أنه رجع إلى خلف، ورجع على عقبيه؛ لأن الأصل في الإنسان هو الجهل، ثم إذا تكامل حصل له العلم، فإذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى.. فكأنه رجع إلى أول مرة. والمعنى[3]: قل يا محمد للآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعوا من دون الله تعالى حجراً أو شجراً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع، والحياة والموت؟ إن كنتم تعقلون.. فتميزون بين الخير والشر، ولا شك أن خدمة من يرتجى نفعه ويرهب ضره أحق وأولى من خدمة ما لا يرجى منه شيء منهما، وهل نرد على أعقابنا بالعودة إلى الضلال والشرك بعد إذ هدانا الله

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

إلى الإسلام والتوحيد؟

والخلاصة: أن ذلك لا ينبغي لنا ولا يقع منا للأسباب الآتية:

١ ـ أن هذا تحول وارتداد عن دعاء القادر الذي يكشف الضر إن شاء، ويمنح الخير إن شاء إلى دعاء العاجز الذي لا يقدر على نفع ولا ضر.

٢ ـ أنه رد على الأعقاب، وتقهقر إلى الوراء.

٣ ـ أن من أنقذه الله القدير الرحيم من الضلالة بما أراه من آياته في الأنفس والآفاق لا يقدر أحد أن يضله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم ضرب مثلاً يصوِّر المرتد في أقبح حالة كانت تتخيلها العرب، فقال: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنرد على أعقابنا ونرجع إلى الشرك حالة كوننا مشبهين بالشخص الذي استهوته واختطفته وأضلته الشياطين والغيلان ومردة الجن عن الطريق الموصل إلى المقصد، واستتبعته وألقته في الهوية والبراري والصحارى من الأرض حالة كونه ﴿حَيْرَانَ﴾؛ أي: متحيراً في شأنه لا يدري أين يذهب، لضلاله عن الطريق ﴿لَهُۥٓ﴾؛ أي: لذلك المستهوى الضال عن الطريق ﴿أَصْحَـٰبٌ﴾ ورفقة ﴿يَدْعُونَهُۥٓ﴾ وينادونه ليردوه ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾؛ أي: إلى الطريق الذي أخطأ عنه قائلين في ندائهم: ﴿ٱئْتِنَا﴾ وجئنا وأقبل إلينا، فإن الطريق ههنا، فلا يسمعهم ولا يجيبهم، فيهلك في الصحارى؛ أي: لا ينبغي لنا أن نكون مثل ذلك المستهوى الضال عن الطريق. والمعنى؛ أي: أنرد على أعقابنا، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان يهوى ويضل في الأرض حيران تائهاً، له أصحاب على المحجة واستقامة السبيل يدعونه إلى طريق الهدى الذي هم عليه، ويقولون له: ائتنا.

وخلاصة المثل[1]: أن من يرتد مشركاً بعد الإيمان.. كمن جعله العشق أو

---

(١) المراغي.

الجنون هائماً على وجهه ضالاً في الفلوات حيران لا يهتدي، تاركاً رفاقه على الطريق المستقيم ينادونه: عد إلينا وارجع، فلا يستجيب لهم لانجذابه وراء ما تراءى له بغير عقل ولا بصيرة. قال صاحب «الكشاف»: وهذا مبني على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من أن الجن تستهوي الإنسان وتختطفه، والغيلان تستولي عليه، كما قال تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾. قال ابن عباس[1]: مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول فيتبعه، فيصبح وقد ألقته في مهمهٍ ومهلكة، فهو حائر في تلك المهامه. وحمل الزمخشري ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ على أنه من الهوى الذي هو المودة والميل؛ كأنه قيل: كالذي أمالته الشيطان عن الطريق الواضح إلى المهمه القفر، وحمله غيره كأبي عليٍّ على أنه من الهُويّ بمعنى: السقوط؛ أي: ألقته في هوة ووهدة، ويكون استفعل بمعنى: أفعل، نحو استزل وأزل.

وقرأ السلمي والأعمش وطلحة[2]: ﴿استهوته الشيطان﴾ بالتاء، وإفراد الشيطان. وقال الكسائي: إنها كذلك في مصحف ابن مسعود انتهى. والذي نقلوا لنا القراءة عن ابن مسعود إنما نقلوه الشياطين جمعاً. وقرأ الحسن: ﴿الشياطون﴾، وتقدم، وقد لحن في ذلك، وقد قيل: هو شاذ قبيح، وفي مصحف عبد الله: ﴿أتينا﴾ فعلاً ماضياً لا أمراً، فـ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾ متعلق به.

ثم أمره أن يرغب المشركين فيما يدعو إليه، لا فيما يدعونه إليه، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن[3] طريق الله الذي أوضحه لعباده ودينه الذي شرعه لهم ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ والنور والاستقامة لا عبادة الأصنام؛ لأن ما وراءه ضلال، ففيه زجر عن عبادتها، كأنه يقول: لا نفعل ذلك، فإن هدى الله هو الهدى، لا هدى غيره، والمعنى: قل لهم يا محمد: إن هدى الله الذي أنزل به آياته، وأقام عليه حججه وبيناته هو الهدى الحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.

ولا من خلفه، لا ما تدعون إليه من أهوائكم اتباعاً لما ألفيتم عليه آبائكم. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وقل لهم يا محمد: وأمرنا بأن نسلم ونخلص العبادة لله سبحانه وتعالى مالك العالمين، فأسلمنا لأنه هو الذي يستحق العبادة منا لا غيره، والآمر هو الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: واتقوا رب العالمين؛ أي: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله؛ لأن فيهما ما يقرب إليه، والمعنى: وأمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة وبالتقوى. وإقامة[1] الصلاة: الإتيان بها على الوجه الذي شرعت لأجله، وهي: أن تزكّي النفس بمناجاة الله وذكره، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، والتقوى: اتقاء ما يترتب عليه مخالفة دين الله وشرعه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى لقائه ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتجمعون؛ أي: وهو سبحانه وتعالى الذي تجمعون وتساقون إلى لقائه يوم القيامة دون غيره، فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يعبد أو يخاف أو يرجى غيره تعالى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد على غير مثال سابق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع وما فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها خلقاً ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمة، وهو أنه على وفق سننه المطردة المشتملة على الحكم البالغة الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته البالغة، ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً، فهو لا يترك الناس سدى، بل يجزي كل نفس بما كسبت، ونحو هذه الآية قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ ظرف لقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: وقوله سبحانه وتعالى هو الحق الواقع الذي لا شك فيه حين يقول للشيء الذي أراد إيجاده: كن؛ أي: اخرج من العدم، فيكون؛ أي: فيوجد ذلك الشيء الذي

---

(١) المراغي.

تعلقت إرادته بإيجاده، وهو وقت إيجاد العالم وتكوينه، فلا مرد لأمره، ولا تخلف لقضائه وحكمه، ومن كان أمره التكويني مطاعاً.. يكون أمره التكليفي كذلك واجب الطاعة بلا حرج في النفس ولا ضيق منه، فالخلق حق، والأمر حق: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

والمراد من هذا الأمر[1]: التنبيه على نفاذ قدرته ومشيئته في تكوين الكائنات، وهذا بيان أن خلقه تعالى للسموات والأرض ليس مما يتوقف على مادة ولا مدة، بل يتم بمحض الأمر التكويني من غير توقف على شيء آخر أصلاً. والمراد بالقول كلمة: ﴿كُن﴾ تمثيل، لأن سرعة قدرته تعالى أقل زمناً من زمن النطق بـ﴿كُن﴾.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى خاصة ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والسلطنة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ وينادى ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ لبعث الخلائق، وهو يوم القيامة؛ أي: وله سبحانه وتعالى الملك يوم الحشر يوم يبعث من في القبور، وينفخ في الصور، والأمر حينئذ للّه وحده، ولا تملك نفس لنفس شيئاً من خير أو شر، أو نفع أو ضر، فكيف يرضى لنفسه من يعرف هذه الحقائق أن يدعو سواه، ويتخذ له إلهاً غير الله، ويرد على عقبيه ويرجع إلى أسوأ حاليه؟! وإنما أخبر[2] سبحانه وتعالى عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له تعالى خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة؛ لأنه لا منازع له يومئذ يدّعي الملك، وأنه المنفرد بالملك يومئذ، وأن من كان يدعي الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم، واعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار، وأنه لا منازع له فيه، وعلموا أن الذي كانوا يدعونه من الملك في الدنيا باطل وغرور.

واختلفت[3] العلماء في ﴿ٱلصُّورِ﴾ المذكور في الآية، فقال قوم: هو قرن ينفخ فيه، وهو لغة أهل اليمن. قال مجاهد: الصور قرن كهيئة البوق، ويدل على

---

(١) المراح.

(٢) الخازن.

(٣) الخازن.

صحة هذا القول: ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه». أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ»، فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: كيف نفعل يا رسول الله؟ وكيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»، وربما قال: «توكلنا على الله» أخرجه الترمذي. وقال أبو عبيدة: الصور جمع صورة، ومعنى النفخ فيها إحياؤها بنفخ الروح فيها، وهذا قول الحسن ومقاتل. والقول الأول أصح؛ لما تقدم في الحديث، ولقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، ولاجماع أهل السنة على أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفختين: نفخة الصعق، ونفخة البعث للحساب.

وقرأ الحسن[1]: ﴿الصور﴾ بتحريك الواو، وحكاها عمرو بن عبيد عن عياض، ويؤيد تأويل من تأوله أن الصور جمع صورة؛ كثومة وثوم. وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿ننفخ﴾ بنون العظمة.

وهو سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم ما غاب عن عباده وما يشاهدونه ويعلمونه، فلا يغيب عن علمه شيء. قال الحسن: الغيب: ما غاب عنكم مما لم تروه، والشهادة: ما قد رأيتم من خلقه. وقال ابن عباس: الغيب والشهادة: السر والعلانية: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله وتدبير خلقه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بكل ما يفعلونه من خير وشر.

والمعنى[2]: أن الذي خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، والذي قوله الحق تكويناً وتكليفاً، والذي له الملك وحده يوم يحشر الخلائق: هو عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، وهو الخبير بدقائقها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

وخفاياها، ولا يشذ عن علمه شيء منها، فلا ينبغي لعاقل أن يدعو غيره معه كما قال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾.

وقرأ الأعمش[1]: ﴿عالمِ﴾ بالخفض، ووُجِّه على أنه بدل من الضمير في: ﴿له﴾، أو من ﴿رب العالمينَ﴾ أو نعت للضمير في ﴿له﴾، والأجود الأول؛ لبعد المبدل منه في الثاني، وكون الضمير الغائب يوصف إنما أجازه الكسائي وحده، وليس مذهب الجمهور.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الذين لقناك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم - إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم - قصص جدهم إبراهيم الخليل الذي يعظمونه ويدَّعون اتباع ملته، حين جادل قومه وراجعهم في بطلان ما كانوا يعملون؛ إذ قال لأبيه آزر منكراً عليه وعلى قومه، وعائباً عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه: يا أبتِ ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها وتجعلها معبوداً لك من دون الله الذي خلقك وخلقها، فهو المستحق للعبادة دونها والأصنام: جمع صنم، وهو ما صوِّر على هيئة الإنسان، وعبد من دون الله، سواء كا ن من خشب أو حجر أو ذهب أو فضة أو غير ذلك، ذكره «الصاوي». ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ يا أبتِ ﴿وَقَوْمَكَ﴾ الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ وخطأ عن الصراط المستقيم. ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: واضح ذلك الضلال لا شبهة فيه للهدى، فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها بأيديكم من الحجارة، أو تقطعونها من الخشب، أو تصنعونها من المعادن، فأنتم أرفع منها قدراً وأعز جانباً، ولم تكن آلهة بذاتها، بل باتخاذكم إياها آلهة، ولا يليق بالعاقل أن يعبد ما هو مساوٍ له في الخلق، ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه، ومحتاج إلى الغني القادر، ولا يقدر على شيء لا نفع ولا ضر، ولا إعطاء ولا منع.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور: ﴿ءَازَرَ﴾ بفتح الراء. وقرأ أبي وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم بضم الراء على النداء، وكونه علماً، ولا يصح أن يكون صفة لحذف حرف النداء، وهو لا يحذف من الصفة إلا شذوذاً. وفي مصحف أبي: ﴿يا آزر﴾ - بحرف النداء - ﴿اتخذت أصناماً﴾ بالفعل الماضي. فيحتمل العلمية والصفة. وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿أأزراً تتخذ أصناماً﴾ بهمزة استفهام وفتح الهمزة بعدها وسكون الزاي ونصب الراء منونة، وحذف همزة الاستفهام من ﴿أتتخذ﴾. قال ابن عطية: المعنى: أعضداً وقوة ومظاهرة على الله تتخذ، وهو من قوله: ﴿اشدد به أزرى﴾. وقال الزمخشري: هو اسم صنم، ومعناه: أتعبد أزراً على الإنكار، ثم قال: أتتخذ أصناماً آلهةً؛ تبييناً لذلك وتقريراً، وهو داخل في حكم الإنكار؛ لأنه كالبيان له. وقرأ ابن عباس أيضاً وأبو إسماعيل الشامي: ﴿أإزراً﴾ بكسر الهمزة بعد همزة الاستفهام ﴿تتخذ﴾. قال ابن عطية: ومعناها: إنها مبدلة من واو، كوسادة وإسادة، كأنه قال: أوزراً ومأثماً تتخذ أصناماً، ونصبه على هذا بفعل محذوف. وقرأ الأعمش: ﴿إزرا تتخذ﴾ بكسر الهمزة وسكون الزاي ونصب الراء وتنوينها، وبغير همزة استفهام في ﴿تتخذ﴾، وذكره أبو حيان في «البحر».

واختلف[1] العلماء في لفظ ﴿ءَازَرَ﴾. فقال محمد بن إسحاق والكلبي والضحاك: آزر: اسم أبي إبراهيم، وهو تارح، ضبطه بعضهم بالحاء المهملة، وبعضهم بالخاء المعجمة، فعلى هذا يكون لأبي إبراهيم اسمان: آزر وتارح، مثل يعقوب وإسرائيل: اسمان لرجل واحد، فيحتمل أن يكون اسمه الأصلي: آزر، وتارح لقب له، أو بالعكس، والله سماه آزر، وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح؛ ليعرف بذلك، وكان آزر أبو إبراهيم من كوثى، وهي قرية من سواد الكوفة. وقال سليمان التيمي: آزر: سب وعيب، ومعناه في كلامهم المعوج. وقيل: الشيخ الهرم، وهو بالفارسية، وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن ألفاظاً قليلة فارسية، وقيل: هو المخطىء، فكأن إبراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق. وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: آزر: اسم صنم كان والد

---

(١) الخازن.

إبراهيم يعبده، وإنما سماه بهذا الاسم؛ لأن من عبد شيئاً أو أحبه.. جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماً له، فهو كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾. وقيل: معناه: وإذ قال إبراهيم لأبيه يا عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. والصحيح هو الأول: أن آزر اسم لأبي إبراهيم؛ لأن الله تعالى سماه به، وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح، ففيه نظر؛ لأنهم إنما نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم.

وقد أخرج البخاري في «أفراده» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة..» الحديث، فسماه النبي ﷺ: آزر أيضاً، ولم يقل: أباه تارح، فثبت بهذا أن اسمه الأصلي آزر لا تارح، والله أعلم. وقيل: كان آزر من أهل حران، وهو تارح بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، ذكره أبو حيان في «البحر». وإبراهيم اسم خليل الرحمٰن أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح، وهو العاشر من أولاد سام كما في سفر التكوين من التوراة، ولد في بلدة: أور؛ أي: النور، من بلاد الكلدان، وهي المعروفة الآن باسم: أورفا في ولاية حلب كما يرجح ذلك المؤرخون. ومعنى إبراهيم: أبو الجمهور العظيم؛ أي: أبو الأمة، وهو تبشير من الله له بتكثير نسله من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

وقد أثبت علماء الآثار(١) أن عرب الجزيرة سكنوا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر، وغلبت لغتهم فيهما، ونقل بعض المؤرخين أن الملك حمورابي الذي كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام عربي، وقد أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية في الوادي الذي بنيت فيه مكة، وأن الله سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هناك، والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما أرينا إبراهيم الحق في أمر أبيه وقومه، وهو أنهم

---

(١) المراغي.

كانوا في ضلال مبين في عبادتهم للأصنام والأوثان ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أريناه مرة بعد مرة ملكوت السموات والأرض؛ أي: خلقهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع، فأريناه تلك الكواكب التي تدور في أفلاكها على وضع لا تعدوه، وأريناه الأرض وما في طبقاتها المختلفة من أصناف المعادن النافعة للإنسان في معاشه إذا هو استخدمها على الوجه الصحيح الذي أرشدناه إليه، وجلينا له بواطن أمورها وظواهرها، مما يدل على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا بكل شيء. والمعنى[1]: وكما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام.. نريه ملكوت السموات والأرض، فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه على غير الحق فخالفهم، فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السموات والأرض، فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى، والملكوت: الملك، زيدت فيه التاء للمبالغة، كالرهبوت والرغبوت والرحموت: من الرهبة والرغبة والرحمة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السموات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخرة، وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب، وحتى رأى مكانه في الجنة، فذلك قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: أريناه مكانه في الجنة، وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين، ورأى ما فيها من العجائب. وقرأ[2] أبو السمال: ﴿ملكوت﴾ - بسكون اللام -: وهي لغة بمعنى: الملك. وقرأ عكرمة: ﴿ملكوث﴾ بالثاء المثلثة. وقال: ﴿ملكوثا﴾ باليونانية والقبطية. وقال النخعي: هي ﴿ملكوثا﴾ بالعبرانية. وقرىء: ﴿وكذلك ترى﴾ بالتاء من فوق ﴿إبراهيم ملكوت﴾ - برفع التاء -؛ أي: تبصره دلائل الربوبية.

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ معطوف على محذوف معلوم من السياق تقديره: وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليقيم بها الحجة على

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

المشركين الضالين، وليكون في خاصة نفسه من الموقنين؛ أي: من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين عين اليقين. وقيل: الواو زائدة، ومتعلق ﴿ٱلْمُوقِنِينَ﴾ محذوف تقديره: من الموقنين بوحدانية الله وقدرته، وقيل: بنبوته ورسالته. واليقين وكذا الإيقان: عبارة[1] عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة؛ لأن الإنسان في أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت.. صارت سبباً لحصول اليقين والطمأنينة في القلب، وزالت الشبهة عند ذلك.

ثم فصل سبحانه ما أجمله من رؤية ملكوت السموات والأرض، فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾؛ أي: إنه سبحانه وتعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض.. كان من أول أمره في ذلك أنه لما جن وأظلم عليه الليل وستر عنه ما حوله من عالم الأرض.. نظر في ملكوت السموات فـ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ عظيماً ممتازاً عن سائر الكواكب بإشراقه وبريقه ولمعانه، وهو كوكب: المشتري الذي هو أعظم آلهة بعض عبّاد الكواكب من قدماء اليونان والرومان، وهو في السماء السادسة. وقيل: هو الزهرة، وهي في السماء الثالثة، وبالجملة فالكوكب من السبعة السيارة المجموعة في قول بعضهم:

زُحَلٌ شَرَىٰ مَرِّيْخَهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلأَقْمَارَا

وكان قوم إبراهيم أئمتهم في هذه العبادة، وهم لهم مقتدون، فلما رآه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَٰذَا﴾ الكوكب ﴿رَبِّى﴾ ومعبودي في زعمكم؛ أي: قال هذا في مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيداً للإنكار عليهم، فحكى مقالتهم أولاً ليستدرجهم إلى سماع حجته على بطلانها، فأوهمهم أولاً أنه موافق لهم على زعمهم ثم كر عليه بالنقض بانياً دليله على الحس والعقل ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ وغاب وغرب هذا الكوكب واحتجب عنه ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾؛ أي: لا أحب الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان، المتغيرين من حال إلى حال، المحتجبين

---

(١) الخازن.

بالأستار؛ أي: لا أحب[1] رباً يغيب ويحتجب؛ إذ من كان سليم الفطرة لا يختار لنفسه حب شيء يغيب عنه ويوحشه فقده، فما بالك بحب العبادة له الذي هو أعلى أنواع الحب وأكمله؛ لأنه قد هدت إليه الفطرة، وأرشد إليه العقل السليم، فلا ينبغي أن يكون إلا للرب الحاضر القريب السميع البصير الرقيب، الذي لا يغيب ولا يغفل ولا ينسى ولا يذهل، الظاهر في كل شيء بآياته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

والباطن في كل شيء بحكمته ولطفه الخفي: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾، وقد جاء في الحديث في وصف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والخلاصة: أن في هذا تعريضاً بجهل قومه في عبادة الكواكب، إذ يعبدون ما يحتجب عنهم ولا يدري شيئاً من أمر عبادتهم، وهذا قريب من قوله لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾. وإنما احتج[2] إبراهيم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأن الاحتجاج بالأفول أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب، وجاء بلفظ ﴿ٱلْـَٔافِلِينَ﴾؛ ليدل على أن ثَمَّ آفلين كثيرين ساواهم هذا الكوكب في الأفول، فلا مزية له عليهم في أن يعبد للاشتراك في الصفة الدالة على الحدوث.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ إبراهيم ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ حال كونه ﴿بَازِغًا﴾؛ أي: طالعاً من وراء الأفق أول طلوعه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَٰذَا﴾ القمر الطالع ﴿رَبِّي﴾؛ أي: معبودي على طريق الحكاية لما كانوا يقولون؛ تمهيداً لإبطاله كما علمت فيما سلف، والمتبادر من سياق الكلام أن إبراهيم رأى الكوكب في ليلة، ورأى القمر في الليلة التالية ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ القمر وغاب، كما أفل الكوكب وهو أكبر منه منظراً وأسطع نوراً وأقوى منه ضياء ﴿قَالَ﴾ إبراهيم مسمعاً من حوله من قومه: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾؛ أي: لئن لم يثبتني ربي على الهداية ويوفقني للحجة، وليس المراد

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أنه لم يكن مهتدياً؛ لأن الأنبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة. وفي الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى. ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين أخطؤوا الحق في ذلك، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله، واتبعوا أهواءهم، ولم يعملوا بما يرضيه سبحانه وتعالى.

وفي هذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه، وإرشاد إلى توقف الهداية على الوحي الإلهي، وقد انتقل في المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم، والتصريح بأنهم على شرك بيِّن بعد أن تبلج الحق وظهر غاية الظهور، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ﴾ حالة كونها ﴿بَازِغَةً﴾؛ أي: طالعة من وراء الأفق ﴿قَالَ﴾ إبراهيم مشيراً إليها ﴿هَٰذَا﴾ الطالع، أو هذا الذي أرى الآن هو ﴿رَبِّي﴾؛ أي: معبودي، وإنما قال هذا ولم يقل هذه مع كون الشمس مؤنثة، قيل: نظراً لكونها بمعنى: الطالع كما أشرنا إليه في الحل، أو نظراً لكون الخبر مذكراً، أو لأن تأنيثها غير حقيقي ﴿هَٰذَآ﴾ الطالع الآن ﴿أَكْبَرُ﴾ من الكوكب والقمر قدراً، وأعظم ضياء ونوراً، فهو أجدر منهما بالربوبية، وفي هذا مبالغة في المجاراة لهم، وتمهيد لإقامة الحجة عليهم، واستدراج لهم إلى التمادي في الاستماع بعد ذلك التعريض الذي كان يخشى أن يصدهم عنه.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ الشمس وغابت كما أفل غيرها من الكوكب والقمر، واحتجب ضوؤها المشرق، وكانت الوحشة بذلك أشدَّ من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر.. صرح بما أراد بعد ذلك التعريض الذي تقدم، و﴿قَالَ﴾ متبرئاً من شرك قومه ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالله من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث.

والخلاصة: أنه حاور وداور وتلطف في القول، وأرخى لخصمه العنان حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجهٍ وأحسن طريق متبرئاً من تلك المعبودات التي جعلوها أرباباً وآلهةً مع الله، وبعد أن تبرأ من شركهم.. قفى تلك البراءة ببيان عقيدته عقيدة التوحيد الخالص، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾؛ أي: إني جعلت توجهي في عبادتي، أو قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل، وذكر الوجه؛

لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: للإله الذي خلق السموات والأرض، وأكمل خلقهن أطواراً في ستة أيام، فهو خالق هذه الكواكب النيرات، وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من المعادن والنباتات حالة كوني ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة التي هي الشرك والخرافات إلى الدين الحق الذي هو التوحيد والإخلاص لله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله شيئاً من المخلوقات، وفي معنى الآية قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

وإسلام[1] الوجه له تعالى: توجه القلب إليه، وعبر عنه به؛ لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من الإقبال أو الإعراض، والسرور أو الكآبة إلى نحو أولئك، وتوجيهه له: جعله يتوجه إليه وحده في طلب حاجته، وإخلاص عبوديته إذ هو المستحق للعبادة القادر على الأجر والثواب. ومراد إبراهيم أنه مائل عن معبوداتهم الباطلة وغيرها، فتوجهه وإسلامه خالص لا يشوبه شرك ولا رياء، وما هو من المشركين به، الذين يتوجهون إلى غيره من المخلوقات كالكواكب أو الملائكة أو الملوك أو ما يتخذ لهم من الأصنام والتماثيل. وظاهر ما حكاه الله عن إبراهيم عليه السلام أن قومه يتخذون الأصنام آلهة لا أرباباً، ويتخذون الكواكب أرباباً آلهة، والإله هو المعبود، وكل من عبد شيئاً.. فقد اتخذه إلٰهاً، والرب هو السيد المالك المربي المدبر المتصرف، وليس للخلق رب ولا إلٰه إلا الله الذي خلقهم، فهو المالك لكل شيء، وفي كل زمن، وعلى كل حال، وملك غيره ناقص موقوت، فهو المعبود بحق، والعبادة: هي التوجه بالدعاء والتعظيم القولي أو الفعلي إلى ذي السلطان الأعلى، خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه.

والأصل[2] في اختراع عبادة غير الله تعالى من حجر أو شجر أو شمس أو

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قمر أمران:

١ ـ أن بعض ضعاف الأحلام رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى في بعض خلقه، فتوهموا أن ذلك ذاتي لهذا المخلوق، ليس خاضعاً لسنن الله في الأسباب والمسببات.

٢ ـ اتخاذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية في مظاهر النفع والضر وسيلة إلى الإلٰه الحق، تشفع عنده، وتقرب إليه كل من توجه إليها، فيتوسل ذو الحاجة إليها بدعائها وتعظيمها بالقول أو الفعل؛ لحمله تعالى بتأثيرها على قبوله وإعطائه سؤاله، وقد أقاموا مقام هذه المخلوقات التماثيل والأصنام والقبور وغيرها مما يذكّر بها، وهذه هي الوثنية الراقية التي كانت عليها العرب زمن البعثة، ومن ثَمَّ كانوا يقولون في طوافهم بالبيت الحرام: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلك.

وكان قوم إبراهيم عليه السلام قد ارتقوا في وثنيتهم إلى هذه المرتبة، إذ إنهم عقلوا أن الأصنام لا تسمع دعاءهم، ولا تبصر عبادتهم، ولا تقدر على نفعهم وضرهم، وإنما قلدوا فيها آباءهم كما سيأتي في حججهم في سورة الشعراء، ومن ثَمَّ اتخذوا الأصنام آلهة معبودين لا أرباباً مدبرين، لكنهم اتخذوا[1] الكواكب أرباباً لما لها من التأثير السببي في الأرض، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب الناس، والقمر يدبر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام، وينصر جندهم ويخذل عدوهم، ويعتقدون أنَّ مرداخ ـ وهو المشتري ـ شيخ الأرباب، ورب العدل والأحكام، وحافظ الأبواب التي يدخلها الخصوم لفصل الخصومات، وأن رنكال ـ وهو المريخ ـ رب الصيد وسلطان الحرب، و أن عشتار ـ وهو الزهرة ـ ربة الغبطة والسرور والسعادة، وتمثل بصورة امرأة عارية، وأن ـ نيو ـ وهو عطارد ـ رب العلم والحكمة.

وجاء إبراهيم بحجته البالغة، فحصر العبادة في فاطر السموات والأرض

---

(١) المراغي.

وحده دون غيره من الوسائل، فقال في تماثيلهم: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ﴾؛ أي: حاج إبراهيم عليه السلام وجادله ﴿قَوْمُهُۥ﴾ وخاصموه ونازعوه في أمر التوحيد، فهو إذ أبان لهم بطلان عبادة الأصنام، وربوبية الكواكب، وأثبت لهم وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده، حاجوه وخاصموه ببيان أوهامهم في شركهم، إذ قالوا: إن اتخاذ الآلهة لا ينافي الإيمان بالله الفاطر للسموات والأرض؛ لأنهم شفعاء عنده، ولما لم يجد ذلك معه.. خوفوه أن تمسه آلهتهم بسوء، وانتهت بهم خاتمة المطاف أن قالوا: إنهم ساروا على ما وجدوا عليه آباءهم، وليس للمقلد أن يحتج، ولكنه يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة إذا قامت عليه، وكثيراً ما يضطرب المقلد لسماع الحجة؛ إذ يومض في قلبه نورها، ثم يعود إلى سابق وهمه خائفاً مما لا يخاف، راجياً ما لا يرجى.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ وتجادلوني ﴿فِى﴾ شأن ﴿ٱللَّهِ﴾ وما يجب في الإيمان به؛ أي: أتخاصمونني في كونه لا شريك له ولا ند ولا ضد، والاستفهام فيه للإنكار؛ أي: لا تخاصموني ولا ينبغي لكم ذلك ﴿و﴾ الحال أنه سبحانه وتعالى ﴿قد هداني﴾ وأرشدني إلى توحيده، وأنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية، والمعنى: وقد فضلني عليكم بما هداني إلى التوحيد الخالص، وبما بصرني به من الحجة التي أقمتها عليكم، وأنتم الضالون بإصراركم على شرككم وتقليدكم فيه من قبلكم. وقرأ[1] نافع وابن عامر بخلاف عن هشام: ﴿أتحاجوني﴾ بتخفيف النون، وأصله بنونين الأولى علامة الرفع، والثانية نون الوقاية، والخلاف في المحذوف منهما مذكور في علم النحو. وقرأ باقي السبعة: بتشديد النون أصله: أتحاجونني، فأدغم فراراً من ثقل توالي مثلين متحركين.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دون الله سوءاً ينالني في نفسي، ذلك أني أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تقرب ولا تشفع.

قال هذا الكلام لهم لما خوفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه؛ أي: إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع. والضمير في: ﴿بِهِۦٓ﴾ يجوز أن يعود على الله؛ أي: الذي تشركونه بالله، وأن يعود على ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: الذي تشركون به الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾؛ أي: لا[1] أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى إصابة مكروه لي من جهتها، فإنه لا محالة كما شاء ربي، فإن شاء أن يسقط عليَّ صنم يشجُّني، أو كسف من شهب الكواكب يقتلني، فإن ذلك يقع بقدرة ربي ومشيئته، لا بمشيئة الصنم أو الكواكب، ولا بقدرته ولا بتأثيره في قدرته تعالى وإرادته، ولا بجاهه عنده وشفاعته، إذ لا تأثير لشيء من المخلوقات في مشيئة الله الجارية إلا بما يثبت في علمه الأزلي.

وحاصل المعنى[2]: وحاجه قومه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك، ومحاجة مثل هؤلاء إنما هي بالتمسك باقتفاء آبائهم تقليداً، وبالتخويف مما يعبدونه من الأصنام، كقول قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ فأجابهم بأن الله قد هداه بالبرهان القاطع على توحيده، ورفض ما سواه، وأنه لا يخاف من آلهتهم. ثم أتى بما هو كالعلة لما قبله، فقال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾؛ أي: أحاط ربي بكل شيء علماً، فلا يبعد أن يكون في علمه سبحانه إنزال المكروه بي من جهتها بسبب من الأسباب. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ داخلة على محذوف وهي للاستفهام التقريري والتوبيخي، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أتعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل في أن آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضر، فلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضري ولا

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على إيصال النفع إليكم، فالسلطة العليا له تعالى وحده ليس لغيره تأثير فيها ولا تدبير، فإذا أعطى بعض المخلوقات شيئاً من النفع أو الضر.. فلا يكون ذلك داعياً لرفعها عن رتبة المخلوقات، وجعلها أرباباً ومعبودات، وكان يجب أن يفطن لذلك العقلاء ويتذكروه؛ لأنه تذكير بما يدركه العقل بالبرهان، ويهدي إليه الوجدان.

وبعد أن أبان لهم أنه لا يخاف شركاءهم، بل يخاف الله وحده.. تعجب من تخويفهم إياه ما لا يخاف، وعدم خوفهم مما يجب أن يخاف منه، وقال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ وأرهب ﴿ما أشركتم﴾ـوه بربكم من خلقه، فجعلتموه نداً له ينفع ويضر ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: حجة بينة بوحي ولا نظر عقل تثبت لكم جعله شريكاً في الخلق والتدبير، أو في الوساطة والشفاعة، فافتياتكم على خالقكم بهذه الدعوى هو الذي يجب أن يخاف ويتقى.

والمعنى[1]: وكيف أخاف ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله، وهو الضار النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامي الذي لا يجدون عنه مخلصاً ولا متحولاً، والاستفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم والتعجب من فساد عقولهم، حيث خوفوه خشباً وحجراً لا ينفع ولا يضر، وهم لا يخافون عقبى شركهم بالله، وهو الذي بيده النفع والضر والأمر كله. و﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ مفعول أشركتم؛ أي: ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التي لم ينزل بعبادتها عليكم سلطاناً شركاء لله، أو المعنى: إن الله سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له، ولا أنزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدوها واتخذوها آلهة، وجعلوها شركاء لله سبحانه وتعالى؟!

والخلاصة[2]: أن ما يدعى لصحة هذا الخوف باطل، وأنه عليه السلام لم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

يجد لهذا الخوف وجهاً، فلا يخاف الشركاء لذواتهم، ولا لما يزعمون من وساطتهم عند الله وشفاعتهم، ولا لقدرة على الضر والنفع قد تدعى لهما. وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ مذكور على طريق التهكم مع الإعلام بأن الدين لا يقبل إلا بالحجة والبرهان، والتقليد ليس بعذر، ولا سيما تقليد من ليس على هداية ولا علم ولا بصيرة، والله لم ينزل بما ادعيتموه سلطاناً؛ لأنه باطل، فلا سلطان عليه ولا دليل.

والاستفهام في قوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ استفهام استخبار وتقرير؛ أي: فأي هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته. والمراد بالفريقين: فريق الموحدين: الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه دون غيره، وفريق المشركين: الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب، فاتخذوا ما اتخذوا من الآلهة والأرباب، ونسبوا إلى بعضها النفع والضر؛ كالشمس والقمر والكواكب والملائكة، ونكتة التعبير بـ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ دون أن يقول: فأينا أحق بالأمن: الإشارة إلى أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك، لا خاصة به وبهم، والبعد عن التصريح بخطئهم الذي ربما يدعو إلى اللجاج والعناد والاحتراس من تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله، وإن كان قد علم قطعاً أنه هو الآمن لا هم، كما قال الشاعر:

فَلَئِنْ لَقِيتُكَ خَالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنْ ... أَيِّي وَأَيُّكَ فَارِسُ ٱلأَحْزَابِ

أي: أينا، ومعلوم عنده أنه هو فارس الأحزاب لا المخاطب.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إن كنتم من أهل العلم والبصيرة في هذا الأمر.. فأخبروني بذاك وبيِّنوه بالأدلة. وفي هذا إلجاء لهم إلى الاعتراف بالحق، أو السكوت على الحمق والجهل.

والمعنى: أي[1] إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودي هو الله المتصف بتلك الصفات، ومعبودكم هي تلك المخلوقات.. فكيف تخوفوني بها، وكيف

---

(١) الشوكاني.

أخافها، وهي بهذه المنزلة، ولا تخافون من إشراككم بالله سبحانه؟ وبعد هذا فأخبروني؛ أي: الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف إن كنتم تعلمون بحقيقة الحال، وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة؟

ثم بين سبحانه وتعالى الحقيق بالأمن على سبيل التفصيل، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: إن الذين آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيئاً ولم يلبسوا؛ أي: لم يخلطوا إيمانهم بظلم؛ أي: بشرك، ولم ينافقوا في إيمانهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ يوم القيامة من عذاب النار دون غيرهم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدنيا إلى سبيل الرشاد والصواب ثابتون عليه، وغيرهم على ضلال وجهل. والمراد[1] بالظلم الذي يلبس به المرء إيمانه بالله ويخلطه به: هو الشرك في العقيدة أو العبادة، كاتخاذ ولي من دون الله يدعى معه، أو من دونه، فيعظم كتعظيمه، ويحبه كحبه للاعتقاد أنَّ له نفعاً أو ضراً بذاته أو بتأثيره في مشيئة الله وقدرته، لا ظلم الإنسان نفسه بفعل بعض المضار أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال، ولا ظلمه لغيره ببعض التصرفات والأحكام. يدل على هذا التفسير ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية.. شق ذلك على المسلمين، وقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس ذلك الذي تعنون، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». والمراد بالأمن: الأمن من عذاب الله الذي يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته.

وقرأ مجاهد[2]: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بشرك﴾، ولعل ذلك تفسير معنى؛ إذ هي قراءة تخالف السواد. وقرأ عكرمة: ﴿ولم يلبسوا﴾ بضم الياء. ﴿وَتِلْكَ﴾ الحجة الدامغة التي تضمنها البيان السالف التي أوردها إبراهيم عليهم من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ...﴾ إلى قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ المثبتة للحق، المزيفة

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

للباطل، هي ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: هي الحجة التي أرشدنا إليها إبراهيم وأعطيناه إياها؛ إما بوحي، أو إلهام حجة. ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ ليلزمهم ويقنعهم بها ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك؛ أي: إننا نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكونوا على درجة منها، فالعلم درجة كمال، والحكمة درجة كمال، وقوة المعارضة في الحجاج درجة كمال، والسيادة والحكم بالحق كذلك، والنبوة والرسالة أعلى كل هذه الدرجات؛ لأنها تشمل عليها وتزيد. والله يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما به ترتقي درجته، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه، ويؤتي صاحب الدرجة الوهبية: النبوة ما لم يؤتِ غيره من أهل المناقب: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد الذي رباك وعلمك وهداك وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لعباده من الرفع والخفض ﴿عَلِيمٞ﴾ بشؤونهم من استحقاق الرفع وعدمه وسيريك ذلك عياناً في سيرتك مع قومك، كما أراكه بياناً فيما حدث عن إبراهيم مع قومه، وتأس في نفسك وقومك المكذبين بأبيك، واصبر على ما ينوبك منهم كما صبر.

ويحتمل[1] أن يكون المراد بالخطاب إبراهيم، فيكون من باب الالتفات والخروج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب على سبيل التشريف بالخطاب.

الإعراب

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلۡ﴾، وإن شئت قلت الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿ندعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في

(١) البحر المحيط.

محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ندعوا﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿ندعوا﴾. ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَنفَعُنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَنفَعُنَا﴾. ﴿وَنُرَدُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ندعوا﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نرد﴾، أو حال من ضمير ﴿نرد﴾؛ أي: منقلبين على أعقابنا. ﴿بَعْدَ﴾: منصوب على الظرفية. ﴿إِذْ﴾: حرف بمعنى أن المصدرية لا محل لها من الإعراب. ﴿هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة ﴿بَعْدَ﴾ إليه تقديره: بعد هداية الله إيانا، والظرف متعلق بـ﴿نرد﴾. وعبارة «الجمل» هنا: قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1] ﴿إِذْ﴾: ظرفية؛ أي: بعد وقت هدانا الله؛ أي: بعد وقت هداية الله لنا، أو بمعنى أن المصدرية، وهو ظاهر اهـ شيخنا. ﴿كَٱلَّذِى﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿نرد﴾؛ أي: نرد على أعقابنا مشبهين بالذي استهوته الشياطين، أو نعت لمصدر محذوف تقديره: نرد رداً، مثل: رد الذي استهوته الشياطين. ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾.

﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿حَيْرَانَ﴾: حال من ضمير ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾. وعبارة «الجمل» هنا قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه متعلق بقوله ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾.

الثاني: أنه حال من مفعول ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾.

---

(١) الفتوحات.

الثالث: أنه حال من ﴿حَيْرَانَ﴾.

الرابع: أنه حال من الضمير المستكن في ﴿حَيْرَانَ﴾، و﴿حَيْرَانَ﴾ إما حال من هاء ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾، وإما من ﴿الذي﴾، وإما من الضمير المستكن في الظرف. انتهت ﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَصْحَٰبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿حَيْرَانَ﴾. ﴿يَدْعُونَهُۥٓ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾: متعلق به، والجملة صفة لـ﴿أَصْحَٰبٌ﴾. ﴿ٱئْتِنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿يَدْعُونَهُۥٓ﴾؛ أي: يدعونه قائلين ائتنا. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾: ومضاف إليه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَأُمِرْنَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾. ﴿لِنُسْلِمَ﴾: اللام: حرف جر بمعنى الباء. ﴿نسلم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين. ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نسلم﴾، وجملة ﴿نسلم﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام التي بمعنى الباء المتعلقة بـ﴿أمرنا﴾، والتقدير: وأمرنا بالإسلام لرب العالمين.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿نسلم﴾؛ أي: وأمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وأمرنا بالإسلام لرب العالمين. وبإقامة الصلاة، وبتقوى الله تعالى. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾. وجملة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة موجبة لامتثال ما أمر به من الأمور الثلاثة، كما ذكره «أبو السعود».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾ تقديره: حالة كونه ملتبساً بالحق والحكمة. ﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿الحق﴾ الآتي. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُ﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُن﴾: فعل أمر من كان التامة، وفاعله ضمير يعود على شيء مخلوق، والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب. ﴿يكون﴾: فعل مضارع من كان التامة، وفاعله ضمير يعود على شيء مخلوق، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقُولُ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، والتقدير: قوله الحق يوم يقول كن فيكون؛ أي: واقع لا محالة.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ أي: يملك الأمور يوم. ﴿يُنفَخُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُنفَخُ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿عَٰلِمُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو عالم، والجملة مستأنفة ﴿عَٰلِمُ﴾: مضاف. ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال إبراهيم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿لِأَبِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿ءَازَرَ﴾: بدل من أبيه، أو عطف بيان له، مجرور وعلامة جره الفتحة، والمانع له من الصرف العلمية والعجمية. ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام التوبيخي. ﴿تتخذ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ءَازَرَ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَصْنَامًا﴾: مفعول أول لـ﴿تتخذ﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول ثانٍ له. ﴿إِنِّيٓ﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أَرَىٰكَ﴾ أرى: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، والكاف: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول أرى إن قلنا: إنها بصرية، ومفعول أول لها إن قلنا: إنها علمية. ﴿وَقَوْمَكَ﴾: معطوف على الكاف. ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿أرى﴾ إن قلنا: إنها بصرية، أو في محل المفعول الثاني إن قلنا: إنها علمية، وجملة ﴿أرى﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للإنكار والتوبيخ قبلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: إراءة مثل إراءته ضلال أبيه وقومه. ﴿نُرِيٓ﴾: فعل مضارع لأرى الرباعي، من رأى البصرية تتعدى بالهمزة إلى مفعولين، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول أول. ﴿مَلَكُوتَ﴾: مفعول ثانٍ، وهو مضاف. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. ﴿وَلِيَكُونَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ليستدل به على قومه. ﴿ليكون﴾: اللام لام كي ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، واسمه

ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾: خبر ﴿يكون﴾، وجملة ﴿يكون﴾ في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولكونه من الموقنين، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المحذوف تقديره: ونرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، إراءة مثل ذلك لاستدلاله على قومه، ولكونه من الموقنين.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة تفصيلية. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿جَنَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلَّيْلُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿ما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿رَءَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿كَوْكَبًا﴾: مفعول به لرأى لأنها بصرية، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطف مفصل على مجمل. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة معطوفة على جملة رأى كوكباً بعاطف مقدر أو مستأنفة. ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَفَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كوكب﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿ٱلْءَافِلِينَ﴾: مفعول به منصوب بالياء، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿بَازِغًا﴾: حال من ﴿ٱلْقَمَرَ﴾؛ لأن رأى

بصرية، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَفَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْقَمَرَ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾. ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَئِن لَّمْ﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يهد﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة. ﴿ني﴾: النون نون الوقاية، والياء: مفعول به. ﴿رَبِّي﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَأَكُونَنَّ﴾: اللام: رابطة لجواب القسم. ﴿أكونن﴾: فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، الثقيلة، واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أكونن﴾. ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾، وجملة ﴿أكونن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم على القاعدة المطردة من أن المذكور يكون جواب ما قدم من الشرط والقسم، تقديره: إن لم يهدني ربي أكن من القوم الضالين، وجملة القسم وجوابه في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿رَءَا ٱلشَّمْسَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿بَازِغَةً﴾ حال من ﴿ٱلشَّمْسَ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. وكذا جملة قوله: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَفَلَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء علامة التأنيث، وفاعله ضمير ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾. ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إلى آخره مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿قوم﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ﴿إن﴾ حرف نصب، والياء اسمها. ﴿بَرِيٓءٞ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾ جواب النداء على كونها مقول القول لـ﴿قال﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَرِيٓءٞ﴾، وجملة ﴿تُشۡرِكُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما تشركونه بالله.

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

﴿إِنِّي﴾ إنّ: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لِلَّذِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَجَّهۡتُ﴾. ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿حَنِيفٗاۖ﴾: حال من فاعل ﴿وَجَّهۡتُ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَجَّهۡتُ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿قَالَ﴾: فعل

ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ إلى آخره مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿تحاجوني﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المدغمة في نون الوقاية على قراءة التشديد، أو المحذوفة على قراءة التخفيف، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به. ﴿فِى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿هَدَىٰنِۚ﴾: هدى: فعل ماضٍ، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بالكسرة في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من ياء ﴿تحاجوني﴾؛ أي: أتجادلوني في الله حال كوني مهتدياً من عنده، أو حال من لفظ الجلالة؛ أي: أتخاصموني فيه حال كونه هادياً لي، فحجتكم داحضة لا تجدي شيئاً. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ على كونها حالاً من الياء، أو مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به. ﴿تُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تشركونه به.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَشَآءَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿رَبِّى﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿شَيْـًٔاۗ﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المستثنى المحذوف، والمستثنى منه محذوف أيضاً تقديره: ولا أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات؛ لأنها لا تضر ولا تنفع إلا وقت مشيئة ربي إصابةً لي بشيء من المكروه أو المحبوب، فيصيبني من جهتها، فيكون الاستثناء من عموم الأزمان، ويصح أن يكون من

عموم الأحوال، والتقدير: ولا أخاف ما تشركون به في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله تعالى.

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسِعَ رَبِّى﴾: فعل وفاعل. ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿عِلْمًا﴾: تمييز محول عن الفاعل؛ أي: وسع علمه كل شيء كـ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل الاستثناء؛ أي: لأنه أحاط بكل شيء علماً. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام التوبيبخي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها إنشائية لا محل لها من الإعراب، ولكنها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، والتقدير: أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات لا تضر ولا تنفع، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على شيء ما.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كيف﴾: اسم للاستفهام التعجبي في محل النصب على الحال مبني على الفتح، والعامل فيه ﴿أَخَافُ﴾. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة مستأنفة على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما أشركتموه بالله. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أَخَافُ﴾، والتقدير: وكيف أخاف الذي تشركون حال كونكم أنتم غير خائفين عاقبة إشراككم، وهذه الجملة وإن لم يكن فيها رابط يعود على ذي الحال. لا يضر ذلك؛ لأن الواو نفسها رابطة. اهـ «سمين». ﴿أَنَّكُمْ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، والكاف اسمها. ﴿أَشْرَكْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: أنكم مشركون بالله، وجملة ﴿أن﴾ في

تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: ولا تخافون إشراككم بالله. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يُنَزِّلْ﴾: مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على اللّه. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يُنَزِّلْ﴾، وكذا ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يُنَزِّلْ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَأَيُّ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم معبودي ومعبودكم، وأردتم بيان حالي وحالكم.. فأقول لكم ﴿أي الفريقين أحق بالأمن﴾: ﴿أي﴾ اسم استفهام مبتدأ مرفوع. ﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾: مضاف إليه. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر. ﴿بِٱلْأَمْنِ﴾: متعلق به، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبر كان وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم من ذوي العلم والاستبصار.. فأخبروني أيُّ هذين الفريقين أحق بالأمن؟

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿إِيمَٰنَهُم﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿بِظُلْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَلْبِسُوٓا۟﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿ٱلْأَمْنُ﴾ مبتدأ ثالث، والجملة من المبتدأ الثالث وخبره خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: مبتدأ وخبر، معطوف على جملة قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ على كونه خبراً للمبتدأ الثاني.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿تلك﴾: مبتدأ. ﴿حُجَّتُنَآ﴾: خبر المبتدأ. وجملة ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ خبر ثانٍ، أو في محل النصب حال من ﴿حُجَّتُنَآ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿آتينا﴾؛ لأنه بمعنى: أعطينا. ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حُجَّتُنَآ﴾. ﴿نَرْفَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾. ﴿دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ ـ بالإضافة ـ: مفعول به، وهو مضاف، و﴿مَّن﴾ الموصولة: في محل الجر مضاف إليه. وبالتنوين: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: مفعول فيه، أو مفعول ثانٍ على تضمين نرفع بمعنى: نعطي، و﴿مَّن﴾ الموصولة: مفعول به. ﴿نَّشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: نشاءه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر أول؛ لأن ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثانٍ لها، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ الأعقاب جمع: عقب، وهو مؤخر الرجل، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة، أو سفل بعد رفعة، أو أحجم بعد إقدام على محمدة: نكص على عقبيه، وارتد على عقبيه، ورجع القهقرى، ثم صار يطلق على كل تحول مذموم.

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: ذهبت بعقله وهواه، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أن الجنون كله من تأثير الجن، ومنه قولهم: جن فلان؛ أي: مسته الجن، فذهبت بعقله، وكانوا يقولون: إن الجن تظهر لهم في المهامه، وتتلون لهم بألوان مختلفة، فتذهب بلب من يراها، فيهيم على وجهه لا يدري أين يذهب حتى يهلك، وهذه الشياطين التي تتلون هي التي يسمونها: الغيلان والأغوال والسعالي.

وقوله: ﴿حَيْرَانَ﴾؛ أي: تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري ما يصنع؟ وهو وصف مذكر مؤنثه حيرى؛ كسكران وسكرى، فلذلك منع من الصرف، ويقال: حار يحار حيرة وحيرورة إذا تردد.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ والصور في اللغة: القرن، وهو هنا شيء من خلق الله على صورة القرن المستطيل، وفيه جميع الأرواح، وفيه ثقب بعددها، فإذا نفخ خرجت كل روح من ثقبة، ووصلت لجسدها، فتحله الحياة. اهـ «سمين». وقد ثقب الناس قرون الوعول والظباء وغيرها، فجعلوا منها أبواقاً ينفخون فيها، لها صوت شديد يدعى به الناس إلى الاجتماع، ويعزفون بها كغيرها من آلات الطرب.

﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا﴾ والأصنام: جمع صنم، وهو والتمثال والوثن بمعنى واحد، وهو الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان. اهـ «خازن».

﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ والضلال: العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسي والمعنوي.

﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وملك الله وملكوته: سلطانه وعظمته، والملكوت: الملك، زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة، كما مرَّ.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ يقال[1]: جن عليه الليل وأجن بمعنى: أظلم، فيستعمل قاصراً، وجنه وأجنه الليل، فيستعمل متعدياً، فهذا مما اتفق فعل وأفعل لزوماً وتعدياً إلا أن الأجود في الاستعمال: جن عليه الليل وأجنه الليل، فيكون الثلاثي لازماً، والرباعي متعدياً. اهـ «سمين».

﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ والكوكب والكوكبة واحد الكواكب، وهي: النجوم ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ في «المصباح»: أفل[2] الشيء أفلاً وأفولاً من بابي ضرب وقعد: غاب، ومنه: أفل فلان عن البلد إذا غاب عنها، والأفيل: الفصيل وزناً ومعنى، والجمع: إفال بالكسر. وقال الفارابي: الإفال: بنات المخاض فما فوقها، وقال أبو زيد: الأفيل: الفتى من الإبل. وقال الأصمعي: ابن تسعة أشهر أو ثمانية. وقال ابن فارس: جمع الأفيل: إفال، والإفال: صغار الغنم، والأفول: غيبوبة الشيء بعد ظهوره.

---

(١) الفتوحات.
(٢) المصباح المنير.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ القمر معروف، سمي بذلك لبياضه، والأقمر: الأبيض، وليلة قمراء: مضيئة، قاله ابن قتيبة. وبزوغ القمر: ابتداء طلوعه، يقال: بزغ بفتح الزاي يبزغ بضمها، واستعمل قاصراً ومتعدياً يقال: بزغ البيطار الدابة؛ أي: أسال دمها، فبزغ هو؛ أي: سال، ثم قيل لكل طلوع: بزوغ، ومنه: بزغ ناب الصبي والبعير تشبيهاً بذلك اهـ «سمين».

وفي «المصباح»: بزغ البيطار والحاجم بزغاً من باب قتل: شرط، وأسال الدم، وبزغ ناب البعير بزوغاً: إذا طلع، وبزغت الشمس: طلعت فهي بازغة. اهـ.

﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وجه من باب فعل المضعف، وتوجيه الوجه لله تعالى تركه يتوجه إليه وحده في طلب حاجته وإخلاص عبوديته. ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أخرجهما إلى الوجود لا على مثال سابق ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق الذي هو التوحيد.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ حاج من باب فاعل الرباعي المزيد بالألف بين الفاء والعين، يدل على المفاعلة، والمحاجة المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة، والحجة تطلق تارة على الدلالة المبينة للمقصد، وتارةً على ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه، أو ردِّ دعوى خصمه، وهي بهذا الاعتبار تنقسم إلى قسمين: إلى حجة دامغة يثبت بها الحق، وإلى حجة داحضة يموه بها الباطل، وقد اصطلحوا على تسمية مثل هذه شبهةً.

﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ بتشديد الجيم والنون أصله: أتحاججونني بوزن تضاربونني بجيمين، فأدغمت الجيم الأولى في الثانية، وكذا النون: أدغمت الأولى في الثانية على قراءة التشديد، وأما على قراءة التخفيف، فاختلفوا في المحذوفة من النونين، فقال سيبويه وغيره من البصريين: المحذوفة الأولى التي هي نون الرفع؛ لأنها نائبة عن الضمة، وهي قد تحذف تخفيفاً كما في قراءة أبي عمرو: ﴿ينصركم﴾ و﴿يأمركم﴾ و﴿يشعركم﴾ فكذا ما ناب عنها. وقال الفراء ومن وافقه: المحذوفة هي الثانية التي هي نون الوقاية؛ لأن الثقل إنما حصل بها، ولأن الأولى دالة على الإعراب، فبقاؤها أولى، وبرهن كل على مختاره بما

يطول بنا الكلام في ذكره، أفاده في «الفتوحات» وإنما اختاروا[1] التخفيف في قراءة من خففها فراراً من اجتماع مشددين في كلمة واحدة، وهما: الجيم والنون.

وقال أبو عبيدة[2]: وإنما كره التثقيل من كرهه للجمع بين ساكنين، وهما: الواو والنون، فحذفوها. قال أبو جعفر: والقول في هذا قول سيبويه، ولا ينكر الجمع بين ساكنين إذا كان الأول حرف مد ولين، والثاني مدغماً كما هنا.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ بحذف الياء؛ لأن الكسرة تدل عليها، والنون عوض منها إذا حذفتها، وإثباتها حسن.

﴿سُلْطَٰنًاۚ﴾ السلطان: الحجة والبرهان. ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ لم يلبسوا: لم يخلطوا، والظلم هنا: هو الشرك في العقيدة أو العبادة؛ كاتخاذ ولي من دون الله يدعى معه، أو من دونه، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق في قوله: ﴿يَنفَعُنَا﴾ و﴿يَضُرُّنَا﴾، ﴿والغيب﴾ و﴿الشهادة﴾.

ومنها: التقبيح والتشنيع في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ عبر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه؛ لأنها المشية الدنية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ مع ما قبله.

ومنها: التخصيص بعد التعميم في قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بعد قوله: ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اهتماماً بشأن الصلاة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾، وفي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، وفي قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، وفي قوله: ﴿بَازِغًا﴾.

---

(١) الصاوي.
(٢) إعراب النحاس.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أفل﴾ و﴿الآفلين﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وبين الكوكب والقمر والشمس.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: أريناه.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأن فيه تعريضاً بضلال قومه.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾، وفي قوله: ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾ و﴿تُشْرِكُونَ﴾، وفي ﴿أَخَافُ﴾ و﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾.

والتكرار في: ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾؛ لأنه استعارة عن الرجوع إلى الشرك.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله في التوحيد، وعدَّد وجوه نعمه وإحسانه إليه.. ذكر هنا أنه جعله عزيزاً في

---

(١) المراغي.

الدنيا؛ إذ جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من ذريته، وأبقى هذه الكرامة له إلى يوم القيامة.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] عدد نعمه على إبراهيم، فذكر إيتاءه الحجة على قومه، وأشار إلى رفع درجاته.. ذكر هنا ما مَنَّ به عليه من هبته له هذا النبي الذي تفرعت منه أنبياء بني إسرائيل، ومن أعظم المنن أن يكون من نسل الرجل الأنبياء والرسل، ولم يذكر إسماعيل مع إسحاق، قيل: لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب، ولم يخرج من صلب إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ، ولم يذكره في هذا المقام؛ لأنه أمره عليه السلام أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله، بأن جدهم إبراهيم لما كان موحداً لله متبرئاً من الشرك.. رزقه الله تعالى أولاداً ملوكاً وأنبياء انتهت.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه فضلهم واجتباهم وهداهم.. ذكر هنا ما فضلوا به.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما[3] ذكر وقرَّر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، وحاجهم بما لا يقدرون على إنكاره.. أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مبارك كثير النفع والفائدة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[4] بين أن القرآن كتاب من عند الله تعالى، وردَّ على الذين أنكروا إنزاله على محمد ﷺ - لأنه بشر - بأن مثله مثل التوراة التي يعترفون بإنزالها على موسى - وهو بشر -.. أردف ذلك بوعيد من كذب على الله وادَّعى النبوة والرسالة، أو ادَّعى أنه قادر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

على الإتيان بمثل هذا القرآن، وهذا الوعيد يتضمن الشهادة بصدق النبي ﷺ. ذلك أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إذا لم يكن له بد من الإيمان بأنَّ القرآن من عند الله، ومن الاهتداء به.. فأكمل الناس إيماناً بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء ـ وهو محمد ﷺ ـ لا يمكن أن يعرض نفسه لمنتهى الظلم الذي يستحق عليه أشد العذاب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴾ الآية سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين» ـ وكان حبراً سميناً ـ فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك، ولا على موسى؟ فقال: واللَّهِ ما أنزل الله على بشر من شيء، فلما سمع قومه تلك المقالة.. قالوا: ويلك! ما هذا الذي بلغنا عنك، أليس الله أنزل التوراة على موسى؟ فلِمَ قلت هذا؟! قال: أغضبني محمد فقلته، فقالوا: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق، فعزلوه من الحبرية وعن رياستهم لأجل هذا الكلام، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴾ الآية، مرسل.

وأخرج ابن جرير من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قالت اليهود: ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ نزل في مسيلمة. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قال: نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب للنبي ﷺ، فيملي عليه عزيز حكيم،

---

(١) لباب النقول.

فيكتب غفور رحيم، ثم يقرأ عليه فيقول: نعم، سواء، فرجع عن الإسلام ولحق بقريش، ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فأسلم قبل فتح مكة حين نزول رسول الله ﷺ بمر الظهران.

وأخرج عن السدي نحوه، وزاد: قال: إن كان محمد يوحى إليه.. فقد أوحي إلي، وإن كان الله ينزله على محمد.. فقد أنزلت مثل ما أنزل الله، قال محمد: سميعاً عليماً، فقلت أنا: عليماً حكيماً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير وغيره عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لي اللات والعزى، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ عطف فعلية على اسمية؛ أي: ووهبنا لإبراهيم إسحاق ابنه لصلبه من سارة نبياً من الصالحين، وجعلنا من ذريته يعقوب بن إسحاق نبياً منجباً للأنبياء والمرسلين، جزاءاً على الاحتجاج في الدين، وبذل النفس فيه. ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾؛ أي: وهدينا كلاً من إسحاق ويعقوب ووفقناه طريق الحق والرشاد، كما هدينا إبراهيم بما آتيناه من النبوة والحكمة وقوة المعارضة والحجة.

وإنما[2] ذكر إسحاق دون إسماعيل؛ لأنه هو الذي وهبه الله تعالى بآية منه بعد كبر سنه وعقم امرأته سارة، جزاء إيمانه وإحسانه وكمال إسلامه وإخلاصه بعد ابتلائه بذبح ولده إسماعيل، ولم يكن له ولد سواه على كبر سنه، ويقول المؤرخون: إنَّ معنى ﴿إِسْحَٰقَ﴾: الضحاك، وأنه ولد وكانت سن أبيه مئة واثنتي عشرة سنة، وسن أمه تسعاً وتسعين سنة، وأنه عاش ثمانين ومئة سنة. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل إبراهيم؛ أي: وهدينا جده نوحاً الذي هو آدم الثاني إلى مثل ما هدينا له إبراهيم وذريته، فآتيناه النبوة والحكمة وهداية الخلق

---

(١) لباب النقول.　　(٢) المراغي.

إلى طريق الرشاد، وقال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ تنبيهاً على قدمه، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس. والمراد بذلك أن نسب إبراهيم من أشرف الأنساب؛ إذ قد رزقه الله أولاداً مثل إسحاق ويعقوب، وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين، كنوح وإدريس وشيث، فهو كريم الآباء شريف الأبناء، والمقصود من تلاوة هذه النعم على محمد ﷺ تشريفه؛ لأن شرف الوالد يسري إلى الولد. وفي ذكر نوح[1] لطيفة، وهي أن نوحاً عليه السلام عُبدت الأصنام في زمانه، وقومه أول قوم عبدوا الأصنام، ووحد هو الله تعالى ودعا إلى عبادته، ورفض تلك الأصنام، وحكى الله عنه مناجاته لربه في قومه حيث قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وكان إبراهيم عُبدت الأصنام في زمانه، ووحد هو الله تعالى ودعا إلى رفضها، فذكر الله تعالى نوحاً وأنه هداه كما هدى إبراهيم.

والضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ اختلفوا في مرجعه، قيل: يرجع إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور، وهو اختيار جمهور المفسرين؛ لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولأن الله ذكر في جملة هذه الذرية لوطاً وهو ابن أخي إبراهيم، ولم يكن من ذريته، فثبت بهذا أن الضمير يرجع إلى نوح، وقيل: يعود إلى إبراهيم؛ لأن الكلام في شأنه بذكر ما أنعم الله عليه من الفضائل، وإنما ذكر نوحاً؛ لأنه جده، فهو كما قدمنا يرشد إلى فضل الله عليه في أصوله وفروعه. قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب؛ لأن لوطاً ابن أخِ إبراهيم، والعرب تجعل العم أباً، فكأنه من ذريته. وقال أبو سليمان الدمشقي: ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة انتهى. وقال الزجاج: كلا القولين جائز؛ لأن ذكرهما جميعاً قد جرى؛ أي: وهدينا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُۥدَ﴾ بن إيشا، وكان ممن أتاه الله الملك والنبوة. ﴿و﴾ هدينا ﴿سليمان﴾ بن داود، وكان أيضاً ممن أوتي الملك والنبوة وقرنهما؛ لأنهما أبٌ وابن، ولأنهما ملكان نبيان، وقدم داود لتقدمه في

---

(١) البحر المحيط.

الزمان، ولكونه صاحب كتاب، ولكونه أصلاً لسليمان وهو فرعه ﴿وَ﴾ هدينا ﴿أيوب﴾ بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ﴿وَ﴾ هدينا ﴿يوسف﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وكان ممن أوتي الملك والنبوة، وقرن[1] بينه وبين أيوب؛ لاشتراكهما في الامتحان: أيوب بالبلاء في جسده، ونبذ قومه له، ويوسف بالبلاء بالسجن، وبغربته، وفي مآلهما بالسلامة والعاقبة، وقدم أيوب؛ لأنه أعظم في الامتحان. قال الفراء: يوسف - بضم السين من غير همز - لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: يؤسف بالهمز، وبعض العرب يقول: يوسف - بكسر السين -، وبعض بني عقيل: يوسَف بفتح السين، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير». ﴿وَ﴾ هدينا ﴿موسى﴾ بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ﴿وَ﴾ هدينا ﴿هرون﴾ بن عمران أخا موسى، وكان أكبر منه بسنة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: وكما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه بإيتائه الحجة الدامغة، وهبة الأولاد الأخيار.. نجزي من كان محسناً في عبادتنا، مراقباً في أعماله لنا على إحسانه، وقد فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه.. فإنه يراك». ﴿وَ﴾ هدينا ﴿زكريا﴾ بن آذن بن بركيا ﴿وَ﴾ هدينا ﴿يحيى﴾ بن زكريا ﴿وَ﴾ هدينا ﴿عيسى﴾ بن مريم بنت عمران ﴿وَ﴾ هدينا ﴿الياس﴾ بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. وهذا هو الصحيح في نسبه، وقرن بين[2] هؤلاء الأربعة لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وبدأ بزكريا ويحيى؛ لسبقهما في الزمان، وقدم زكريا، لأنه والد يحيى، فهو أصل ويحيى فرع. وقرن عيسى وإلياس؛ لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد على ما قيل في إلياس، وقدم عيسى؛ لأنه صاحب كتاب ودائرة متسعة ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء الأنبياء المذكورين سابقاً من إبراهيم إلى هنا ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي، والتحرز عما لا ينبغي.

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وتقدم خلاف القراء في زكريا مداً وقصراً. وقرأ ابن عباس باختلاف عنه والحسن وقتادة بتسهيل همزة ﴿إلياس﴾. ﴿و﴾ هدينا ﴿إسماعيل﴾ بن إبراهيم الخليل من هاجر، وهو أكبر ولده، وقيل: هو نبي من بني إسرائيل، كان زمان طالوت، وهو المعني بقوله إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، والقول الأول هو المشهور الصحيح، وإنما أخر ذكره إلى هنا؛ لأنه ذكر إسحاق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد، فلهذا السبب أخر إسماعيل إلى هنا ﴿و﴾ هدينا ﴿اليسع﴾ بن أخطوب بن العجوز، وقال زيد بن أسلم: هو يوشع بن نون.

وجمهور القراء يقرؤون: ﴿اليسع﴾ بلام واحدة مخففاً، كأن أل أدخلت على مضارع: وسع، منهم ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر. وقرأ حمزة والكسائي ها هنا، وفي ص: ﴿والليسع﴾ على وزن فيعل نحو الضيغم. ﴿و﴾ هدينا ﴿يونس﴾ بن متى، وهي أمه، ويقال فيه: يونس بضم النون، وفتحها، وكسرها، وكذلك سين يوسف بالتثليث كما تقدم. وبفتح نون: ﴿يونَس﴾، وسين ﴿يوسَف﴾ قرأ الحسن وطلحة ويحيى والأعمش وعيسى بن عمر في جميع القرآن، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿و﴾ هدينا ﴿لوطا﴾ بن هاران أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنبوة والرسالة، فهم يفضلون على الملائكة والأولياء وجميع الصالحين. وفيه دلالة على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، لعموم لفظ العالمين ما سوى الله تعالى، فيندرج في العموم الملائكة. وإنما جمع هؤلاء الأربعة؛ لأنه لم يبق لهم من الخلق أتباع ولا أشياع. واعلم[1] أن الله تعالى خص كل طائفة من الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل، فمنهم أصول الأنبياء، وإليهم يرجع حسبهم جميعاً، وهم: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثم المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق بعد النبوة ستة:

الأولى: مرتبة الملك والسلطان والقدرة، ذكر فيها: داود وسليمان.

---

(١) البحر المحيط والمراح.

والثانية: مرتبة البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وذكر فيها: أيوب.

والثالثة: مرتبة الجمع بين البلاء والوصول إلى الملك، وذكر فيها: يوسف.

والرابعة: مرتبة قوة البراهين وكثرة المعجزات والقتال والصولة، وذكر فيها: موسى وهارون.

والخامسة: مرتبة الزهد الشديد، والانقطاع عن الناس للعبادة، وترك مخالطتهم، وذكر فيها: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس.

والسادسة: مرتبة عدم الاتباع، وذكر فيها: إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ثمانية عشر نبياً لم يرتبهم بحسب أزمانهم، ولا بحسب فضلهم؛ لأن الكتاب أنزل ذكرى وموعظة للناس، لا تاريخا تفصل وقائعه مرتبة بحسب وجودها.

فائدة في أعمار الأنبياء

وعاش آدم[١] تسع مئة وستين سنة. ومكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنة. وعاش إبراهيم مئة وخمساً وسبعين سنة. وعاش ولده إسماعيل مئة وثلاثين سنة، وكان له حين مات أبوه تسع وثمانون سنة. وعاش أخوه إسحاق مئة وثمانين سنة، وولد بعد إسماعيل بأربع عشرة سنة. وعاش يعقوب بن إسحاق مئة وسبعاً وأربعين سنة. وعاش يوسف بن يعقوب مئة وعشرين سنة. وعاش موسى مئة وعشرين سنة. وعاش داود مئة سنة. وعاش ولده سليمان نيفاً وخمسين سنة. وعاش أيوب ثلاثاً وستين سنة، وكانت مدة بلائه سبع سنين. انتهى من «التحبير في علم التفسير» للجلال السيوطي: بتصرف.

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ إما عطف[٢] على ﴿كُلًّا﴾ فالعامل فيه ﴿فَضَّلْنَا﴾، و﴿مِّنْ﴾ تبعضية؛ أي: وفضلنا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم،

---

(١) التحبير في علم التفسير. (٢) المراح.

أو على ﴿نُوحًا﴾، فالعامل فيه ﴿هَدَيْنَا﴾، و﴿مِن﴾ ابتدائية، والمفعول محذوف؛ أي: وهدينا بالنبوة والإسلام من آبائهم جماعات كثيرة: آدم وشيثاً وإدريسَ وهوداً وصالحاً، ومن ذرياتهم جماعات كثيرة: أولاد يعقوب، ومن إخوانهم جماعات كثيرة: إخوة يوسف، لا كلهم؛ إذ أن بعض هؤلاء الأقربين لم يهتد بهدي ابنه، أو أبيه أو أخيه، ألا ترى إلى أبي إبراهيم، وابن نوح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على[1] ﴿فَضَّلْنَا﴾، وتكرير الهداية في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ إلخ لتكرير التأكيد وتمهيداً لبيان ما هدوا إليه، يقال[2]: اجتبى فلان فلاناً لنفسه إذا اختاره واصطفاه، ومعنى اجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهي يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي منه، كما يحدث للأنبياء والصديقين والشهداء.

والمعنى: أي وفضلنا كلاً من الأنبياء المذكورين على العالمين واجتبيناهم؛ أي: اصطفيناهم بالنبوة والرسالة واخترناهم بالقرب إلينا وهديناهم؛ أي: أرشدناهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى دين الحق القويم الذي لا عوج فيه، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشرك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى الذي هدي به من تقدم ذكرهم من الأنبياء والرسل، فوفقوا به لإصابة الدين الحق الذي به رضا ربهم، وشرف الدنيا وكرامة الآخرة هو ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الخاص وتوفيقه ولطفه الذي ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ ويوفق به ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ حتى ينيب إلى طاعته، ويخلص العمل له، ويقر بالتوحيد، ويرفض الأوثان والأصنام.

والهداية ضربان: ضرب ليس لصاحبه سعي فيه، ولا هو مما ينال بالكسب، وهو النبوة، وهو ما أشير إليه بقوله لنبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ

---

(١) أبو السعود. (٢) المراغي.

﴿٧﴾، وضرب آخر ينال بالكسب والاستعداد مع اللطف الإلهي والتوفيق لنيل المراد.

ثم ختم سبحانه الآية بنفي الشرك وتقرير التوحيد، فقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾؛ أي: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء المهديون بربهم مع الله سبحانه وتعالى إلهاً آخر، فعبدوا معه غيره ﴿لَحَبِطَ﴾ وبطل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أجر أعمالهم التي كانوا يعملونها؛ أي: لبطل عنهم مع فضلهم وعلو درجاتهم أعمالهم المرضية، وعبادتهم الصالحة، فكيف بمن عداهم، والمقصود من هذا الكلام: تقرير التوحيد وإبطال طريقة الشرك إذ توحيد الله تعالى هو المزكي للأنفس، فضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدنس لها، والمفسد لفطرتها، فلا يبقى معه فائدة لعمل آخر يترتب عليه نجاتها وفلاحها به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر المذكورون بأسمائهم هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ وأعطيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: فهماً تاماً لما في الكتاب، وعلماً محيطاً بأسراره. فالمراد بإيتاء الكتاب لكل منهم: تفهيم ما فيه أعم من أن يكون ذلك بالإنزال عليه ابتداءً، أو بوراثته ممن قبله، ذكره «أبو السعود» بالمعنى. والمراد بالكتاب: ما ذكر في القرآن من صحف إبراهيم وموسى، وزبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى ﴿و﴾ آتيناهم ﴿الحكم﴾؛ أي: العلم والفقه في الدين، فإن الله تعالى جعلهم حكاماً على الناس نافذي الحكم فيهم بحسب الظاهر ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ فيقدرون بها على التصرف في ظواهرهم كالسلاطين، وفي بواطنهم وأرواحهم كالعلماء، وكل نبي من الأنبياء آتاه الله العلم الصحيح والفقه في أمور الدين وشؤون الإصلاح وفهم الكتاب الذي تعبده به، سواء أنزله عليه، أم أنزله على غيره، واختص بعضهم بإيتائه الحكم صبياً؛ كيحيى وعيسى؛ أي: بإعطائه ملكة الحكم الصحيح في الأمور.

وأما[1] الحكم بمعنى القضاء والفصل في الخصومات، فلم يعطه إلا بعض الأنبياء، وتكون هذه العطايا الثلاث أعني: الكتاب والحكم والنبوة مرتبة بحسب

---

(١) المراغي.

درجات الخصوصية، فبعض النبيين أعطي الثلاث؛ كإبراهيم وموسى وعيسى وداود، قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾، فهو قد دعا هذا الدعاء وهو رسول عليهم بعد محاجة قومه. وقال حكاية عن موسى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. وقال عز اسمه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾. وقال في داود وسليمان معاً: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. ومنهم من أوتي الحكم والنبوة، كالأنبياء الذين كانوا يحكمون بالتوراة، ومنهم من لم يؤت إلا النبوة فقط.

والخلاصة: أن كل من أوتي الكتاب.. أوتي الحكم والنبوة، وكل من أوتي الحكم ممن ذكر.. كان نبياً، وما كان نبي منهم كان حاكماً ولا صاحب كتاب منزل. وهذه هي مراتب الفضل بينهم صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم.

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾؛ أي: بهذه الثلاث: الكتاب والحكم والنبوة، أو بآيات القرآن ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المشركون من أهل مكة وغيرهم ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾؛ أي: برعايتها؛ أي: وفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها، وتولي نصر الداعي إليها. ﴿قَوْمًا﴾ كراماً ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ أي: ليسوا بكافرين بها، فمنهم من آمن بها، ومنهم من سيؤمن بها عند ما يدعى إليها. فالباء[1] في قوله: ﴿لَيْسُوا بِهَا﴾ صلة وفي ﴿بِكَافِرِينَ﴾ لتأكيد النفي. وعبارة «الجمل»: قوله: ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ أي: في وقت من الأوقات، بل هم مستمرون على الإيمان بها، فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تفيد دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفي بمعونة المقام، لا نفي الدوام كما حقق في مقامه. اهـ «أبو السعود» انتهت.

أخرج ابن[2] جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يعني: أهل المدينة والأنصار. اهـ.

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.

والذي عليه المعول أن الموكلين بها هم أصحاب رسول الله ﷺ مطلقاً، فإن المهاجرين قد كانوا أول من آمن بها، وكانوا بعد الهجرة في المقدمة في كل عمل وجهاد، ولكن الأنصار هم المقصودون بالذات؛ لأن القوة والمنعة لم تكن إلا بهم، ومن ثَمَّ قال: ﴿لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ والأنصار لم يكونوا عند نزول هذه السورة مؤمنين.

وفي الآية[1] دليل على أن الله سبحانه وتعالى ينصر نبيه ﷺ، ويقوي دينه، ويجعله غالباً على الأديان كلها، وقد جعل ذلك، فهو إخبار عن الغيب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في الآيات السابقة، والذين وصفهم الله تعالى بإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ سبحانه وتعالى بالأخلاق الحسنة هداية كاملة ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾؛ أي: فبهدى هؤلاء المذكورين من الأنبياء وبأخلاقهم الشريفة دون ما يخالفه من أعمال غيرهم ﴿ٱقْتَدِهْۗ﴾؛ أي: اتبع أيها الرسول فيما يناله كسبك وعملك مما بعثت به من تبليغ الدعوة، وإقامة الدين والصبر على التكذيب والجحود، وإيذاء أهل العناد ومقلدي الآباء والأجداد، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال؛ كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والزهد والسخاء والحكم بالعدل. قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

والخلاصة[2]: أن الله سبحانه وتعالى أمره بالاقتداء بهم في الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة من الصبر على أذى السفهاء، والعفو عنهم، وقد كان مهتدياً بهداهم كلهم، فكانت مناقبه وفضائله الكسبية أعلى من مناقبهم وفضائلهم؛ لأنه اقتدى بها كلها، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقاً فيهم مع ما أوتيه دونهم، ومن ثَمَّ شهد له ربه بما لم يشهد به لأحد منهم، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾، وكذلك فضائله الموهوبة هي فيه أظهر وأعظم، فبعثته عامة للناس أسودهم وأحمرهم، وبه ختمت النبوة والرسالة، وكمال الأشياء في خواتيمها صلوات الله عليه وعليهم أجميعن. وبهذه[1] الآية استدل بعض العلماء على أن محمداً ﷺ أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين، وذلك لأن جميع الصفات الحميدة كانت متفرقة فيهم، فيلزم أنه ﷺ حصلها ومتى كان الأمر كذلك.. وجب أن يقال: إنه ﷺ أفضل منهم بكليتهم، فكان نوح صاحب تحمل الأذى من قومه، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله تعالى؛ وكان إسحاق ويعقوب صاحبي صبر على البلاء والمحن، وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة، وكان أيوب صاحب صبر على البلاء، وكان يوسف جامعاً بين الصبر والشكر، وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد في الدنيا، وكان إسماعيل صاحب صدق، وكان يونس صاحب تضرع، وكان سيدنا محمد ﷺ جامعاً لجميع هذه الأخلاق الحميدة كلها، فكان أفضلهم ورئيسهم.

تنبيه: ذكر بعض العلماء أن الأنبياء المرسلين الذين ذكروا في القرآن، ويجب الإيمان بهم تفصيلاً خمسة وعشرون، هم الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في هذه الآيات، والسبعة الآخرون هم: آدم ـ أبو البشر ـ وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل وخاتم الجميع محمد ﷺ وعليهم أجميعن. وليس[2] في القرآن نص قطعي صريح في رسالة آدم عليه السلام، بل مفهوم قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أن نوحاً أول نبي مرسل أوحى إليه رسالته وشرعه، وكذلك حديث الشفاعة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى تريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصابه،

---

(١) المراح.　　(٢) المراغي.

فيستحي من ربه عز وجل، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى الأرض، فيأتون نوحاً. . .» إلخ.

والخلاصة: أن الآية تدل على أن أول رسول شرع الله على لسانه الأحكام والحلال والحرام هو نوح عليه السلام، ويرى بعض العلماء أن آدم كان على هدى من ربه ربى عليه أولاده، وبشرهم بالثواب وأنذرهم بالعقاب. وهذه هداية من جنس هداية الله للنبيين والمرسلين التي بلغوها أقوامهم، ولا ندري كيف هدى الله تعالى آدم إليها، فإن طرق الهداية متعددة، وقد تكون هي هداية الفطرة. ونوح ومن بعده أرسلوا إلى من فسدت فطرتهم، فأعرضوا عما دعوا إليه، وهذه هي الرسالة الشرعية التي يسمى من جاء بها: رسولاً، دون الأولى.

وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وأهل حرميهما وأبو عمرو[1]: ﴿اقْتَدِهْ﴾ بالهاء ساكنة وصلاً ووقفاً، وهي هاء السكت أجروها وصلاً مجراها وقفاً وقرأ الأخوان حمزة والكسائي بحذفها وصلاً، وإثباتها وقفاً، وهذا هو القياس. وقرأ هشام: ﴿اقْتَدِهْ﴾ باختلاس الكسر في الهاء وصلاً وسكونها وقفاً. وقرأ ابن ذكوان: بكسرها ووصلها بياء وصلاً، وسكونها وقفاً، ويؤول على أنها ضمير المصدر لا هاء السكت، وتغليط ابن مجاهد قراءة الكسر غلط منه، وتأويلها على أنها هاء السكت ضعيف.

﴿قُل﴾ يا محمد لجميع من بعثت إليه من أهل مكة وغيرهم ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ ولا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على هذا القرآن الذي أمرت أن أدعوكم إليه وأذكركم به، أو على تبليغ الرسالة أو على التوحيد ﴿أَجْرًا﴾ وجعلاً من مال ولا غيره من المنافع من جهتكم، كما أن جميع من قبلي من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى، وقد تكرر هذا الأمر له ﷺ في سور متعددة، كقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قيل[2]: لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين، وكان من جملة هداهم عدم طلب الأجر على إيصال الدين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

وإبلاغ الشريعة لا جرم اقتدى بهم، فقال: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ كافة؛ أي: ما هو إلا تذكير وموعظة وإرشاد للعالمين كافة، لا لكم خاصة. وفي هذا تصريح بعموم رسالته وبعثته ﷺ للناس جميعاً أسودهم وأحمرهم، إنسهم وجنهم. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾؛ أي: وما عرفت الله سبحانه وتعالى اليهود وقومك المشركون حق معرفته، وما عظموه حق عظمته؛ أي: العظمة اللائقة به المستحقة له. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ما عظموا الله حق عظمته. وقال أبو العالية: ما وصفوا الله حق صفته. وقال الأخفش: ما عرفوا الله حق معرفته ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾؛ أي: إذ قالت اليهود لك يا محمد حين خاصموك ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾؛ أي: من كتاب، وذلك أن اليهود أنكروا إنزال الله من السماء كتاباً إنكاراً للقرآن.

أي: ما عرفوه[1] حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسل وإنزاله للكتب، فإن منكري الوحي الذين يكفرون برسل الله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا وصفوه حق صفته، ولا آمنوا بقدرته على إفاضة ما شاء من علمه بما يصلح به الناس من الهدى والشرائع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة، أو بتكليمه إياهم بدون واسطة، وهم قد أنكروا الوحي، وجهلوا فضل البشر، وقالوا: ما أنزل الله على أحد منهم شيئاً.

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي: ﴿وما قدَّروا﴾ بالتشديد ﴿حق قدَره﴾ بفتح الدال.

ومن عرف حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة، وعلمه المحيط بكل شيء، ونظر في آياته في الأنفس والآفاق، وعلم أنه أحسن كل شيء خلقه، وخلق الإنسان مستعداً للصعود إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، وجعل كماله أثراً لعلومه، وأعماله الكسبية التي عليها مدار حياته الدنيوية والأخروية.. علم أنَّ الإنسان مهما ارتقت معارفه لا يمكن أن يصل إلى الكمال الذي يؤهله

---

(١) المراغي.

لنيل السعادة الأبدية إلا إذا اهتدى بهدى النبيين والمرسلين، فإن إرسالهم وإنزال الوحي عليهم وإرشادهم للناس سبب لكل ارتقاء إنساني في حياته الجسمانية والروحية، فبذلك تذهب الضغائن والأحقاد من القلوب، ويزول الخلاف والشقاق بين الناس، ويعيشون في وفاق ووئام[1] علماً منهم بأن هناك سلطة عليا ترقب أعمالهم وتحاسبهم على النقير والقطمير في ذلك اليوم العبوس القمطرير، وتجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب. ثم لقن الله رسوله ﷺ الرد على منكري الوحي والرسالة من مشركي قريش إثر بيان كون ذلك من شؤونه تعالى، ومن مقتضى نظام حياة البشر، وقد كانوا يعلمون أن اليهود هم أصحاب التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، فقد أرسلوا إلى المدينة وفداً، زعيماه: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط؛ ليسألوا الأحبار عما يعلمون عن محمد وصفته؛ لأنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عند غيرهم من علم الأنبياء. فلما أتوا إلى أولئك الأحبار سألوهم عنه، فأنكروا معرفته، وبذا يكون الاحتجاج عليهم بإنزال التوراة على موسى احتجاجاً ملزماً ودافعاً لإنكارهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود والمشركين من قومك الذين أنكروا إنزال القرآن عليك بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ على سبيل التوبيخ والقريع والتبكيت ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؛ أي: من أنزل التوراة التي أنزلت على موسى بن عمران؟ وفي هذا الاستفهام توبيخ لليهود بسوء جهلهم وإقدامهم على إنكار الحق الذي لا ينكر حال كون ذلك الكتاب المنزل على موسى ﴿نُورًا﴾؛ أي: ضياء من ظلمة الضلالة ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: هادياً للناس، ومفرقاً بين الحق والباطل من دينهم، وذلك قبل أن تبدل وتغير، حال كونكم ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾؛ أي: تجعلون ذلك الكتاب ﴿قَرَاطِيسَ﴾؛ أي: أوراقاً مفرقة في دفاتر كثيرة ﴿تُبْدُونَهَا﴾؛ أي: تظهرون تلك القراطيس المكتوبة؛ أي: يظهرون ما وافق هواهم منها ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ من تلك القراطيس مما لا يوافق هواهم؛ كنعت محمد ﷺ،

---

(١) **الوئام**: بالهمزة بعد الواو كالوفاق وزنا ومعنى، وفي المثل: لولا الوئام لهلك الأنام؛ أي: لولا الموافقة بينهم اهـ مختار.

وآية الرجم. والمعنى[1]: يضعون الكتاب في ورقات مفرقة، فجعلوه أجزاء نحو نيف وثمانين جزءاً، وفعلوا ذلك ليتمكنوا من إخفاء ما أرادوا إخفاءه، فيجعلون ما يريدون إخفاءه على حدة ليتمكنوا من إخفائه.

قال أبو حيان: إن كان[2] المنكرون بني إسرائيل.. فالاحتجاج عليهم واضح؛ لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى، وإن كانوا العرب.. فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول نقل قوم لم تكن العرب مكذبة لهم، وكانوا يقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم انتهى.

وقرأ الجمهور بالتاء الفوقانية في الأفعال الثلاثة: ﴿تبدون﴾، ﴿تخفون﴾، ﴿تجعلون﴾. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة في الأفعال الثلاثة. فأما[3] الغيبة.. فللحمل على ما تقدم من الغيبة في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ إلخ. وعلى هذا فيكون في قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ تأويلان:

أحدهما: أنه خطاب لهم أيضاً، وإنما جاء به على طريقة الالتفات.

والثاني: أنه خطاب للمؤمنين من قريش اعترض به بين الأمر بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ﴾، وبين قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾. وأما قراءة تاء الخطاب.. ففيها مناسبة لقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ ورجحها مكي وجماعة، لذلك قال: وذلك أحسن في المشاكلة والمطابقة واتصال بعض الكلام ببعض، وهو الاختيار لذلك، ولأن أكثر القراء عليه.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يحتمل أن يكون مستأنفاً مقرراً لما قبله، وأن يكون حالاً؛ أي: قل لهم: من أنزل الكتاب الذي جاء به، والحال أنكم قد علمتم أيها اليهود من ذلك الكتاب الذي أنزل على موسى من أمور دينكم ودنياكم ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من قبل إنزال ذلك الكتاب من الأحكام والحدود،

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الفتوحات.

والحلال والحرام، ونعت محمد ﷺ وصفته، فإن أجابوك وقالوا: الله أنزله.. فذاك، وإلا فـ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أنزله على موسى لا جواب غيره ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الجواب ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾؛ أي: اتركهم يا محمد في باطلهم الذي يخوضون فيه، وينهمكون فيه حال كونهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يستهزئون ويسخرون من الحق الذي جئت به، ويصنعون مثل صنع الصبيان الذين يلعبون حتى يأتي أمر الله فيهم.

والمعنى[1]: قل لهم أيها الرسول: الله أنزله على موسى، ثم دعهم بعد هذا البيان المؤيد بالحجة والبرهان فيما يخوضون فيه من باطلهم، وكفرهم بآيات الله حال كونهم يلعبون كما يلعب الصبيان. وفي أمر الرسول بالجواب عما سئلوا عنه إيماءٌ إلى أنهم لا ينكرونه لما في ذلك من المكابرة، وما في الاعتراف من الخزي إذا هم أقروا بما يجحدون من الحق. وبعد أن ذكر أنه أنزل الكتاب على موسى.. بين أنه أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ، فقال: ﴿وَهَذَا﴾ القرآن الذي يقرؤه محمد ﷺ ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ على محمد ﷺ بالوحي على لسان جبريل، كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: كثير الخير دائم البركة والمنفعة، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية.

وهذا من جملة الرد عليهم في قولهم[2]: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى وعقبه بقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: على محمد ﷺ، فكيف تقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء. ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلٰهية؛ أي: موافق لما في التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية في التوحيد، وتنزيه الله عما لا يليق به، وفي الدلالة على البشارة والنذارة.

وقوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ معطوف على معنى ما قبله؛ أي: أنزلناه للبركة والتصديق، ولتنذر به أم القرى، أو على معلوم من السياق تقديره: أنزلناه لتبشر

---

(١) المرغي. (٢) الشوكاني.

به من آمن به؛ أي: ولتخوف به عذاب الله وبأسه أهل أم القرى؛ أي: أهل مكة إن لم يؤمنوا به، وخص أم القرى وهي مكة؛ لكونها أعظم القرى والبلدان شأناً، ولكونها أول بيت وضع للناس، ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض. وسميت مكة أم القرى؛ لاجتماع الخلق إليها في حجهم، كما يجتمع الأولاد إلى الأم، فيحصل لهم الحج الذي هو أصول العبادة، والتجارة التي هي أصول أسباب المعيشة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: ولتنذر به من حول أم القرى من سائر أهل الأرض مشارقها ومغاربها. وقد ثبت عموم بعثة النبي ﷺ في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ أي: وكل من بلغه ووصلت إليه هدايته، وقوله في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾، وقوله في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ويصدقون ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: بقيام الساعة والمعاد إلى الله، ويصدقون بالثواب والعقاب، والمجازاة على الأعمال ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يؤمنون بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه على محمد ﷺ، ويقرون به، سواء كان من أهل الكتاب، أم من غيرهم إذا بلغتهم دعوته؛ لأنهم يجدون فيه أكمل الهداية إلى السعادة العظمى في تلك الدار، وما مثلهم إلا مثل قوم ساروا في الفيافي والقفار، وضلوا الطريق، حتى إذا كادوا يهلكون قابلهم الدليل الخرّيت العالم بخفاياها والخبير بذرعها ومسالكها، فأرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وخلاصهم من هلاك محقق إذا هم اتبعوا مشورته وسلكوا سبيله، فقبلوا نصحه وكانوا من الفائزين، وأما الذين ينكرون البعث والجزاء.. فلا حاجة لهم إلى هدايته.

وفي هذا[1] تصريح بسبب إعراض الجمهرة من أهل مكة عن هذا الكتاب الذي فيه سعادتهم، وتنبيه إلى أنهم لما لم يعتقدوا البعث والجزاء.. امتنعوا عن قبول هذا الدين، وأنكروا نبوة محمد ﷺ. ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

يؤمنون بهذا الكتاب، والحال أنهم يحافظون ويداومون على صلاتهم، فيؤدونها في أوقاتها، ويقيمون أركانها وآدابها، وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات؛ لأنها عماد الدين ورأس العبادات بعد الإيمان بالله، فلم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾؛ أي: صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة.

قال ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً.. فقد كفر». ولأن المحافظة عليها تدعو إلى القيام بسائر العبادات المفروضة، وترك الفحشاء وجميع المحرمات، ومحاسبة النفس على لذاتها وشهواتها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ بالإفراد، والمراد به الجنس، وروى خلف عن يحيى عن أبي بكر: ﴿صلواتهم﴾ بالجمع، ذكر ذلك أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم البغدادي في كتاب «الروضة» من تأليفه، وقال: تفرد بذلك عن جميع الناس.

والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ للإنكار بمعنى النفي. وهذه[2] الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتاب على رسله؛ أي: كيف تقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام، ولا أحد أشد ظلماً، وأعظم جرماً ممن اختلق على الله كذباً. وكذب على الله في شيء من الأشياء، كالذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، أو جعل لله شريكاً أو ولداً أو صاحبة. ﴿أَوۡ﴾ ممن ﴿قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من الله شيء ﴿و﴾ الحال أنه ﴿لم يوح إليه شيء﴾ من الله، كمسيلمة الكذاب الذي ادَّعى النبوة باليمامة، والأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة باليمن، وطليحة الأسدي الذي ادَّعى النبوة في بني أسد، ونحوهم من كل من ادعى ذلك، أو يدعيه في أي زمان كان. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ إليك؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

أي: ومن أظلم ممن ادَّعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله على رسوله، كمن قال من المشركين: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، فقد أُثر عن النضر بن الحارث أنه كان يقول: إن القرآن أساطير الأولين، وإنه شعر لو نشاء لقلنا مثله.

ثم ذكر سبحانه وتعالى وعيده للظالمين لشدة جرمهم، وعظيم ذنبهم، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: ولو تبصر يا محمد، أو أيها المخاطب، إذ يكون الظالمون سواءٌ كانوا ممن ذكر في الآية، أو من غيرهم ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ وسكراته، وما يتقدمها من شدائد وآلام تحيط بهم، كما تحيط غمرات الماء الغرقى، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لرأيت ما لا سبيل إلى وصفه، ولا قدرة للبيان على تجلي كنهه وحقيقته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: والحال أن ملائكة الموت باسطوا أيديهم ومادوها إليهم؛ لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب، كما قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

ثم حكى سبحانه وتعالى أمر الملائكة لهم على سبيل التهكم والتوبيخ حين بسط أيديهم لقبض أرواحهم ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؛ أي: حالة كون الملائكة قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد، وخلصوها من هذه الآلام، أو أخرجوها من أبدانكم لنقبضها. قال صاحب «الكشاف»: هذا[1] تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملح، يبسط يده إلى من له عليه الحق ليعنف عليه في المطالبة، ولا يمهله، ويقول له: أخرج ما لي عليك الساعة، ولا أريم - لا أبرح - مكاني حتى أنزعه من أحداقك. انتهى.

ويرى بعضهم أنه لا داعي للعدول عن الحقيقة إلى التمثيل، فربما تمثل الملائكة للبشر بمثل صورهم، وتخاطبهم بمثل كلامهم، فهي إذاً ممكنة على الحقيقة، فلا معدل عنها. وحالة كون الملائكة قائلين لهم وقت الموت: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: في هذا اليوم الذي تقبض فيه أرواحكم، تجزون وتلقون عذاب الذل والخزي والإهانة جزاء ظلمكم لأنفسكم.

---

(١) الكشاف.

وقرأ عبد الله وعكرمة: ﴿عذاب الهوان﴾ بالألف وفتح الهاء. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بسبب قولكم مفترين على الله غير الحق، كقول بعضهم: ما أنزل الله على بشر من شيء، وقول بعض آخر: أنه أوحي إليه، ولم يوح إليه شيء، وإنكار طائفة منهم لما وصف الله به نفسه من الصفات، واتخاذ أقوام له البنين والبنات. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: وبسبب كونكم مستكبرين عن الإيمان بآيات الله تعالى احتقاراً لمن أكرمه الله بإظهارها على يديه ولسانه.

ومعنى الآية: ولو ترى[1] يا محمد الظالمين وقت كونهم في شدائد الموت في الدنيا، والملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم، قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد، وخلصوها من هذه الآلام، هذا الوقت تجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد بسبب الافتراء على الله، والتكبر عن آيات الله.. لرأيت أمراً فظيعاً، أو المعنى: ولو ترى الظالمين إذا صاروا إلى أنواع الشدائد والتعذيبات في الآخرة، فأدخلوا جهنم، والملائكة باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب مبكتين لهم، قائلين: أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب الشديد، هذا الوقت تجزون العذاب المشتمل على الإهانة بسبب كونكم قائلين قولاً غير الحق، وكونكم مستكبرين عن الإيمان بآيات الله.. لرأيت أمراً عظيماً. ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يقوله لهم يوم القيامة بعد ذكر ما تقول لهم ملائكة العذاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد جئتمونا أيها الظالمون وحداناً منفردين عن الأنداد والأوثان والأهل والإخوان، مجردين من الخدم والأملاك والأموال. وقرىء[2]: ﴿فراد﴾ بوزن ثلاث غير مصروف. وقرأ عيسى بن عمر وأبو حيوة: ﴿فراداً﴾ بالتنوين، وأبو عمرو ونافع في حكاية خارجة عنهما: ﴿فردى﴾ مثل: سَكْرى كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: كما أخرجناكم أول مرة من بطون أمهاتكم

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.

حفاة عراة غلفاً، ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله في آية أخرى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ لأن المراد: لا يكلمهم تكليم إكرام ورضاء. ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ﴾ وأعطيناكم في الدنيا من الأهل والأولاد والأموال ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾؛ أي: في الدنيا، وما نرى معكم شيئاً منه؛ أي: إن ما كان شاغلاً لكم عن الإيمان بالرسل، والاهتداء بما جاءوا به من الأهالي والأولاد والأموال والخدم والحشم والأثاث والرياشي لا ينفعكم اليوم، كما كنتم تتوهمون، فهو لم يغن عنكم شيئاً، ولم يمكنكم الافتداء به أو ببعضه من عذاب الآخرة. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ﴾؛ أي: وما رأينا وأبصرنا معكم ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾ من الملائكة والصالحين من البشر، ولا تماثيلهم، ولا قبورهم معكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وظننتم ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ مع الله، وقد زعمتم في الدنيا أنهم شركاء لله، تدعونهم ليشفعوا لكم عنده، ويقربونكم إليه زلفى بتأثيرهم في إرادته، وحملهم إياه على ما لم تتعلق به إرادته في الأزل. وفي هذه الجملة والتي قبلها هدم لقاعدتين من قواعد الوثنية، وهما: الفداء، والشفاعة.

وعزتي وجلالي ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لقد انقطع اليوم ما كان بينكم أنتم وشركائكم في الدنيا، من صلات النسب والملك والولاء والصداقة ﴿و﴾ لقد ﴿ضل﴾ وغاب ﴿عَنكُم﴾ أيها الظالمون ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وتظنون في الدنيا من شفاعة الشفعاء، وتقريب الأولياء، وأوهام الفداء، وقد علمتم الآن بطلان غروركم واعتمادكم على غيركم.

والخلاصة: أن آمالكم قد خابت في كل ما تزعمون وتتوهمون، فلا فداء ولا شفاعة، ولا ما يغنى عنكم من عذاب الله من شيء.

وقرأ جمهور السبعة[١]: ﴿بَيْنَكُمْ﴾: بالرفع على أنه اتسع في الظرف، وأسند الفعل إليه، فصار اسماً، كما استعملوه اسماً في قوله: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، وكما حكى سيبويه: هو أحمر بين العينين، ورجحه الفارسي، أو على

---

(١) البحر المحيط.

أنه أريد بالبين: الوصل؛ أي: لقد تقطع وصلكم، قاله أبو الفتح والزهراوي والمهدوي. فالبين: اسم يستعمل للوصل والفراق، فهو مشترك بينهما، كالجون للأسود والأبيض.

وقرأ نافع والكسائي وحفص: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بفتح النون، وخرجه الأخفش على أنه فاعل، ولكنه مبني على الفتح حملاً على أكثر أحوال هذا الظرف، وقد يقال: لإضافته إلى مبني كقوله: ﴿ومِنَّادُونَ ذلك﴾ وخرجه غيره على أنه منصوب على الظرف، وفاعل ﴿تَقَطَّعَ﴾ التقطع. وقرأ عبد الله ومجاهد والأعمش: ﴿ما بينكم﴾، والمعنى: تلف وذهب ما بينكم وبين ما كنتم تزعمون، على إسناد الفعل إلى الذي بينكم.

فصل في ذكر الأحاديث المناسبة للآية

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» متفق عليه.

وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». متفق عليه.

وروى الطبري بسنده عن عائشة: أنها قرأت قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فقالت: يا رسول الله، واسوأتاه! إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟! فقال رسول الله ﷺ: «لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه، لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال، شغل بعضهم عن بعض».

الإعراب

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَوَهَبۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿وهبنا﴾. ﴿إِسۡحَٰقَ﴾: مفعول به لـ﴿وهبنا﴾. ﴿وَيَعۡقُوبَۚ﴾: معطوف عليه، ولم ينونا؛ لأنهما ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة.

فائدة: وجميع أسماء النبيين أعجمية ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة إلا سبعة مجموعة في قول بعضهم:

أَلاَ إِنَّ أَسْمَاءَ ٱلنَّبِيِّيْنَ سَبْعَةٌ   لَهَا ٱلصَّرْفُ فِيْ إِعْرَابِ مَنْ يَتَنَشَّدُ
فَشِيْثٌ وَنُوْحٌ ثُمَّ هُوْدٌ وَصَالِحٌ   شُعَيْبٌ وَلُوْطٌ وَٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدُ

فهذه السبعة مصروفة؛ لأن أربعة منها عربية: وهم محمد، وصالح، وشعيب، وهود. وثلاثة منها أعجمية، ولكنها صرفت لخفتها بسكون الوسط، وهم: نوح، ولوط، وشيث صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ﴾ عطف فعلية على اسمية. ﴿كُلًّا﴾: مفعول مقدم لـ﴿هَدَيۡنَاۚ﴾. ﴿هَدَيۡنَاۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَنُوحًا﴾: مفعول مقدم لـ﴿هَدَيۡنَاۚ﴾. ﴿هَدَيۡنَاۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿هَدَيۡنَاۚ﴾ الأولى. ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾: جار ومجرور حال من ﴿نُوحًا﴾. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿دَاوُۥدَ﴾ وما بعده تقديره: حالة كونهم كائنين من ذريته. وقوله: ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾ معطوفات على ﴿نُوحًا﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: ونجزي المحسنين على إحسانهم جزاءاً مثل جزائنا لإبراهيم، والجملة مستأنفة.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿زكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾: معطوفات على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ،

والجملة مستأنفة. ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾: معطوفات أيضاً على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿وَكُلًّا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿كلاً﴾ مفعول مقدم. ﴿فَضَّلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾: جار ومجرور في محل النصب معطوف على ﴿كُلًّا﴾، فالعامل فيه ﴿فَضَّلْنَا﴾، أو معطوف على ﴿نُوحًا﴾ فالعامل فيه ﴿هَدَيْنَا﴾، والتقدير: وفضلنا كلاً منهم، وبعض أبائهم، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾: معطوفان على ﴿ءَابَآئِهِمْ﴾. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَضَّلْنَا﴾، وكذلك ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿فَضَّلْنَا﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بـ﴿هديناهم﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾، والجملة الفعلية في محل[1] النصب حال من الهدى، والعامل فيه: الإشارة، ويجوز أن يكون حالاً من اسم الله تعالى، ويجوز أن يكون ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ بدلاً من ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الخبر، ذكره أبو البقاء. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَن﴾، أو من العائد المحذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاء هدايته من عباده. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَشْرَكُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَحَبِطَ﴾:

---

(١) العكبري.

اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿حبط﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُم﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الرفع فاعل. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه، وجملة ﴿حبط﴾ جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، لأن آتى بمعنى: أعطى، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿فَإِن﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن هؤلاء آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، وأردت بيان ما إذا كفر بها.. فأقول لك: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿بِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: فاعل. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿وَكَّلْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿بِهَآ﴾ متعلق بـ﴿وَكَّلْنَا﴾. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لَّيْسُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهَآ﴾، متعلق بـ﴿كافرين﴾. ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾: خبر ليس، والباء فيه زائدة، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: هداهم الله.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن أولئك هم الذين هداهم الله، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿بهداهم اقتده﴾: ﴿بهداهم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اقْتَدِهْ﴾. ﴿اقْتَدِهْ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وهي الياء، والهاء: حرف سكت مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَّآ﴾: نافية. ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَجْرًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿سأل﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ذِكْرَىٰ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿حَقَّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿قَدْرِهِۦٓ﴾. مضاف إليه، والأصل: قدره الحق، ثم أضيفت الصفة إلى الموصوف، كما ذكره «أبو السعود». ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها، والظرف متعلق بـ﴿قَدَرُوا۟﴾، والتقدير: وما قدروا الله حق قدره وقت قولهم. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ بَشَرٍ﴾: متعلق به. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾: مفعول ﴿أَنزَلَ﴾، و﴿مِّن﴾: زائدة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ مقول محكي لـ﴿قل﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإخباري في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية خبر ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿مُوسَىٰ﴾: فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿نُورًا﴾: حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾، فالعامل فيه ﴿جَآءَ﴾، أو من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والعامل فيه: ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿وَهُدًى﴾: معطوف على ﴿نُورًا﴾. ﴿لِّلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿هدى﴾. ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿قَرَاطِيسَ﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: في قراطيس وأوراق، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾، أو من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿تُبْدُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿قَرَاطِيسَ﴾.

﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾.

﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تبدون﴾، والرابط محذوف تقديره: وتخفون كثيراً منها، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَعُلِّمْتُم﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿علِّمتم﴾، وجملة ﴿علِّمتم﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾. ﴿لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير المفعول المحذوف تقديره: وعلمتم ما لم تعلموه. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لضمير الفاعل، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَإِنْ عَلَىٰ ضَمِيْرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ   عَطَفْتَ فَٱفْصِلْ بِالضَّمِيْرِ ٱلْمُنْفَصِلْ

﴿وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ﴾: معطوف على ضمير الفاعل.

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: الله أنزله، أو فاعل بفعل محذوف تقديره: أنزله الله، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ذَرۡهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ذَرۡهُمۡ﴾. وجملة ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ وعبارة «الفتوحات»: قوله: ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ يجوز أن يكون ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ متعلقاً بـ﴿ذرهم﴾، وأن يتعلق بـ﴿يَلۡعَبُونَ﴾، وأن يكون حالاً من مفعول ﴿ذَرۡهُمۡ﴾، وأن يكون حالاً من فاعل ﴿يَلۡعَبُونَ﴾، فهذه أربعة أوجه انتهت.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة أولى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿مُبَارَكٞ﴾ صفة ثانية له. ﴿مُّصَدِّقُ﴾: صفة ثالثة له، وهو مضاف ﴿ٱلَّذِي﴾ مضاف إليه. ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة الموصول.

تنبيه: قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ...﴾ إلخ صفات لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، وقدّم وصفه بالإنزال على وصفه بالبركة بخلاف قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ قالوا: لأن الأهم هنا وصفه بالإنزال؛ إذ جاء عقيب إنكارهم أن ينزل الله على بشر من شيء بخلافه هناك، ووقعت الصفة الأولى جملة فعلية؛ لأن الإنزال يتجدد وقتاً فوقتاً، والثانية اسماً صريحاً؛ لأن الاسم يدل على الثبوت والاستقرار، وهو مقصود هنا؛ أي: ذو بركة ثابتة مستقرة اهـ «سمين».

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾.

﴿وَلِتُنذِرَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام لام كي. ﴿تنذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولإنذارك أم القرى، الجار والمجرور معطوف على جار ومجرور معلوم من معنى ما قبله على كونه متعلقاً. بـ﴿أنزلناه﴾ تقديره: وهذا كتاب أنزلناه للبركة، ولإنذارك أم القرى. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾. ﴿حَوْلَهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُحَافِظُونَ﴾ المذكور بعده. وجملة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أظلم﴾. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿أُوحِىَ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يُوحَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿شَىْءٌ﴾: نائب فاعل لـ﴿يُوحَ﴾، وجملة ﴿يُوحَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالَ﴾.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿من افترى﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿سَأُنزِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مِثْلَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الجر مضاف إليه. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مثل ما أنزله الله. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: مبتدأ. ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذِ﴾، والظرف متعلق بـ﴿تَرَىٰٓ﴾ على كونه مفعولاً به لـ﴿تَرَىٰٓ﴾، والتقدير: ولو ترى وقت كون الظالمين في غمرات الموت، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في قوله ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾. و﴿أَيْدِيهِمْ﴾ خفض لفظاً، وموضعه نصب، وإنما سقطت النون للإضافة. ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف حال من الضمير في ﴿بَاسِطُوٓا۟﴾، والتقدير: والملائكة باسطوا أيديهم حالة كونهم قائلين للظالمين: أخرجوا أنفسكم. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تُجْزَوْنَ﴾ المذكور بعده. ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، والأول قام مقام الفاعل، والجملة الفعلية مقول للقول المحذوف.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص

واسمه. ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُولُونَ﴾. ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: مفعول به. لـ﴿تَقُولُونَ﴾؛ لأنه بمعنى: تذكرون، وجملة ﴿تَقُولُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب كونكم قائلين غير الحق، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُجْزَوْنَ﴾. ﴿وَكُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾. وجملة ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿كان﴾ الأولى على كونها صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: وبسبب كونكم مستكبرين عن الإيمان بآيات الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، اللام موطئة للقسم، قد: حرف تحقيق. ﴿جِئْتُمُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿فُرَٰدَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف لألف التأنيث المقصورة كأسارى. ﴿كَمَا﴾ الكاف: حرف جر وتشبيه، ما: مصدرية. ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كخلقنا إياكم أول مرة الجار والمجرور حال من فاعل جئتمونا والتقدير ولقد جئتمونا فرادى مشبهة حالكم حال خَلْقنا إياكم أول مرة. ﴿وَتَرَكْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جِئْتُمُونَا﴾ على تقدير: قد، أو مستأنفة ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿تَرَكْتُمْ﴾. ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما خولناكموه. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تركتم﴾.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿نَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مَعَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿نَرَىٰ﴾. ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَتَرَكْتُم﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة لـ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾ ﴿زَعَمْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿فِيكُمْ﴾: متعلق بخبر ﴿أن﴾ المذكور بعده ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾: خبر ﴿أن﴾ مرفوع، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي زعم تقديره: زعمتم كونهم شركاء فيكم.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿لَقَد﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿تَّقَطَّعَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بفاعل محذوف تقديره: لقد تقطع الاتصال بينكم، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. وعبارة «السمين»[1] هنا: قوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ قرأ نافع والكسائي وعاصم في رواية حفص عنه: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ نصباً، والباقون: ﴿بَيْنُكُمْ﴾ رفعاً. فأما القراءة الأولى ففيها ثلاثة أوجه:

أحسنها: أن الفاعل مضمر يعود على الاتصال، والاتصال وإن لم يكن مذكوراً حتى يعود عليه ضمير، لكنه تقدم ما يدل عليه، وهو لفظ: شركاء، فإن الشركة تشعر بالاتصال، والمعنى: لقد تقطع الاتصال بينكم، فانتصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ على الظرفية.

الثاني: أن الفاعل هو ﴿بَيْنَكُمْ﴾، وإنما بقي على حاله منصوباً حملاً له على أغلب أحواله، وهو مذهب الأخفش، وقد يقال: لإضافته إلى مبنى.

الثالث: قال الزمخشري: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ معناه: لقد وقع التقطع بينكم، كما تقول جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بين الشيئين على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل.

---

(١) الفتوحات.

وأما القراءة الثانية ففيها وجهان.

أحدهما: أن ﴿بين﴾ اسم غير ظرف، وإنما معناها الوصل؛ أي: لقد تقطع وصلكم.

الثاني: أن هذا كلام محمول على معناه؛ إذ المعنى: لقد تفرق جمعكم وتشتت، وهذا لا يصلح أن يكون تفسير إعراب انتهت مع بعض تصرف.

وقال الزجاج: والرفع أجود، والمعنى لقد تقطع وصلكم.

﴿وَضَلَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَنكُم﴾: متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل الرفع فاعل ﴿ضَلَّ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تَّقَطَّعَ﴾ على كونها جواباً لقسم محذوف. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تَزْعُمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعولا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ محذوفان، التقدير: تزعمونهم شفعاء، حذفا للدلالة عليهما، كما قال الشاعر:

تَـرَىٰ حُبَّـهُـمْ عَـاراً عَـلَـيَّ وَتَـحْـسَـبِ

أي: وتحسبه عاراً، وجملة ﴿تَزْعُمُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف من ﴿تَزْعُمُونَ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

قوله: ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ وتقدم لك أن الجمهور قرؤوا: ﴿اليسع﴾ بلام واحدة ساكنة وفتح الياء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿الليسع﴾ بلام مشددة وياء ساكنة بعدها، فقراءة الجمهور فيها تأويلان:

أحدهما: أنه منقول من فعل مضارع، والأصل: يوسع بكسر السين، ثم حذفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة، ثم فتحت السين بعد حذف الواو؛ لأجل حرف الحلق وهو العين، مثل: يهب ويقع ويدع ويلغ، ثم سمى به مجرداً عن الضمير، وزيدت فيه الألف واللام شذوذاً كاليزيد في قوله:

رَأَيْتُ ٱلْوَلِيْدَ بْنَ ٱلْيَزِيْدِ مُبَارَكاً شَدِيْداً بِأَعْبَاءِ ٱلْخِلاَفَةِ كَاهِلُهْ

ولزمت فيه كما لزمت في الآية، وقيل: الألف واللام فيه للتعريف، كأنه قدر تنكيره.

والثاني: أنه اسم أعجمي لا اشتقاق له، وأما قراءة الأخوين، فأصله: ليسع كضيغم وصيرف، وهو اسم أعجمي، ودخول الألف واللام فيه على الوجهين المتقدمين، واختار أبو عبيد قراءة التخفيف، فقال: سمعنا اسم هذا النبي في جميع الأحاديث اليسع، ولم يسمّه أحد منهم الليسع، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه روي اللفظ بأحد لغتيه، وإنما آثر الرواة هذه اللفظة لخفتها، لا لعدم صحة الأخرى. وقال الفراء: قراءة التشديد أشبه بأسماء العجم. وقد تقدم أن في نون يونس ثلاث لغات، وكذلك في سين يوسف اهـ «سمين».

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض: جمعته فيه، فالاجتباء ضم الذي تجتبيه إلى خاصيتك.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ بها السكت، وهي حرف يجتلب للاستراحة عند الوقف، فثبوتها وقفاً لا إشكال فيه، وأما ثبوتها وصلاً فإجراء ومعاملة له مجرى الوقف، كما قال في «الخلاصة»:

وَقِفْ بِهَا ٱلسَّكْتِ عَلَىٰ ٱلْفِعْلِ ٱلْمُعَلّ بِحَذْفِ آخِرٍ كَأَعْطِ مَنْ سَأَلْ

ثم قال:

وَرُبَّمَا أُعْطِيَ لَفْظُ ٱلْوَصْلِ مَا لِلْوَقْفِ نَثْراً وَفَشَا مُنْتَظِمَا

والاقتداء: طلب موافقة الغير في فعله، فمعنى فبهداهم اقتداه؛ أي: ائتم بهم في التوحيد والصبر، دون الفروع المختلفة باختلاف الشرائع، ودون المنسوخة، فإنها بعد النسخ لا تتبع، ويقال: اقتدى به إذا اتبعه وجعله قدوة له؛ أي: متبعاً.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ هو مصدر ذكر يذكر ذكرى على وزن فعلى بكسر الفاء،

ولم يأتِ مصدر على وزن فعلى بكسر الفاء إلا ذكرى كما مرَّ.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يقال: قدر يقدر من باب نصر ينصر، وأصل القدر: السبر والحزر، يقال: قدر الشيء إذا سبره وحزره ليعرف مقداره، ثم استعمل في معرفة الشيء، وقدر الشيء ومقداره: مقياسه الذي يعرف به، ويقال: قدره يقدره إذا قاسه، والقدر والقدرة والمقدار: القوة أيضاً، والقدر: الغنى واليسار والشرف.

﴿يَلْعَبُونَ﴾ وفي «القاموس»: لعب كسمع لعباً بكسر العين ضد جد، فاللعب يشمل الهزل والسخرية والاستهزاء.

﴿قَرَاطِيسَ﴾ جمع قرطاس، كمصابيح جمع مصباح، وهو ما يكتب فيه من ورق أو جلد أو غيرهما.

﴿مُبَارَكٌ﴾ اسم مفعول من بارك؛ لأن الله سبحانه وتعالى بارك فيه بما فضل به ما قبله من الكتب في النظم والمعنى ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وأم القرى: مكة، وسميت بذلك، لأنها قبلة أهل القرى، أو لأنهم يعظمونها كالأم، أو لأن فيها أول بيت للناس.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الافتراء: اختلاف الكذب، وافتراء الكذب على الله: الاختلاق عليه، والحكاية عنه ما لم يقله، أو اتخاذ الأنداد والشركاء.

﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ والغمرات: جمع غمرة، وهي: الشدة الفظيعة، وأصلها: من غمره الماء إذا ستره؛ كأنها تستر بغمها من تنزل به اهـ «سمين». وفي «المختار»: وقد غمره الماء؛ أي: علاه، وبابه نصر، والغمرة: الشدة، والجمع: غمر بفت الميم كنوبة ونوب، وغمرات الموت: شدائده.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ واليوم: الزمن المحدود، والمراد به هنا: يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الناس للحساب والجزاء. والهُون ـ بالضم ـ والهوان: الذل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ والهون ـ بالفتح ـ:

اللين والرفق، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾. وأضاف[1] العذاب إلى الهون إيذاناً بأنه متمكن فيه، وذلك لأنه ليس كل عذاب يكون فيه هون؛ لأنه قد يكون على سبيل الزجر والتأديب كضرب الوالد ولده، ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف إلى صفته، وذلك أن الأصل العذاب الهون، وصفه به مبالغة، ثم أضافه إليه حد الإضافة في قولهم: بقلة الحمقاء، ونحوه، ويدل على أنْ الهون بمعنى الهوان قراءة عبد الله وعكرمة له كذلك اهـ «سمين».

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ واختلف[2] الناس في ﴿فُرَادَىٰ﴾ هل هو جمع أم لا؟ والقائلون بأنه جمع اختلفوا في مفرده. فقال الفراء: فرادى جمع فرد بفتح الراء، وفريد وفرد بسكونها وفردان، فجوز أن يكون جمعاً لهذه الأشياء. وقال ابن قتيبة: هو جمع فردان كسكران وسكارى، وعجلان وعجالى. وقال قوم: هو جمع فريد كرديف وردافى، وأسير وأسارى، قاله الراغب. وقيل: هو اسم جمع؛ لأن فرداً لا يجمع على فرادى. وقول من قال إنه جمع له، فإنما يريد في المعنى، ومعنى فرادى: فرداً فرداً اهـ «سمين».

وفي «البيضاوي»: وفرادى جمع فرد، والألف للتأنيث ككسالى. وقرىء فراداً بالتنوين، كغراب وفراد بلا تنوين، كثلاث، وفردى كسكرى اهـ. فهذه أربع قراءات: الأولى: هي المتواترة، والثلاثة بعدها شواذ، كما في «السمين». ويقال[3]: رجل أفرد وامرأة فردى إذا لم يكن لهما أخ، وفرد الرجل يفرد فروداً إذا تفرد، فهو فارد.

قوله: ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: أعطيناكم، يقال[4]: خوله: أعطاه وملكه، وأصله: تمليك الخول كما تقول: مولته إذا ملكته المال، والترك وراء الظهر يراد

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

به: عدم الانتفاع بالشيء.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ البين: الفراق، قيل: يطلق على الوصل فيكون مشتركاً. قال الشاعر:

فَوَٱللَّهِ لَوْلاَ ٱلْبَيْنُ لَمْ يَكُنِ ٱلْهَوَىٰ وَلَوْلاَ ٱلْهَوَىٰ مَا حَنَّ لِلْبَيْنِ آلِفُهْ

وهو هنا مصدر بان يبين بيناً بمعنى: البعد، ويطلق على الضدين، كالبعد والقرب والوصل والانقطاع، والمراد به هنا: الوصل؛ أي: الاتصال؛ أي: العلقة والارتباط، ويضاف البين إلى المثنى كقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وإلى الجمع كقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولا يضاف إلى المفرد إلا إذا كرر كقوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

قوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومرة في الأصل: مصدر لمر يمر مرة، ثم اتسع فيها، فصارت زماناً. قال أبو البقاء: وهذا يدل على قوة شبه الزمان بالفعل. وقال الشيخ: وانتصب أول مرة على الظرف؛ أي: أول زمان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الوصل والفصل في أسماء الأنبياء عليهم السلام.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾، وفي: ﴿أُنزِلَ﴾، وفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وفي ﴿كُنتُمْ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾، وفي قوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾، وفي قوله: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾،

وفي قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾؛ لأن تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر، وفي قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾.

ومنها: المبالغة في النفي في قوله: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ لأن فيه مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحد من الرسل بزيادة ﴿مِّن﴾ الاستغراقية.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ لأن فيه استعارة لفظ الأم لمكة المكرمة؛ حيث شبهت بالوالدة، فاستعير لها لفظ الأم على طريقة الاستعارة التصريحية الترشحية؛ لأنها أصل المدن والقرى، ولفظ القرى ترشيح، وفي قوله: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ لأن الغمرة حقيقة في ستر الماء لمن دخل فيه، فاستعيرت لشدائد الموت. قال[1] الشريف الرضي: هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يعتورهم من كرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه، وسميت غمرة؛ لأنها تغمر قلب الإنسان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾؛ لأن الترك وراء الظهر كناية عن عدم الانتفاع بالشيء.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع عديدة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تلخيص البيان.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم الكلام[1] على تقرير التوحيد وتقرير النبوة.. أردفه بذكر الدلائل الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيهاً بذلك

---

(١) الخازن.

على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله، وأنه مبدع الأشياء وخالقها، ومن كان كذلك.. كان هو المستحق للعبادة، لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها، وتعريفاً منه خطأ ما كانوا عليه من الإشراك الذي كانوا عليه.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى بعد أن[1] أثبت أمر التوحيد، ثم أردفه بتقرير أمر النبوة والبعث، وذكر مسائل لها ملابسات لهذه الأصول.. عاد هنا وفصَّل طائفة من آيات التكوين تدل أوضح الدلالة على وحدانيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته، وبيان سننه في خلقه، وحكمه في الإحياء والإماتة، والأحياء والأموات، وتقديره وتدبيره لأمر النيرات في السموات، وإبداعه في شؤون النبات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما استدل[2] على باهر حكمته وقدرته بدلالة أحوال النبات والحيوان، وذلك من الأحوال الأرضية.. استدل أيضاً على ذلك بالأحوال الفلكية؛ لأن فلق الصبح أعظم من فلق الحب والنوى؛ لأن الأحوال الفلكية أعظم وقعاً في النفوس من الأحوال الأرضية.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[3] ذكر البراهين الدالة على تفرده بالخلق والتدبير في عالم السموات والأرض.. ذكر هنا بعض ضروب الشرك التي قال بها بعض العرب وروى التاريخ مثلها عن كثير من الأمم، وهي اتخاذ شركاء لله من عالم الجن المستتر عن العيون، أو اختراع نسل له من البنين والبنات.

وقال أبو حيان[4]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما اختص به من باهر قدرته ومتقن صنعته، وامتنانه على عالم الإنسان

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بما أوجد له مما يحتاج إليه في قوام حياته، وبين أن في ذلك آيات لقوم يعلمون، ولقوم يفقهون، ولقوم يؤمنون.. ذكر ما عاملوا به منشئهم من العدم وموجد أرزاقهم من إشراك غيره له في عبادته، ونسبة ما هو مستحيل عليه من وصفه بسمات الحدوث من البنين والبنات.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام[1] الأدلة والبراهين الواضحة على توحيده، وكمال قدرته وعلمه.. عاد هنا إلى تقرير أمر الدعوة والرسالة، وتبليغ النبي ﷺ أوامر ربه، ومدى تلك الأوامر من الهداية والإرشاد، وما يقوله المشركون في المبلغ لها، وأعلم سبحانه سنته فيهم وفي أمثالهم، وما يجب على الرسول معهم، وما ينفى عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[2] رسوله فيما سبق من الآيات بتبليغ وحيه بالقول والعمل، والإعراض عن المشركين بمقابلة جحودهم وطعنهم في الوحي بالصبر والحلم، وبيَّن أن من مقتضى سنته في البشر أن لا يتفقوا على دين واحد لاختلاف استعدادهم، وتفاوتهم في درجات الفهم والفكر، وذكر أن وظيفة الرسل أن يكونوا مبلغين لا مسيطرين، وهادين لا جبارين، فينبغي أن لا يضيقوا ذرعاً بما يرون وما يشاهدون من الإزدراء بهم، والطعن في دينهم، فإن الله هو الذي منحهم هذه الحرية، ولم يجبرهم على الإيمان.. نهى المؤمنين هنا عن سب آلهة المشركين؛ لأنهم إذا شتموا فربما غضبوا وذكروا الله بما لا ينبغي من القول، ثم ذكر طلب بعضهم للآيات؛ لأن القرآن ليس من جنس المعجزات، ولو جاءهم بمعجمزة ظاهرة لآمنوا به، وحلفوا على ذلك، وأكدوه بكل يمين محرجة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] عبد الرزاق قال: أنبأنا معمر عن قتادة قال: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. . قال المشركون: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، فيسبوا الله عدواً بغير علم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: لما حضر أبا طالب الموت. . قالت قريش: انطلقوا، فلندخن على هذا الرجل، فلنأمرنه أن ينهى عنا ابن أخيه، فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه ويحميه، فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمية وأبي ابنا خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمرو بن العاص، والأسود بن البختري، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب، فقالوا: استأذن لنا على أبي طالب، فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك، يريدون الدخول عليك، فأذن لهم فدخلوا، فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعه وإلهه، فدعا النبي ﷺ فجاءه، فقال له: هؤلاء قومك وبنو عمك، فقال رسول الله ﷺ: «ما يريدون»؟ قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك، قال أبو طالب: قد أنصفك قومك فاقبل منهم، قال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أعطيتكم هذا، هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها. . ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدت لكم الخراج؟ قال أبو جهل: وأبيك: لنعطينكها وعشر أمثالها، فما هي؟ قال: قولوا: لا إله إلا الله، فأبوا واشمأزوا، قال أبو طالب: قل غيرها، فإن قومك قد فزعوا منها، قال: «يا عم

---

(1) لباب النقول.
(2) الخازن.

ما أنا بالذي أقول غيرها، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوني بها، فوضعوها في يدي.. ما قلت غيرها» فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ومن يأمرك، فأنزل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب به الحجر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن ثمود لهم الناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً قال: «فإن فعلت تصدقوني»؟ قالوا: نعم والله، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاء جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾؛ أي: شاق جميع الحبوب من الحنطة والشعير والذرة وغيرها، من الأورق الخضر ﴿و﴾ فالق ﴿النوى﴾ وشاقها، وهي التي في داخل الثمار عن الشجر الأخضر، فإذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة، ثم مر عليها مدة.. أظهر الله تعالى في تلك الحبة أو النواة من أعلاها شقاً، ومن أسفلها شقاً آخر، فيخرج من الحبة ورق أخضر، ومن النواة شجرة صاعدة في الهواء، ويخرج منها عروق هابطة في الأرض، وقيل: معنى فالق الحب والنوى: شاقهما الشق الذي فيهما من أصل الخلقة، وقيل: معنى فالق الحب والنوى: خالقهما. والنوى: جمع نواة، يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ والمنغا وغيرها. وهذه الجملة شروع منه سبحانه وتعالى في تعداد عجائب صنعه، وذكر ما تعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه.

---

(١) لباب النقول.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿فلق الحب﴾ بصيغة الفعل الماضي.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾؛ أي: الحيوان ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: من النطفة والبيضة وهي ميتة، في محل الرفع خبر بعد خبر، لـ﴿إنّ﴾، وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: مخرج النطفة والبيضة وهي ميتة ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ أي: من الحيوان، معطوف على[2] قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ عطف جملة اسمية على جملة فعلية، ولا مانع من ذلك. وقيل: معطوف على ﴿فالق﴾ على تقدير أن جملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مفسرة لما قبلها، والأول أولى.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يخرج من النطفة بشراً حياً، ومن البيضة أفراخاً حية، ومن الحب اليابس نباتاً غضاً، ومن الكافر مؤمناً، ومن العاصي مطيعاً، وبالعكس.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الصانع هذا الصنع العجيب المذكور سابقاً من شق الحب والنوى بقدرته الباهرة هو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود الحق المستجمع لكل كمال، والمفضل بكل إفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون عن عبادته وتوحيده والإيمان بالبعث إلى عبادة غيره، واتخاذ شريك معه، وإنكار البعث مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته.

والمعنى: ذلكم المتصف[3] بكامل القدرة وبالغ الحكمة هو الله الخالق لكل شيء، المستحق للعبادة وحده، لا شريك له، فكيف تصرفون عن عبادته، وتشركون به من لا يقدر على شيء من ذلك؛ كفلق نواة وحبة، وإيجاد نخلة وسنبلة؟ ﴿فَالِقُ﴾ ظلمة الليل وكاشفها ومزيلها بضوء ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ ونور النهار. والمراد بظلمة الليل: الغبش الذي يلي الإصباح المستطيل الكاذب. والإصباح بمعنى: الصبح، فالصبح والإصباح والصباح بمعنى واحد، وهو أول النهار، وذلك[4] لأن الأفق من الجانب الغربي والشمالي والجنوبي مملوء من الظلمة، ثم إنه تعالى شق ذلك البحر المظلم بأن أجرى جدولاً من النور فيه. وقيل: المعنى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) المراح.

خالق الإصباح من الفلق بمعنى الخلق يعني: أن الله سبحانه وتعالى مبدي ضوء الإصباح وخالقه ومنوره.

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وأبو رجاء[1]: ﴿فالق الأصباح﴾ بفتح الهمزة. وقرأ الجمهور بكسرها، وهو على قراءة الفتح جمع: صبح، وعلى قراءة الكسر مصدر: أصبح. وقرأت فرقة بنصب: ﴿الإصباحَ﴾ وحذف تنوين ﴿فالق﴾، وسيبويه إنما يجوز هذا في الشعر نحو قوله:

وَلاَ ذَاكِـــرَ ٱلـــلَّـــهِ إِلاَّ قَـــلِـــيْـــلاً

حذف التنوين لالتقاء الساكنين، والمبرد يجوزه في الكلام. وقرأ النخعي وابن وثاب وأبو حيوة: ﴿فلق الإصباح﴾ بفعل ماضٍ، وهمزة مكسورة.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾؛ أي: وجعل سبحانه وتعالى الليل وقت سكون وراحة وطمأنينة للخلق؛ لأن الناس يسكنون فيه عن الحركة في معاشهم، ويستريحون من التعب والنصب الحاصل لهم بشغل النهار.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي على صيغة الماضي، والباقون على صيغة اسم الفاعل. وقرأ يعقوب ساكناً. ﴿و﴾ جعل سبحانه وتعالى ﴿الشمس والقمر﴾ جاريين بـ﴿حسباناً﴾؛ أي: بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص؛ أي: قدر[2] الله تعالى حركة الشمس بمقدار معين من السرعة والبطء، بحيث تتم الدورة في سنة، وقدَّر حركة القمر بحيث تتم الدورة في شهر، وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم في الفصول الأربعة، وبسببها يحصل ما يحتاج إليه من نضج الثمار وحصول الغلات وأمور الحرث والنسل، والمعنى: جعلهما علامتي حساب وعد للأوقات، تتعلق بهما مصالح العباد، تحسب بهما الأوقات التي تتعلق بها العبادات والمعاملات، وسيَّرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص، ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه.

وقرأ الجمهور بنصب ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ على إضمار فعل؛ أي: وجعل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

الشمس والقمر كما مر في حلنا. وقرأ أبو حيوة بجر ﴿الشمس والقمر﴾ عطفاً على الليل على قراءة من قرأ: ﴿وجاعل الليل﴾، وقرىء[1] شاذاً: ﴿الشمس والقمر﴾ برفعهما على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: مجعولان حسباناً، أو محسوبان حسباناً.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى[2] جعلهما حسباناً؛ أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: تدبير الإلٰه الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيرهما، والأنفع من التداوير الممكنة لهما. وعبارة أبي حيان: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك الجعل أو ذلك الفلق والجعل، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جميع الأخبار من قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ إلى آخرها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب الذي كل شيء من هذه في تسخيره وقهره. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يعزب عنه شيء من هذه الأحوال، ولا من غيرها؛ أي[3]: حصول هذه الأحوال لا يمكن إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات، وبعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات، فليس حصول حركات أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة بالطبع، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ والكواكب ﴿لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾؛ أي: للاهتداء بها ﴿فِى ظُلُمَٰتِ﴾ الليل عند المسير في ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه، فامتن الله على عباده بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في المسالك والطرق، والجهات التي تقصد، والقبلة في البر والبحر؛ إذ حركات الكواكب في الليل يستدل بها على القبلة، كما يستدل بحركة الشمس في النهار عليها، والمعنى: وهو الذي خلق لكم النجوم لاهتدائكم بها في مشتبهات الطرق إذا سافرتم في بر أو بحر، ولاستدلالكم بها على معرفة القبلة، وعلى معرفة أوقات الصلاة. والمراد بالنجوم هنا: ما عدا الشمس والقمر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراح.

من النيرات؛ لأنه الظاهر من سياق الكلام، ولأنه المعهود في الاهتداء، وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها.

ومنها: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

ومنها: جَعْلها زينة للسماء، ومن زعم غير هذه الفوائد.. فقد أعظم على الله الفرية. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: قد بينا العلامات الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لقوم يعلمون؛ أي: يتأملون فيستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد إلى الغائب؛ أي: فإن هذه النجوم كما يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر، فكذلك يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم، وكمال قدرته وعلمه.

وكانت العرب في أيام بداوتها تؤقت بطلوع النجوم، فتحفظ أوقات السنة بالأنواء، وهي نجوم منازل القمر في مطالعها ومغاربها، وكان اهتداؤهم بالنجوم على ضربين:

١ ـ معرفة الوقت من الليل، أو من السنة.

٢ ـ معرفة المسالك والطرق والجهات.

والمراد بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة الأرض، أو الماء، وظلمة الخطأ والضلال.

وحاصل المعنى: والله هو الذي جعل لكم النجوم أدلة في البر والبحر إذا ضللتم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلاً، فبها تستدلون على الطرق فتسلكونها، وتنجون من الخطأ والضلال في البر والبحر. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ وأوجدكم وخلقكم مع كثرتكم واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي الإنسان الأول الذي تسلسل منه سائر الناس بالتوالد، وهو آدم عليه السلام، وفي إنشاء البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته، وفي التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر، وأن يكون هذا التفرق إلى

شعوب وقبائل مدعاةً إلى التآلف، لا إلى التعادي والتقاتل وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾؛ أي: ولكم موضع استقرار في الأصلاب، وموضع استيداع في الأرحام، وإنما جعل الصلب مقر النطفة، والرحم مستودعها؛ لأن النطفة تتوالد في الصلب ابتداء، والرحم شبيهة بالمستودع، كما قال الشاعر:

وَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ ٱلنَّاسِ أَوْعِيَةٌ ... مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلآبَاءِ أَبْنَاءُ

فالمستقر على هذا التفسير: صلب الأب، والمستودع: رحم الأم، لأن[1] النطفة حصلت في صلب الأب قبل حصولها في رحم الأم، فحصول النطفة في الرحم من فعل الرجل مشبه بالوديعة، وحصولها في الصلب لا من جهة الغير. وقال أبو مسلم الأصبهاني: إن تقدير الآية: هو الذي أنشأكم من نفس واحدة، فمنكم ذكر ومنكم أنثى، وإنما عبر عن الذكر بالمستقر؛ لأن النطفة إنما تنشأ في صلبه وتستقر فيه، وإنما عبر عن الأنثى بالمستودع؛ لأن رحمها شبيه بالمستودع لتلك النطفة.

وقرأ[2] ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي: بكسر القاف على صيغة اسم الفاعل، والباقون: بفتحها. وأما ﴿مستودع﴾ فهو بفتح الدال لا غير، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن، وخبرهما محذوف، والتقدير على القراءة الأولى - أعني قراءة الكسر -: فمنكم مستقر على ظهر الأرض، وعلى القراءة الثانية - أعني قراءة الفتح -: فلكم مستقر على ظهرها؛ أي: موضع قرار، ومنكم مستودع في الرحم، أو في باطن الأرض، أو في الصلب. وقيل: المستقر في الرحم، والمستودع في الأرض. وقيل: المستقر في القبر. وأكثر أهل التفسير يقولون: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما كان في الصلب. وقيل: المستقر من خلق، والمستودع من لم يخلق. وقيل: الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث، ومما يدل على تفسير المستقر

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

بالكون على الأرض قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: قد بينا العلامات الدالة على قدرتنا من تفاصيل خلق البشر ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يدققون النظر ويتأملون فيها، فإن إنشاء البشر من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف صنعة، وإن الاستدلال بالأنفس أدق من الاستدلال بالنجوم في الآفاق لظهورها. وعبارة «المراغي» هنا: قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي[1]: إننا جعلنا الآيات المبينة لسنننا في الخلق مفصلة وموضحة لقدرتنا وإرادتنا، وعلمنا وحكمتنا، وفضلنا ورحمتنا لقوم يفقهون ما يتلى عليهم، ويفهمون المراد منه، ويفطنون لدقائقه وخفاياه.

وعبر هنا بالفقه، وفيما قبلها بالعلم؛ لأن استخراج الحكم من خلق البشر يتوقف على غوص في أعماق الآيات، وفطنة في استخراج دقائق الحكم. أما العلم بمواقع النجوم والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، فهو من الأمور الظاهرة التي لا تتوقف على دقة النظر، ولا غوص الفكر والتأمل في العبرة منها، وكذلك جميع المظاهر الفلكية. ثم ذكر بعد ذلك آية أخرى من آيات التكوين، وهي إنزال الماء من السماء، وجعله سبباً للنبات، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً؛ أي: وهو الله الذي خلق هذه الأجسام في السماء، ثم ينزلها إلى السحاب، ثم من السحاب إلى الأرض ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب هذا الماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: نبات كل صنف من أصناف النبات المختلف في شكله وخواصه وآثاره اختلافاً متفاوتاً في مراتب الزيادة والنقصان، سواء كان من النجم، أو من الشجر، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾؛ أي: من النبات ﴿خَضِرًا﴾؛ أي: زرعاً، والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولاً في القمح والشعير والذرة والأرز، ويكون السنبل في أعلاه؛ أي: فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له شيئاً غضاً أخضر،

---

(١) المراغي.

وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة، كساق النجم وأغصان الشجر. ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الخضر؛ أي: من هذا الأخضر المتشعب النبات آناً بعد آن. ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض في سنبلة واحدة، وهذا الخارج هو السنبل، مثل سنبل الشعير والقمح والذرة وسائر الحبوب.

وقرأ الأعمش وابن محيصن: ﴿يخرج منه حب متراكب﴾ على أنه مرفوع بـ﴿يخرج﴾، و﴿متراكب﴾ في رفعه ونصبه صفة له. وهذا تفصيل لنماء النجم الذي لا ساق له، وهو ما عدا الشجر. وفي تقديم الزرع على النخل دليل على أفضلية الزرع على الشجر، ولأن حاجة الناس إليه أكثر؛ لأنه القوت المألوف. ثم عطف عليه حال نظيره من الشجر، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ خبر مقدم ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل منه ﴿قِنْوَانٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿دَانِيَةٌ﴾ صفة له؛ أي: وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان دانية؛ أي: عنقود وعذوق قريبة يناله القاعد والقائم؛ لانحنائها بثقل حملها، أو لقصر ساقها، وفيه اكتفاء؛ أي: وغير دانية لطولها، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وإنما اقتصر على ذكرها دون مقابلها لدلالتها عليه، وزيادة النعمة فيها بقربها إلى المجتني، ففيها سهولة التناول دون البعيدة لاحتياجها إلى كلفة. والطلع: أول ما يبدو ويطلع ويظهر من زهر النخل قبل أن ينشق عنه غلافه. والقنوان: واحدها: قنو، والقنو: العذق الذي يكون فيه التمر، وهو من النخل كالعنقود من العنب، والسنبلة من القمح. وذكر الطلع مع النخل؛ لأنه طعام وإدام دون سائر الأكمام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قِنْوَانٌ﴾ بكسر القاف. وقرأ الأعمش والخفاف عن أبي عمر والأعرج في رواية: بضمها، ورواه السلمي عن علي بن أبي طالب. وقرأ الأعرج في رواية، وهارون عن أبي عمر: ﴿وقنوان﴾ بفتح القاف. وخرجه أبو الفتح على أنه اسم جمع على فعلان؛ لأن فعلاناً ليس من أبنية جمع التكسير.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ بالنصب بكسر التاء على قراءة الجمهور معطوف

---

(١) البحر المحيط.

على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عطف الخاص على العام لشرفه، ولما جرد النخل.. جردت جنات الأعناب لشرفهما؛ أي: وأخرجنا بالماء بساتين كائنة من أعناب. وقرأ محمد بن أبي ليلى والأعمش وأبو بكر في رواية عنه عن عاصم: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ بالرفع، وهي قراءة علي بن أبي طالب. وقدره أبو البقاء: ومن الكرم ﴿جنات من أعناب﴾ نظراً لقوله أولاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ معطوفان على نبات كل شيء؛ أي: وأخرجنا بذلك الماء شجر الزيتون وشجر الرمان حالة كون كل واحد منهما ﴿مُشْتَبِهًا﴾؛ أي: يشبه[1] بعضه بعضاً في بعض أوصافه ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾؛ أي: ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر. وقيل: إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن، وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم. وقال قتادة: مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها؛ لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان.

وقيل: هما منصوبان على الاختصاص، وإنما خصهما بالذكر لقرب منابتهما من العرب؛ أي[2]: وأخص من نبات كل شيء: الزيتون والرمان حال كون الرمان مشتبهاً في بعض الصفات وغير مشتبه في بعض آخر، فإنها أنواع تشتبه في شكل الورق والثمر، وتختلف في لون الثمر وطعمه، فمنها الحلو، والحامض، والمرُّ، وكل ذلك دال على قدرة الصانع وحكمة المبدع جلَّ شأنه.

واعلم[3]: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع، وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار، لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفواكه؛ وإنما قدم النخلة على غيرها؛ لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء، وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار، وإنما ذكر العنب عقب النخلة؛ لأنها من أشرف أنواع الفواكه، ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال، ثم ذكر عقبه الرمان لما فيه من المنافع أيضاً؛ لأنه فاكهة ودواء. وقرأ الجمهور: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، وقرئ شاذاً: ﴿متشابهاً﴾، وهما بمعنى واحد،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) الخازن.

كاختصم وتخاصم، واشترك وتشارك، واستوى وتساوى، ونحوها مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل.

﴿انظُرُوٓا۟﴾ أيها المخاطبون نظر اعتبار واستبصار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾؛ أي: إلى ثمر كل واحد مما ذكر ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾؛ أي: إذا أخرج ثمره أول ظهوره، وكيف يخرج ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ﴿و﴾ انظروا إلى ﴿ينعه﴾؛ أي: وإلى نضجه وإدراكه، وكيف أنه يصير ضخماً ذا نفع عظيم ولذة كاملة، ثم وازنوا بين صفاته في كل من الحالين يستبين لكم لطف الله وتدبيره وحكمته في تقديره، وغير ذلك مما يدل على وجوب توحيده؛ أي: انظروا أيها المخاطبون إلى حال هذه الثمار من ابتداء خروجها وظهورها إلى انتهاء كبرها ونضجها، كيف تتنقل من حال إلى حال في اللون والرائحة، والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مراً وبعضه مالحاً لا ينتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق، فسبحان القادر الخلاق.

والحاصل: انظروا نظر استدلال واعتبار كيف أخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة، فإنه مما يدل على قدرته الباهرة وحكمته الظاهرة.

وقرأ ابن وثاب ومجاهد وحمزة والكسائي[1]: ﴿إلى ثُمره﴾ بضم الثاء والميم، جمع ثمرة كخشبة وخشب، وأكمة وأكم. وقرأت فرقة بضم الثاء وإسكان الميم طلباً للخفة، كما تقول في الكتب: كتب. وقرأ باقي السبعة بفتح الثاء والميم، وهو اسم جنس، كشجرة وشجر. والثمر جنى الشجر وما يطلع منه. وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ بفتح الياء وسكون النون. وقرأ قتادة والضحاك وابن محيصن بضم الياء وسكون النون. وقرأ ابن أبي عبلة واليماني ﴿ويانعه﴾ اسم فاعل من ينع، ونسبها الزمخشري إلى ابن محيصن.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

والأشكال والألوان ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ أي: لدلائل باهرة على قدرة الله تعالى ووحدانيته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون بوجود الله تعالى ووحدانيته، وإن الذي أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم، وناسب ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ كون ما تقدم دالاً على وحدانيته وإيجاده المصنوعات المختلفة، فلا بدَّ لها من مدبر مع أنها نابتة من أرض واحدة، وتسقى بماء واحد ذكره في «الجمل».

والمعنى[1]: إن في ذلكم الذي أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته لمن هو مؤمن بالفعل، ولمن هو مستعد للإيمان. أما غيرهم.. فإن نظرهم لا يتجاوز الظواهر، ولا يعدوها إلى ما تدل عليه من وجود الخالق ووحدانيته التي إليها ينتهي النظام، فهم لا يغوصون ليصلوا إلى أسرار عالم النبات، ولا يبحثون عن كون انتقاله من حال إلى حال على ذلك النمط البديع دالاً على كمال الحكمة، وعلى أن وحدة النظام في الأشياء المختلفة لا يمكن أن تصدر من إرادات متعددة.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالتهم؛ أي: وجعل هؤلاء المشركون الجن شركاء للّه سبحانه وتعالى ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الجن، أو قد خلق الشركاء المجعولين، كما خلق غيرهم من العالمين، فنسبة الجميع إليه واحدة، وامتياز بعض المخلوقين عن بعض في صفاته وخصائصه لا يخرجه عن كونه مخلوقاً، ولا يصل به إلى درجة أن يكون إلهاً ورباً.

وفي المراد[2] من الجن هنا أقوال، فقال قتادة: إنهم الملائكة، فقد عبدوهم، وقال الحسن: إنهم الشياطين، فقد أطاعوهم في أمور الشرك والمعاصي. وقيل: إبليس، فقد عبده أقوام وسموه رباً، ومنهم من سماه إله الشر والظلمة، وخص الباري سبحانه بألوهية الخير والنور.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في الزنادقة الذين يقولون: إن الله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والحيوان، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور، رجح الرازي هذا الرأي قال: إن المراد من الزنادقة: المجوس الذين قالوا: إن كل خير في العالم، فهو من يزدان ـ النور ـ وكل شر فهو من أهرمن؛ أي: إبليس. وقرأ[1] الجمهور: بنصب ﴿ٱلْجِنَّ﴾، وأعربه الزمخشري وابن عطية مفعولاً أول لـ﴿جعلوا﴾، وجعلوا بمعنى: صيروا، و﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثانٍ، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ﴿شركاء﴾.

وقرأ أبو حيوة ويزيد بن قطيب: ﴿الجن﴾ بالرفع على تقدير: هم الجن، جواباً لمن قال: من الذي جعلوه شركاء؟ فقيل لهم: هم الجن، ويكون ذلك على سبيل الاستعظام لما فعلوه، والانتقاص لمن جعلوه شريكاً لله. وقرأ شعيب بن أبي حمزة: ﴿الجن﴾ بخفض النون، ورويت هذه عن أبي حيوة وابن قطيب أيضاً، وحمل على الإضافة التي للتبيين، ولا يتضح معنى هذه القراءة إذ التقدير: وجعلوا شركاء الجن لله، وهذا معنى لا يظهر. وقرأ[2] يحيى بن يعمر ﴿وخلقهم﴾ بإسكان اللام، وكذا في مصحف عبد الله، والظاهر أنه عطف على الجن؛ أي: وجعلوا الذي ينحتونه أصنافاً شركاء لله، كما قال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ فالخلق هنا واقع على المعمول المصنوع بمعنى: المخلوق، قاله ابن عطية. وقال الزمخشري: وقرىء: ﴿وخلقهم﴾؛ أي: اختلاقهم الإفك يعني: وجعلوا لله خلقهم؛ حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم: والله أمرنا بها. انتهى. والخلق هنا: مصدر بمعنى: الاختلاق. ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾؛ أي: خرق هؤلاء المشركون واختلقوا وكذبوا، وجعلوا له سبحانه وتعالى ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: حالة كونهم ملتبسين بغير علم؛ أي: بجهل وضلالة؛ أي: واختلقوا له تعالى بحمقهم وجهلهم بنين وبنات بغير علم؛ أي: من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رمياً بقول عن جهالة وغباوة من غير فكر وروية، ومن غير معرفة لمكانه من الشناعة والازدراء

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

بمقام الألوهية؛ حيث قال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فلو عرفوا أن الإله يجب أن يكون واجب الوجود لذاته.. لامتنعوا أن يثبتوا له تعالى البنين والبنات؛ فإن الولد دال على كونه منفصلاً من جزء من أجزاء الوالد، وذلك إنما يكون في مركب يمكن انفصال بعض أجزائه، وذلك في حق الفرد الواجب الوجود لذاته محال، فمن عرف حقيقة الإله استحال أن يقول: له تعالى ولد. وقرأ[1] نافع: ﴿وخرقوا﴾ بتشديد الراء وبالقاف، وباقي السبعة بتخفيفها، وقرأ ابن عمر وابن عباس ﴿وحرفوا﴾ بالحاء المهملة والفاء، وشدد ابن عمر الراء وخففها ابن عباس بمعنى: وزوروا له أولاداً، لأن المزور محرف مغير للحق إلى الباطل.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عن كل ما لا يليق به من سمات الحدوث، ونزه الله تعالى ذاته بنفسه عن كل ما لا يليق به ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: تقدس وترفع ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: عن الباطل الذي يصفونه به، وعما يقوله المشركون في حقه من أن له شريكاً وولداً. فالتسبيح[2] يرجع إلى ذات المسبح، والتعالي يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت له تعالى، سواء سبحه تعالى مسبح أم لا، فكأنه قال هنا: نزهت ذاتي عن كل ما لا يليق بي، وترفعت صفاتي عن ما لا يليق بها، وهو سبحانه وتعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: خالق السموات والأرض وموجدهما ومبدعهما على غير مثال سبق، فهو الخالق المبدع. وقرأ المنصور ﴿بديعِ﴾ بالجر، رداً على قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾، أو على ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾. وقرأ صالح الشامي ﴿بديعَ﴾ بالنصب على المدح، ذكره أبو حيان. والاستفهام في قوله ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ للإنكار والاستبعاد، وجملة قوله: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ حالية؛ أي: كيف يكون له سبحانه وتعالى ولد، والحال أنه لم يكن له زوج ينشأ الولد من ازدواجه بها، والولد لا يوجد إلا كذلك؛ لأنه إذا لم تكن صاحبه.. استحال وجود الولد، ولكن جميع الكائنات السماوية والأرضية صدرت عنه تعالى صدور إبداع وإيجاد من العدم لأصولها، وصدور تسبب

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

كالتوالد ونحوه بحسب سننه في الخلق. وقرأ النخعي: ﴿ولم يكن﴾ بالياء، ووجه على أن فيه ضميراً يعود على الله، أو على أن فيه ضمير الشأن، وجملة: ﴿لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ على هذين الوجهين في موضع نصب خبر يكن، أو على ارتفاع ﴿صاحبة﴾ بـ﴿يكن﴾، وذُكِّر للفصل بين الفعل والفاعل كقوله:

وَلَـــدَ الأُخَـــيِـــطِـــلَ أُمُّ سُـــوْءٍ

وحضر للقاضي امرأة ذكره أبو حيان في «البحر».

وجملة قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ﴾ مقررة لإنكار نفي الولد، ودليل بعد دليل على ذلك؛ أي: وهو سبحانه وتعالى خلق كل شيء من الكائنات خلقاً وأوجده إيجاداً، ولم يلده ولادة كما زعمتم، فما افتريتم واخترعتم من الولد، فإنما هو مخلوق له لا مولود منه. يعني[1]: إن الصاحبة والولد في جملة من خلق؛ لأنه خالق كل شيء، وليس كمثله شيء، فكيف يكون الولد لمن لا مثل له؟ وإذا نسب الولد والصاحبة إليه.. فقد جعل له مثل، والله تعالى منزه عن المثلية، وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من المعلومات ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته شيء؛ أي: إن علمه سبحانه وتعالى بكل شيء ذاتي له، ولا يعلم كل شيء إلا الخالق لكل شيء، ولو كان له ولد.. لكان هو أعلم به، ولهدى العقول إليه بآيات الوحي ودلائله، لكنه كذب الذين افتروا عليه ذلك كذباً بلا علم مؤيد بوحي ولا دليل عقلي.

والخلاصة[2]: أنه تعالى نفى عن نفسه الولد بوجوه:

١ ـ أن من مبدعاته السموات والأرضين، وهي مبرأة من الولادة لاستمرارها وطول مدتها.

٢ ـ أن العادة قد جرت بأن الولد يتوالد من ذكر وأنثى متجانسين، والله تعالى منزه عن المجانسة لشيء.

---

(١) الخازن. (٢) المراغي والبيضاوي.

٣ ـ أن الولد كفء للوالد، والله لا كفء له؛ لأن كل ما عداه فهو مخلوق له لا يكافئه، ولأن علمه ذاتي ولا كذلك غيره.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ إلى الموصوف بما تقدم من خلق السموات والأرض وإبداعهما، ومن أنه بكل شيء عليم، ومن أنه خلق كل شيء، فإذا[1] كانت هذه الصفات ملاحظة في اسم الإشارة.. حصل التكرار في قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إذ يصير المعنى: الذي خلق كل شيء، خالق كل شيء ويجاب بأن قوله فيما سبق، وخلق كل شيء؛ أي: في الماضي، كما تنبىء عنه صيغة الماضي، وبأن قوله هنا: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: مما سيكون، فلا تكرار، وهكذا أجاب أبو السعود، فاسم الإشارة: مبتدأ، واسم الجلالة: خبر أول، وربكم: خبر ثانٍ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثالث، و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ خبر رابع، والخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ موجه إلى المشركين الذين أقيمت عليهم الحجة؛ أي: ذلكم الموصوف بالصفات السابقة أيها المشركون من أنه خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سبق، وأنه بكل شيء عليم هو المعبود بحق في الوجود، ربكم ومالككم، المستحق منكم العبادة، لا من تدعون من دونه من الأصنام؛ لأنها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم، والله تعالى هو الخالق الضار النافع، لا معبود بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالى، خالق كل شيء ما كان وما يكون، وما عداه مخلوق له يجب أن يعبد خالقه، فكيف يعبد من هو مثله ويتخذه إلهاً. والفاء[2] في قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ لمجرد السببية من غير عطف، إذ لا يعطف الإنشاء على الخبر، وعكسه؛ أي: هو حكم ترتب على تلك الأوصاف، وهي علل مناسبة، فحيث وجدت وجد، وحيث فقدت فقد، وبما تقرر علم أنَّ فائدة ذكر خالق كل شيء في الآية بعد قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جعله توطئة لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، وأما قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فإنما ذكر استدلالاً على نفي الولد اهـ «كرخي».

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

أي: فبسبب كونه موصوفاً بالأوصاف السابقة ومستجمعا لها، وحدوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئاً من مخلوقاته، يعني: من كانت هذه صفاته.. فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه، ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى مع تلك الصفات الجليلة الشأن ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات ﴿وَكِيلٌ﴾؛ أي: رقيب على أعمالهم حافظ لها، فيجازيهم عليها، فيجب على كل مكلف أن يعلم أنه لا حافظ إلا الله، ولا مصلح للمهمات إلا الله، فحينئذ ينقطع طمعه عن كل ما سواه، ولا يرجع في مهم من المهمات إلا إليه تعالى، ويقال: أي: كفيل بأرزاق خلقه. وقيل: معناه موكول إليه جميع الأمور، متول عليها، يدبر ملكه بعلمه وحكمته، فيرزق عباده ويكلؤهم بالليل والنهار سراً وعلانية.

والخلاصة[1]: أنه لا حافظ إلا الله، ولا قاضي للحاجات إلا هو، فعلينا أن نقطع أطماعنا عن كل ما سواه، ولا نلجأ في المهمات إلا إليه سبحانه وتعالى.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ سبحانه وتعالى ولا تراه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ جمع بصر، وهو حاسة النظر، أي القوة الباصرة، وقد يقال: للعين من حيث إنها محلها، أي محلُّ الحاسة، أي لا تراه أبصار الخلائق في الدنيا، وبهذا يعلم أنه لا تنافي بين هذه الآية وبين الأحاديث الصحيحة الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة. فقد روي أنه ﷺ قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة، كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب» فالمؤمنون يرونه في الآخرة لهذه الأحاديث، ولقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. وأما الكافرون.. فهم يومئذ محجوبون عن ربهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

وقيل: معناه لا تراه الأبصار رؤية إحاطة تعرف بها كنهه وحقيقته عز وجل، وعلى هذا القول يكون نفي الإدراك على عمومه، فلا يحيط به بصر أحد لا في

---

(١) المراغي.

الدنيا ولا في الآخرة، لعدم انحصاره في بصرهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فصل في البحث عن رؤية اللّٰه سبحانه وتعالى

وفي «الخازن» قال[1]: جمهور المفسرين معنى الإدراك: الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته، والأبصار ترى الباري سبحانه وتعالى ولا تحيط به، كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به. وقال سعيد بن المسيب في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به الأبصار. وقال ابن عباس: كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به، وقد تمسك بظاهر هذه الآية قوم من أهل البدع، وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة، وقالوا: إن الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه، وإن رؤيته مستحيلة عقلاً؛ لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه، وإدراك البصر عبارة عن الرؤية، إذ لا فرق بين قولك أدركته ببصري، ورأيته ببصري، فثبت بذلك أن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بمعنى: لا تراه الأبصار، وهذا يفيد العموم. ومذهب أهل السنة: أن المؤمنين يرون ربهم في عرصات القيامة، وفي الجنة، وإن رؤيته غير مستحيلة عقلاً. واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة والإجماع من الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ إلى ربها ناظرة﴾ ففي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه في الآخرة إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: يرى الأبصار ويحيط بها، ويبلغ كنهها، لا تخفى عليه منها خافية، وخص[2] الأبصار بالذكر ليجانس ما قبله، وإلا فهو يدرك الأبصار وغيرها من الأشياء.

وقال الزجاج: في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار؛ أي: لا يعرفون كيفية حقيقة البصر، وما السبب الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه. انتهى. فاعلم أن خلقاً من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه، ولا يحيطون بعلمه، فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به، وهو اللطيف الخبير.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّطِيفُ﴾؛ أي: الخفي عن إدراك الأبصار له من اللطف بمعنى خفاء الإدراك، فيكون راجعاً لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أي: فيلطف عن أن تدركه الأبصار بحيث تخسأ الأبصار دون إدراك حقيقته. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾؛ أي: العالم بدقائق الأشياء ولطائفها، فلا يعزب عن إدراكه شيء، فيكون راجعاً لقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

والخلاصة: أنه يلطف عن أن تدركه الأبصار، ولكنه خبير بكل لطيف، وهو يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ لقوله آخره: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: قد جاءكم وأتاكم أيها الناس في هذه الآيات البينات بصائر كائنات من ربكم وخالقكم؛ أي: قد جاءتكم الحجج الكونية والبراهين العقلية في هذا القرآن، تثبت لكم عقائد الحق اليقينية التي عليها مدار سعادتكم في دنياكم وآخرتكم، تفضل بها عليكم ربكم الذي خلقكم وسواكم، وربىٰ أجسادكم، وأكمل مشاعركم، وقواكم، كما ربى أرواحكم وهذب نفوسكم، ومحص بها عقولكم حتى تصل إلى منتهى ما تسموا إليه النفوس البشرية من الكمال. والمراد بالبصائر هنا: الآيات الواردة في هذه السورة، أو القرآن بجملته، فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسباباً لحصول البصائر.. سميت بصائر. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾؛ أي: فمن عرف تلك الآيات وأبصر بها الحق وآمن وعمل صالحاً، ثم اهتدى ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فلنفسه أبصر واهتدى، وقدم الخير، وبلغ السعادة؛ أي: فمنفعة إبصاره لنفسه؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار. ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن تلك البصائر وكفر بها، وضل عن الحق وأعرض عن سبيله، وأصر على ضلاله تقليداً لآبائه وأجداده ﴿فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: فعلى نفسه عمي وجنى وأضر بها؛ أي: فمضرة ضلاله وكفره على نفسه، وكان وبال ذلك

العمى عليه؛ لأن الله تعالى غني عن خلقه. ونحو الآية قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾، وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم من أرسلت به إليكم، والله هو الحفيظ عليكم، ولا يخفى عليه شيء ما أعمالكم، فهو يعلم ما تسرون وما تعلنون، ويجزيكم عليه بما تستحقون، فعليه وحده الحساب، وما علي إلا البلاغ. وقيل: معناه: لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم. وقيل: معناه: لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ الوكيل، وهذا كان قبل الأمر بقتال المشركين، فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف، وعلى القولين الأولين ليست منسوخة، والله أعلم بمراده.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثل تصريفنا الآيات في غير هذه السورة ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ في هذه السورة؛ أي: ونبين دلائل قدرتنا ووحدانيتنا من الآيات التكوينية والبراهين العقلية في هذه السورة تبييناً مثل تبييننا إياها في غير هذه السورة. وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ معطوف على محذوف تقديره: وكذلك نصرف الآيات ونبينها ليهتدي بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام، وليقول الجاحدون المعاندون من المشركين في عاقبة أمرهم قد درست هذا القرآن من قبل، وتعلمت من أهل الكتاب، وليس هذا بوحي منزل كما زعمت، وقد قالوا هذا إفكاً وزوراً، فزعموا أنه تعلَّم من غلام رومي كان يصنع السيوف بمكة، وكان يختلف إليه كثيراً، وذلك ما عناه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾. وقال ابن الأنباري: معنى الآية: وكذلك نصرف الآيات لنلزمهم الحجة، وليقولوا درست، وإنما صرف الآيات ليسعد قوم بفهمها والعمل بها، ويشقى قوم آخرون بالإعراض عنها، فمن عمل بها.. سعد، ومن قال: درست.. شقي، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير». واللام في قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ لام العاقبة، وضابطها هي التي تدخل على شيء ليس مقصوداً من أصل الفعل، ولا حاملاً عليه، وفي قوله:

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ لام كي، وهي لام العلة، وضابطها: هي التي كان ما بعدها علة لما قبلها، والضمير فيه للآيات بتأويلها بالقرآن؛ أي: وكذلك نصرف الآيات ليهتدوا بها، وليقولوا درست، ولنبين تلك الآيات التي هي القرآن لقوم لديهم الاستعداد للعلم بما تدل عليه الآيات من الحقائق، وما يترتب على الاهتداء بها من السعادة دون أن يكون لديهم معارض من تقليد أو عناد.

والحاصل: أن لتصريف الآيات ثلاث فوائد:

١ ـ أن يهتدي بها المستعدون للإيمان.

٢ ـ وأن يقول الجاحدون: درست.

٣ ـ وأن نبينها لقوم يعلمون.

والحاصل: أنه علل تبيين الآيات بعلل ثلاث: أولاها محذوفة، واللام في الأولى والأخيرة لام العلة حقيقة بخلافها في الثانية، فهي لام العاقبة كما مرَّ آنفاً.

والخلاصة: أن الذين يقولون للرسول إنك درست هم الجاهلون الذين لم يفهموا تلك الآيات التي صرفها الله تعالى على ضروب مختلفة، ولم يفقهوا سرها وما يجب من إيثارها على منافع الدنيا، وأما الذين يعلمون مدلولاتها وحسن عاقبة الاهتداء بها.. فهم الذين يتبين لهم بتأملها حقيقة القرآن، وما اشتمل عليه من حسن التصرف المؤيد بالحجة والبرهان.

فصل

وفي ﴿دَرَسۡتَ﴾ قراءات[1]، قرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿دارست﴾ بألف بين الدال والراء وسكون السين وفتح التاء، كفاعلت، وهي قراءة علي وابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة، والمعنى عليها: دارست يا محمد أهل الكتاب ودارسوك؛ أي: ذاكرتهم وذاكروك. وقرأ ابن عامر ويعقوب وجماعة من غير السبعة: ﴿درست﴾ بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف، كخرجت

(١) البحر المحيط وزاد المسير والشوكاني.

مسنداً إلى ضمير الغائبة، وهي قراءة الحسن، والمعنى عليها: قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت وتكررت على أسماعهم حتى بليت وقدمت في نفوسهم. وقرأ باقي السبعة، وهم عاصم وحمزة والكسائي: ﴿درست﴾ كضربت، والمعنى عليها: درست يا محمد في الكتب القديمة، وتعلمت من أبي فكيهة وجبر ويسار. وسنبين هذا إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ في سورة النحل، وجميع من ذكرنا فتح الدال في قراءته. وقد روي عن نافع أنه قال: ﴿درست﴾ بضم الدال وكسر الراء وتخفيف التاء، وهي قراءة ابن يسر، ومعناها قرئت. وقرأ أبي بن كعب: ﴿درست﴾ بفتح الدال والسين وضم الراء وتسكين التاء.

قال الزجاج: وهي بمعنى: درست بفتحات؛ أي: أنمحت ومضت، إلا أن المضمومة الراء أشد مبالغة. وقرأ معاذ القارىء وأبو العالية ومورق: ﴿درست﴾ بضم الدال وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين. وقرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرف وابن عباس وأبي والأعمش: ﴿درس﴾ بفتح الراء والسين بلا ألف ولا تاء؛ أي: قرأ محمد. وروى عصمة عن الأعمش: ﴿دارس﴾ بألف. وروي عن الحسن: ﴿درسن﴾ مبنياً إلى المفعول، مسنداً إلى النون؛ أي: درست الآيات، وكذا هي في مصاحف عبد الله. وقرأت فرقة: ﴿درسن﴾ بتشديد الراء مبالغة في درسن. وقرىء: ﴿دارسات﴾؛ أي: هي قديمات، أو ذات درس كعيشة راضية. وقرىء: ﴿درست﴾ بالتشديد والخطاب؛ أي: درست الكتب القديمة. وقرىء: ﴿درست﴾ مشدداً مبنياً للمفعول المخاطب. وقرىء: ﴿دورست﴾ بالتخفيف والواو مبنياً للمفعول، والواو مبدلة من الألف في دارست. وقرأت فرقة: ﴿دارست﴾؛ أي: دارستك الجماعة الذين تتعلم منهم، وجاز الإضمار لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لأهلها؛ أي: دارس أهل الآيات، فهذه خمس عشرة قراءة في هذه الكلمة. وقرأت طائفة منهم المبرد: ﴿وليقولوا﴾ بسكون اللام على جهة الأمر المتضمن للتوبيخ والتهديد؛ أي: وليقولوا ما شاءوا، فإن الحق بين. وقرأ الجمهور بكسرها، وقالوا: هذه اللام هي التي تضمر أن بعدها، والفعل منصوب بأن المضمرة، وهي لام كي.

تتمة: في معنى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ أي[1]: وليقول بعضهم: ذاكرت يا محمد أهل الأخبار الماضية، فيزداد كفراً على كفر. وذلك لأن النبي ﷺ كان يظهر آيات القرآن نجماً نجماً، والكفار كانوا يقولون: إن محمداً يضم هذه الآيات بعضها إلى بعض يتفكر فيها، ويصلحها آية فآية، ثم يظهرها، ولو كان هذا بوحي نازل إليه من السماء.. فلم لم يأت بهذا القرآن دفعة واحدة، كما أن موسى عليه السلام أتى بالتوراة دفعة واحدة؛ أي: فإن تكرير هذه الآيات حالاً بعد حال هي التي أوقعت الشك للقوم في أن محمداً ﷺ إنما يأتي بهذا القرآن على سبيل المدارسة مع التفكر والمذاكرة مع أقوام آخرين.

وبعد أن بين سبحانه لرسوله أن الناس في شأن القرآن فريقان: فريق فسدت فطرتهم، ولم يبقَ لديهم استعداد لهديه، ولا للعلم بما فيه من تصريف الآيات، ومن ثم كان نصيبهم منه الجحود والإنكار، وفريق آخر اهتدى به، وعمل بما فيه.. أمره أن يتبع ما أوحي إليه من ربه بالبيان له، والعمل به، فقال: ﴿اتبع﴾ يا محمد ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ما أنزل إليك من ربك؛ أي: ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، وهو القرآن، فاعمل به وبلغه إلى عبادي، ولا تلتفت إلى قول من يقول: دارست أو درست، ولا تتبع أهوائهم. وفي قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تعزية لقلب النبي ﷺ، وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم: درست. ونبه[2] بقوله سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أنه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له، وإذا كان كذلك.. فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين، وزيغ الزائعين. وهذه الجملة معترضة لا محل لها من الإعراب، أكد بها إيجاب اتباع الوحي، أو حال مؤكدة من ﴿رَبِّكَ﴾. ﴿واعرض﴾ يا محمد ﴿عَنِ﴾ استهزاء ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وشركهم الذين يستهزئون بك، ولا تبال بهم واتركهم ولا تقاتلهم في الحال حتى يأتيك الأمر بقتالهم، فيكون الأمر بالإعراض منسوخاً بآية السيف على هذا المعنى، أو

(١) المراح.
(٢) الخازن.

المعنى: اتركهم في الحال لا على الدوام، فيكون غير منسوخ.

وحاصل معنى الآية: أي[1] اتبع ما أوحي إليك لتزكي نفسك، وتكون إماماً لأبناء جنسك، فإن الاقتداء لا يتم إلا بمن يعمل بما يعلمه ويأتمر بما يُؤمر به، ثم قرن ذلك باعتقاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فالخالق المربي للأشباح بما أنزل من الرزق، وللأرواح بما أنزل من الوحي، هو المعبود الواحد الذي لا شريك له، المجازي على الأعمال التي لا تقبل شفاعة ولا فداء. ثم أمره بعدئذ بالإعراض عن المشركين بأن لا يبالي بإصرارهم على الشرك ولا بمثل قولهم: درست؛ لأن الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الإخلاص، ولا يضره الباطل بتزيينه بزخارف الأقوال، ولا بالانكباب على خرافات الأعمال، ثم هون عليه أمر الإعراض عنهم فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى توحيدهم وعدم إشراكهم لـ﴿مَآ أَشْرَكُواْ﴾ بأن يخلق البشر كلهم مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق، ومضت سنته بأن يكونوا مختارين في أعمالهم وفي كسبهم لعلومهم وأعمالهم، وجعل منها الخير والشر، وإن كانت غرائزهم وفطرهم كلها خيراً.

والمعنى[2]: لا تلتفت يا محمد إلى سفاهات هؤلاء المشركين الذين قالوا لك: إنما جمعت هذا القرآن من مذاكرة الناس، ولا يثقلن عليك شركهم، فإنا لو أردنا إزالة الشرك عنهم.. لقدرنا، ولكنا تركناهم مع كفرهم، فلا ينبغي أن تشغل قلبك بكلماتهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء المشركين ﴿حَفِيظًا﴾؛ أي: رقيباً، ولا حافظاً من جهتنا تحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم عليها وتجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: وما أنت بحافظ ولا قيم عليهم من جهتم تقوم

(١) المراغي.

(٢) المراح.

بأرزاقهم وتتولى أمورهم وتتصرف فيها. والمعنى[١]: أنك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب، وإنما بعثت مبلغاً، فلا تهتم بشركهم، فإن ذلك بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة[٢]: أنه ليس لك ما ذكر من الوصفين كما يكون ذلك لبعض الملوك بالقهر أو التراضي، بل أنت بشير ونذير، والله هو الذي يتولى جزاءهم وحسابهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: ولا تشتموا أيها المؤمنون الأصنام التي كان المشركون يعبدونها ويدعونها من دون الله تعالى لجلب نفع لهم، أو دفع ضر عنهم بوساطتها وشفاعتها لهم عند الله تعالى ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾؛ أي: فيتسبب عن ذلك سب المشركين لله تعالى ﴿عَدْوًا﴾؛ أي: ظلماً ملتبساً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: بجهل بالله تعالى ليغيظوا المؤمنين، ولينتصروا لآلهتهم لشدة غيظهم لأجلها، فيخرجوا عن حال الاعتدال إلى ما ينافي العقل، كما يقع من بعض المسلمين إذا اشتد غضبه وانحرف، فإنه قد يلفظ بما يؤدي إلى الكفر نعوذ بالله من ذلك.

والمعنى: ولا تسبوا الأصنام التي كان المشركون يدعونها من دون الله، فيسبوا الله للظلم بغير علم بما يجب في حقه عليهم؛ لأنهم جهلة بالله تعالى؛ لأن بعضهم كان يقول بالدهر ونفي الصانع. قال[٣] قتادة: كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله، فإنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل انتهى. وإنما نهوا عن سب الأصنام وإن كان مباحاً لما ينشأ عن ذلك من المفاسد، وهو سب الله وسب رسوله، فظاهر الآية كان نهياً عن سب الأصنام، وحقيقتها النهي عن سب الله تعالى؛ لأنه سبب لذلك، وفي ذلك دلالة على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة. . وجب تركها، فإن ما يؤدي إلى الشر شر.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

وقيل معنى الآية[1]: ولا تسبوا أيها المؤمنون من يعبدون الأصنام من حيث عبادتهم لآلهتهم، كأن تقولوا: تباً لكم ولما تعبدون من الأصنام مثلاً، فيسبوا رسول الله ﷺ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل بجهالة منهم بما يجب عليهم، فإن الصحابة متى شتموهم.. كانوا يشتمون رسول الله ﷺ، فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله تعالى؛ لأن الكفار كانوا مقرين بالله تعالى، وكانوا يقولون: إنما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله تعالى.

تنبيه: وفي هذه الآية دليل[2] على أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد، كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه، وفعلوا غيره من المنكرات عناداً للحق، وبغضاً لأتباع المحقين، وجرأة على الله سبحانه وتعالى، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة، وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق.. وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة.. قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين، المتهاونون بالشرائع، وهم شر من الزنادقة؛ لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام وتحاماهم أهله، وقد ينفق كيدهم ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سد الذرائع، وقطع التطرق إلى الشبه.

وقرأ[3] الحسن وأبو رجاء وقتادة ويعقوب وسلام وعبد الله بن يزيد:

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

﴿عدوا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، وهو مصدر لعدا؛ لأنه يقال: عدا يعدو وعَدْواً وعدواناً وعُدُواً، وهي قراءة أهل مكة. وقرأ غيرهم بفتح العين وسكون الدال وتخفيف الواو. ومعنى القراءتين واحد؛ أي: ظلماً وعدواناً. وقرأ بعض المكيين ـ وعينه الزمخشري، فقال: عن ابن كثير ـ: بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو؛ أي: أعداء، وهو منصوب على الحال المؤكدة، وعدو يخبر به عن الجمع كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ ومعنى بغير علم: على جهالة بما يجب لله تعالى أن يذكر به، وهو بيان لمعنى الاعتداء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم كافرهم ومؤمنهم ﴿عَمَلَهُمْ﴾ من كفر وإيمان وشر وخير ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وتزيينه هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أو الشر، والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان: هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء ﴿ثُمَّ﴾ بعد موتهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ بالبعث للمجازاة ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: يخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الطاعات والمعاصي التي لم ينتهوا عنها، ولا قبلوا من المرسلين ما أرسلهم الله به إليهم، وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم.

والخلاصة[1]: أن سننا في أخلاق البشر قد جرت بأن يستحسنوا ما يجرون عليه ويتعودونه، سواء كان مما عليه أباؤهم، أو مما استحدثوه بأنفسهم إذا صار ينسب إليهم، وسواء أكان ذلك عن تقليد وجهل، أم عن بينة وعلم.

ومن هذا يعلم أن التزيين أثر لأعمالهم الاختيارية بدون جبر ولا إكراه، لا أن الله خلق في قلوب بعض الأمم تزييناً للكفر والشر، وفي قلوب بعضها تزييناً للإيمان والخير من غير أن يكون لهم عمل اختياري نشأ عنه ذلك، وإلا كان الإيمان والكفر، والخير والشر من الغرائز الخلقية التي تعد الدعوة إليها من العبث الذي يتنزه الله تعالى عن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجله، وكان عمل الرسل

---

(١) المراغي.

والحكماء والمؤدبين الذين يؤدبون الناس عملاً لا فائدة فيه.

والخلاصة: أن تزيين الأعمال للأمم سنة من سنن الله جل شأنه، سواء في ذلك أعمالها وعاداتها وأخلاقها الموروثة والمكتسبة. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ثم إلى ربهم ومالك أمرهم رجوعهم ومصيرهم بعد الموت وحين البعث لا إلى غيره؛ إذ لا رب سواه، فينبئهم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر، ويجزيهم عليه ما يستحقون، وهو تعالى بهم عليم. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: وأقسم هؤلاء المشركون المعاندون بأوكد الأيمان وأشدها مبالغة، وكان إقسامهم بالله غاية في الحلف، وكانوا يقسمون بأبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمر عظيماً... أقسموا بالله تعالى، والمعنى: حلفوا غاية حلفهم وأوكده ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من الآيات الكونية مما اقترحوه كقلب الصفا ذهباً. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الآية بأنها من عند الله تعالى، وأنك رسول من لدنه. وفي هذا إيماء إلى أنهم بلغوا غاية العتو والعناد؛ إذ هم لم يعدوا ما يشاهدونه من المعجزات من نوع الآيات، ومن ثم اقترحوا غيرها، وما كان غرضهم من ذلك إلا التحكم في طلب المعجزات وعدم الاعتداد بما شاهدوا من البينات.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿ليؤمنن بها﴾ مبنياً للمفعول وبالنون الخفيفة. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ والمعجزات التي من جنسها ما اقترحتموه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وحده، فهو القادر عليها والمتصرف فيها، يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته وقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فلا يمكنني أن أتصدىٰ لإنزالها بالاستدعاء والطلب. روي أن قريشاً اقترحوا بعض آيات، فقال رسول الله ﷺ: «فإن فعلت بعض ما تقولون.. أتصدقونني»؟ فقالوا: نعم، وأقسموا لئن فعلت لنؤمنن، فسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها طمعاً في إيمانهم، فهم رسول الله ﷺ بالدعاء، فنزلت الآية: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: وما يعلمكم أيها المؤمنون الذين تمنوا مجيء الآية ليؤمنوا، والنبي ﷺ منهم بدليل همه بالدعاء ورغبته في ذلك. والاستفهام فيه إنكاري

بمعنى النفي، وفي الكلام حذف أيضاً؛ أي: وأي شيء يدريكم ويعلمكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون، والمعنى: أنه ليس لكم شيء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبي الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب، وهو أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية.

وقرأ قوم بسكون ضمة الراء في[1]: ﴿يشعركم﴾، وقرىء باختلاسها. وأما الخطاب، فقال مجاهد وابن زيد: هو للكفار. وقال الفراء وغيره: المخاطب بها المؤمنون. وقرأ أبو عمرو وابن كثير والعليمي والأعشى عن أبي بكر وعاصم في رواية داود الإيادي: أنها بكسر الهمزة. وقرأ باقي السبعة بفتحها. وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿لا تؤمنون﴾ بتاء الخطاب. وقرأ باقي السبعة بياء الغيبة. فيتحصل من هذا المذكور أربع قراءات:

الأولى: كسر الهمزة والياء، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر - بخلاف عنه في كسر الهمزة - وهذه قراءة واضحة، أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون ألبتة على تقدير مجيء الآية، وتم الكلام عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ومتعلق ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ محذوف؛ أي: وما يشعركم ما يكون، فإن كان الخطاب للكفار.. كان التقدير: وما يشعركم ما يكون منكم، ثم أخبر على جهة الالتفات بما علمه من حالهم لو جاءتهم الآيات. وإن كان الخطاب للمؤمنين.. كان التقدير: وما يشعركم أيها المؤمنون ما يكون منهم، ثم أخبر المؤمنين بعلمه فيهم.

القراءة الثانية: كسر الهمزة والتاء، وهي رواية العليمي والأعشى عن أبي بكر عن عاصم، والمناسب أن يكون الخطاب في هذه القراءة للكفار، كأنه قيل: وما يدريكم أيها الكفار ما يكون منكم، ثم أخبرهم على جهة الجزم أنهم لا يؤمنون على تقدير مجيئها، ويبعد جداً أن يكون الخطاب في: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للمؤمنين، وفي: ﴿لا تؤمنون﴾ للكفار.

والقراءة الثالثة: فتح الهمزة والياء، وهي قراءة نافع والكسائي وحفص

---

(١) البحر المحيط.

فالظاهر أنَّ الخطاب للمؤمنين، والمعنى: وما يدريكم أيها المؤمنون أن الآية التي تقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها، يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأنتم لا تدرون ذلك، وكان المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية، ويتمنون مجيئها، فقال: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى: إنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون.

القراءة الرابعة: فتح الهمزة والتاء، وهي قراءة ابن عامر وحمزة، والظاهر أنه خطاب للكفار، ويتضح معنى هذه القراءة على زيادة ﴿لا﴾؛ أي: وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت، كما أقسمتم عليه انتهى. من «البحر المحيط» بالتقاط واختصار.

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ في هذه[1] الجملة وجهان:

أحدهما: أنها وما عطف عليها من قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ عطف على ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ داخل في حكم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: وما يشعركم أيها المؤمنون أنّا نقلب أفئدتهم وقلوبهم ونحولها ونصرفها عن إدراك الحق، فلا يفهمونه ﴿و﴾ أنا نقلب ﴿أبصارهم﴾ عن اجتلاء الحق ورؤيته، فلا يبصرونه، فلا يؤمنون بالآية التي اقترحوها إذا جاءت ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾؛ أي: كما لم يؤمنوا بما جاء به محمد ﷺ من الآيات ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: قبل نزول مقترحهم من الآيات السابقة على اقتراحهم، كانشقاق القمر؛ أي: كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ مثل انشقاق القمر وغير ذلك من الآيات الباهرات، وتكون حالهم حينئذ كحالهم الأولى في عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات، وقيل: في الكلام حذف تقديره: فلا يؤمنون به ثاني مرة، كما لم يؤمنوا به أول مرة، وتقليب الأفئدة والأبصار الطبع والختم عليها. ﴿و﴾ ما يشعركم أنَّا ﴿نذرهم﴾ ونتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وضلالهم حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويترددون في الطغيان متحيرين، والعمه: التردد في الأمر من الحيرة فيه، والطغيان: تجاوز

---

(١) الفتوحات.

الحد؛ أي: إنا ندعهم يتجاوزون الحد في الكفر والعصيان، ويترددون متحيرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات محدثين أنفسهم: أهذا هو الحق المبين، أم السحر الذي يخدع عيون الناظرين؟ وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين، أو المكابرة والجدل كبراً وأنفة من الخضوع لمن يرونه دونهم؟ وإنما أسنده الخالق إلى نفسه لبيان سننه الحكيمة في ربط المسببات بأسبابها، فرسوخهم في الطغيان الذي هو غاية الكفر والعصيان، هو سبب تقليب القلوب والأبصار؛ أي: الختم عليها، فلا تفقه ولا تبصر.

والوجه الثاني من الوجهين: أن جملة قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها. قال الصاوي: قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ استئناف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله سبحانه وتعالى لا غيره، فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له، ومن أراد شقاوته حول قلبه لها انتهى. وفي الآية[1] دليل على أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه، فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها، ومنه قوله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». فمعنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ نزيغها عن الإيمان، ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب، وإن جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها، كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فعلى هذا يكون الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ عائداً على الإيمان بالقرآن، وبما جاء به رسول الله ﷺ قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها. قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون إلى الحق.

وقرأ[2] النخعي: ﴿ويقلب﴾ و﴿يذرهم﴾ بالياء فيهما، والفاعل ضمير الله. وقرأ أيضاً فيما روي عنه مغير الصيغة: ﴿وتقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ بالرفع فيهما على البناء للمفعول، ﴿ويذرهم﴾ بالياء وسكون الراء، وافقه على ﴿ويذرهم﴾

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

الأعمش والهمداني. وقال الزمخشري: وقرأ الأعمش: ﴿وتقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ على البناء للمفعول.

الإعراب

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾: معطوف على ﴿ٱلْحَبِّ﴾. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾: فعل ومفعول. ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إن﴾ أو مستأنفة. ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾: معطوف على ﴿يُخْرِجُ﴾ إن قلنا: إن جملته خبر ثان لـ﴿إن﴾، ومعطوف على ﴿فَالِقُ﴾ إن قلنا: إن جملة ﴿يُخْرِجُ﴾ مستأنفة، فهي معترضة حينئذ. ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ متعلق بـ﴿مخرج﴾. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدّر تقديره: إذا عرفتم أن ذلك الصانع هو المستحق بالعبادة والألوهية، وأردتم بيان ما يستحقه حالكم من التعجب.. فأقول لكم: ﴿أنى﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تُؤْفَكُونَ﴾. ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويصح أن تكون الفاء استئنافية.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾: خبر رابع لـ﴿أن﴾، ومضاف إليه. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع معطوفة على ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ على كونها خبر لـ﴿أن﴾. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلَّيْلَ﴾. ﴿حُسْبَانًا﴾: معطوف على ﴿سَكَنًا﴾، ففيه العطف على معمولي عامل

واحد. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿تَقْدِيرُ﴾: خبر. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾؛ لأن ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: خلق يتعدى لمفعول واحد. ﴿لِتَهْتَدُوا۟﴾: اللام: لام كي. ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بِهَا﴾: متعلق به. ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تهتدوا﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لاهتدائكم بها في ظلمات البر والبحر، والجار والمجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، فإن قيل: كيف يتعلق حرفا جر متحدان في اللفظ والمعنى بعامل واحد فالجواب: أن الثاني بدل من الأول بدل اشتمال بإعادة العامل. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿فَصَّلْنَا﴾، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنشَأَكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول. ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿أنشأ﴾. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: الفاء: عاطفة تفصيلية. ﴿مستقر﴾: مبتدأ خبره محذوف تقديره: فمستقر كائن لكم على قراءة فتح القاف، وعلى قراءة كسرها: فمنكم مستقر، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية، أعني: جملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ على كونها تفصيلاً لها. ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: مبتدأ خبره محذوف أيضاً تقديره: ومستودع لكم، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة.

﴿لِقَوۡمٖ﴾: متعلق به. ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿مَآءٗ﴾: مفعول به لـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾: الفاء: حرف عطف وترتيب. ﴿أخرجنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أخرجنا﴾. ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾: الفاء: حرف عطف وترتيب. ﴿أخرجنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أخرجنا﴾، لأن العاطف هنا مرتب. ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق بـ﴿أخرجنا﴾. ﴿خَضِرٗا﴾ مفعول ﴿أخرجنا﴾. ﴿نُّخۡرِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنۡهُ﴾: متعلق به. ﴿حَبّٗا﴾ مفعول به لـ﴿نُّخۡرِجُ﴾. ﴿مُّتَرَاكِبٗا﴾: صفة ﴿حَبّٗا﴾، وجملة ﴿نُّخۡرِجُ﴾ في محل النصب صفة ﴿خَضِرٗا﴾، ولكنها سببية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِن طَلۡعِهَا﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله بدل بعض من كل. ﴿قِنۡوَانٞ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿دَانِيَةٞ﴾: صفة له، والجملة الاسمية معترضة لاعتراضها بين المعطوف الذي هو جنات، والمعطوف عليه الذي هو نبات كل شيء. ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾: معطوف على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ منصوب بالكسرة. ﴿مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جنات﴾. ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ معطوفان على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جرياً على القاعدة المشهورة عندهم، من أنه إذا تكررت المعطوفات، وكان العطف بالواو.. يكون على الأول، ولو كثرت المعطوفات، وإن كان العطف بمرتب.. يكون الكل معطوفاً على ما قبله كما مر قريباً في ﴿أخرجنا﴾، كما ذكرناه في «الباكورة الجنية على متن الأجرومية» نقلاً

عن الحامدي. ﴿مُشْتَبِهًا﴾: حال من ﴿الزيتون والرمان﴾؛ أي: حالة كونهما مشتبهاً ورقهما، وقيل: حال من ﴿الرمان﴾ فقط. ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾: معطوف على مشتبهاً؛ أي: حالة كونهما غير متشابه ثمرهما.

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة متسأنفة. ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿أَثْمَرَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على كل ما ذكر من الأشجار، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾، والظرف متعلق بـ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾، والتقدير: انظروا إلى ثمره وقت إثماره. ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾: معطوف على ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ مجرور بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ أي: وانظروا إلى ينعه إذا أدرك.. تروا أمراً عجيباً دالاً على باهر قدرته. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾. ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿أيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾. ﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿جعل﴾. ﴿ٱلْجِنَّ﴾: مفعول أول، والتقدير: وجعلوا الجن شركاء لله. ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من الجلالة على تقدير: قد. ﴿وَخَرَقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَجَعَلُواْ﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خرقوا﴾. ﴿بَنِينَ﴾: مفعول به. ﴿وَبَنَٰتٍۭ﴾: معطوف عليه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿وَخَرَقُواْ﴾؛ أي: حالة كونهم ملتبسين بجهالة وغير علم. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: سبح نفسه بذاته تسبيحاً، ونزهه تنزيهاً من كل ما لا يليق به، والجملة

مستأنفة. ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تعالى﴾. ﴿يَصِفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما يصفونه به.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وهو تعالى بديع السموات. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى: كيف، في محل النصب على التشبيه بالحال، أو بالظرف، والعامل فيه ﴿يَكُونُ﴾. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع تام. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَلَدٌ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، فلا نطيل الكلام بإيرادها. ﴿وَلَمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع تام مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُۥ﴾: متعلق به ﴿صَـٰحِبَةٌ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾. ﴿وَخَلَقَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿خَلَقَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر أول، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثانٍ ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِلَـٰهَ﴾ في محل النصب اسم ﴿لَآ﴾، وخبر ﴿لا﴾ محذوف تقديره: موجود، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ثالث. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾ في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾ المحذوف. ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: خبر رابع ومضاف إليه. ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: الفاء:

سببية كما في «الجمل». ﴿اعبدوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، وإن شئت قلت: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم كونه خالق كل شيء، وأردتم بيان ما يلزمكم.. فأقول لكم: اعبدوه، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿وَكِيلٌ﴾. ﴿وَكِيلٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ كما في «الجمل».

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿اللَّطِيفُ﴾: خبر أول. ﴿الْخَبِيرُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جاء﴾، أو صفة لـ﴿بَصَائِرُ﴾. ﴿فَمَنْ﴾: الفاء: عاطفة تفصيلة. ﴿من﴾: اسم شرط، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿أَبْصَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لنفسه﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فإبصاره كائن لنفسه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿قَدْ جَاءَكُم﴾ على كونها مفصلة لها﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في

محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿عَمِيَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَعَلَيْهَا﴾: الفاء: رابطة الجواب. ﴿عليها﴾: جار ومجرور خبر مبتدأ محذوف تقديره: فعماه عليها، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَمَآ أَنَا﴾: ﴿ما﴾: حجازية. ﴿أنا﴾: في محل الرفع اسمها ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿حفيظ﴾. ﴿بِحَفِيظٍ﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية معطوفة على جملة: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف منصوب بـ﴿نُصَرِّفُ﴾. ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، والتقدير: ونصرف الآيات في غير هذه السورة تصريفاً مثل تصريفنا في هذه السورة. ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. اللام: حرف جر وعاقبة. ﴿يقولوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة. ﴿دَرَسْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿يقولوا﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولقولهم درست، الجار والمجرور معطوف على جار ومجرور محذوف تقديره: وكذلك نصرف الآيات لاهتداء المهتدين، ولقوله الجاحدين بها في عاقبة أمرهم: درست. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لنبينه﴾ اللام لام كي. ﴿نبينه﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق به. وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿نبين﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: ولتبييننا إياه لقوم يعلمون، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ٱتَّبِعْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة.

﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول به ﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أوحي﴾ أيضاً، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَعْرِضْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ﴾. ﴿عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعرض﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: عدم إشراكهم، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَآ﴾: نافية ﴿أَشْرَكُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ﴾: نافٍ وفعل وفاعل ومفعول أول. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حفيظا﴾. ﴿حَفِيظًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لو﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿وكيل﴾. ﴿بِوَكِيلٍ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ...﴾ إلخ مؤكدة لها؛ لأنها عينها.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونهم: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ضمير العائد المحذوف، أو من الموصول. ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿يسبوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿عَدْوًۢا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والتقدير: سباً عدواً، أو على الحالية، أو على كونه مفعولاً لأجله. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال مؤكدة من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم متعادين ملتبسين بغير علم، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع

صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن سبكم آلهتهم، فسبهم الله عدواً بغير علم.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف منصوب بـ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿زَيَّنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿عَمَلَهُمْ﴾: مفعول ﴿زَيَّنَّا﴾ والتقدير: زينا لكل أمة من الأمم عملهم تزييناً مثل تزيينا لهؤلاء المشكرين شركهم، والجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿ينبئهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾: ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبئهم﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يعملونه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: مفعول مطلق ومضاف إليه. ﴿لَئِن﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم مؤكدة للأولى. ﴿يؤمنن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلق به، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم من جواب القسم تقديره: إن جاءتهم آية يؤمنون بها، وإنما جعلنا المذكور جواب القسم لسبقه على الشرط كما هو القاعدة المقررة عندهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من

الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿الْآيَاتُ﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: استفهامية للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾. ﴿أَنَّهَا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، الهاء: اسمها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَاءَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿الْآيَاتِ﴾، والجملة في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد المفعول الثاني لـ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾، والتقدير: وما يشعركم إيمانهم وعدم إيمانهم وقت مجيء تلك الآيات؛ أي: لا تدرون ذلك، هذا على قراءة الفتح لـ﴿أن﴾، وأما على قراءة الكسر: فهي مستأنفة، وفي المقام أوجه من الإعراب لا نطيل الكلام بذكرها.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾: معطوف على ﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على كونها معمولة لـ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم أو مستأنفة. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: الكاف: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿لَمْ﴾ حرف جزم. ﴿يُؤْمِنُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق

بـ﴿يؤمنوا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم تقليباً مثل عدم إيمانهم به أول مرة. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لم يؤمنوا﴾. ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نذرهم﴾، أو متعلق بـ﴿يعمهون﴾. وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿نذرهم﴾ أو من ضمير ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾، أو في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نذر﴾؛ لأن الترك بمعنى التصيير، فيتعدى إلى مفعولين، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ يجوز أن تكون الإضافة محضة على أنه اسم فاعل بمعنى الماضي؛ لأن ذلك قد كان، ويدل عليه قراءة عبد الله ﴿إن الله فلق الحب والنوى﴾ فعلاً ماضياً. ويجوز أن تكون الإضافة غير محضة على أنه بمعنى الحال أو الاستقبال، وذلك على حكاية الحال، فيكون الحب مجرور اللفظ منصوب المحل، والفلق، وكذا الفرق والفتق: هو شق الشيء، وقيده الراغب بإبانة بعضه عن بعض. والحب: هو الذي ليس له نوى كالحنطة والشعير. والنوى: واحدها نواة، وهي ما يكون في داخل التمر والزبيب.

﴿والإصباح﴾ ـ بكسر الهمزة ـ: مصدر أصبح الرجل إصباحاً إذا دخل في الصباح، وفي «المصباح»: الصبح: الفجر، والصباح مثله، وهو أول النهار، والصباح أيضاً خلاف المساء، وأصبحنا: دخلنا في الصباح اهـ. وفي «السمين»: الجمهور على كسر الهمزة، وهو المصدر، يقال: أصبح يصبح إصباحاً. وقال الليث والزجاج: إن الصبح والصباح والإصباح واحد، وهو أول النهار. وقيل: الإصباح: ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل: هو إضاءة الفجر، نقل ذلك عن مجاهد. والظاهر أن الإصباح في الأصل مصدر سمي به الصبح. وقرأ الحسن وأبو رجاء وعيسى بن عمر:

﴿الأصباح﴾ بفتح الهمزة، وهو جمع: صبح نحو: قفل وأقفال، وبرد وأبراد. اهـ.

﴿سَكَنًا﴾ السكن: السكون وما يسكن فيه من مكان كالبيت، وزمان كالليل، وما يسكن الإنسان ويطمئن إليه استئناساً به من زوج أو حبيب. وفي «المصباح»: والسكن: ما يسكن إليه من أهل ومال وغير ذلك، وهو مصدر سكنت إلى الشيء من باب طلب.

﴿حُسْبَانًا﴾ والحسبان ـ بضم الحاء ـ: مصدر حسب كالحسبان بالكسر، فكل من مضموم الحاء ومكسورها مصدر حسب كالحساب، فلهذا الفعل ثلاثة مصادر. وفي «المصباح»: حسبت المال حسباً من باب قتل أحصيته عدداً، وفي المصدر أيضاً حسبة بالكسر، وحسباناً بالضم، وحسبت زيداً قائماً أحسبه من باب تعب في لغة جميع العرب إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون المضارع مع كسر الماضي أيضاً على غير قياس حسباناً بالكسر بمعنى ظننت اهـ. والحساب: استعمال العدد في الأشياء والأوقات.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ والمستقر: موضع القرار والإقامة، يقال: قر في مكانه واستقر، فمن كسر القاف.. قال: المستقر بمعنى القار، ومن فتحها.. جعله مكان استقرار. وأما المستودع: فيجوز أن يكون اسماً للإنسان استودع ذلك المكان، وذلك على قراءة الكسر، ويجوز أن يكون المكان نفسه؛ أي: المستودع فيه؛ أي: موضع الوديعة، والوديعة: هي ما يتركه المرء عند غيره ليأخذه بعد، ولكن المستودع هنا بفتح الدال لا غير، لكن على قراءة الكسر في مستقر يكون معنى مستودع شيء مودوع، وهو النطفة في الصلب. وعلى قراءة الفتح يكون معنى مستودع مكان استيداع، وهو الصلب نفسه ذكره في «الفتوحات».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وأصل ماء: ماه، والهاء خفية، والألف كذلك، فأبدل من الهاء همزة؛ لأن الهمزة جلدة، فأصله: موه، فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها.. قلبت ألفاً، فصار: ماء، ذكره العلامة النحاس في «إعراب القرآن».

﴿خَضِرًا﴾: اسم فاعل من خضر من باب فعل المكسور العين، يقال: خضر الشيء فهو خضر وأخضر كعور فهو عور وأعور، فخضر وأخضر بمعنى، والخضر من النبات: الغض الناضر الطري.

﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ المتراكب: ما تراكب حبه بعضه فوق بعض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ والنخل والنخيل: واحدهما نخلة، والنخل: شجر التمر، وفي «الفتوحات»: النخل: اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ والطلع: أول ما يخرج منها قبل انشقاق الكيزان، فيقال له في هذه الحالة طلع، فإذا انشقت عنه الكيزان سمي عذقاً، وهو القنو. والقنوان: جمع تكسير، مفرده: قنو كصنو وصنوان، وهذا الجمع يلتبس بالمثنى حالة الوقف، فإذا قلت: عندي قنوان، وسكنت النون.. لا يدرى أنه مثنى أو جمع، ويمتازان بتحريك النون، فنون المثنى مكسورة دائماً، ونون هذا الجمع تتوارد عليها الحركات الثلاث بحسب الإعراب، ويمتازان أيضاً في النسب، فإذا نسبت إلى المثنى رددته إلى المفرد، فقلت: قنوي، وإذا نسبت إلى الجمع.. أبقيته على حاله؛ لأنه جمع تكسير فقلت: قنواني، ويمتازان أيضاً في الإضافة، فنون المثنى تسقط لها بخلاف نون الجمع التكسير، فتقول في المثنى: هذان قنواك، وفي الجمع: هذه قنوانك، ويقال مثل هذا في صنوان مثنى وجمعاً.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ وقال الزجاج: قرن الزيتون بالرمان؛ لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره. قال الشاعر:

بُوْرِكَ ٱلْمَيْتُ ٱلْغَرِيْبُ كَمَا بُوْ رِكَ نَضْجُ ٱلرُّمَّانِ وَٱلزَّيْتُوْنْ

﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ والينع: مصدر ينع بكسر النون يينع بفتحها، فهي مكسورة في الماضي مفتوحة في المضارع، ويصح العكس، والمصدر على كل حال: ينع بوزن منع، والينع بالفتح و الضم مصدر ينعت الثمرة إذا نضجت، والفتح لغة أهل الحجاز، والضم لغة أهل نجد، ويقال: والمعنى: انظروا إلى ثمره إذا أثمر رقيقاً مستدقاً، وإلى ينعه ونضجه حين يينع ويبدو صلاحه وينضج.. وفي «المختار»:

ينع الثمر إذا نضج، وبابه ضرب و جلس وقطع وخضع انتهى.

﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ يقال: خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها إذا ابتدعها كذباً. وقال الراغب الخرق: قطع الشيء على سبيل الفساد، قال تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ والخلق فعل الشيء بتدبير ورفق، والبدع بكسر أوله والبديع: الشيء الذي يكون أولاً، ومنه: البدعة في الدين. وقال الراغب: الإبداع: إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء، والبديع من أسمائه تعالى.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر: جمع بصيرة، ولها عدة معان: منها: عقيدة القلب، والمعرفة الثابتة باليقين، والعبرة، والشاهد المثبت للأمر، والحجة، والقوة التي تدرك بها الحقائق العلمية، ويقابلها البصر الذي تدرك به الأشياء الحسية، والمراد بها هنا: الآيات الواردة في هذه السورة، أو القرآن بجملته. وفي «القاموس»: البصر محركاً: حس العين، والجمع أبصار مثل سبب وأسباب، ومن القلب: نظره وخاطره، والبصير: المبصر - والجمع بصراء - والعالم، وبالهاء: عقيدة القلب والفطنة والحجة اهـ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: نأتي بها متواترة حالاً بعد حال مفسرين لها في كل مقام بما يناسبه.

﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ يقال: درس الشيء يدرس من باب نصر إذا عفا وزال، فهو دارس ودرسته الريح وغيرها، ودرس اللابس الثوب درساً إذا أخلقه وأبلاه، فهو دريس، ودرسوا القمح إذا داسوه ليتكسر فيفرق بين حبه وتبنه، ودرس الناقة إذا راضها، ودرس الكتاب والعلم يدرسه درساً ودراسة ومدارسة؛ أي: ذلله بكثرة القراءة حتى خف وسهل عليه حفظه من ذلك، والمعنى العام للدرس: تكرار المعالجة وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به، أو يصل إلى الغاية منه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: حلفوا، وسُمي الحلف قسماً؛ لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب، والجهد بفتح الجيم: المشقة، وبضمها: الطاقة، ومنهم من يجعلهما بمعنى واحد، وانتصب ﴿جهد﴾ على النيابة عن المصدر المنصوب. بـ﴿أقسموا﴾؛ أي: أقسموا جهد إقساماتهم، والأيمان

بمعنى: الإقسامات كما تقول: ضربت أشد الضربات.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ وفي «المصباح»: عمه في طغيانه عمهاً من باب تعب إذا تردد متحيراً مأخوذ من قولهم: أرض عمهاء إذا لم يكن فيها أمارات تدل على النجاة، فهو عمه وأعمه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾، وفي قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، وفي قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾، وفي قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ من الغيبة إلى التكلم، وكان قياس ما قبله: فأخرج به، والنكتة في هذا الالتفات الاعتناء بشأن المخرج، والإشارة إلى أن نعمه عظيمة.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿ٱلْحَىَّ﴾ و﴿ٱلْمَيِّتِ﴾، وبين: ﴿الشمس﴾ و﴿القمر﴾، وبين: ﴿ٱلْبَرِّ﴾ و﴿البحر﴾، وبين لفظ: ﴿أَبْصَرَ﴾ و﴿عمي﴾.

ومنها: من المحسنات البديعية ما يسمى: رد العجز على الصدر في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري الذي بمعنى النفي في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: لا وجه لصرفكم عن الإيمان بعد قيام البرهان.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ لمزيد الشرف؛ لأنهما من أعظم النعم.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظ ﴿يُخْرِجُ﴾ و﴿مخرج﴾، وبين لفظ: ﴿بَصَآئِرُ﴾ و﴿أَبْصَرَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ من باب الإطلاق اسم السبب على المسبب؛ أي: حجج وبراهين؛ لأن البصائر جمع بصيرة، والبصيرة: هي النور الذي تبصر به النفس؛ أي: الروح، كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين، فأطلق البصائر التي هي الأنوار القلبية التي هي السبب في إدراك الحجج والبراهين على تلك الحجج التي تسبب عنها، والعلاقة السببية.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾؛ أي: لا تدركه الأبصار: لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار، لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكثيف، وهو الذي لا يدرك بالحاسة، ولا ينطبع فيها. انتهى من «البيضاوي».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ومن عَمي﴾؛ لأنه استعار العمى للضلال، وإنما عبر عن الضلال بالعمى تقبيحاً له وتنفيراً عنه.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى من تفسير الجزء السابع من القرآن الكريم، فالحمد لله على توفيقه، والشكر له على تيسيره حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين، ويملأ ما في السموات والأرضين عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.
وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد الثامن في اليوم الخامس منتصف النهار من شهر الله المبارك ذي الحجة من شهور سنة تسع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية بحارة الرشدة من المسفلة من مكة المكرمة زادها الله تعالى شرفاً، وختم عمرنا فيها، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وآله وصحبه وجنده، والحمد لله رب العالمين آمين. =

ولقد أجاد من قال:

وَلِبَنِيْ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ سَنَهْ ... مَعْذِرَةٌ مَقْبُوْلَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ

وَإنْ تَجِدْ عَيْبَاً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ ... وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ مُسَبِّبِ ٱلأَسْبَابِ ... عَلَىٰ مَا وَفَّقَنَا بِشَرْحِ ٱلْكِتَابِ

شَرْحَاً يُسَمَّىٰ حَدَائِقَ ٱلرَّوْحَانِ ... مُشْتَمِلاً عَلَىٰ عُلُوْمِ ٱلْقُرْآنِ

= تم تصحيح هذه النسخة من هذا المجلد الثامن بيد مؤلفه في آخر الساعة الأولى من يوم الإثنين اليوم الخامس عشر من شهر الربيع الثاني من شهور سنة ألف وأربع مئة وعشرة ١٤١٠ هـ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

تم بعون الله سبحانه وتعالى المجلد الثامن من تفسير «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن»، ويليه المجلد التاسع، وأوله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ آية رقم: ١١١ من آيات سورة الأنعام.



الفهرس